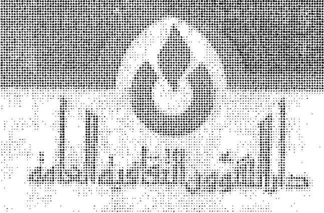
سامراء

عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

الجزء الاول

احمد عبدالباقي



وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

الطبعة الاولى ـ ١٩٨٩



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة . « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة:
الدكتور محسن جاسم الموسوي
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان ـ بغداد ـ اعظمية
ص.ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

سامرا
عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

أحمد عبد الباقي

الجزء الاول

الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٩

فهرست كتاب سامرا عاصمة الدولة العربية

في عهد العباسيين

الباب السادس : الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

الفصل الأول : الفتن الكبرى

الفصل الثاني : الاضطرابات الاخرى

الباب السابع : خلفاء سامرا والمحنة

الفصل الاول : المعتزلة وأهل السنة

الفصل الثاني : المعتصم بالله والمحنة

الفصل الثالث : المحنة في عهد الواثق بالله

الفصل الرابع : نهاية المحنة

الباب الثامن : علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

الفصل الاول : الحروب بين العرب والروم

الفصل الثاني : المفاداة بين العرب والروم

الفصل الثالث : العلاقات الثقافية والتجارية بين العرب والروم

الباب التاسع : الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

الفصل الاول : امارة بني الاغلب

الفصل الثاني : امارة الطاهريين

الفصل الثالث : امارة بني طولون

الفصل الرابع : امارة الصفارين

الباب العاشر : مجالس خلفاء سامرا

الفصل الأول : مجالس المعتصم بالله

الفصل الثاني : مجالس الواثق بالله

الفصل الثالث : مجالس المتوكل على الله

الفصل الرابع : مجالس خلفاء سامرا الآخرين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

هناك قسم من تاريخ الدولة العربية في عهد العباسيين يؤلف وحدة تاريخية كاملة ، امتدت من سنة ٢٢١هـ حتى سنة ٢٧٩هـ ، كانت فيه مدينة سامرا حاضرة الخلافة الاسلامية • وهذه المدينة التي انشئت لتكون عاصمة الخلافة في ايام المعتصم بالله ثامن الخلفاء من بني العباس ، شاء لها القدر ان تكون عاصمة لامبراطورية من اعظم الامبراطوريات التي ظهرت على مسرح التاريخ • فقد امتدت الامبراطورية العربية من سواحل المحيط الأطلسي غربا حتى تخوم الصين شرقا ورغم اختلاف اجناس رعاياها واختلاف السنتهم ، وقيام بعض الامارات شبه المستقلة على اطرافها المتباعدة ، فقد كانت ولاياتها جميعا مرتبطة برباط الدين الاسلامي والحضارة العربية وتخضع كلها لخليفة سامرا • وكما يقول المستشرق الهولندي كرامرز « انها كانت تؤلف كتلة دينية واحدة فضلا عن وحدة سياسية متينة العرى متراصة البنيان ، جمعت بينها قوة السلاح ، وجعلت سكانها يقفون في العالم كأعظم قوة مركزية عرفها البشر » • [تراث الاسلام / ١٢٥]

ونستطيع ان نعتبر تأسيس مدينة سامرا اهم اعمال المعتصم بالله وابقاها اثراً • وتقوم هذه الأهمية على ما تطلبه تأسيسها من

تصميم مسبق ، وجهد كبير متواصل ، ومال وفير ، ومـا لعبتـه العاصمة الجديدة من دور مهم في مسيرة الحضارة العربية خلال الشطر الاكبر من القرن الثالث • وقد تيسر للمعتصم بالله ان ينهض بذلك العمل العظيم بما وهب من حب للعمران ، وللجندية والحياة العسكرية ، وما توفر له من المال • وقد اختار المكان المناسب للمدينة من حيث حسن الجو والمناخ ، وتوفر المياه ، وحصـانة الموقـع • وخططها بما يسد احتياجات عسكره من الأتراك ، ومتطلبات الحياة المدنية • ووزع الاعمال الانشائية المطلوبة لتأسيس المدينـة على قواده وكبار رجاله بما كفل سرعة انجازها • ولم يبخل ببذل ما احتاجه لذلك من الاموال • فاستطاع ان يقيم مدينة واسعة كاملة المرافق في خلال مدة وجيزة تعتبر قياسية ـ اذ ابتدأ ببنائها في سنة (٢٢١هـ) وتم انجازها في اواخر السنة التالية ـ • ومع ان الصفة العسكرية غلبت على مؤسساتها ومرافقها عند تأسيسها ، اذ كـان معظم سكانها في اول أمرها من الجند الأتراك الذين كانـوا اهـم أسباب تأسيسها ، بحيث اطلق عليها اسم « العسكر » • الا انها مـا لبثت ان قصدها اصناف الناس واستوطنوها باعتبارهـا حـاضرة الخلافة • ولم تمض مدة يسيرة على تأسيسها حتى غدت من أمهات مدن الدنيا آنذاك • وقد أقدم اليها الخليفة نفسه من كل بلد من يعمل عملا من الاعمال ، او يعالج مهنة من مهن الزرع والغـرس ، وحمل من سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة فانزلهم في المدينة وأقطعهم فيها لبناء منازل لهم • فاتسعت عمارة المدينـة واتصلـت بيوتها وقصورها واسواقها ، وانتقل اليها عدد كبير من وجوه الناس واهل النباهة من سائر المدن والأمصار لطيب جوها وحسن موقعها وعمارتها •

الا ان المدينة لم تلبث ان امتد اليها الخراب عنـدما اسـتقـل الخليفة المعتضد بالله عائداً الى بغداد في سنة (٢٧٩هـ) بحيث لم يبق منها بعد ستين قلائل سوى اطلالها • غير ان هذه الاطلال حفظت لنا

طيلة عدة قرون اسس الابنية الفخمة التي كانت فوقها مما ساعد الآثاريين على استكشاف كثير من معالمها وتحديد الشوارع الرئيسة وكثير من القصور ودور السكن وثكنات الجيش ، التي كانت فيها • والتعرف على الأسس الفنية والمعمارية التي قام عليها تخطيط المدينة وعمرانها • اذ كشفت الحفريات والتنقيبات الحديثة من المعلومات عن البناء والزخرفة ما يعطي فكرة جلية عن جمال الحضارة العربية الاسلامية التي أفاءت على العالم آنذاك ، والتي تمثلت في تلك المدينة الخالدة •

ومع أهمية سامرا عاصمة الدولة العربية في ازهى عصورها ودورها الكبير في بناء الحضارة العربية ، فانها لم تنل ما تستحقه من عناية المؤرخين واهتمامهم • فقد أقام بها عدد من الخلفاء كان لهم اثر مهم في تاريخها ، ووقعت في ايامها احداث جسام تركت آثارها العميقة على مسيرة الدولة العربية • وكان عهدها عهد القمم من اعلام الرجال ممن تفخر بهم في مختلف ميادين العلم والأدب • فقد عاصرها الامام أحمد بن حنبل الشيباني ، واماما الحديث محمد ابن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري ، والمورخ الفقيه العالم محمد بن جرير الطبري ، والمؤرخ البلداني احمد بن اسحاق اليعقوبي • واماما اللغة والنحو المبرد محمد بن يزيد وثعلبه احمد ابن يحيى الشيباني ، وعميد ادباء عصره عمرو بن بحر الجاحظ ، والشاعران العبقريان ابو تمام والبحتري ، وفيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي ، وابرز اطباء عصرهم يوحنا بن ماسويه ويختيشوع بن جبرائيل وحنين بن اسحاق ، وآخرون كثيرون • كما تميز عهد سامرا باحداث خطيرة ، منها ان الدولة العربية بلغت اوج قوتها حينما هدد المعتصم بالله في سنة (٢٢٣ هـ) مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بعد ان اجتاح قواعد الروم وحصونهم وافتتح عمورية أهم مدنهم • كما قضت الدولة العربية في هذا العهد على خطرين تعرضت لهما هما حركة بابك الخرمي وفتنة الزنج •

وفي هذا العهد ايضا ظهرت نتائج تتريك الجيش العربي ، اذ طغى القواد الأتراك وتسلطوا على شؤون الدولة وبخاصة منذ ايام المتوكل على الله حتى ايام المعتمد على الله حينما استطاع اخوه الموفق المهيمن على شؤون الخلافة ان يكبح جماحهم الى حين • وكان ابرز مظاهر تسلط الاتراك استبدادهم بالخلفاء وقد قتلوا اربعة منهم وخلعوا ثلاثة من الخلافة •

ويظهر ان ما أصاب سامرا من اهمال كان سببه الرئيس سرعة خرابها بعد عودة عاصمة الدولة الى مدينة السلام التي استعادت مكانتها في التاريخ العربي الاسلامي • وعسى ان نوفق في تلافي بعض هذا الاهمال بما سنعرضه في الصفحات التالية من تاريخ الدولة العربية في عهد سامراء في مختلف جوانبه • ونرجو ان تكون المواضيع التي تناولنا بحثها وعرضها بشيء من التفصيل كافية لأن تعطي صورة واضحة عن التاريخ المذكور بما يتفق والمركز الذي شغلته مدينة سامرا ما يزيد على نصف قرن كانت فيه حاضرة الخلافة الاسلامية وعاصمة الدولة العربية •

وقد جاء هذا البحث في عشرة أبواب ، يضم كل منها عدداً من الفصول يتناسب وطبيعة المواضيع التي يتضمنها الباب وسعتها • فكان الباب الأول خاصا بتأسيس سامرا وعمرانها ، وقد اشتمل على منشآت المعتصم بالله فيها ، وسامرا في عهد المتوكل على الله ، وتأسيسه المدينة المتوكلية «الجعفرية» ، وسامرا بعده ، والعودة الى بغداد وهجر سامرا ، ثم دور السكن في المدينة . والزخارف التي اشتهرت بها • واشتمل الباب الثاني على دراسة خلفاء سامرا من حيث المبايعة وولاية العهد مع نبذة مختصرة عن سيرة كل منهم لاسيما ما يتعلق منها بالدولة والمجتمع • وخصص الباب الثالث لدراسة مؤسسات الدولة العربية في عهد سامرا فضم دراسة عن الوزارة والكتابة والقضاء • اما الباب الرابع فقد تناول علاقة

خلفاء سامرا بالاتراك وما قام بين الطرفين من صراع ومظاهر ذلك الصراع وما انتهى اليه • وخصص الباب الخامس لموقف العلويين من خلفاء سامرا • واشتمل الباب السادس على دراسة الفتن والاضطرابات التي واجهت خلفاء سامرا ، الكبرى منها كحركة الخرمية وفتنة الزنج ، والمؤامرات التي استهدفت الخلافة ، والاضطربات الاخرى التي كانت أقل خطراً رغم تعددها • وضم الباب السابع موضوع المحنة التي آثارها المعتزلة وموقف خلفاء سامرا منها • واختص الباب الثامن بدراسة علاقات الدولة العربية بمملكة الروم فشمل الحروب والمفادات والعلاقات التجارية والثقافية بين الطرفين في خلال عهد سامرا • واشتمل الباب التاسع على الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا من حيث ادارة شؤونها وعلاقاتها بالخلافة • وخصص الباب العاشر لمجالس خلفاء سامرا العلمية والادبية منها ومجالس الأنس والسمر •

وقد انتهجنا في دراستنا هذه اسلوبا يختلف عن الطريقة التي الفناها في كتابة التاريخ العربي • وهو اسلوب لا يهتم بالاشخاص قدر اهتمامه بالاحداث التاريخية من حيث اسبابها ونتائجها ومسرح حدوثها • اي ان الاحداث هي محور الدراسة والبحث وليس الاشخاص • وحاولنا جهد استطاعتنا ان نلم بتفاصيلها ومكوناتها لنضع امام القارىء صورة جلية لذلك العهد متمثلة بمجريات الاحداث التي وقعت خلاله ، وما أحاط بها من الظروف المختلفة التي أدت بها الى ان تسير في الاتجاه الذي صارت اليه ، مع دراسة آثارها على المجتمع آنذاك • فعرضنا ذلك بشكل وحدات « ابواب » تتناول مواضيع تكوّن بمجموعها تاريخه • ومن الواضح ان دراسة الوقائع التاريخية بشكل وحدات تساعد

على فهمها بمختلف جوانبها ، رغم امتداد زمنها ، وما نشأ عنها من نتائج ، مما يجعلها متكاملة واضحة • ونحسب ان هـذا الاسـلوب سيعطي من الصور عدداً اكثر ومن الشمول والوضوح مجالا اوسع ، مما توفره الطريقة التقليدية في عرض المادة التاريخية ، لاسيما ان هذا الاسلوب يتيح مجالا رحبا للتعرف على مختلف جوانب حيـاة الدولة العربية برمتها آنذاك • تلك الجوانب التي لا تنال الاهتمام الكافي في الطريقة التقليدية •

وقد راعينا في دراستنا بعض الاسس التي التزمنا بهـا فـي مختلف الابواب ، اهمها : ١ ــ الحرص على التأكيد على عروبة عهد سامرا والتطور الحضاري خلاله ، باعتباره امتدادا للدولة العربية التي قامت في المدينة المنورة اثر هجرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم اليها وامتدت حتى منتصف القرن السابع الهجري • اذا لم تعد كلمة العرب بمعناها الواسع تقتصر على سكان بلاد العرب فقط ، بل انها شملت جميع الامم والشعوب التي حمل العرب اليها الدين الاسلامي ، واتخذت من العربية لغة لها ، وانضوت تحت راية الدولة العربية ، ومن ثم كانت الحضارة التي ازدهرت آنذاك وآتت اكلها في القرن التالي حضارة عربية • ٢ ــ ومما له علاقة بذلك اجتهدنا ان نكشف عن اسباب وضع بعض الأخبار بصيغة معينة ، او تحريفها بشكل او بآخر ، وبخاصة ما يتعلق بمحاولة الحط من شأن العـرب وقادتهم • مما كان يدُسّه اعداء الأمة العربية في ثنايا الوقـائـع والاخبار • ٣ ــ والتزمنا جهد الاستطاعة بلغة العصر واسـلوبه السائد في عهد سامرا من حيث التعابير والمصطلحات والمحتوى دون ان نتوسع بالاستعانة بالمعارف الحديثة وذلك للحفاظ على التراث اللغوي ، وتقديم صورة صادقة عن العهد المذكور من جهة ، وللتمتع بنكهة ذلك الاسلوب من التعبير المتميز بقدر كبير من الفصـاحـة والبلاغة • ٤ ــ وقد أرّخنا جميع الاحداث والوقـائـع بالتاريخ العربي «الهجري» لانسجام ذلك مع طبيعة الموضوع • على اننـا

وضعنا في آخر الكتاب جدولا بما يقابل السنوات الهجرية الواردة فيه من السنوات الميلادية، تسهيلا لمن يريد معرفة ذلك • ٥ ـ وعند البحث في سيرة الخلفاء اجتهدنا ان نتحرى رعايتهم للمصالح العامة في اعمالهم وتصرفاتهم ، واهتمامهم بكل ما له علاقة بالدولة والمجتمع ، لنتبين مدى ما قدموه في خلال حكمهم مما يثبت اركان الدولة وما بذلوه لصالح النفع العام ، ولرفع ما يلحق الناس من عنت وارهاق •

واننا لا نستطيع ان ندعي بأن هذه الدراسة قد حققت ما نصبو اليه من اعادة مدينة سامرا الى المركز الذي تستحقه في التاريخ العربي • الا اننا نأمل ان تكون قد القت بعض الضوء على ذلك واوضحت دور سامرا في تطور الحضارة العربية ، وذلك حسبنا ، والله تعالى من وراء القصد انه نعم المولى ونعم النصير •

المؤلف

الباب الأول

تأسيس سامرا وعمرانها

١ ـ تأسيس سامرا

٢ ـ منشآت المعتصم بالله في سامرا

٣ ـ سامرا في عهد المتوكل على الله

٤ ـ تأسيس مدينة المتوكلية (الجعفرية)

٥ ـ سامرا بعد المتوكل على الله

٦ ـ العودة الى بغداد وهجر سامرا

٧ ـ دور السكن في سامرا

٨ ـ زخارف سامرا

الباب الأول

تأسيس سامرا وعمرانها

الفصل الأول

تأسيس سامرا

١ ــ اسباب الانتقال من بغداد :

لما قدم المعتصم بالله بغداد من طرسوس بعد ان بويع بالخلافة في سنة (٢١٨هـ) نزل دار المأمون في الجانب الشرقي من بغداد ، واقام حتى سنة (٢٢١هـ) ، وكان معه عدد كبير من الجند الاتراك • ويجمع قدامى المؤرخين على ان الجند الاتراك ، الذين توسع الخليفة المعتصم بالله في استخدامهم في الجيش العربي ، وقد اشتدت شوكتهم ، كانوا اهم الاسباب التي دفعته الى الانتقال من العاصمة بغداد وان يتخذ له عاصمة جديدة غيرها • يقول اليعقوبي : « وكان اولئك الاتراك العُجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يمينا وشمالا فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضا ويضربون بعضا ، وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك • فثقل ذلك على المعصتم وعزم على الخروج من بغداد » (١) ، اي انه خرج بهم ليحميهم من العامة •

---

(١) كتاب البلدان / ٢٥٦ •

ويقول الطبري : « حدثني جعفر بن محمد الفراء ان سبب خروج المعتصم الى القاطول كان ان غلمانه الاتراك كانوا لايزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلا في ارباضها ، وذلك انهم كانوا عُجما جفاة يركبون الدواب ، فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي ، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ، فربما هلك من الجراح بعضهم ، فشكت الأتراك ذلك الى المعتصم ، وتأذت بهم العامة • فذكر انه رأى المعتصم راكبا منصرفا من المصلّى في يوم عيد اضحى او فطر ، فلما صار في مربعة الحرشي(٢) ، نظر الى شيخ قد قام اليه فقال له : يا ابا اسحاق ، قال : فابتدره الجند ليضربوه ، فاشار اليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ : مالك : قال : لا جزاك الله عن الجوار خيرا ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فاسكنتهم بين اظهرنا فايتمت بهم صبياننا ، وارملت بهم نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا • والمعتصم يسمع ذلك كله • قال : ثم دخل داره فلم يُر راكبا الى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم • فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلى بالناس العيد ، ثم لم يرجع الى منزله ببغداد ، ولكنه صرف وجه دابته الى ناحية القاطول ، وخرج من بغداد ولم يرجع اليها » (٣) •

وما ذكره ابن الأثير لا يخرج عما ذكره الطبري (٤) • ويقول المسعودي : « وكانت الاتراك تؤذي العوام في مدينة السلام بجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان اهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة او شيخ كبير او صبي

(٢) كذا في الاصل ، والصحيح الخرسي ــ دليل خارطة بغداد المفصل/١٢٢ ، وبغداد في عهد الخلافة العباسية / ١٩٠ •

(٣) الطبري ٩/١٨ •

(٤) الكامل ٦/٤٥٢ •

او ضرير . فعزم المعتصم على النقلة منهم » (٥) . ويقــول ايضـا بنفس المعنى « وكان السبب في ذلك ان اهلها كرهوه وتأذوا بجواره حين كثر عبيده من الاتراك وغيرهم من الاعاجم ، لما كانوا يلقونه منهم ومن غلظتهم ، وربما وثبت العامة على بعضهم فقتلوه لصدمهم اياهم في حال ركضهم ، فأحب التنحي بهم والانفراد عن مدينـــة السلام » (٦) .

ويقول الخطيب البغدادي : « ولكثرة عسكر المعتصم وضـيق بغداد عنه وتأذى الناس به ، بنى المعتصم سر من رأى وانتقل اليها فسكنها بعسكره » (٧) .

ويضيف مسكويه على ما ذكره الطبري « وحكـي انه قـام الى المعتصم يوما رجل من العامة فقال : يا ابا اسحاق اخرج عن مدينتنا والا حاربناك بما لاتقوم له ، فتقدم باخذ الرجل وحمله اليه ، فلما صار بين يديه ، قال : ويلك بمن تحاربني وما هذا الذي لا قوام لي به ؟ قال : نحاربك باصابعنا اذا هدأت العيون بالليـــل ، يعنــي الدعاء . فسكت عن الرجل ولم يعرض له ، ثم خرج فبنى سر من رأى » (٨) .

وذكر صاحب العيون والحدائق « ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم وكثر غلمانه الأتراك » (٩) .

وجاء في تذكرة ابن حمدون ما يفيد بان الجند الاتراك اخذوا يتحرشون بالنساء والصبيان مما اغضب الناس عليهم ، اذ يقول :

---

(٥) مروج الذهب ٤/٥٣ .
(٦) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .
(٧) تاريخ بغداد ٣/٣٤٦ .
(٨) تجارب الأمم ٦/٤٧٨ ـ ٤٧٩ .
(٩) العيون والحدائق ٣/٣٨١ ـ ٣٨٢ .

« كان سبب خروج المعتصم ان غلمانه الاتراك كثروا ببغداد فتولعوا بحرم الناس واولادهم ، فاجتمع اليه جماعة منهم وقالوا : يا امير المؤمنين ما احد احب الينا مجاورة منك لأنك الامام والمحامي عن الدين ، وقد افرط علينا امر غلمانك ، فاما منعتهم منا واما نقلتهم عنا . فقال : نقلهم لا يكون الا بنقلي ، ولكني افتقدهم وازيل ما شكوتم منه . فنظروا فأذا الامر قد عظم وزاد . وخاف ان تقع بينهم حرب . وعاودوه بالشكوى وقالوا : ان قدرت على نصفتنا والا فتحول عنا . فقال : أتحول وكرامة ، ورحل الى سر من رأى »(١٠) .

ويذكر مثل هذا ياقوت الحموي فيقول : « ان جيوش المعتصم كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الاتراك سبعين الفا ، فمدوا ايديهم الى حرم الناس وسعوا فيها بالفساد . فاجتمع العامة ووقفوا للمعتصم وقالوا : يا امير المؤمنين ما شيء احب الينا من مجاورتك لأنك الحامي للدين ، وقد افرط علينا امر غلمانك وعمنا اذاهم ، فاما منعتهم عنا او نقلتهم عنا . فقال : اما نقلهم فلا يكون الا بنقلي ولكني افتقدهم وانهاهم وازيل ما شكوتم منه . فنظروا واذا الأمر قد زاد وعظم . وخاف منهم الفتنة ووقوع الحرب . وعاودوه بالشكوى وقالوا : **ان قدرت على نصفتنا والا فتحول عنا ، والا** حاربناك بالدعاء وندعو عليك بالاسحار . فقال : هذه جيوش لا قدرة لي بها ، نعم اتحول وكرامة ، وساق من فوره حتى نزل سامراء» (١١) .

ويقول مثله ابن الطقطقي ايضا « ان المعتصم استكثر المماليك فضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس ، وزاحموهم في دورهم وتعرضوا بالنساء فكان في كل يوم ربما قتل منهم جماعة . فركب المعتصم يوما فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم : يا ابا اسحاق ، فاراد

---

(١٠) تذكرة ابن حمدون ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(١١) معجم البلدان ٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥ .

الجند ضربه فمنعهم المعتصم ، وقال له : مالك ياشيخ ؟ فقال : لا جزاك الله خيرا عن الجوار ، جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فاسكنتهم بيننا فايتمت صبياننا وارملت نساءنا والله لنقاتلنك بسهام السحر ، يعني الدعاء ، والمعتصم يسمع ذلك • فدخل منزله ولم يُرَ راكبا الا في يوم مثل ذلك اليوم ، فركب وصلى بالناس العيد ، وسار الى موضع سامرا فبناها(١٢) •

ولخص ابن دحية ما ذكره من سبقه من المؤرخين الا انه اشار الى سبب آخر من اسباب نقمة العامة على الجند هو النزول عليهم في مساكنهم قسراً ، وهو امر لم يألفه العرب ، فيقول : « ان العامة شكوا اليه من الجند والنزول عليهم في المساكن والتعرض بهم ، فقال له بعض صلحاء المحدثين : يا أمير المؤمنين اني لا آمن عليك ان يقاتلك العامة ، فقال له : ولم تقاتلني العامة ، ومن يحملها على ذلك وانا في هذا العسكر العظيم ؟ فقال له : يقاتلونك بسهام الليل ورفع الايدي الى الله تعالى في المساجد • فركب في الحال وتخير موضع سر من رأى على دجلة » (١٣) •

لا ريب في ان ضيق العاصمة بغداد بجند المعتصم بالله لكثرتهم، وتخلفهم الحضاري عن سكان المدينة ، وما ترتب من النتائج السيئة عن احتكاكهم بالناس وتعديهم عليهم ، ووقوع الاذى بين الطرفين بحيث ضاق كل منهما ذرعا بالآخر ، وحرص المعتصم بالله على ان لا يغضب اهل بغداد ، وهي حاضرة الدولة العربية وكبرى مدنها ، وقد شعر بانتشار روح النقمة والتذمر بينهم ، وخشية من أن يؤدي ذلك الى قيام فتنة لا يريدها ، مما جعله يقرر عزل الجيش بثكناته واصطبلاته بعيداً عن بغداد • ومما يؤيد ذلك الطريقة التي

---

(١٢) الفخري / ٢١١ •
(١٣) النبراس / ٦٥ •

انتهجها في اسكانهم عندما بنى مدينة سامرا ، اذ حرص على ان يكونوا معزولين بمناطق سكناهم عن بقية الناس ٠

ان ما استعرضناه مما ذكره المؤرخون عن أسباب انتقال المعتصم بالله من بغداد يدور كله حول ضيق أهل بغداد بجنده من الاتراك وشكاواهم المتكررة من تصرفاتهم وتعدياتهم ، وشكوى الجند انفسهم من اعتداء الناس عليهم ٠ على ان هناك سببا آخر ورد ذكره على لسان المعتصم بالله نفسه، يُستنتج منه انه لم يكن مطمئناً الى الحربية من جيشه ، وهم العرب ، لانهم كانوا قد تلكأوا في مبايعته واظهروا ميلهم الى العباس بن المأمون ٠ ويقول أحد كتابه وهو ابو الوزير احمد بن خالد : « بعثني المعتصم بالله في سنة (٢١٩هـ) وقال لي : يا احمد اشتر لي بناحية سامرا موضعا ابني فيه مدينة ، فاني اتخوف ان يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلماني ، حتى اكون فوقهم فان رابني منهم ريب اتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم » (١٤) ٠

ويروي ابن الطقطقي هذا السبب بالشكل الآتي « ان المعتصم خاف من ببغداد من العسكر ولم يثق بهم فقال : « اطلبوا لي موضعا اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به ، فان رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان آتيهم في البر وفي الماء » (١٥) ٠ مما يستدل منه انه كانت هناك فئات اخرى في الجيش تنقم على المعتصم بالله ، الى جانب العرب ، لاعتماده على الجند الاتراك وثقته بولائهم له ٠

وهناك سبب ثالث لخروج المعتصم بالله من بغداد ذكره صاحب « الذخائر والتحف » وصاحب « الهفوات النادرة » والسيوطي ٠ ومع ما تضمنه الخبر من اوهام ومبالغة ، فان خلاصته ان المعتصم

---

(١٤) الطبري ٩/١٧ ، والكامل ٦/٤٥١ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٤

(١٥) الفخري / ٢١١ ٠

بالله كان قد فرغ من بناء قصره في الميدان ببغـداد فجلس للنـاس فيه ، فأستأذنه اسحاق الموصلي في الانشاد ، فأذن له ، فأنشده شعراً كان اول بيت فيه :

يا دار غيرك البلى فمحاك　　　ياليت شعري ما الذي ابلاك

فتشاءم المعتصم من ذلـك وتطير به ، وتغامز الناس وعجبوا كيف ذهب هذا على اسحاق مع فهمه وعلمه · وان المعتصم باللـه خرج الى سر من رأى وخرب القصر (١٦) ·

ونستطيع ان نضيف الى ما ذكرناه من الاسباب التـي دفعـت المعتصم بالله الى الانتقال من بغداد ، سببا آخـر يتعلق بشخصيته نفسه · فقد كان ذا نزعة عسكرية يعتز كثيراً بجيشه ، وقد اراد ان تكون له عاصمة خاصة به وبجيشه مقتديا بجده ابي جعفر المنصور وبغيره من الملوك العظام · وان مقابلته رهبان الدير الذي كان في موقع سامرا قبل بنائها ، وما دار بينه وبينهم من حديث حول اسم الموضع وتاريخه ، يؤكد رغبته في ان يبني مدينة خاصة به ينزلها هو وينزلها اولاده من بعده(١٧) ·

وقد كان لانتقال عاصمة الدولة العربية من مدينة السلام الى سامرا نتائج مهمة · فقد اقيمت العاصمة الجديدة بتصاميم وخطط متقدمة اتاحت فرص العمل لعدد كبير من ذوي الحرف المتعلقـة بالبناء والعمران · وكان قيام سامرا بموجب هـذه التصاميـم والخطط فرصة لبروز الفن العمراني العربي بزخارفه المبتكـرة مما يعتبر من مفاخر الحضارة العربية · وادى الانتقال الى سامرا الى قيام مركز حضاري جديد مهم الى جانب بغداد ، كانت المنافسة العمرانية والعلمية التي قامت بينهما خير مشجع على التقدم في

---

(١٦) الذخائر والتحف / ١٢٩ ـ ١٣٠ ، والهفوات النادرة / ١٧ ـ ١٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٣٧ ·

(١٧) كتاب البلدان / ٢٥٧ ·

مضمار الحضارة وبخاصة في النواحي العلمية منها • مما ساعد على أزدهار الحضارة العربية فبلغت ذروتها خلال القرن التالي الذي اعتبر ازهى عصورها • هذا بالاضافة الى تخلص سكان مدينة بغداد من عبث الجند الاتراك وعنتهم •

على ان هذه النتائج الايجابية لانتقال المعتصم بالله الى عاصمته الجديدة ، قد صحبتها نتائج سلبية أثرت على مسيرة الدولة العربية آنذاك • وكان اهم تلك النتائج استفحال امر الاتراك • فقد ساعدتهم الطريقة التي اتبعت في اسكانهم في سامرا على التقارب والتآلف فيما بينهم مما ولد في نفوسهم شعوراً بقوتهم واهميتهم في الدولة • فعملوا على زيادة نفوذهم ، واتساع تدخلهم في شؤونها • فأشتد الصراع بينهم وبين الخلفاء مدة استغرقت الجزء الاكبر من عمر العاصمة الجديدة • اذ فقد الخلفاء خلالها سلطانهم وغدا كبار القواد الاتراك هم الحكام الفعليين لانهم قد استولوا ، منذ مقتل المتوكل على الله ، على شؤون الدولة واموالها ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاءوا ابقوه وان شاءوا خلعوه او قتلوه (١٨) • مما جعل الخلفاء يحاولون الانتقال الى مدينة اخرى او العودة الى بغداد للتخلص من سيطرة اولئك القواد ونفوذهم • مما سنعرض لتفصيلاته في فصول قادمة • وهكذا عاد المعتمد على الله الى بغداد في اواخر ايامه ، حتى تولى المعتضد بالله في سنة ٢٧٩هـ فهجر سامرا • وبذلك انتهى الدور السياسي للمدينة التي قدر لها ان تلعب دورا مهما في التاريخ العربي •

٢ ـ اختيار موضع سامرا :

بعد ان استقر رأي المعتصم بالله على ان الانتقال بعساكره من بغداد امر لابد منه اخذ يتقرى مكانا تتوفر فيه المواصفات المطلوبة

(١٨) الفخري / ٢٢٠ •

لاقامة مدينة له ومعسكر لجيشه ، من حيث السعة وتوفر المياه ووسائل الحماية الكافية · فخرج الى الشماسية شمالي بغداد · وقد اعتاد المأمون في ايام خلافته ان يخرج اليها ويقيم فيها اياما · وقد عزم المعتصم بالله على ان يبني فيها مدينة ، الا انه وجد الارض تضيق عن حاجته ، كما كره قرب المكان من بغداد(١٩) · وهو يريد الابتعاد بعساكره عنها · فاشار عليه وزيره الفضل بن مروان ان يخرج الى انبردان ، وهي من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها(٢٠) · فمضى اليها ومعه بعض رجاله ومستشاريه وعدد من المهندسين ومن له معرفة بالاراضي وطبيعتها (٢١) · واقام بها اياما فلم يستطب هواءها ، ورآها ضيقة المساحة لا تتسع لقيام مدينة كبيرة فيها (٢٢) · فصار الى باحمشا بين اوانا والحظيرة على الجانب الشرقي من دجلة فقدر انشاء مدينة هناك الا انه لم يجد موضعا يحفر فيه نهراً لارتفاع الأرض عن مستوى النهر (٢٣) · فتركها ومنذ الى قرية المطيرة ، وهي قرية جنوبي سامرا ، بينها وبين القادسية ، وهي في بقعة كلها متنزهات وبساتين وكروم (٢٤) · وقد بنيت في خلافة المأمون ونسبت الى مطر بن فزارة الشيباني ، وانما هي المطرية فغيرت وقيل المطيرة (٢٥) · وكما كانت المطيرة متنزها لأهل بغداد صارت متنزها لاهل سامرا كذلك بعد تأسيسها · فاقام المعتصم بالله بها قليلا فلم تروق له ، فصار الى منطقة القاطول ·

قال مسرور خادم هارون الرشيد : سألني المعتصم اين كان الرشيد يتنزه اذا ضجر من المقام ببغداد · قال قلت له : بالقاطول · وقد كان بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائمان ، وقد خاف من

---

(١٩) كتاب البلدان / ٢٥٦ ·
(٢٠) معجم البلدان ١/٣٧٥ ·
(٢١) مدينة المعتصم على القاطول ــ مجلة سومر ج/٢ للسنة الثالثة / ١٦٤ ·
(٢٢) مروج الذهب ٤/٥٣ ·
(٢٣) كتاب البلدان / ٢٥٦ ·
(٢٤) الديارات / ١٤٦ ·
(٢٥) معجم البلدان ٥/١٥١ ·

الجند ما خاف منه المعتصم . فلما وثب اهل الشام وعصوا خرج الرشيد الى الرقة فاقام بها اياما ، وبقيت مدينة القاطول لم تستتم(٢٦) . ويظهر ان ذلك كان بعد ان استفحل امر البرامكة وفكر بالتخلص منهم . ولعله اراد الابتعاد عن بغداد لكثرة اتباعهم ومؤيديهم فيها ، لكي يستطيع ان يتدبر امرهم . وكان الرشيد قد حفر نهراً كبيراً هناك سماه ابا الجند لانه كان يسقى ارضا خصصت غلاتها لارزاق الجند (٢٧) . الا ان الوقت لم يتسع له لاتمام المدينة والانتقال اليها كما اشرنا آنفا . فترسم المعتصم بالله خطى ابيه في الانتقال الى القاطول ، ولعله فكر في اتمام بناء المدينة التي بدأها ابوه ولم يتمها . فخرج اليها واستطلع جوها فاستطاب هواءها ، ورآها اصلح المواضع لاقامة مدينة ينتقل اليها .

أمر الخليفة مهندسيه بتخطيط المدينة بحيث يجعلون البناء فيها على جانبي القاطول وبينه وبين نهر دجلة . وان يقسموها الى قطائع وزعها على القواد والكتاب ورجال حاشيته والناس . فباشر المهندسون العمل واحضروا مواد البناء وجاءوا بالبنائين والصناع ، فأقاموا قصرا للخليفة . وبنوا بجواره بيوت رجال الحاشية . كما أنشأوا معسكراً للجيش احاطوه بالاسوار . وبنى قادة الجيش وكبار رجال الدولة قصورهم بالآجر على ضفاف دجلة والقاطول . وبنيت الاسواق وحولها الدور ، وقد شيد معظمها باللبن . ويظهر انه كانت هناك قرية على القاطول يسكنها قوم من الجرامقة وناس من النبط ، فقال احد الشعراء يعيِّر المعتصم بالله بانتقاله من بغداد ومجاورته الجرامقة (٢٨) :

---

(٢٦) الطبري ٩/١٧ .

(٢٧) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٤ .

(٢٨) مروج الذهب ٤/٥٤ والجرامقة طائفة من العجم نسبتها الى مدينة جرمق بين اصبهان ونيسابور . وقد نزل بعضهم بالموصل في اوائل الاسلام — معجم البلدان ٢/١٣٩ ، وترتيب القاموس المحيط ١/٤٠٩ .

أيا ساكن القاطول بين الجرامقـة

تركت ببغداد الكبـاش البطـارقة

وكان المعتصم بالله قد انتقل الى القاطول وسكن في القصر الذي بناه ابوه هناك ثم انتقل الى بعض ما بني له ، وسكن الى جانبه بعض حاشيته وبعض الناس (٢٩) • ويؤيد المسعودي وياقوت الحموي ان المعتصم بالله قد شيد له قصراً في القاطول ، ولما انتقل منه وهبـه لمولاه اشناس(٣٠) • وقد اقيمت امام القصر بركة واسـعة جميلة ما تزال معالمها بادية للعيان ، وهي منخفض اصطناعي طوله (٢٢٠)م وعرضه (١٩٠)م وعمقه ثلاثة امتار • وقد قسمت ارضه تقسيما هندسيا ، فجعلت بعض اقسامه عميقة جداً تسمح بجريان الماء فيها ، وابقيت اجزاء منها بارتفاعها الأصلي ، فجعل الماء منها دكـات مستطيلة متناظرة ومتعاشقة ، عددها في الجـانب الشرقي اربـع دكات وفي الجانب الغربي ست دكات • وجعل التراب الناشيء من الحفر على طول جانبي المنخفض الشرقي والغربي بارتفاع يتراوح بين ٣ و ٥ أمتار ، فتألف من ذلك كتفان عاليان زادا في روعة البقعة وجمال منظرها • وكانت البحيرة تستمد ماءها من فرع القاطول الممتد جنوبا الى القادسية • كما كان يصرف ماؤها بكهاريز تنتهي بحافة نهر القائم (٣١) •

تقع المدينة التي بناها المعتصم بالله على القاطول في منطقة القادسية الممتدة بين نهر القائم ونهر دجلـة ، علـى بعـد عشرة كيلومترات جنوبي سامرا • واظهرت التنقيبات آثـار سـور مثمن الشكل يقع غربي مدينة المعتصم بالله ، يبلغ طول كـل ضلع مـن

---

(٢٩) فتوح البلدان /٢٩٥ ، وكتاب البلدان/٢٥٧ ، ومروج الذهب ٥٣/٤ •
(٣٠) مروج الذهب ٥٣/٤ ، ومعجم البلدان ١٧٤/٣ •
(٣١) مدينة المعتصم على القاطول/١٦٦ •

اضلاعه (٦٣٠)م وهو مبني باللبن ومدعوم بسلسلة ابـراج يبلـغ عددها (١٤٠)برجا • وفي كل ركن من اركانه برج كبير مـدور قطره نحو ثمانية امتار • وسمك السور اربعة امتار ، وارتفاعـه نحو خمسة امتار • وتبلغ مساحـــة الأرض التي يكتنفها الســور (٧٤٥) دونما ، اي ما يقارب المليوني متر مربع • وفي الســـور فتحات تدل على انها كانت ابوابا له • والسور من الداخل مؤلف من اروقة ، كل رواق بين دعامتين ، وقد جعل بعض هذه الاروقة حجرات • وتشاهد في وسط السور معالم بعض البنايات ، وسلسلة غرف ذات عقادات مدببة • ويدل شكل السور على انه كان حصنا ومعسكرا لجيش كبير يقيم معظمه في الخيم المنصوبة في ساحته ، وان الأبنية التي وجدت آثارها فيه انشئت لسكنى قواد الجيش • ومما هو جدير بالملاحظة ان سور القادسية هذا يشبه اسوار القصور والقطائع التي انشئت في سامرا فيما بعد ، من حيث ضخامته وشكله وحجم اللبن الذي استخدم في بنائه ، مما يوحى بان المعتصم بالله جعل الاسوار مثمنة ليكسبها مظهراً قريب الشبه بأسوار مدينـة المنصور (٣٢) • وربما كان لشكل السور علاقة بتسمية المعتصم بالله بالخليفة المثمن •

وكان يدور بمحاذاة قاعدة السور من الداخل خندق ما يزال ظاهراً ، كان يستمد ماءه من نهر القادسية • وهو فرع من القاطول الاعلى يمتد الى نهر القائم فيقطعه على عبارة ما تزال بعض معالمها ظاهرة للعيان في عقيق القائم • وعند وصوله سور القادسية يتفرع منه فرع يدخل المعسكر وينقسم في داخله الى فرعين يكونان زاوية قائمة ، ثم ينعكس احدهما في زاوية قائمة ايضا فيصبح موازيـا للفرع الأول • ولاشك في ان هذا التوزيع يساعد جميع القاطنين في

---

(٣٢) الآثار القديمة العامة ـ سامرا /٧٢ ـ ٧٣ ، ومدينـة المعتصم علـى القاطول / ١٦٨ •

داخل السور على انتهال الماء • ومن المحتمل ان المياه الزائدة كانت تصرف بمصرف يخرج من الضلع الجنوبي للسور (٣٣) •

أما مدينة القاطول نفسها فان المعتصم بالله كان قد انشأ كهريزاً لايصال مياه الشرب اليها • ويستمد هذا الكهريز المياه من نهر دجلة في نقطة تقع على بعد كيلومترين تقريبا من شمالي صدر نهر القائم ، ثم يسير شرقا باتجاه حصن القادسية فينحرف من جهته الشمالية حتى ينتهي الى بنايات مدينة المعتصم بالله شرقي الحصن • وقد انشيء هذا الكهريز في مجريين متوازيين احدهما خاص بموسم الفيضان والآخر خاص بموسم الصيف • ويبلغ طول هذا الكهريز من صدره حتى ابنية مدينة القاطول زهاء اربعة كيلومترات (٣٤) •

ووجدت في الاراضي حول السور آثار مبان واسوار تمتد غربا وشرقا ، وقد شيد بعضها بالآجر ، والبعض الآخر باللبن • مما يدل على ان قسما منها كان دوراً وقصوراً ، وبعضها كان اسواقا • ويظهر ان الآبنية الكائنة في جنوبي القادسية قد شيدت جميعها بالآجر مما يستنتج منه انها كانت قصورا لكبار القوم • ووجدت ايضا خرائب فيها طبقات من الرماد وكسر الاواني الزجاجية وكتل من الزجاج المنصهر ، تدل وفرتها على ان معامل للزجاج كانت تقوم في هذا الموضع ، وقد اتخذه صناع الزجاج في ايام ازدهار سامرا وعظمتها مقرأ لهم ، وشيدوا فيه مصانعهم ودورهم ومساكن عمالهم ، وقد ظل كذلك بعد انتقال الخلافة منها وعودة العاصمة الى بغداد (٣٥) • ويذكر ياقوت الحموي ان القادسية كانت قرية كبيرة قرب سامرا يعمل فيها الزجاج (٣٦) •

---

(٣٣) مدينة المعتصم على القاطول / ١٦٨ •

(٣٤) ري سامراء ١ / ٢٦٦ •

(٣٥) مدينة المعصم على القاطول/١٦٨ •

(٣٦) المشترك وضعا / ٣٣٧ •

على ان المعتصم بالله ما لبث ان ادرك ان الأرض التي اختارها ضيقة غير قابلة للتوسع لاحاطتها بدجلة والقاطول من جهة ، ولارتفاع ضفة القاطول اليمنى بسبب تراكم الاتربة الناشئة من حفر هذا النهر على شاطئه الايمن ، فتكون من ذلك سلسلة مرتفعات وتلول على طول الضفة المذكورة حجزت الاراضي الواقعة الى جنوبه عن الواقف بالضفة اليسرى ، مما يخلق حاجزاً بين جانبي المدينة (٣٧) ، وهي بذلك لا تفي بقيام حاضرة للخلافة ، كما وجد ان طبيعة الارض حصا وانهار يصعب البناء فيها (٣٨) • وكان الموضع فوق ذلك شديد البرد فتأذى به المعتصم بالله وحاشيته ، حتى قال بعض من كان معه (٣٩) :

قالوا لنا ان بالقاطول مشتانا
فنحن نأمل صنع الله مولانا

الناس يأتمرون الرأي بينهم
والله في كل يوم محدث شانا

وكان المعتصم بالله قد صار في خلال خروجه الى الصيد الى ارض واسعة ، وهي صحراء من ارض الطيرهان خالية من السكان ولا عمارة بها سوى دير للنصارى ، فوقف بالدير وسأل من فيه عن اسم الموضع • فقال له بعض الرهبان : « نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سرمنرأى وانه كان مدينة سام بن نوح ، وانه سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور له اصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلها ولده • فقال : انا والله ابنيها وانزلها وينزلها ولدي • ولقد امر الرشيد يوما ان يخرج ولده الى الصيد ، فخرجت مع محمد والمأمون واكابر ولد الرشيد فاصطاد

(٣٧) مدينة المعتصم على القاطول / ١٦٧ •
(٣٨) كتاب البلدان / ٢٥٧ ، وفتوح البلدان / ٢٩٥ •
(٣٩) مروج الذهب ٤/ ٥٤ •

كل واحد منا صيداً واصطدت بومة ثم انصرفنا ، وعرضنا صيدنا عليه فجعل من كان معنا من الخدم يقول هذا صيد فلان وهذا صيد فلان حتى عرض عليه صيدي ، فلما رأى البومة وقد كان الخـــدم اشفقوا من عرضها لئلا يتطير بها او ينالني منه غلظة ، فقال من صاد هذه ؟ قالوا : ابو اسحاق ، فاستبشر وضحك واظهر السرور . ثم قال اما انه يلي الخلافة ويكون جنده واصحابه والغالبون عليه قوما وجوههم مثل وجه هذه البومة فيبني مدينة قديمة وينزلهـــا بهؤلاء القوم ثم ينزلها ولده من بعده ، وما سر الرشيد يومئذ بشيء من الصيد كما سر بصيدي لتلك البومة » (٤٠) . وهذه القصة لاتخلو من ان تكون موضوعة على غرار الاسطورة التي وضعت عنـــدما اختار ابو جعفر المنصور موضع مدينته المدورة ، وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه البلداني (٤١) . ومعالم وضعها ظاهرة ، اذ كيف يتوقع هارون الرشيد ان يلي ابنه ابو اسحاق الخلافة وهو لم يدخله مع ولاة العهد من اولاده الذين كتب لهم كتاب العهد ! ويرجح انها وضعت فيما بعد بشكل يلائم احوال المعتصم بالله .

نظر المعتصم بالله الى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وارض صحيحة ، فأستمرأها واستطاب هواءها ، واقام هناك ثلاثا يتصيد في كل يوم ، فوجد نفسه تتوق الى الغـــذاء وتطلـــب الزيادة على العادة الجارية ، فعلم ان ذلك من تأثير الهواء والماء والتربة . فلما استطاب الموضع دعا باهل الديـــر فاشترى منهـم ارضهم باربعة الآف دينار (٤٢) . وعرفت هذه المنطقة قديما بصحراء الطيرهان وقصبتها الماحوزة ، وهي التي بنى فيها المتوكل على الله عاصمته المتوكلية فيما بعد . ومن المواضع الشهيرة فيها قبـــل ان يختارها المعتصم بالله ليقيم عاصمته فيها موضع يسمى (دور عربايا)

---

(٤٠) كتاب البلدان / ٢٥٧ .
(٤١) معجم البلدان ١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .
(٤٢) مروج الذهب ٤/ ٥٤ .

وموضع آخر اسمه (الكرخ) ودور عربايا او دور العربـاني هـو الدور الأسفل ، وهو قرية بين سامرا وتكريت ، وفيه انزل المعتصم بالله بعض قواده عندما بنى سامرا (٤٣) • اما موضع الكرخ فكـان يقال كرخ فيروز ، وهو موضع مدينة قديمة على مرتفع من الأرض، وهو اقدم من سامرا ، فلما بنيت اتصل بها ، وظل عامراً بعد هجرها وخرابها • ويقال له ايضا كرخ باجدا وكرخ جـدان (٤٤) • وقـد انزل المعتصم بالله فيه مولاه اشناس القائد فيمن ضم اليه من القواد ، لمـا بنى سامرا (٤٥) •

وكانت منطقة الطيرهان تؤلف مع تكريت والسن والبوازيج اول حدود اعمال المغرب عند البلدانيين وتعتبـر مـن كـور الموصل(٤٦) • وهي ارض منبسطة كان يتردد عليها خلفاء بغـداد للصيد• ويظهر ان المعتصم بالله نفسه كان يتردد ايام كان اميرا ،الى هذا الموضع للصيد ، ويضرب فيه مضاربه ، كما سنرى فيما بعد • وكانت تعرف قبل الفتح العربي بنفس الاسم • فقد ورد ذكرها في بعض الحوادث التي وقعت ايام العهد اليوناني في العراق (٤٧) • وقد استمر هذا الأسم يطلق على منطقة سامرا بعد تأسيسها ولقـرون عديدة (٤٨) •

يقول اليعقوبي في تاريخه : « ثم ارتحل (المعتصم بالله) مـن القاطول الى سر من رأى ، فوقف في الموضع الذي فيه دار العامة ، وهناك دير للنصارى فاشترى من اهل الدير الارض واختط فيه •

(٤٣) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، ومعجم البلدان ٢ / ٤٨١ ، والمشترك وضعا/ ١٨٣ •
(٤٤) معجم البلدان ٤/ ٤٤٧ ، والمشترك وضعا / ٣٦٩ •
(٤٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، وكتاب البلدان / ٢٥٨ •
(٤٦) المسالك والممالك ٩٤ و٢٤٥ ، والخراج وصناعة الكتابة / ١٧٥
(٤٧) اخبار فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان / ٤ ــ ٥ •
(٤٨) اخبار فطاركة كرسي المشرق لعمرو بن متى/٧٢ــ٧٣ ، و٨٣و١٠٠ و١١٦ ــ ١٢١ •

وصار الى موضع القصر المعروف بالجوسق على دجلة فبنى هناك عدة قصور للقواد والكتاب وسماها باسمائهم »(٤٩) • ويقول المسعودي : « ولم يزل (المعتصم بالله) يتنقل في تلك النواحي حتى وقع اختياره على موضع سامرا ، وهو بلاد في كورة الطيرهان »(٥٠) • ويقول ايضا : « خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامرا ، وكان هناك دير عادي فسأل بعض اهل الدير عن اسم الموضع فقال : يعرف بسامرا • قال له المعتصم : وما معنى سامرا؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والامم الماضية انها مدينة سام بن نوح • قال له المعتصم : ومن اي بلاد هي والام تضاف ؟ قال : من بلاد طيرهان واليها تضاف » (٥١) • وجاء في اخبار فطاركة المشرق لماري بن سليمان ان المعتصم بالله « خرج الى الطيرهان للتصيد ، وصاد وجعل في اعناق السباع الاطواق الحديد ، ووسم على افخاذ الظباء وحمير الوحش اسمه ، واستطاب الموضع ، وابتاع من سكان ذلك الموضع النصارى الحزيات المتصلة بالمطيرة ، وجدد بناء سر من رآى »(٥٢) •

ولما عزم المعتصم بالله على ان ينزل بموضع سامرا كلف وزيره محمد بن عبدالملك الزيات وقاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، وعمر بن فرج ، واحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير ، وهما من رؤساء الدواوين ، بأن يشتروا له من اصحاب الدير الارض التي رآها وان يدفعوا اليهم اربعة الاف دينار ثمنا لها ، ففعلوا ذلك(٥٣) • وهناك خبر يروى عن ابي الوزير انه قال : « بعثني المعتصم في سنة (٢١٩هـ) وقال لي : يا احمد اشتر لي بناحية سامرا موضعا ابني فيه مدينة •• وقال لي : خذ مائة الف دينار ، قال قلت : آخذ

---

(٤٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٣ •
(٥٠) التنبيه والاشراف /٣٠٩ •
(٥١) مروج الذهب ٤/٥٤ •
(٥٢) ص : ٧٧ •
(٥٣) كتاب البلدان /٢٥٧ ــ ٢٥٨ •

خمسة آلاف دينار فكلما احتجت الى زيادة بعثت اليك فاستزدت .
قال : نعم فأتيت الموضع فاشتريت موضع سامرا بخمسمائة درهم(٥٤) ، من النصارى اصحاب الدير ، واشتريت موضع البستان بخمسة آلاف درهم ، واشتريت عدة مواضع حتى احكمت ما اردت ، ثم انحدرت فاتيته بالصكاك ، فعزم على الخروج اليها . حتى وضع البناء بسامرا في سنة (٢٢١ هـ) »(٥٥) . ولا نرى تضاربا بين الروايتين ، اذ يجوز ان الخليفة كلف الاشخاص المذكورين اول الأمر ، ثم اقتصر مهمة الشراء على ابي الوزير .

ويبدو مما يرويه ابن ابي اصيبعة ان للمعتصم بالله سابق معرفة بموضع سامرا عندما كان اميراً ، اذ يقول : « ثم صار المعتصم الى سر من رآى فضرب مضاربه فيها واقام بها في المضارب ، فاني لفي بعض الايام على باب مضرب المعتصم اذ خرج سلمويه بن بنان ... فقال لي : حدثني في غداة يومنا نصر بن منصور بن بشام انه كان يساير المعتصم في هذا البلد ، يعني بلد سر من رأى ، وهو امير ، قال لي سلمويه : قال نصر ان المعتصم امير المؤمنين قال له : يانصر أسمعت قط بأعجب ممن اتخذ في هذا البلد بناء وأوطنه ! ليت شعري ما اعجب موطنه ، حزونة ارضه او كثرة اخاقيقه (٥٦) . ام كثرة تلاعه وشد الحر فيه اذا حمي الحصى بالشمس ، ما ينبغي ان يكون متوطن هذا البلد الا مضطرا مقهورا ، او رديء التمييز . قال لي سلمويه : قال لي نصر بن منصور : وانا والله خائف ان يوطن امير المؤمنين هذا البلد . فان سلمويه ليحدثني عن نصر اذ رمى ببصره نحو المشرق فرأى في موضع الجوسق المعروف بالمصيب اكثر من الف رجل يضعون اساس الجوسق .

---

(٥٤) في معجم البلدان ٣/ ١٧٤ بخمسة الاف درهم ، وفي العيون والحدائق ٣/ ٣٨١ بخمسمائة الف درهم .

(٥٥) الطبري ٩/ ١٧ ، ومعجم البلدان ٣/ ١٧٤ .

(٥٦) في النص : اخافيقه ، وهو خطأ مطبعي ، والاخاقيق الحفر .

فقال لي سلمويه : احسب ظن نصر بن منصور قد صح • وكان ذلك في رجب سنة احدى وعشرين ومائتين » (٥٧) •

ان ما ذكره ابو الوزير ، وما رواه ابن ابي اصيبعة يستنتج منه ان المعتصم بالله كان يفكر بالانتقال الى عاصمة اخرى ، ولـذا يمكن القول ان شكوى اهل مدينة السلام كانت سببا مباشراً لانتقاله عنها •

ويظهر ان سعة الموضع وموقعه من نهر دجلة وبعده عن بغداد مما اغرى المعتصم بالله بأن يختاره لأن يقيم فيه مدينته التي ازمع على تأسيسها • على ان هناك اسبابا اخرى جعلته يفضل هذا الموضع على غيره • فانه كان محاطا بالمياه من جميع اطرافه بحيث انهـا تشكل سورا دفاعيا يحيط بالمدينة • فنهر دجلة يلازمها من جهتها الغربية ويسير بمحاذاتها من اقصى شماليها حتى اقصى جنوبيها ، مما يؤمن اضافة الى اهميته الدفاعية سبيلا للمواصلات النهرية ونقل البضائع والمؤن وغيرها الى المدينة عن طريق النهر ، سواء كان ذلك من شمالي العراق او جنوبيه • اما من الجهات الاخرى فان مجرى النهروان ــ وهو مجرى القاطول او الرصاصي ــ الذي يفرع من دجلة من شمالي مدينة سامرا ، يجري بموازاة دجلة فيحيط بالمدينة من الجهتين الشمالية والشرقية • وان مجرى نهر القائم ــ وهو قاطول الرشيد ــ الذي يتفرع من دجلة من جنوبي سامرا ويلتقي بمجرى الرصاصي قبل وصوله الى نهر العظيم يحيط بالمدينة من الجهة الجنوبية • وذلك مما اغناه عن احاطة المدينة بسور يصد عنها الهجمات شأن المدن الاخرى في ذلك العهد • ثم ان الموضع الذي تقع فيه المدينة يؤلف جرفا يرتفع عن مستوى مياه النهر ، مما يجعلها في مأمن من اخطار الفيضان • ولا يخفى ان الفيضان كان

(٥٧) عيون الانباء / ٢٣٥ ــ ٢٣٦ •

مصدر قلق شديد في مدينة بغداد التي كانت معرضة دوما الى خطر الغرق (٥٨) .

٣ ـ قِدَم الموضع :

سبق ان اشرنا الى قدم منطقة الطيرهان التي اسست فيها مدينة سامرا ، وان ذكرها ورد في بعض الحوادث التي وقعت في العراق في العهد اليوناني . وقد جاء في بعض المصادر التراثية ان موضع المدينة التي بناها المعتصم بالله كان مدينة قديمة اصابها الخراب فاندثرت معالمها . اذ يقول المسعودي : « وقد ذكر انها كانت قديمة مسماة بهذا الاسم ، سميت بسام بن نوح ، وانها كانت آهلة عظيمة عامرة ، فلم تزل تتناقص على مر الزمان ، وكان اخرابها في ايام فتنة الامين والمأمون »(٥٩) . **ويقول صاحب العيون** والحدائق : « حكي في بعض الكتب ان سر من رأى كانت مدينة عظيمة عامرة كثيرة الأهل فأخربها الزمان حتى بقيت خربة وبها دير عتيق ، وكان سبب اخرابها فيما حكي ان اعراب ربيعة وغيرهم كانوا يغيرون على اهلها فرحلوا عنها » (٦٠) . ويقول مارى بن سليمان : « وخرج المعتصم الى الطيرهان للتصيد .. واستطاب الموضع وابتاع من سكان ذلك الموضع النصارى الخرابات المتصلة بالمطيرة وجدد بناء سر من رأى »(٦١) .

ان ما رواه المؤرخون المذكورون يعني ان بناء المعتصم بالله مدينة سامرا كان تجديداً لبناء المدينة القديمة . على ان هذه الاشارات جاءت عرضية في المصادر المشار اليها ، بينما لم تشر

---

(٥٨) ري سامراء ج/٥٤ـ٥٥ .
(٥٩) التنبيه والاشراف /٣٠٩ .
(٦٠) العيون والحدائق ٣/٣٨١ .
(٦١) اخبار فطاركة كرسى المشرق /٧٧ .

المصادر المهمة الاخرى الى شيء من ذلك • كما ان الدراسات الحديثة عن المنطقة ، والتنقيبات الأثرية التي اجريت فيها لم تكشف عما يؤيد ان المكان موقع مدينة قديمة اندثرت • بل على العكس من ذلك انه كان ارضا بكرأ مستريحة الوف السنين (٦١) • خلا ما عثر عليه من دلائل سكناها في عصور ما قبل التاريخ • مما يدعو الى القول بان ما جاء في المصادر المذكورة ينقصه التأييد والبرهان على ان ذلك لا يعني ان منطقة الطيرهان كانت صحراء لا عمارة فيها كما يقول اليعقوبي (٦٣) • فقد كان بها عدد من الأديرة ، وقد فصّلنا ذلك في مكان آخر • كما ان ما ذكر عن بستان وخرابات اضافة الى الدير دليل واضح على انها لم تكن تخلو من بعض العمران •

وقد ثبت من التحريات والتنقيبات الاثرية التي اجريت في خرائب سامرا انه كان في موضعها مستوطنات وقرى يرجع بعضها الى ادوار ما قبل التاريخ • فقد اكتشف العالم الآثاري هرزفيلد في مطلع هذا القرن مقبرة تعود الى ادوار ما قبل التاريخ بالقرب من شريعة الناصرية ، ووجد فيها نوعا من الفخار المصبوغ يعتبر وسطا بين فخار شوش وفخار تل العبيد ، وسمي هذا الفخار القبتاريخي باسم « فخار سامراء » وهو يمثل دوراً من ادوار ما قبل التاريخ في العراق(٦٤) - وعندما توسعت مديرية الآثار العراقية في التنقيب في الموقع المذكور عثرت على موضعين آخرين يعودان الى ما قبل التاريخ ايضا احدهما شمالي المقبرة التي عثر عليها هرزفيلد والآخر على ضفة دجلة شمالي صدر القائم جنوبي سامرا يسمى تل الصوان •

---

(٦٢) كتاب البلدان / ٢٦٤ •

(٦٣) كتاب البلدان / ٢٥٧ •

(٦٤) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٧٦ •

يقع تل الصوان قرب النصب المعروف بالقائم على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، على بعد (١١) كيلومترا جنوبي مدينة سامراء الحالية • وتؤلف اطلال هذا الموقع تلا بيضوي الشكل تقريبا طوله من الشمال الى الجنوب (٢٣٠)م وعرضه من الشرق الى الغرب (١١٠)م ، ولا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة امتار ونصف عند اعلى بقعة من سطحه • وقد اعلنت المديرية العامة للآثار عن اثرية هذا التل في سنة (١٩٤٩) وميزت نوعية الملتقطات المنتشرة على سطحه وثبتت ازمانها التاريخية • ثم قررت في سنة (١٩٦٤) ان تقوم باجراء تنقيبات عامة شاملة فيه • وقد دفعها الى ذلك سببان مهمان ، اولهما ان وقوع التل في وسط العراق قد يكشف في طياته عن دلائل أثرية تلقي الضوء على نوع الارتباط الحضاري بين شمالي وادي الرافدين وجنوبيه في خلال النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد ، حين بدأ العراقي القديم ينحدر الى منطقة السهول الغربية في وسط الوادي وجنوبيه • ويؤسس اولى القرى الزراعية هناك • وثانيهما احتمال العثور على قرية من الطور المذكور بابنيتها وآثارها الاخرى لتوضح جوانب مهمة من تاريخ العراق القديم في النصف الثاني من العصر الحجري الحديث وبداية ما يسمى بالعصر الحجري المعدني • لأن ما كان معروفا عن المرحلة الحضارية المسماة (بطور سامراء) لما قبل التاريخ لا يتعدى الفخاريات التي كشف عنها هرزفيلد لأول مرة في المقبرة التي تعود الى هذه الفترة • ولقد اسفرت التنقيبات عن نتائج مهمة القت الضوء على جوانب كثيرة مما توخته دائرة الآثار العراقية • اذ كشفت لأول مرة عن مستوطنة تم الكشف على خمس طبقات اثرية منها كانت قد سكنت على التوالي(٦٥) • وترجع الطبقات الثلاث السفلى منها الى أواخر

---

(٦٥) التنقيب في تل الصوان للدكتور بهنام ابو الصوف ، مجلة سومر ج : ١ و٢ لسنة ١٩٦٨ / ٣٧-٣٨ •

العصر الحجري الحديث ، ثم طور حسونة القديم وبداية انتشار حسونة الانموذجي الذي يستمر الى الطبقة الرابعة ثم الخادسة مع فخار طور سامراء(٦٦) ٠

وكشفت الطبقة الرابعة ، اضافة الى البيوت المبنية باللبن عن بنايات اخرى ذات تخطيط بنائي موحد يشبه الى حد كبير الحرف اللاتيني T بغرف متعددة اعتبرها المنقبون مخازن للحبوب ، وكان احدها مكانا دينيا ٠ ولوحظ ان طبقة السكن الثالثة قد سيجت فيها جميع المنطقة المسكونة بسور خارجي بطلمات غير منتظمة ، وتمت حمايته بخندق منيع ٠ وهو اقدم نظام دفاعي تم العثور عليه حتى الآن في وادي الرافدين ٠ وتتخلل هذه الأبنية ساحة واسعة ودروب بعضها مرصوف بالحصى ٠ ووجدت في احدى الساحات مجموعة من التنانير ملاصقة لسور القرية ، وهناك ما يدل على انها كانت كورا لشي الفخار ٠ وهذا بحد ذاته يعتبر كشفا مهما اكد ان فخاريات سامرا بكل انواعها الملونة والمحززة والمدلوكة والبسيطة الخالية من النقوش قد تم صنعها في تل الصوان ٠ وان غزارة بقايا هذا النوع من الفخار هنا يؤكد بان تل الصوان كان مركزا مهما لهذه الصناعة في القسم الوسطي من العراق ، ومنه كانت تتزود القرى والمستوطنات الاخرى في هذه المنطقة من وادي الرافدين (٦٧) ٠

وقد تأكد بان الطبقة الرابعة قد مرت بدورين سكنيين على الأقل ٠ كما ظهر ان معظم مشتملات الدور العلوي بغرفها الصغيرة كانت مخازن للغلال ٠ وقد عثر فيها على بقايا من تلك الغلال وعظام الحيوانات التي استفاد السكان من لحومها ٠ كما وجدت آلات وادوات حجرية استعملت للحراثة والحصاد ولتهيئة

---

(٦٦) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ٢١٤ ـ ٢١٥ ٠
(٦٧) التنقيب في تل الصوان السابق / ٣٩ ٠

الطعام(٦٨) • وان العدد الكبير من تماثيل صغيرة للنساء الذي وجد في مقبرة تل الصوان قد يعني ان هذا الموقع كان في اوائل الالف السادس قبل الميلاد ، وربما قبل ذلك بقليل ، مركزاً رئيسا لعبادة الأم الالهة • وقد وضعت تماثيل صغيرة عديدة لها في توابيت الصغار لتحميهم في رحلتهم الطويلة في عالم ما بعد الموت • ولوحظ ان اكثر بقايا الهياكل العظمية التي عثر عليها في قبور القرية كان اصحابها قد دفنوا بوضعية القرفصاء وان الرأس يتجه دوما نحو الجنوب الا ما ندر • ووجدت بعض الهياكل ملفوفة بحصير مطلى بالقار ، كما عثر على عدد من الاواني الكبيرة من الجص مع اغطيتها المماثلة لشكل الاناء البيضوي المفلطح قد استخدمت كتوابيت للأطفال ، ويظهر ان هذا النوع من مدافن الاطفال كان شائعا في تل الصوان وبخاصة في الطبقتين الرابعة والخامسة (٦٩) •

ومن الادوات التي تلفت النظر مما عثر عليه ، مجرشة ، ومدقة كروية ، ومدقات طويلة الشكل ، ومنجل من حجر الصوان ملصق بالقار ، ومحرات من الحجر ، وحجارة مقلاع ، وثقالة لـ «جومة» حياكة ، وهاون او جاون ، وحجر للدلك ، وصنارة باب ، وطبلة لمزج الاصباغ ، وادوات مختلفة من العظم • كما عثر على مجموعة من عدة الخياطة كالابر والمخارز ، وهي ادلة قاطعة على تمرس سكان هذا الموقع في خياطة الملابس من الجلود ، او من الصوف الذي كان يغزل بمغازل تصنع اقراصها من الفخار او الحجر • وان الكشف عن ثقالات من الحجر والفخار يدل على استخدام انواع ساذجة من «جوم» الحياكة ، وهو برهان على انهم مارسوا حياكة الأقمشة لاستخدامها في الملابس واغراض اخرى (٧٠) • ومما عثر

---

(٦٨) نفس المصدر •
(٦٩) التنقيب في تل الصوان / ٤٠ ـ ٤١ •
(٧٠) نفس المصدر / ٤٣ـ٤٥ •

عليه ايضا سلتان من الخوص مبطنتان بالقار مما يظهر ان صناعة السلال وتبطينها بالقار كانت على ما يظن صناعة شائعة في تل الصوان منذ اقدم الطبقات السكنية فيه (٧١) • وعثر كذلك على ختم منبسط مستطيل الشكل من الحجر الأسود وقد حفرت فيه حزوز متقاطعة ، وهذا يعتبر واحدا من الاختام المنبسطة الاولى التي وصلتنا من اواسط الألف السادس قبل الميلاد (٧٢) •

يقول المرحوم الاستاذ طه باقر ان فخار سامرا بالمقانة مع فخار تل حلف الذي يليه ، يمتاز بانه ذو لون واحد (Monochrome) كما يمتاز بزخارفه الهندسية المرتبة في انطقة (Bands) متوازية وكذلك اشكال بعض الحيوانات مثل الطيور والاسماك والعقارب والأيل ، وفي حالات قليلة اشكال آدمية مرسومة بصورة تخطيطية تقريبية • وكانت هذه الزخارف تنقش بلون اسود فاتح او اسمر ، على سطح الاناء ذى اللون الاصفر الباهت • ولحد ما نعرفه الى الآن لم يعرف العراقيون القدماء استعمال المعادن والتعدين في طور سامرا ، وكانت الحجارة المادة المعتمدة في صنع الأدوات ومنها الحجر البركاني الاسود (الاوبزيدي ـ Obzidian (٧٣) •

ومما كان يشغل اذهان علماء الآثار ، لاسيما من يبحث منهم في فترات ما قبل التاريخ ، التعرف على نمط الحياة الاقتصادية ، وانواع المواد الغذائية الاولى التي عرفها الانسان بعد ان استقر في قرى ثابتة قرب المياه • فقد عثر على بقايا من الغلال والحبوب المتفحمة ، والبقايا العظمية للحيوانات التي اقتات على لحومها سكان تل الصوان في مختلف ادواره ، فتفرغ لدراستها احد مشاهير المختصين بالنباتات القديمة هو الاستاذ هانس هيلبان من المتحف

---

(٧٢) نفس المصدر ، ص : ج •

(٧١) مجلة سومر ، ج : ١ و ٢ لسنة ١٩٦٧ ، ص : ب •

(٧٣) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ٢١٦-٢١٧ •

الوطني في كوبنهاكن بالدانمارك ، وتوصل الى ان الحنطة والشعير كانا من جملة المحاصيل الحقلية لاهالي تل الصوان • وانهم كانوا يعتمدون احيانا على السقي في زراعة هذين النوعين من الغلال ، لقلة الامطار في وسط العراق في ذلك الزمن وكما هي الحال الآن (٧٤) • مما يستنتج منه ان سكان هذا المستوطن بدأوا بمشاريع الري الصغيرة •

كما ان البحث الدقيق في الركام والتراب الناجم عن حفريات مختلف البقايا النباتية ومخازن الغلال كشف عن بقايا من عظام الحيوانات الاليفة والبرية التي اصطادها الانسان في هذا الموقع واقتات على لحومها واستفاد من جلودها واصوافها • وظهر بنتيجة دراسة المختصين لهذه البقايا ان الخراف والماعز والغزلان كانت عماد الثروة الحيوانية ، لأهل هذا الموقع في الألف السادس قبل الميلاد ، وان السمك كان الغذاء الرئيس لسكنة تل الصوان في جميع ادواره (٧٥) • كما انهم كانوا يضعون الاسماك مع الموتى لتكون زاداً لهم في رحلة الموت الطويلة ، كما تدل على ذلك بقايا عظام السمك الكثيرة التي وجدت في القبور المكتشفة في هذا التل (٧٦) •

وتمخضت الحفريات في تل الصوان في موسم سنة (١٩٧٢) عن نتائج مهمة ساعدت على تكوين فكرة عامة عن نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقرية الصوان ، وكذلك عن بداية الاستيطان فيها • ومما يمكن استخلاصه ان سكان القرية تلاحموا مع بعضهم ومارسوا البدايات الاولى لأساليب الري نتيجة لتذبذب

---

(٧٤) التنقيب في تل الصوان / ٢٥ •

(٧٥) نفس المصدر / ٢٦ •

(٧٦) مجلة سومر ج : ١ و ٢ لسنة ١٩٦٧ ، ص : ج •

سقوط الامطار وقلتها في هذه المنطقة • وان هذا التفاعل ساعد على الخلق والابداع في النواحي التي ميزت اولئك السكان(٧٧) •

٤ ـ بناء سامرا :

يعتبر ما كتبه المؤرخ الجغرافي احمد بن ابي يعقوب المعروف باليعقوبي عن تخطيط مدينة سامرا وعمرانها في « كتاب البلدان » اوسع ما تضمنته كتب التراث العربي عن هذا الموضوع • ولكتابة اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ.) عن المدينة اهمية خاصة اذ كان معاصراً لها عندما كانت عاصمة الدولة العربية ، وقريب عهد من تأسيسها • ولذا سيكون كتابه المذكور مصدرنا الأول فيا سنورده في هذا البحث(٧٨) ، الا اذا اشرنا الى مصدر آخر •

تخطيط المدينة :

بعد ان اختار المعتصم بالله الأرض اللازمة لبناء المدينة اوعز الى المهندسين بتخطيطها وفق اسس عينها لهم • ويمكن ان نستخلص من مجريات العمل في تأسيس المدينة ، ان اهم تلك الأسس كانت :

١ ـ اكد المعتصم بالله على ضرورة ان تصير قطائع الأتراك جميعا والفراغنة ، بعيدة عن الاسواق والزحام ، وذلك بجعل مساكنهم في شوارع واسعة ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره • وذلك لتلافي المشاكل التي واجهها في بغداد من جراء التصادم المستمر بين

---

(٧٧) مجلة سومر ج : ١ و ٢ لسنة ١٩٧٢ ، ص : ب •

(٧٨) كتاب البلدان / ٢٥٥ ـ ٢٦٨ •

اهلها وجنده من الاتراك في دروب المدينة واسواقها مما اضطره على ترك العاصمة والانتقال الى مدينة بعيدة عنها ٠

٢ ـ ان يبدأ العمران في الجانب الشرقي من المدينة ، لما تمتاز به ارض هذا الجانب مما سبقت الاشارة اليه من المميزات ٠ ثـــم ينظر بعد ذلك في اعمار الجانب الغربي ٠

٣ ـ الاكثار من الشوارع الرئيسة في المدينـــة على ان تكـــون موازية لنهر دجلة ، وبأعرض ما يمكن ، وان توصل بينها شوارع فرعية عريضة ودروب ، وان يكون الشارع الذي على ضفة دجلة مباشرة فسيحا يتسع للسفن التي ستفرغ حمولتهـــا في فرضـــه او تحمل منها ٠

٤ ـ ان تقام الأسواق الرئيسة حول المسجد الجامع الذي تقرر انشاؤه على شارع السريجة ، بحيث تجعل سوق خاصة لكل تجارة منفردة ، ويكون كل قوم من اصحاب التجارات والبياعات على حدة ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد ٠

وقد خطط المهندسون شوارع المدينة ودروبها ، ووضعوا اسس القصور والمساجد ، ومختلف القطائع التي اعدت لسكنى الجند ، ومختلف طبقات الناس ، وفق الأسس المشار اليها ٠ وقد برهنوا في تخطيطهم على مهارة فائقة تجلت في تنظيم الشوارع ، وتنســيق الأبنية العامة ، وتوزيع القطائع ، واقامة الاسواق ٠

وكان من اول اعمال المعتصم بالله ، بعد ان كمل تخطيط المدينة انه كتب الى مختلف الولايات « في اشخاص الفعلة والبنائين واهــل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ٠ وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها ، ومن بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ٠ وفي حمل عملة الرخام وفرش الرخام ، فأقيمـــت باللاذقية وغيرهـــا دور صـــناعـــة

الرخام » (٧٩) لتهيئة ما تحتاجه قصور المدينة ومساجدها من الرخام والمرمر الابيض والملون • على ان المعتصم بالله لم يقتصر على استخدام عمال البناء والحرفيين ممن لهم علاقة بالبناء والتشييد فقط ، بل حاول ان يحشد للمدينة الجديدة ايدي عاملة كثيرة في مختلف النواحي • ولهذا اقدم من كل بلد من يعمل عملا من الاعمال او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس ، وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض • وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها ، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر • وحمل من الكوفة من يعمل الدهن ، ومن يعمل الأدهان والاصباغ • ومن سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة • فانزلوا بعيالهم في اماكن خاصة من المدينة ، واقطعوا فيها لبناء منازل لهم •

ابتدأ البناء في سنة (٢٢١ هـ)(٨٠) • ويظهر ان اول ما بني في المدينة الجديدة هو قصر الخليفة الذي عرف بالدار العامة ، وقد بني في بستان الدير الذي اشتراه المعتصم بالله ، وصارت ارض الدير بيت المال • ويقول المسعودي : « انه ارتاد لبناء قصره مواضع فيها فأسس بنيانه ، وهو الموضع المعروف بالوزيري في سر من رأى ، واليها يضاف التين الوزيري ، وهو اعذب الأتيان وارقها قشراً واصغرها حبا »(٨١) •

ويقول الآثاري كريزويل ان المعتصم بالله ارسل رجالا الى مصر وامرهم بانتزاع اعمدة الرخام من الكنائس ، وانهم بعد ان انتزعوا اعمدة كنائس الاسكندرية ذهبوا الى كنيسة القديس ميناس في

---

(٧٩) كتاب البلدان / ٢٥٨ •

(٨٠) الطبري ١٧/٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٣/٢ ، والتنبيه والاشراف / ٣٠١ ومعجم البلدان ١٧٤/٣ ، والكامل ٤٥٢/٦ •

(٨١) مروج الذهب ٥٤/٤ •

مربوط وانتزعوا منها الرخام الملون ومرمر التبليط[٨٢] • الا ان زعمه هذا لا يمكن قبوله ، لأن المعتصم بالله الذي دفع مبالغ كبيرة لشراء الخرائب والاراضي المتروكة التي كانت تخص الرهبان في موضع سامرا لايمكن ان يأمر باغتصاب اعمدة الكنائس ومرمر تبليطها ، وبخاصة اذا ما علمنا ان دور صناعة للرخام والمرمر قد اقيمت في بعض المدن التي اشتهرت بقطعه وصقله ، لسد حاجة المدينة الجديدة منه •

الشوارع الرئيسة :

يسمى الشارع الذي امتد على ضفاف نهر دجلة من شمالي المدينة حتى جنوبيها بشارع الخليج ، حيث كانت تقوم عليه الفرض لرسو السفن التي تحمل البضائع والتجارات الى المدينة من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد والبصرة والأبلة والاحواز ، ومن الموصل ويعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك ، وتقوم في هذا الشارع قطائع المغاربة ، وعرف الموضع الذي خصص لسكنهم باسم «الأزلاخ» وتعتبر هذه القطائع اول ما اختط في سر من رأى • وهو بهذا الاعتبار شارع حيوي للمدينة ، بل هو شريان حياتها الاقتصادية لأن جميع السفن التي تحمل اليها البضائع والمؤن، تفرغ حمولتها على الفرض القائمة عليه ، وكذلك تحمل منها الحاصلات والبضائع التي تنقل الى مدن اخرى •

ويلي شارع الخليج شرقا الشارع الرئيس في المدينة وقد عرف اول الأمر بشارع السريجة ، ثم اطلق عليه اسم الشارع الاعظم ، لأنه كان اطول شوارع سامرا واعرضها • فقد امتد من آخر البناء من قطيعة اشناس شمالا حتى آخر البناء في قطيعة الافشين في المطيرة غربا بحيث كان طوله في عهد المعتصم (١٩) كيلومترا تقريبا

(٨٢) Cresswell . Ashort Account of Muslim Arcitecture , P: 260

وكانت(٨٣) تقطعه دروب وشوارع عرضية من جهة الشرع الى شارع ابي احمد بن الرشيد ، وتنفذ الى شارع الخليج على دجلة غربا • وقد قامت على جانبيه بعض القطائع السكنية • منها قطيعة اسحاق بن يحيى بن معاذ رئيس حرس المعتصم بالله ، وقطائع عدد من القواد من غير الأتراك، كالقواد العرب والمغاربة والخراسانيين، مثل عجيف بن عنبسة ، والحسن بن علي المأموني ، وحزام بن غالب الذي كان يتولى شؤون الاصطبلات بظهر قطيعته ، وهاشم بن بانيجور ، وهارون بن نعيم • بحيث كان لكل منهم قطيعة خاصة به وباصحابه • ثم القطائع الخاصة بكبار الخدم مثل مسرور سمانة وقرقاس وثابت •

كما كانت تقع على هذا الشارع المباني الخاصة ببعض مؤسسات الدولة مثل ديوان الخراج ، والخزائن الخاصة والعامة ، ومجلس الشرط ، والمسجد الجامع الذي لم يزل يجمع فيه الى ايام المتوكل على الله ، والحبس الكبير ، ودار الرقيق ، والسوق العظمى وقد بنيت منعزلة عن المنازل وفيها قسم خاص لكل تجارة متفرد عن غيره • كما كان هناك سوق لأهل كل مهنة بحيث لا يختلطون بغيرهم من اصحاب المهن الاخرى •

وقامت كذلك على جانبي هذا الشارع اعداد كبيرة من منازل الناس ، وقد بنوا اسواقهم فيه لمختلف البياعات والصناعات والتجارات • وهكذا كانت العمارات والقطائع والمنازل والاسواق تمتد على جانبي هذا الشارع ، وبينه وبين شارع الخليج من جهة الغرب ، وبينه وبين شارع ابي احمد من جهة الشرق • ويبدو من تخصيص بعض القطائع الواقعة على جانبي هذا الشارع للقواد من

---

(٨٣) ري سامراء ١ / ٦١ واشناس والافشين من كبار قواد المعتصم بالله وسيرد ذكرهم في الفصل الاول من الباب الرابع ، وفي الفصل الثاني من الباب الثامن •

عين الاتراك ولأصحابهم ان المعتصم بالله لم يحرص على عزلهم اسوة بما فعله بقطائع الجند الاتراك ، فقد اسكن بينهم خليطا من الناس .

ويمتد شرقي الشارع الأعظم الشارع المعروف بشارع ابي أحمد بن الرشيد ، وسمي هذا الشارع باسمه لان قطيعته كانت في وسطه . وقد قامت عليه قطائع للوزراء والقضاة والكتاب ولسائر الناس . اذ كانت تقوم في آخره مما يلي الوادي الغربي المسمى بوادي ابراهيم بن رباح ، قطيعة قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، وقطيعة الوزير الفضل بن مروان ، وقطيعة الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، وقطيعة ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري من كبار الكتاب . ويتضح من هذا ان شارع ابي احمد خصص لسكنى الوزراء والكتاب والقضاة وغيرهم من كبار موظفي الدولة .

وبالاضافة الى الشوارع الثلاثة مارة الذكر كان هناك شارعان آخران يمتدان الى الشرق من شارع ابي احمد وموازيان له ، الاول شارع الحير الأول الذي يمتد من الوادي المتصل بوادي اسحاق بن ابراهيم في الجنوب حتى وادي ابراهيم بن رباح في الشمال ، وقد قامت فيه قطائع اخلاط الناس ، والثاني هو شارع برغامش القائد التركي واوله من المطيرة عند قطائع الأفشين ويمتد شمالاً الى الوادي المتصل بوادي ابراهيم بن رباح . واقيمت في هذا الشارع قطائع للاتراك والفراغنة ، ولكل منهما دروبه المنفردة لا يخالطهم فيها احد من الناس . فالاتراك في الدروب التي في القبلة ، والفراغنة بازائهم في الدروب التي في ظهر القبلة . وقد سمح للفراغنة بمجاورة الأتراك لقربهم منهم في بلادهم (٨٤) .

---

(٨٤) مروج الذهب ٤/ ٥٥ .

عزل مساكن الأتراك :

لقد افردت قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعا بحيث جعلوا منعزلين عن غيرهم ، ولا يختلطون باحد ولايجاورهم احد سوى الفراغنة . فقد اقطع المعتصم بالله اشناس الموضع المعروف بالكرخ ، ويقال له كرخ سامرا تمييزاً عن كرخ بغداد وهو المحلة التي في الجانب الغربي من بغداد . كما كان يسمى كرخ باجدا ، وكرخ جدان ايضا (٨٥) ، وهو على بعد عشرة اميال شمالي سامرا(٨٦) . وضم اليه عدداً من قواد الأتراك ورجالهم وامره ان لا يسمح لقريب بمجاورتهم ، كما انزل بعضهم في الدور المعروف بدور العرباني (٨٧) .

واقطع الأفشين حيدر بن كاوس الاشروسني في المطيرة في آخر البناء مشرقا ، وضم اليه اصحابه من الاشروسنية وغيرهم من الأتراك ، وامره ان يبني هناك سويقة فيها حوانيت للتجار مما لابد منه ، ومساجد وحمامات . كما اقطع الحسن بن سهل بين آخر الاسواق والمطيرة . ولم يكن في ذلك الموضع يومئذ شيء من العمارات ، الا ان المنطقة ما لبثت ان عمرت وامتد بناء الناس فيها من كل ناحية حتى اتصل البناء بالمطيرة . واقطع خاقان غرطوج واصحابه مما يلي قصر الجوسق الخاقاني وامر ان يضم اصحابه اليه . واقطع وصيفا واصحابه مما يلي الحير .

ولكي يؤمن المعتصم بالله عزلة الجند الاتراك عن غيرهم اشترى لهم الجواري وزوجهم بهن ، ومنعهم من ان يتزوجوا من احد من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم من بعض . واجرى

---

(٨٥) المشترك وضعا / ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٨٦) بلدان الخلافة الشرقية / ٧٤ .
(٨٧) معجم البلدان ٣/١٧٥ .

الجواري الاتراك ارزاقا قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين ، ولم يكن احد منهم يستطيع ان يطلق امرأته ·

انتقال المعتصم بالله الى سامرا :

ليس هناك تاريخ معين لانتقال المعتصم بالله الى عاصمته الجديدة سامرا سوى ما ذكره اليعقوبي بقوله « وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين » (٨٨) · الا ان اتفاق المصادر الرئيسة على تاريخ بداية بناء المدينة في سنة (٢٢١ هـ) كما أشرنا ، وقياسا على سرعة بناء مدينة المعتصم على القاطول ، مما ذكرناه في فصل آخر ، يمكن القول ان الانتقال تم في خلال سنة (٢٢٢ هـ) · ومما يؤيد هذا ان اقدم خبر ذكرت فيه سامرا كحاضرة للخلافة هو قدوم الأفشين ببابك الخرمي واخيه على المعتصم بالله بسامرا ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر سنة (٢٢٣ هـ)(٨٩) · وذلك يعني ان الخليفة قد استقر في عاصمته الجديدة خلال الأشهر القليلة التي سبقت هذا التاريخ ، اي في بحر السنة (٢٢٢ هـ) ·

ويقول اليعقوبي ايضا : « واتسع الناس في البناء بسر من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد ، وبنوا المنازل الواسعة · وبلغت غلة ومستغلات سر من رأى واسواقها عشرة الاف الف درهم »(٩٠) · ويقول المسعودي : « وتسامع الناس ان دار ملك قد اتخذت فقصدوها واجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به

---

(٨٨) كتاب البلدان / ٢٥٤ ·

(٨٩) الطبري ٩/٥٢ ، ومروج الذهب ٤/٥٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ والعيون والحدائق ٣/٣٨٨ ·

(٩٠) كتاب البلدان /٢٦٣ ·

الناس » (٩١) • ويقول ياقوت الحموي : « فعمر الناس حول قصره حتى صارت اعظم بلاد الله »(٩٢) •

ان انتقال عاصمة الدولة بدواوينها الى المدينة الجديدة ، مع الخليفة ورجاله وحاشيته ، ونقل الجيش بعدده وعدته اليهـا ، استلزم انتقال جميع الموظفين ومن يتعلق بهم كذلك • وكما أقدم الخليفة نفسه اول الأمر الى سامرا كثيراً من اصحاب الاعمال والحرف والتجارات وغيرهم ممن كانت الحاجة ماسة اليهم في أثناء بناء المدينة، فقد اخذ آخرون من اصحاب هذه الأصناف يفدون اليها للعمل فيها لسد حاجة السكان المتزايدين • ولا يخفى ان قرب سامرا مما يؤتى به من الميرة والمؤن من الموصل وبعربايا وسائر ديار ربيعة في السفن في دجلة ساعد على تموين المدينة وباسعار مناسبة مما يسر العيش فيها • فتقاطر الناس على اختلاف طبقاتهم اليهـا بعيالهم واهليهم مستفيدين من اقطاعهم الاراضي لبناء المنـازل ومن توفر الأسواق وفرص العمل •

توسع العمران في الجانب الغربي :

لما فرغ المعتصم بالله من البناء في الجانب الشرقي من سر من رأى وفق التخطيط الذي وضعه المهندسون لها ، وتقاطرت افـواج الناس من مختلف البلدان للسكن فيها بعد ان استقر بها الخليفـة واصبحت عاصمة الدولة العربية بدلا من بغداد ، اتسعت الابنيـة وازداد عدد السكان فيها • فظهرت الحاجة الى مزيد من المياه سواء للشرب او للزراعة وسقي الجنائن والبساتين • وبالنظر لأن هـذا الجانب من النهر ترتفع اراضيه عن مستوى مياه النهر ، فقـد

---

(٩١) مروج الذهب ٤ / ٥٥ •
(٩٢) معجم البلدان ٣ / ١٧٥ •

كانت مياه الشرب تحمل اليهم من دجلة على البغال والابـــل ، لأن الآبار بعيدة الرشا لارتفاع الأرض ، ثم ان ماءها مالــح غيـــر مستساغ ، مما تعذر معه انشاء البساتين والمزارع بنطاق واســع يتفق وسعة المدينة وحاجتها • ولهذا اتجهت انظار الخليفـــة الى الضفة المقابلة (الغربية) من نهر دجلة • فهـــي ارض منخفضة يسهل حمل الماء اليها ويمكن التوسع في زراعتها • فعمد الى عقد جسر يوصل بين الجانبين • وقد اقيم هذا الجسر في مركز المدينة تقريبا امام القصر الهاروني الذي بناه هارون بن المعتصم بالله فيما بعد • ويظهر انه كان من الجسور ذوات العقود ، اي كان ثابتا مبنيا بالحجارة •

لقد شجع ذلك بعض الناس على الانتقال الى الجانب الغربي من نهر دجلة والعمل هناك • فحفروا الجـداول السيحية وشـقوا الترع وانشأوا عليها المـزارع والبساتين ، فقامت فيهـا القـــرى العديدة • وكانت هذه الجداول تتفرع من نهر الاسحاقي الذي امر المعتصم بالله بحفره لأرواء الأراضي الواقعة على هذا الجانب من النهر ارواء سيحيا • ونهر الاسحاقي هذا يستمد مياهه من دجلة في موضع يقع جنوبي تكريت بقليل ، فيجري امام سامرا من الغرب بموازاة نهر دجلة • وهو نهر قديم كـــان يمتـد حتـى منخفض عقرقوف في غربي بغداد ، حفره قدامى العراقيين ، الا انه كان قد اهمل فأندرس • فأمر المعتصم بالله صاحب شرطته اســـحاق بـن ابراهيم بان يتولى الأشراف على احياء القسم الاعلى منه الممتد بين تكريت وجنوبي سامرا ، ولذا عرف بالاسحاقي •

وقد قسم نهر الاسحاقي الى فرعين شمالي معسكر الاصطبلات ، الشطر الغربي ويسير جنوبا وسط الاراضي التي بـــين دجلـــة والفرات الى مسافة تقرب من (٤٠) كيلومتراً ثم تضيع معالمه في رمال الصحراء • والشطر الشرقي ويسير بموازاة الســـور الخارجي الغربي

لمعسكر الاصطبلات ، وبعد ان يسير مسافة (٣٠) كيلومتراً تقريبا نحو الجنوب الشرقي يصب في مجرى نهر الدجيل القديم[٩٣] . فصار نهر الاسحاقي بما يحمله من مياه وفيرة محور العمران في الجانب الغربي من مدينة سامرا .

يقول اليعقوبي في وصف التوسع الذي احدثه هذا النهر : « فانشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة ، وحفر الانهار من دجلة وصير الى كل قائد عمارة ناحية من النواحي . وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد ، وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان . فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الغربي[٩٤] بسر من رأى . وصلح النخل ، وثبتت الاشجار ، وزكت الثمار ، وحسنت الفواكه ، وحسن الريحان والبقل . وزرع الناس اصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب . وكانت الأرض مستريحة الوف سنين . فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والايتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيق والعربات المحدثة وهي خمسة قرى ، والقرى السفلى وهي سبع قرى ، والأجنة والبساتين ، وخراج الزراعة اربعمائة الف دينار في السنة . وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصير في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين ، فحسنت العمارات ، ورغب وجوه الناس في ان يكون لهم بها ادنى ارض وتنافسوا في ذلك وبلغ الجريب من الأرض مالا كبيراً »[٩٥] .

لقد انتهج المعتصم بالله في انجاز عمران عاصمته الجديدة خطة تقوم على توزيع الأعمال على كبار قواده ورجاله ، ليختص كل

---

(٩٣) لمزيد من التفصيلات عن نهر الاسحاقي ، راجع : رى سامرا ٧٩/١–٨٣ .
(٩٤) في الأصل : الشرقي .
(٩٥) كتاب البلدان / ٢٦٣–٢٦٤ .

منهم بجزء من عمران المدينة ويستعين على انجـــازه باصـــحابه واعوانه • ولا يستبعد ان القواد منهم استخدموا الجند في انجاز ما كلفوا به • فكلف بعض كبار اصحابه ببناء القصـــور ، فصيــر الى خاقان غرطوج بناء الجوسق الخاقاني ، وامر عمر بن فرج بـان يتولى بناء القصر المعروف بالعمري ، وكلف ابا الوزير احمد بـن خالد ببناء القصر الوزيري • وكذلك فعل في تشييد القطـــائع السكنية والمساجد والاسواق • وقد اشرنا الى توزيعه القطائع على كبار القواد وطلبه اليهم ان ينجزوها وفق التخطيط الموضوع لها ، سواء لدور السكن او للمرافق العامـة كالمساجـد والســاحات والأسواق •

وقد عمل جهده في تهيئة العمال والصناع الحرفيين ، ومواد البناء ، والأموال اللازمة لتكاليف المواد واجور العاملين • وكــان لهذا التوزيع في العمل نتائج باهرة في اسراع القواد بانجاز مــا كلفوا به وتنافسهم في ذلك ، وفي نوعية العمل المنجز •

ولأهتمام المعتصم بالله بانجاز تأسيس المدينة باسرع ما يمكن ليتخلص من مشاكل جنــده مع اهل بغـــداد ، وليتفرغ لشـؤون الدولة الكثيرة الاخرى ، وبذله الاموال اللازمة لذلك ، فلا نستبعد انه قد جعل من نفسه مشرفا عاما على ذلك ، يقوم بين أونة واخرى بالتجول في الشوارع الرئيسة ليراقب سير العمل ، ويجيز العمال والمهندسين الماهرين المتفوقين باعمالهم ، تشجيعا لهـــم ولغيرهـــم للاسراع بانجاز ما كلفوا به على احســن وجه ، ممــا أثــار روح المنافسة في العاملين ودفعهم الى مزيد من الجهد واتقـــان العمل • حتى تم انجاز بناء تلك القصور والقطائع والمساجد والاســواق ، وفتح الشوارع الرئيسة والفرعية بالسرعة المطلوبة • علما انه كان قد كلف وزيره محمد بن عبدالملك الزيات بالاشراف على جميـــع ما بني بسامرا في جانبيها الشرقي والغربي [٩٦] •

---

(٩٦) الطبري ٩/٢٠ •

٥ ـ اسم المدينة :

اذا تصفحنا كتب البلدانيين العرب ، وأمهات الكتب التي تعتبر مصادر التاريخ العربي ، نجد ان الاسم الغالب الذي يطلقونه على العاصمة الثانية للخلفاء العباسيين التي اسسها ثامنهم المعتصم بالله ابن هارون الرشيد ، هو (سر من رأى) • كما ان بعضهم يطلق عليها اسم (سامرا) • فان ابا جعفر محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة (٢٣٢ هـ) ذكرها باسم (سر من رأى) في موضعين من كتابه(٩٧) • ويعتبر اقدم من ذكر المدينة من البلدانيين بهذا الاسم وكان قد عاصر تأسيسها • وكذلك اطلق عليها هذا الاسم ابن خرداذبة ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله المتوفى سنة (٢٨٠هـ) في كتابه المسالك والممالك حينما وردت في تضاعيفه •

وان احمد بن اسحاق اليعقوبي المتوفى سنة (٢٩٢هـ) الذي يعتبر ما ورد عن سامرا في كتابه (كتاب البلدان) اوفى ما وصلنا من النصوص القديمة عنها ، من حيث اسباب اختيار موقعها ، وخططها ، وجهود المعتصم بالله في بنائها ، وتوسعها في عهد ابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله ، يستعمل نفس الأسم (سر من رأى) في كتابه المذكور ، وفي كتابه الآخر (تاريخ اليعقوبي)(٩٨) •

اما ابو اسحاق الاصطخري ابراهيم بن محمد المتوفى سنة (٣٤٦هـ) فيسميها (سر من رأى) ايضا في النبذة المختصرة التي ذكرها عنها في كتابه(٩٩) • وفعل مثله ابو القاسم محمد بن حوقل النصيبي في كتابه عند ذكره نبذة عنها في اثناء كلامه عن مدن

---

(٩٧) كتاب صورة الارض / ٢١ و١٢٩ •
(٩٨) كتاب البلدان / ٢٥٥ ـ ٢٦٨ ، وتاريخ اليعقوبي ٢ـ٤٧٤ ـ ٥١١ •
(٩٩) كتاب الاقاليم / ٤٨ •

العراق (١٠٠) • وكذلك فعل الشابشتي ابو الحسن علي بن محمد المتوفى سنة (٣٨٨هـ) فانه يقتصر على استعمال اسم (سر من رأى) حيثما وردت في كتابه(١٠١) •

على ان المقدسي البشاري محمد بن احمد المتوفى سنة (٣٨٠هـ) ذكرها في كتابه باسم (سامرا) عند كلامه عن اقليم العراق • الا انه يشير الى انها عندما زاد فيها المتوكل وصارت عجيبة حسنة سميت (سرور من راى) ثم اختصرت فقيل (سر من راى) ولما خربت سميت (ساء من رأى) ثم اختصرت فقيل (سامرا)(١٠٢) • مما يوحي ان اسم سامرا اطلق عليها بعد ان اهملت وخربت ، وهو قول يخالف الواقع • وقد ذكرها الهمذاني احمد بن محمد المتوفى سنة (٣٦٥هـ) باسم (سر من رأى) في كتابه (١٠٣) •

اما المؤرخون فأن اقدمهم ابن قتيبة عبدالله بن مسلم المتوفى سنة (٢٧٦هـ) يطلق عليها اسم (سر من رأى) عندما يتكلم عن المعتصم وخروجه الى بنائها في كتابه (المعارف)(١٠٤) • بينما يستعمل الطبري محمد بن جرير المتوفي سنة (٣١٠هـ) اسم (سامرا) حيثما ورد ذكرها في الجزءين التاسع والعاشر من كتابه (الرسل والملوك) • ويسميها البلاذري احمد بن يحيى المتوفى سنة (٢٧٩هـ) اي في سنة الانتقال منها والعودة الى مدينة السلام ، وقد عاصرها منذ تأسيسها (سر من رأى) (١٠٥) ، ايضا •

وقد استعمل المسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة (٣٤٦هـ) الاسمين للمدينة في مؤلفيه : التنبيه والاشراف ، ومروج الذهب -

---

(١٠٠) صورة الارض لابن حوقل / ٢١٨ •
(١٠١) الديارات / ٣٨ و٧٩ و١٠٥ و١٤٩ و١٩٠ •
(١٠٢) احسن التقاسيم / ١٢٢ ـ ١٢٣ •
(١٠٣) مختصر كتاب البلدان / ١٨ و ١٢٥ و٢٥٣ •
(١٠٤) المعارف / ٣٩٢ •
(١٠٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ •

فانه ينهج في الكتاب الأول نهج البلدانيين ويطلق عليها اسم (سر من رأى) عندما يذكر ابتداء المعتصم بالله ببنائها ويقول انه هو سماها به(١٠٦) • غير انه في كتابه الثاني يستعمل اسم (سامرا) عند اشارته الى الموضع الذي اختاره المعتصم بالله للبناء فيه ويفسر معناه والأصل الذي اشتق منه ، ثم يستمر باستخدام هذه التسمية كلما ورد ذكره للمدينة في الكتاب عدا بعض المناسبات فقد استخدم الأسم الأول (١٠٧) •

الا ان طاهر بن مطهر المقدسي المتوفي سنة (٣٥٥هـ) يقتصر على استخدام اسم (سر من رأى) في كتابه(١٠٨) • ويقتصر ابن الأثير علي بن محمد المتوفى سنة (٦٣٠هـ) على استعمال (سامرا) في الجزءين السادس والسابع من كتابه الكامل في التاريخ ، واحسبه قد اقتدى بالطبري في ذلك • ويلاحظ ان صاحب الفهرست ابن النديم محمد بن اسحاق المتوفى سنة (٤٣٨هـ) يذكرها في عدد من المواضع في كتابه باسم (سر من راى) (١٠٩) • ويرى ابن دحية الكلبي عمر بن ابي علي المتوفى سنة (٦٣٣هـ) انها سميت (سر من رأى) لأن المعتصم لما انتقل اليها بجملته وعسكره سر كل منهم برؤيتها فقيل فيها (سر من رأى) ولزمها هذا الاسم ، وقد غيرته العامة فقالوا (سامرا)(١١٠) • وهذا يتفق وما يراه ياقوت الحموي الذي يقول ان اسمها (سر من رأى) فخففها الناس وقالوا سامرا(١١١) • وينقل عن الزجاجي قوله : « كان اسمها قديما ساميرا سميت بسامير بن نوح كان ينزلها لأن اباه اقطعه اياها فلما استحدثها

---

(١٠٦) التنبيه والاشراف / ٣٠٥ و٣٠٦ و٣٠٩ •
(١٠٧) مروج الذهب ٤/٤٦ و٥٦ و١١٤ •
(١٠٨) البدء والتاريخ ٣/١١٤ و١٢٢ •
(١٠٩) الفهرست / ٢٣٦ و ٢٧٧ •
(١١٠) النبراس / ٦٥ •
(١١١) معجم البلدان ٣/١٧٣ •

المعتصم سماها سر من رأى (١١٢) • على انه نفسه يذكرها باسم آخر هو (سراء) ويقول انه اسم من اسماء سر من رأى مدينة المعتصم(١١٣) •

ويرد الحريري ابو محمد علي بن القاسم المتوفى سنة (٥١٦هـ) على من يسميها سامرا ، ويرى ان الصواب هو ان تسمى سر من رأى ، على ما نطق بها في الأصل ، لأن المسمى بالجملة يبنى على صيغته الاصلية ، وان المعتصم حين شرع في انشائها ثقل ذلك على عسكره ، فلما انتقل بهم اليها سر كل منهم برؤيتها فقيل سر من رأى ولزمها هذا الاسم ، وهو يرى ان تغيير الشعراء الاسم المذكور انما هو لاقامة الوزن وتصحيح النظم(١١٤) •

من هذا يتضح ان الاسم الغالب على المدينة في مؤلفات القدامى من البلدانيين والمؤرخين هو سر من رأى • ويرجح ان تغلب هذا الاسم يعود الى ان المعتصم بالله هو الذي سماها به(١١٥) • ومن ثم اصبح الاسم الرسمي لها • وقد سماها بعضهم سامرا • على ان هناك اسماء اخرى اطلقت على المدينة في ثنايا كثير من كتب الأدب وبخاصة في الشعر • وقد لخص ياقوت تلك الاسماء ، فقال «سامراء» لغة في سر من رأى • وفيها لغات سامراء ممدود ، وسامرا مقصور ، وسر من راء ، وسراء مهموز الأخر ، وسر من راء مقصور الآخر » (١١٦) واستشهد على ذلك بأبيات من الشعر •

---

(١١٢) نفس المصدر / ٢١٥ •

(١١٣) المشترك وضعا / ٢٤٣ •

(١١٤) درة الغواص / ١٨٠ ـ ١٨١ •

(١١٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، والتنبيه والاشراف / ٣٠٩ ، ومعجم البلدان ٢١٥/٣ •

(١١٦) معجم البلدان ١٧٣/٣ •

اما سبب تسميتها فيروي ياقوت ثلاثة اقوال في ذلك • الأول انها كانت مدينة عتيقة تحمل اليها الاتاوة التي كانت موظفة للفرس على الروم ، وقد استدل على ذلك من اسم المدينة ، لأن (سا) اسم الاتاوة و (مرة) اسم العدد ، والمعنى انه مكان لقبض الجزية • والقول الثاني ان سام بن نوح كان يصيف بالقرية التي ابتناها ابوه عند خروجه من السفينة ببازيدى وسماها ثمانون ، ويشتو بأرض جوخى ، وكان ممره من ارض جوخى الى بازيدى على شاطىء دجلة من الجانب الشرقي ، فسمى ذلك المكان (سام راه) يعني طريق سام • والقول الثالث انها مدينة بناها سام بن نوح ، او انها بنيت له فنسبت اليه وقيل سام راه (١١٧) •

ان القول صاحبه فارسي يحاول ان يربط كل حدث او موضع باكاسرة الفرس ، وهو قول واضح البطلان ، لأن الادعاء بان الروم كانوا يدفعون اتاوة للفرس امر مشكوك فيه ، وحتى اذا ما كان ذلك قد وقع فعلا فان الموضع المذكور لا يصلح ان يكون مكان اتصال بين الدولتين المذكورتين ، لأنه لا يقع على الحدود الفاصلة بينهما • ويبدو ان صاحب القول اراد ان يستنتج تاريخ المدينة من تحليل اسمها المركب ففسره بما ذهب اليه هواه ، ففاته الصواب لأنه تفسير عقيم (١١٨) • واما القولان الثاني والثالث فانهما الى الاساطير اقرب لأنهما ينقصهما السند التاريخي ، وهما كالقول الأول محاولة لاستنتاج سبب تسمية المدينة من تحليل اسمها ، ولو كان ذلك من باب الظن والوهم •

وهناك من يرجح ان اسم موضع سامرا مشتق من اسم مستوطن قديم عرفه الآشوريون والبابليون باسم (سومورم Summum او باسم (سورمارتا ــ Su-ur-mar-ta) وكان موضعا مهما في

---

(١١٧) نفس المصدر /١٧٣ ــ ١٧٤ •

(١١٨) موسوعة العتبات المقدسة ــ قسم سامراء ١٣/١ •

العهد الذي سبق الفتح العربي ، وقد التقى فيه الجيش الساساني بالجيش الروماني بعد مقتل الانبراطور جوليان في عـام ٣٦٣م وتراجع الجيش الروماني ، وقد دون اخبار هذه المعركة المـؤرخ اميانوس مرسيلينوس الذي رافق الحملة وذكر هذا الموضع باسم (سوميره) ، وكان الجيش الروماني قد عبر عند تراجعه نهـر دجلة في مكان ورد اسمه بصيغة (دورا) وهـو موضـع امـام الدور الآن (١١٩) .

ويقول انستاس الكرملي « اما اسم المدينة فليس من وضـع المعتصم نفسه بل هو قديم في التاريخ فقد ذكره المؤرخ الروماني اميانوس مرسيلينوس الشهير الذي ولد في سنة ٣٢٠م وتوفى سنة ٣٩٠م بصورة (سومرا ــ Sumera) ، ونوه به زوسيمس المؤرخ اليوناني من ابناء المائة الخامسة للمسيح صاحب التاريخ الروماني بصورة (سوما ــ Souma أهل النقد من ابناء هذا العصر انه سقط من آخر الاسم حرفان والأصل (سومرا ــ Soumara ، ورد في مصنفات السريان (شومرا) بالشين المنقوطة .. امـا الكلمـة فليست بعربية صرفة وان ذهب الى هذا الرأي كثيرون من المؤرخين والكتبة واللغويين وذلك لعتقها كما اوضحنا . وهي عنـدنا مـن اصل سامي قديم ويختلف معناها باختلاف تقدير اللفظة المصحفة عنه ، فاذا قلنا ان اصلها (شامريا) فمعناها الله يحرس المدينة ، او بعبـارة اخرى (المحروسـة) وان قـدرنـا اصلها (شامورا) بامالة الالف الاخيرة فمعناهـا الحـرس ، اي منـزل الحرس او موطن الحفظة بتقدير حذف المضاف وابقاء المضاف اليه ، وهو كثير الورود في جميع اللغات السامية . وعليه يعتبر قولهم ان (سامرا) تخفيف (سر من رأى) او (سـاء من رأى) من قبيل الوضع » (١٢٠) .

---

(١١٩) المرشد الى مواطن الآثار والحضارة / ١١ ــ ١٢ .

(١٢٠) مجلة لغة العرب العدد (٦) من السنة الثالثة / ٧٢١-٧٢٢ .

وللمرحوم الدكتور مصطفى جواد رأي قريب من هذا في تخريج اسم سامرا ، فيقول : « سامرا اسم ارامي وهو في اصله مقصور كسائر الاسماء الآرامية بالعراق ، مثل : كربلا وعكبرا ، وحرورا ، وباعقوبا ••) وقد مد العرب كثيراً من هذه الاسماء الآرامية المقصورة في استعمالهم اياها ، وخصوصا ذكرها في الشعر الحاقا لها بالاسماء العربية او توهما منهم انها عربية تجمع بين المد والقصر ••• واذ كانت الآرامية فرعا من فروع اللغة السامية الأم ، وكان الغالب على سينها ان تبدل شينا في العربية جاز ان يكون بين مادة (شمر) العربية و (سامرا) الارامية صلة لفظية وصلة معنوية • قال الأصمعي : « التشمير : الارسال من قولهم شمَّرت السفينة ارسلتها وشمَّرت السهم ارسلته » وقال ابن سيده : « شمَّر الشيء ارسله ، وخص ابن الاعرابي به السفينة والسهم » • فغير بعيد ان كانت (سامرا) عند الآراميين فرضة كبيرة لارسال السفن في دجلة او دار صناعة لها ، ولدجلة عندها خليج لا يزال على حاله القديمة يتبطح فيه الماء عند الزيادة » (١٢١) •

يتبين من مختلف التوضيحات التي قدمت عن اصل تسمية موضع سامرا بهذا الاسم ان ذلك الأصل قديم يرجع عهده الى ايام الآشوريين والبابليين ، ومن الطبيعي ان يتعرض اللفظ للتحوير والتعديل بمرور الزمن وفي مختلف اللغات ، حتى استقر عند بناء المدينة في عهد المعتصم بالله الى سر من رأى وسامرا •

٦ ـ اطلال سامرا :

تقع مدينة سامراء الحالية على الضفة الشرقية لنهر دجلة شمالي بغداد بمسافة (١٣٠) كيلومتراً • وقد بنيت على قسم من من اطلال سامرا التي اسسها المعتصم بالله واتخذها عاصمة له في

(١٢١) موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم سامراء ١/٧ ـ ٨ •

اواخر سنة (٢٢٢هـ)· وهذه الاطلال تحيط بالمدينة الحالية من جميع جهاتها ، وتمتد على طول نهر دجلة ابتداء من صدر نهر الرصاصي شمالا حتى فم نهر القائم جنوبا· ويبلغ طولها نحوا من اربعة وثلاثين كيلومترا ، تقع ثمانية منها جنوبي المدينة الحالية وتقع البقية شماليها · ويظهر هذا الامتداد الهائل لاطلال المدينة القديمة مدى سعتها وامتداد عمرانها عندما كانت « المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم » وعاصمة الدولة العربية · وقد اصاب القزويني عندما وصفها بانها « اعظم بلاد الله بناء واهلا ·· ولم يكن في الارض احسن ولا اجمل ولا اوسع ملكا منها » (١٢٢) · الا ان تلك المدينة الواسعة المزدهرة التي قامت خلال فترة قصيرة ، اسرع اليها الخراب بعد ان هجرت ، ولم يبق من آثارها شاخصا اليوم ، اي بعد ما يزيد على احد عشر قرنا ، سوى القليل من بقايا المباني التي لا تزال قائمة تتحدى الزمن ·

ويتوزع القسم المهم من الأطلال المذكورة شمالي المدينة الحالية وجنوبيها · حيث تقوم في الشمال الملوية وبقايا المسجد الجامع الكبير ودار الخليفة وباب العامة وجامع ابي دلف · وتقوم في الجنوب بقايا قصر بلكوارا واطلال المدينة التي بناها المعتصم بالله على القاطول ·

ولما كانت سامرا قد توسعت ايام ازدهارها الى الجهة الغربية من نهر دجلة فان المنطقة الممتدة بين نهر دجلة ونهر الاسحاقي كانت بمثابة حدائق المدينة الكبيرة ، وقد عمرت بالبساتين والجنائن والقصور ، ولكن لم يبق شاخصا من مبانيها سوى بقايا قصر المعشوق وقبة الصليبية وقصر الجص ·

ويضاف الى الاطلال المشار اليها من بقايا مدينة سامرا القديمة ملحقان مهمان من جهتها الجنوبية هما بقايا القادسية الواقعة بين

---

(١٢٢) آثار البلاد واخبار العباد / ٢٥٨ ·

نهر دجلة ونهر القائم ، وبقايا الاصطبلات المقابلة للقادسية في الجانب الغربي من المدينة ٠

أما بقية الاطلال فهي أسوار وآكام ترابية مبعثرة في جميع الجوانب ، وأهم الاسوار التي لا تزال ماثلة سور عيسى وسور اشناس وسور القصر الجعفري ٠ وتتكون الآكام بصورة عامة من بقايا أسوار الدور والقصور وزوايا غرفها وقاعاتها ٠ وتتسلسل آكام الاسوار على خطوط مستقيمة تدل على استقامة شوارع المدينة القديمة ، كما تتوزع بقايا زوايا الدور والقصور في كثير من المحلات حول ساحات صغيرة وكبيرة تظهر الشيء الكثير من مخططات المباني المختفية تحتها ٠ وتظهر آثار الشوارع القديمة الفسيحة بصورة خاصة في جوار قصر بلكوارا في الجنوب ، وبعد سور اشناس في الشمال ، اذ يظهر جليا ما كان يسمى بالشارع الاعظم الذي يبقى اتجاهه مستقيما الى مسافة سبعة كيلومترات ، وتظهر على جانبيه سلسلة منتظمة من الشوارع الفرعية التي يبلغ عرض بعضها خمسين متراً ٠ كما تظهر في الآكام المتراكمة على جانبي الشارع الأعظم مخططات الدور والاسواق التي يستطيع المشاهد ان يتبين حدودها وتقسيماتها الاساسية ٠ كما تظهر في أقصى الشمال بعض بقايا مدينة المتوكلية التي اسسها المتوكل على الله في أواخر ايامه ٠

ان الصور الجوية التي اخذت لأطلال سامرا تظهر اتجاهات الشوارع وتقسيمات الدور والقصور بوضوح تام ، يدل على براعة هندسية فائقة في تخطيط المدينة من حيث سعة شوارعها واستقامتها ، وتوزيع الأبنية العامة والمساجد والأسواق ودور السكن ، وتنسيقها لمدينة كاملة مع ما تحتاجه من ساحات وملاعب ومتنزهات(١٢٣) ٠

---

(١٢٣) راجع عن اطلال سامرا : الاثار القديمة العامة ـ سامراء/٩ ـ ١٠ ٠

وقد بدأ الاهتمام باطلال سامرا منذ اواسط القرن التاسع عشر . غير ان التنقيب فيها لم يبدأ الا بعد انتهاء العقد الأول من القرن العشرين . فقد قام المهندس هنري فيوله ـ henry Viollet لاول مرة ببعض التنقيبات الاستكشافية في دار الخليفة خلال صيف سنة ١٩١٠م . ثم اعقبه في السنة التالية الآثاري الالماني هرزفيلد ـ herzfeld على رأس بعثة علمية ، فقام بتنقيبات واسعة استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . وشملت هذه التنقيبات دار الخليفة وقصر بلكوارا والمسجد الجامع وتل العليق ، مع نحو خمس عشرة دارا من دور السكن الخاصة ، بالقرب من المدينة الحالية . وكانت الآثار التي عثرت عليها بعثة هرزفيلد خلال هذه التنقيبات قد وضعت في صناديق بقيت في سامراء خلال الحرب المذكورة ، ولما ابتليت البلاد بالاحتلال الانكليزي نقلت تلك الصناديق الى انكلترا . وقد نشر قسم من النتائج العلمية التي حصلت من هذه التنقيبات ، ولذلك فان النتائج التي توصل اليها هرزفيلد في هذا الحقل لم يعرف عنها الا الشيء القليل (١٢٤) .

واوفدت مديرية الآثار القديمة العامة منذ سنة ١٩٣٦م عدة بعثات آثارية لاجراء مزيد من الحفريات والتنقيب في اطلال سامراء . وكانت حصيلتها معلومات غزيرة عن معالم المدينة ايام كانت عاصمة مزدهرة . وقد نشرت في سنة ١٩٤٠ نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثات المذكورة في كتاب «حفريات سامراء ١٩٣٦ـ ١٩٣٩ » بجزءين . يقع الجزء الأول في (٥٠) صحيفة عدا الفهارس والالواح المرفقة به ، ويتناول وصفا دقيقا لما كشفت عنه التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار القديمة العامة في خلال مواسم السنوات المذكورة . وقد اوصلت هذه التنقيبات الى معرفة مخططات قصر كامل هو قصر الجص في الموقع المعروف باسم الحويصلات ، وثلاث دور

---

(١٢٤) حفريات سامراء (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ٤/١

سكنية كاملة ، ومخططات القسم الأكبر من غرف ثماني دور اخرى ٠ ويقع الجزء الثاني في (١٦) صحيفة عدا الفهرست والالواح المرفقه به ٠ وفيه بحث مفصل عن الآثار المنقولة التي عثر عليها في اثناء التنقيب في اطلال سامرا خلال المدة المشار اليها آنفا ، وقد تضمن اوصافها والوانها ومميزاتها الاخرى ٠

كما اصدرت المديرية المذكورة في سنة ١٩٤٠ كتابا آخر بعنوان «سامراء» تضمن بحوثا عن مدينة سامرا الحالية ، وعن اطلال المدينة القديمة ، مع مجمل لتأريخها وخلاصة وافية عما توصل اليه الآثاريون عن اهم الآثار التي لا تزال بقاياها شاخصة حتى اليوم كالمسجد الجامع والملوية ودار الخليفة وباب العامة والسراديب الملحقة بدار الخليفة ، وساحة اللعب وحلبة السباق وساحة الفروسية وتل العليق ، وجامع ابي دلف ، وقصر بالكوارا ، والقصر الهاروني ، وقصر المعشوق ، وقبة الصليبية ، وسور القادسية ، والاصطبلات ، والمقبرة القبتاريخية ٠

ان اطلال مدينة سامرا تتميز بميزة مهمة من الوجهة الآثارية ٠ لأنها رغم اتساعها الهائل ، تعود الى عهد معين محدود لم يسبقه دور بناء اقدم منه ، كما انه لم يتبعه دور بناء احدث منه ٠ اذ ان جميع الاطلال الممتدة من النهر الرصاصي شمالا حتى صدر نهر القائم جنوبا ، على طول لايقل عن اربعة وثلاثين كيلومترا ، هي بقايا مدينة سامرا التي شيدت واتسعت بسرعة خارقة ، ثم هجرت بغتة فاندرست بسرعة هائلة ايضا ، اذ لم تعش غير حقبة قصيرة تزيد قليلا عن نصف قرن ، تعود الى دور محدد معين ٠ وهو مما يندر مصادفته في تاريخ الآثريات ٠

الفصل الثاني

منشآت المعتصم بالله في سامرا

سنستعرض فيمايلي اهم منشآت المعتصم بالله في مدينة سامرا، مما لايزال قسم من اطلالها ماثلا حتى اليوم ، او ورد ذكر عنها في مصادر التراث العربي ·

١ ـ دار الخليفة (دار العامة) :

كانت دار الخليفة اهم وافخم القصور التي بنيت حين تأسيس سامرا على عهد مؤسسها الخليفة المعتصم بالله · ويمكن اعتبارها اول بناية انشئت فيها · وهي تقع على شارع السريجة او الشارع الأعظم · ودار الخليفة هي دار العامة التي يجلس فيها ايام الأثنين والخميس · وقد بنيت في موضع الدير الذي ابتاعه المعتصم بالله قبل شروعه في انشاء سامرا(١) · ويبلغ طول واجهتها من جهة النهر (٧٠٠)م ، اما المسافة بين بابها ومنتهى بناياتها الخلفية فلا تقل عن (٨٠٠)م ، وذلك بصرف النظر عن الحديقة الفسيحة التي كانت تمتد امامها حتى شاطىء النهر على طول (٦٠٠)م · «وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لكبرها مدينة قائمة بذاتها »(٢) ·

---

(١) كتاب البلدان / ٢٥٥ ·

(٢) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٦ ·

وقد لاحظ اطلال هذا القصر العظيم المهندس المعماري الفرنسي فيوله ــ Viollet في سنة ١٩٠٩م ورسم مخططا تقريبيا للمعالم التي رآها حينئذ • كما رسم صورة خيالية للقصر كما تصور حالته الأصلية ، وعلى ضوء المخطط الذي رسمه له • ومع ان الريازة التي تظهر على هذه الصورة تمعن في الخيال ولم تتقيد بالريازات المعروفة ، فان الصورة تعطي فكرة لا بأس بها عن أقسام القصر المختلفة • وجاء العالم الآثاري الالماني هرزفيلد ــ Herzfeld بعد فيوله وأجرى تنقيبات وحفريات منتظمة في بعض اطلال القصر ، كشف خلالها قسميه الوسطي والجنوبي مع بعض الأقسام المتفرقة ، واظهر قاعة العرش وغرف التشريفات والحمام ودور الحريم • كما عثر على آثار كثيرة ورسوم وزخارف بديعة ومواد خزفية ثمينة • الا ان استمرار الناس على اقتلاع الآجر من جدران القصر واسسه لاستعمالها في بناياتهم لم يبق من الغرف والقاعات التي اكتشفها هرزفيلد شيئا غير الركام والانقاض الكلسية • ولم يبق ما يستلفت الزائرين بين اطلال القصر المذكور سوى الأواوين القائمة في مدخل القصر المطل على السهل ، والسردابين المحفوران في الجهتين الشرقية والشمالية • اما بقية اقسام القصر فقد اصبحت آكاما لا تظهر اوضاعها العامة الا من الصور الجوية (٣) •

الأواوين القائمة :

ان أواوين القصر التي تكوّن باب العامة من اهم المباني الشاخصة من بقايا القصر • وتتألف الجبهة من ثلاثة اواوين مدببة العقود ، الايوان الوسطي كبير ومستطيل الشكل ، طوله (٥ر١٧)م

---

(٣) سامرا لمديرية الآثار القديمة العامة / ٥٠ ــ ٥١

وعرضه (٨)م ، وجداراه الجانبيان يحملان عقادة مدببة ترتفع ذروتها عن الارض (١٢)م • وواجهته الامامية مفتوحة بكاملها ومطلة على السهل ، وضلعه الخلفية مسدودة بجدار شاقولي ينفتح فيه باب كبير يبلغ عرضه (٨ر٣)م وارتفاعه (٧)م اما الايوانان الجانبيان فهما اقل عرضا وعمقا من الايوان الوسطي • فان عرض واجهة كل منهما (٥ر٤)م ولا يتجاوز عمقهما (٤)م• وتكوّن العقادة التي تعلو الجدران الثلاثة نصف قبة • ويوجد في الجدار الخلفي باب مرتفع تعلوه نافذة ، وهو يفضي الى قاعة خلفية كبيرة مدببة العقد ، مثل عقد الايوان الوسطي • وفي جانب الايوان الشمالي باب آخر يفضي الى غرفة مربعة متصلة بغرف اخرى ظهرت جدرانها الباقية عند رفع الانقاض في سنة ١٩٣٧ • كما يوجد بجانب الايوان الجنوبي سلسلة غرف ظهرت جدرانها كذلك عند رفع الانقاض في السنة المذكورة (٤) •

كان الباب الذي يقع خلف الايوان الوسطي يؤدي الى سلسلة قاعات كبيرة توصل الى غرف الخليفة وقاعة العرش • الا ان جدران هذه الغرف والقاعات والممرات التي بينها قد اندرست تماما • وكان يوجد فوق هذه الاواوين طابق آخر لأن احد جدرانها كان قائما الى علو ستة امتار حتى عهد قريب • ويظهر هذا الجدار في الصور التي اخذت للاواوين قبل الحرب العالمية الاولى • وكانت الاواوين المذكورة مزدانة بزخارف جصية شاهد (فيوله) قسما منها في محلها • وعثر هرزفيلد على بعض منها بين الانقاض خلال تنقيباته • كما عثرت مديرية الآثار القديمة على قسم آخر عندما رفعت الانقاض لتجميل منظر الاواوين وتقوية اسس الجدران • وقد ظهرت على جدران الغرفة المتصلة بالغرفة المربعة التي اشير

(٤) نفس المصدر / ٥٣ •

اليها آنفا ، زخرفة جدارية بديعة نقلت الى دار الآثار العربية (٥) ٠

باب العامة :

ان الاواوين المبحوث عنها كانت بمثابة مدخل القصر ، وكانت تسمى « باب العامة » والساحة التي امام الأواوين تكون شرفة تطل على السهل ٠ وتلاحظ هناك معالم الدرج العريض الذي يصل القصر بالسهل ، والبركة الكبيرة التي كانت تبدأ من اسفل الدرج المذكور ، وتتصل من منتصف ضلعها الغربية بساقية منتظمة تمتد على طول (٤٠٠)م حتى تصل الى شاطىء دجلة (٦) ٠

وكانت الساحة الواسعة الممتدة امام باب العامة قد اتخذت ميدانا عاما كما تدل الحوادث التي جرت فيها ٠ فقد شهر بها ببابك الخرمي لما قبض عليه وجيء به الى سامرا في اوائل سنة (٢٢٣هـ) واراد المعتصم بالله ان يشهر به ويريه للناس ، فأمر بحمله على فيل من المطيرة ، حيث انزله القائد الأفشين في قصره ، الى دار العامة « فاستشرفه الناس من المطيرة الى باب العامة فأدخل دار العامة الى امير المؤمنين »(٧) فقتل صبرأ ٠ كما كان يصلب بها بعض المحكوم عليهم ، فعندما مات الأفشين في الحبس « اخرجوه فصلبوه على باب العامة ليراه الناس ، ثم طرح بباب العامة مع خشبته »(٨) ٠ وكانت تنصب بها رؤوس بعض القتلى من الثوار والخارجين على الدولة ٠ فعندما قتل يحيى بن عمر الطالبي الذي خرج في الكوفة في سنة (٢٥٠هـ) « نصب رأسه بباب العامة بسامرا »(٩) ولما قتل

---

(٥) نفس المصدر / ٥٤ ٠

(٦) سامرا لمديرية الآثار القديمة / ٥٥ ٠

(٧) الطبري ٥٢/٩ ــ ٥٣ ، والعيون والحدائق / ٣٨٨ ٠

(٨) الطبري ١١٤/٩ ٠

(٩) الطبري ٧٧٠/٩ ٠

القائد صالح بن وصيف في سنة (٢٥٦هـ) « حمل رأسه على قناة وطيف به ... ونصب بباب العامة ساعة ثم نحى ، وفعل به ذلك ثلاثة ايام تتابعا »(١٠) .

كما كانت تضرب اعناق المجرمين ، ويجلد بعض المغضوب عليهم بباب العامة . ففي سنة (٢٥٨هـ) « ضرب عنق قاض لصاحب الزنج كان يقضي له بعبادان ، واعناق اربعة عشر رجلا من الزنج بباب العامة بسامرا» (١١) . وعندما أمر القائد صالح بن وصيف بضرب الكاتبين احمد بن اسرائيل وعيسى بن ابراهيم ، في سنة (٢٥٥هـ) « أخرج احمد بن اسرائيل وابو نوح عيسى بن ابراهيم الى باب العامة ، فقعد صالح بن وصيف في الدار ووكل بضربهما حماد بن محمد بن حماد بن دنقش »(١٢) . ولما خالف القائد التركي كنجور في سنة (٢٥٩هـ) وكان واليا على الكوفة وقتل ، « الزم كاتب له نصراني مالا ، ثم ضرب هذا الكاتب في شهر ربيع الآخر بباب العامة الف سوط فمات»(١٣) .

وكان الباب المذكور يتخذ احيانا للتظاهر ضد السلطة . فعندما ادعى احد المشعوذين انه ذو القرنين في سنة (٢٣٥هـ) « خرج من اصحابه بباب العامة رجلان .. وزعما انه نبي »(١٤) . ولما بويع للمستعين بالله في سنة (٢٤٨هـ) تظاهر عدد من مؤيدي المعتز بن المتوكل على الله ، وشهروا السلاح ، تصدى لهم الاشروسنية من الجند ، ونفر على باب العامة عدد من المبيضة والشاكرية

---

(١٠) نفس المصدر / ٤٥٤ .
(١١) الطبري ٤٩٠/٩ ، والمنتظم ٨/٥ .
(١٢) الطبري ٣٩٧/٩ .
(١٣) الطبري ٥٠٢/٩ .
(١٤) الطبري / ١٧٥ ، والكامل ٥٠/٧ .

وكثروا . فشد عليهم المغاربة والاشروسنية فشتتوهم وهزموهم (١٥) ٠

قاعة العرش :

تتكون قاعة العرش من غرفة كبيرة وسطى مربعة الشكل محاطة بأربع قاعات على شكل الحرف T ٠ ويرجح ان الغرفة الكبيرة كانت تعلوها قبة ٠ وقد عثر في اطلال هذه القاعة على بقايا من اطار من رخام جميل وزخارف جصية ٠ وكانت امثال هذه القاعات التي على شكل الحرف T توجد في البيوت كذلك كقاعات للاستقبال ٠ وعثر في هذه القاعات على بقايا زخارف جصية جميلة في بواطن الاقواس ، او مما كان يزين الجدران ٠ وكانت توجد بين اذرع التقاطع قاعات صغرى مزينة بافاريز من الواح وبلاطات رخامية ٠ وهناك غرفة صغيرة مزينة جدرانها بزخارف جصية ، وبها محراب ، مما يدل على انها اتخذت مسجداً للخليفة (١٦) ٠

جناح الحريم :

ان ما تم التنقيب عنه في القسم الخاص بالحريم من القصر اظهر انه كانت تمتد على جانبي الجناح الشرقي والجناح الغربي من هذا القسم غرف عديدة متماثلة ، اعيد بناؤها عدة مرات ، معدة للسكنى ٠ وكلها مجهزة بالمياه بمواسير كبيرة من الرصاص تتصل بها انابيب بعضها من الزجاج الأزرق وبعضها من الفخار ٠ كما ان هناك حجرات للاستحمام والغسيل ودورات للمياه ٠ وفي

---

(١٥) الطبري ٩/٢٥٧ ، والكامل ٧/١١٧ ـ ١١٨ ٠

(١٦) Creswell, E. M. A. P : 263

القسم الجنوبي من هذا الجناح مقابل قاعة العرش غرفة مربعة لها اربعة ابواب واسعة ، في وسطها حوض كبير محاط بممشى طول ضلعه (٢١)م ، تحيط به اربعة اعمدة رخامية من كل جانب . وهذا الحوض من الكرانيت المصري يعود الى عهد الفراعنة . وكانت جدران هذه الغرفة مزينة بصور الاشخاص(١٧) .

الساحة الكبرى :

وهناك قاعة كبيرة اخرى في القصر ، مستطيلة يبلغ طولها حوالي (٣٨)م وعرضها (٥ر١٠)م ، تقع امام القاعدة الشرقية من قاعات العرش ، وتفتح بخمسة ابواب على ساحة واسعة مكشوفة ، طولها (٣٥٠)م وعرضها (١٨٠)م . وهي محاطة بجدران من الشمال والجنوب ، ويوجد على مسافة كل عشرين متراً تقريبا برج نصف دائري شيد لاسناد هذه الجدران . وهناك عدة ابواب في كل من هذين الجدارين تؤدي الى الابنية المجاورة التي كانت تستخدم كثكنات للجند من حرس القصر ، او مخازن للاسلحة وغيرها . وقد زينت بعض اقسام هذه الساحة بحدائق من الازهار ، وبرك وفوارات مصنوعة من الرخام .

وكانت هذه الساحة الواسعة مقسمة بقناة الى قسمين : القسم الغربي وهو مبلط وتزينه نافورتان ، والقسم الشرقي وهو غير مبلط وبه عدد من القنوات الصغيرة ، يمكن ان يستدل منها على ان هذا الجزء من الساحة كان حديقة واسعة .

ويرى هرزفيلد انه كان في الساحة الكبرى هذه ثلاثة مساجد لم تكن محاريبها على سمت القبلة تماما (١٩) .

---

(١٧) نفس المصدر

(١٨) نفس المصدر .

(١٩) ري سامراء ١/ ٧١ .

السردابان :

ومن مشتملات قصر الخليفة سردابان احدهما صغير والآخر كبير • ويقع السرداب الصغير في الجهة الشرقية للساحة الكبرى باتجاه محور الايوان الكبير وعلى بعد (٦٠٠)م منه • ويسميه الناس الزندان والهبيّة ـ اي الهاوية ـ وهاوية السباع • ويتكون هذا السرداب من حفرة مربعة الشكل نقرت في الصخر ، يبلغ عمقها نحو (١٠) امتار وطول ضلعها نحو (٢١)م • وقد فتح على جدار من جدرانها الاربعة ثلاثة اواوين او كهوف نقشت على جدرانها زخارف جصية • وتتوسط الحفرة بركة كبيرة مستديرة • وينزل الى السرداب ويصعد منه بسلمين متصلين بدهليز منتظم • وكان مدخل هذا السلم يقع في غرفة جميلة زينت جدرانها برسوم قافلة من الجمال حفرت على الجبس • وهذه الغرفة جزء من المباني التي تحيط بفتحة السرداب من جهاته الاربع • والسرداب محاط بصفوف متوازية من الغرف العديدة التي يرجح انها كانت اصطبلات لدواب القصر (٢٠) •

ويمكن القول ان تسمية هذا السرداب بهاوية السباع انه كان هناك عدد من السباع بالقرب منه ، وربما انها كانت تأوي اليه ، وقد ورد في الأخبار ما يؤيد ذلك • فان الخليفة المهتدى بالله امر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب(٢١) •

اما السرداب الكبير فانه يقع في الجهة الشمالية الغربية للسرداب الصغير ، شمالي شرقي الاواوين • وهو حفرة اكبر واعمق من الحفرة السابقة ، تحيط بها بناية مربعة الشكل كثيرة التقسيمات ، يبلغ طول ضلعها (١٨٠)م • وفي وسط ارضية هذا

---

(٢٠) سامراء لمديرية الاثار العامة / ٥٧ ـ ٥٨ •

(٢١) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •

السرداب بركة مستديرة واسعة يبلغ قطرها نحو (٨٠) م تتصل بكهريز تحت الارض · وفي القسم الاعلى من السرداب عدد من الغرف الصغيرة يحيط بالجهة الداخلية من جدران البناية ، وبعضها مسقف بعقود متقاطعة · وفي الزاوية الشمالية الشرقية للسرداب آثار بناية اخرى كثيرة التقسيمات ويعتقد انها كانت الخزانة العامة (٢٢) · وقد اشار اليعقوبي الى ان الخزائن الخاصة وخزائن العامة كانت في شارع السريجة ممايلي الدار العامة (٢٣) · التي بنيت على ارض الدير التي اشتراها المعتصم بالله قبل بناء سامرا ، وصار الدير بيت المال(٢٤) · كما ذكر الطبري وابن الأثير في حوادث سنة (٢٣١هـ) ان قوما من اللصوص نقبوا بيت المال في دار العامة في جوف القصر واخذوا اثنين واربعين الفا من الدراهم وشيئا يسيرا من الدنانير (٢٥) ·

ويرى هيرزفيلد ان الابنية التي كانت في الركن الشمالي الغربي للسرداب الكبير تؤلف ثكنات الجيش ويرجح انها ثكنات للخيالة ، اما ثكنات الجند المشاة فتفصلها عنها قطعة من الارض خالية من البناء · وكانت هذه الثكنات تقع الى جانب الشارع الأعظم الذي يوصلها بالقصر ، وهي تشرف على الحديقة وشاطيء دجلة · وكانت هذه الثكنات تتألف من (٦٠٠) قاعة ينزلها نحو (٣٠٠٠) من الجنود (٢٦) ·

ويقول الدكتور سوسة ان البركتين المذكورتين في السردابين قد انشئتا على عهد المتوكل على الله ، ودليله على ذلك ان القناة التي

---

(٢٢) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٥٨ ·
(٢٣) كتاب البلدان / ٢٦١ ·
(٢٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٥٥ ·
(٢٥) الطبري ٩/١٤٠ ، والكامل ٧/٢٣ ·
(٢٦) ري سامراء ١/٧١ ·

تمونهما بالمياه انشئت في عهد الخليفة المذكور ، وهي تبدأ من نهر دجلة من فوق الدور ، وتنتهي بسامرا (٢٧) ٠

ساحة اللعب وحلبة السباق :

توجد في منتهى قصر الخليفة من جهته الشرقية وخلف السرداب الصغير او هاوية السباع ، ساحة مسورة مستطيلة الشكل يبلغ طولها (٥٣٠)م وعرضها (٦٥)م ٠ وهذه الساحة المسورة لا تقطع محور القصر بصورة عمودية ، بل تنحرف قليلا ٠ ويغلب على الظن انها كانت معدة للألعاب ولاسيما للعب كرة الصولجان التي كان يمارسها آنذاك الخلفاء والوزراء وقواد الجيش ٠ ويلاحظ في منتصف القسم الخلفي من سور هذه الساحة آثار بناية مرتفعة بعض الارتفاع ، يظهر انها كانت معدة للتفرج منها على الالعاب والمسابقات ، لأنها كانت مطلة على الساحة المذكورة من جهة ، وعلى حلبة السباق التي تمتد خلف القصر من جهة أخرى (٢٨) ٠

اما حلبة السباق فكانت تبدأ من امام هذه البناية وتمتد الى مسافة خمسة كيلومترات ونصف الكيلومتر ، وتكون منحنيا منتظما مسدودا ، يبلغ طول محيطه (٥ر١١) كيلومتر ٠ وتشاهد معالم هذه الحلبة الطويلة بوضوح عند تتبع الآكام الصغيرة الممتدة خلف قصر الخليفة (٢٩) ٠

وكانت حلبة السباق مستطيلة تمتد طولا نحو جهة الشرق ، وتبدأ في اولها عند القصر ضيقة ثم تتسع تدريجيا حتى تبلغ اقصى سعتها في نهايتها (٣٠) ٠

---

(٢٧) نفس المصدر / ٧٠ ٠
(٢٨) سامرا ـ الآثار القديمة العامة / ٥٩ ٠
(٢٩) نفس المصدر ٠
(٣٠) ري سامراء ١/ ٧١ ٠

زخارف دار العامة :

ان فخامة الزخارف التي وجدت في غرف القصر وقاعاته قلما يوجد مثلها • فقد زينت معظم جدران القاعات والغرف بزخارف جصية ، اما جدران غرفة العرش فقد كانت زخارفها من الرخام المنحوت • ولوحظ ان جدران بعض الغرف مكسوة بالبلاط الرخامي • وكانت الاجزاء العليا من جدران غرف الحريم تغطيها لوحات جدارية لصور الأشخاص والحيوانات ، وقد عثر على اجزاء من تلك اللوحات •

وكانت جميع الأجزاء الخشبية كالابواب والدعامات والسقوف من خشب الصاج المنحوت والمدهون ، وبعضه مذهب ، وقد عثر على كسر صغيرة من البرنز المذهب • كما وجدت كتابات محفورة على الخشب ، وعلى قسم منها اسماء صانعيها من الحرفيين بعضها بالعربية وبعضها بالسريانية او اليونانية (٣١) •

٢ ـ الجوسق الخاقاني :

عندما ارتحل المعتصم بالله من القاطول الى سر من رأى وقف في الموضع الذي فيه دار العامة وكان فيه دير للنصارى فاشترى الأرض من أهل الدير واختط فيها ، ثم صار الى موضع قصر الجوسق على دجلة وبنى هناك عدة قصور(٣٢) • ويستدل من هذا ان دار العامة بنيت على ارض الدير ، ثم بني قصر الجوسق في موضع آخر على شاطىء دجلة • اي ان دار العامة والجوسق الخاقاني قصران مختلفان • الا ان الآثاري كريزويل استاذ العمارة الاسلامية في

---

(٣١) Creswell, Ibid, P.: 265-266.

(٣٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٣ •

جامعة فؤاد الأول بالقاهرة اعتبر قصر العامة اسما آخـــر للقصر الخاقاني ، لأن ما ذكره في كتابه
Ashort Account of Early Muslim Architecture
تحت عنوان : الجوسق الخاقاني (او قصر المعتصم) انمـا يتعلـق بدار العامة ولا صلة له بقصر الجوسق ٠

لقد كان قصر الجوسق من اهم القصور التي شيدها المعتصم بالله في سامرا ٠ وقد اختار له موضعا يقع على ضفة دجلة الشرقيـة جنوبي دار العامة مطلا على الحير ، ويشغل المساحة التي بين شاطيء دجلة والحير وهي مساحة واسعة جداً (٣٣) ٠ وقد اتخذه المعتصم بالله مقراً له فسكن فيه طيلة خلافته ، ولما توفى دفن فيه (٣٤) ٠ وقد وصف الجوسق (٢٩) ٠ كما سكنه المعتز بالله من بعده (٤٠) ، وسكنه كذلـك عرطوج ابي الفتح بن خاقان ، امور بنائه والاشراف عليه ٠ وكان قد اقطعه واصحابه الاراضي التي تلي الجوسق(٣٥) ٠ فبنوا فيهـا قصورهم ومساكنهم ٠

وقد اتخذ اغلب خلفاء سامرا بعد المعتصم بالله هـذا القصر سكنا لهم ٠ فقد سكنه الواثق بالله في اول خلافته ثم انتقل الى قصره الهاروني الذي شيده ، وفيه دفن عند وفاته (٦) ٠ وعندما كــان المنتصر اميراً سكن في قصر الجوسق (٣٧) ، ولما بويع بالخلافة سكن في القصر المحدث وفيه كانت وفاته (٣٨) ٠ ويظهر من الأحداث المهمة التي وقعت في ايام المستعين بالله انـــه كـــان يسكن في قصـــر

---

(٣٣) ري سامراء ١ /٧٤ ٠
(٣٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٨ ، ومروج الذهب ٤/٤٦ و ٦٣ ٠
(٣٥) كتاب البلدان / ٢٥٨ ٠
(٣٦) الطبري ٩/١٥١ ، والكامل ٧/٣٠ ٠
(٣٧) الطبري ٩/٢١٧ ٠
(٣٨) الطبري ٩/٢٥٤ ٠

الجوسق (٣٩) • كما سكنه المعتز بالله من بعده (٤٠) وسكنه كذلك المهتدي بالله ، وقد تكرر ذكر الجوسق كثيرا في حوادث الخلاف الذي نشب بين الخليفة والقواد الأتراك(٤١) • كما سكن فيه المعتمد على الله اغلب ايام خلافته ، قبل ان يبني قصر المعشوق(٤٢) •

وكان المعتصم بالله قد بنى في الجوسق سجنا لحبس قائده الأفشين الذي اتهم بالتآمر والخروج على الاسلام وسماه (سجن لؤلؤة) ثم عرف بعد ذلك بالأفشين • (٤٣) • ويظهر ان هذا السجن خصص لسجن الامراء والقواد والسياسيين المغضوب عليهم • فقد حبس المستعين بالله المعتز واخاه المؤيد في حجرة الجوسق • ووكل بهما (٤٤) • وحبس المعتز بالله اخويه المؤيد والموفق في الحبس المذكور(٤٥) • ولما خرج القائد التركي كنجور وقبض عليه امر المعتز بالله بحبسه في الجوسق (٤٦) •

ولاشك في ان اطلال الجوسق وبقاياه كانت من ابرز وأوسع المواقع الأثرية في سامرا • الا ان قرب تلك الأطلال من مدينة سامراء الحالية كان اهم اسباب ازالة معالم تلك الأطلال • اذ استخرج الناس كل ما فيها من آجر ومرمر وما يصلح للبناء ونقلوه الى المدينة الجديدة التي شيدت فوق اطلال قسم من سامرا القديمة ، واستعملوه في بناء بيوتها ، وفي انشاء السور الضخم حولها • ويرجح ان جزءا من مدينة سامراء الحالية قد بني على طرف من

---

(٣٩) الطبري ٢٥٨/٩ و٢٥٩ و٢٨٠ و٢٨٤ ، والكامل ١١٩/٧ و ١٢٣ و ١٣٩ و١٤٢ •
(٤٠) الطبري ٣٨/٩ ،، والكامل ١٩٩/٧ •
(٤١) الطبري ٤٥٢/٩ و٤٥٥ و٤٥٧ و٤٥٩ و٤٦١ و٤٦٧ و٤٦٩ •
(٤٢) الطبري ٥٠٧/٩ و٥٤١ و٦٢٢ •
(٤٣) الطبري ١٠٦/٩ •
(٤٤) الطبري ٢٥٩/٩ و٢٨٤ ، والكامل ١١٩/٧ و١٤٢ •
(٤٥) الطبري ٣٦١/٩ •
(٤٦) نفس المصدر / ٣٧٢ •

ارض قصر الجوسق ، مما ادى الى محو معالم القصر محــواً يكاد يكون كاملا[٤٧] ٠

ومن الادلة على اهمية قصر الجوسق من حيث موقعه ومساحته بالنسبة لقصور سامرا الاخرى ، ان المكتفي بالله لما اتجهت نيتــه الى الانتقال الى سامرا واعادة بنائها ، وخرج اليها في سنة (٢٩٠ هـ) ومعه الصناع يريد البناء بها ، ضربت له المضارب في الجوســـق ، وابدى الرغبة في البناء فيه الا ان وزيره ثناه عن عزمه [٤٨] ٠

ومما يجدر ذكره ان ياقوت الحموي يذكر بين القصـــور التي بناها المتوكل على الله في سامرا قصراً باسم الجوسق ، ويقـــول ان المتوكل على الله انفق عليه خمسمائة الف درهم[٤٩] ٠ ويظهر مـــن ذلك ان هناك قصرين باسم الجوسق ، احدهما من ابنية المعتصم بالله وهو الجوسق الخاقاني ، والآخر من ابنية المتوكل على الله انشـأه بالقرب من الجوسق الكبير ، في احدى ساحاته [٥٠] ٠

٣ ـ قصر الجص :

كان الموقع المعروف باسم الحويصلات الواقع في الجهة الغربية من نهر دجلة على بعد سبعة عشر كيلومتراً شمالي محطة قطـــار سامراء الحالية ، يلفت النظر باطلاله العالية وما يشغله من مساحة واسعة مما يوحي بانه بقايا احد قصور خلفاء سامرا ايـــام كانت عاصمة الدولة العربية ٠ وقد لوحظ ان موقعه ينطبق على موقـــع « قصر الجص » الذي ذكره ياقوت الحموي بانه « قصر عظيم قرب سامرا فوق الهاروني بناه المعتصم للنزهة » [٥١] ٠ وقال عنه سهراب

---

(٤٧) ري سامراء ١/٧٨ ٠
(٤٨) الطبري ١٠/٩٨ ، والكامل ٧/٥٢٩ ، والمنتظم ٦/٣٨ ٠
(٤٩) معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠
(٥٠) ري سامراء ١/٧٨ ٠
(٥١) معجم البلدان ٤/٣٥٦ ٠

في معرض كلامه عن نهر الاسحاقي « ثم يمر في غربي دجلة عليه ضياع وعمارات ، ويمر بطيرهان ، ويجيء الى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجص ، ويسقي الضياع التي هناك في غربي سر من رأى»(٥٢) ٠

لقد استرعى الموقع المذكور اهتمام دائرة الآثار القديمة فأوفدت بعثة للتنقيب فيه في اوائل نيسان سنة ١٩٣٦ ٠ فكشفت البعثة بما قامت به من الحفريات والتحريات عن بقايا قصر عظيم ٠ واستطاعت ان ترسم له مخططا يوضح اقسامه ومحتوياته مع ابعادها ، على ضوء ما عثرت عليه من اسس الجدران وبقايا زواياها ، وتعرفت على المواد المستخدمة في بنائه ٠ وقد تأكد لدى الدائرة المذكورة ان هذا القصر هو قصر الجص الذي ذكره سهراب وياقوت الحموي (٥٣) ٠

يتكون القصر من بناية مربعة الشكل تتوسط ساحة مسورة ، ويبلغ طول ضلع البناية (١٤٠)م ٠ اما طول السور الخارجي فيقدر بنحو (٣٧٠)م ٠ ويظهر من ذلك ان مساحة القصر لا تقل عن (١٩٠٠٠) متر مربع ٠ اما مساحته مع حدائقه وساحاته وسوره الخارجي فتربو على ثلاثين ومائة الف متر مربع ٠ وقد جرفت مياه نهر دجلة الزاوية الشمالية الشرقية من القصر وازالت معالم السور الخارجي من الجهتين الشمالية والشرقية كما ازالت الضلع الشمالية من السور الداخلي ومعظم الضلع الشرقية منه ايضا(٥٤) ٠

ويظهر من التخطيط الذي وضعته دائرة الآثار القديمة لما كشفته الحفريات عن بقايا هذا القصر ، انه كانت في مركز بناية

---

(٥٢) عجائب الاقاليم السبعة / ١٢٧ ٠
(٥٣) حفريات سامراء ١/١١ ٠
(٥٤) نفس المصدر ٠

القصر قاعة مربعة كبيرة طول كل ضلع من اضلاعها (١٥٫٤٠)م ، وجدرانها سميكة جداً يبلغ سمكها (٢٫٢٠)م ، ويظهر انها كانت تحمل قبة مرتفعة ، ويرجح ان قاعدة القبة كانت تحتوي على عدد من النوافذ لانارة القاعة • وتتصل هذه القاعة المركزية من اواسط اضلاعها الأربع باربع قاعات مستطيلة ، بواسطة اربعة مداخل كبيرة عرض كل مدخل منها (٣٫٦٠م) • علما ان طول القاعات المستطيلة (١٦٫٦٠)م وعرضها (٦٫١٠)م • وكل واحدة من هذه القاعات المستطيلة تتصل بدورها من وسط ضلعها الطويل بايوان مستطيل مكشوف طوله (٧٫٨٠)م وعرضه (٦٫٢٠)م • وكل ايوان يفتح على صحن واسع مستطيل الشكل مكشوف طوله (٢٢٫٨٠)م وعرضه (١٨٫٨٠)م • وينتهي كل صحن منها بثلاث غرف مستطيلة تفضي الوسطية منها الى دهليز ينتهي الى الخارج ببابين متناظرين يكونان مدخل القصر في كل جهة من جهاته الأربع • وتمتد امام البابين دكة عريضة تشرف على الساحات الممتدة بين القصر والسور الخارجي • وتوجد في طرفي كل ايوان غرفتان تفضيان الى الصحن • كما يوجد في منتهى كل قاعة من القاعات المستطيلة التي تحيط بالقاعة المركزية قاعة مربعة الشكل توصل بين القاعات المذكورة بعضها ببعض • وتؤلف هذه الاقسام حول القاعة المركزية شكلا مصلبا تام التناظر • اما المساحة الباقية بين اضلاع المصلب فينقسم كل منها الى عدة بيوت مرتبة كالآتي :

١ ــ القسم المحصور بين الصحن الشرقي والصحن الجنوبي ، اي في الجهة الجنوبية الشرقية من القصر ، فيه عشرة بيوت يتراوح عدد غرفها بين الست والثماني غرف • ويستقل كل بيت منها بمدخل خاص وحمام ودورة مياه • وتفتح مداخل بعض هذه البيوت على الممر الممتد على طول السور الداخلي للقصر ، بينما تفتح مداخل البعض الآخر على ممر خاص عمودي على السور المذكور ، وتنفذ الى القصر •

٢ ـ القسم المحصور بين الصحن الغربي والصحن الجنوبي ، اي في الجهة الجنوبية الغربية فانها تختلف عن ذلك ، لأنها تتكون من قاعات وحمامات كبيرة عوضا عن بيوت صغيرة ٠

٣ ـ القسم المحصور بين الصحن الغربي والصحن الشمالي وهو يشبه تقسيمات الزاوية الجنوبية الشرقية والبيوت فيه متناظرة مع بيوت ذلك القسم ٠

٤ ـ القسم المحصور بين الصحن الشرقي والصحن الشمالي ، اي في الجهة الشمالية الشرقية من القصر ، فقد اندرس ، ويغلب على الظن ان تقسيماته شبيهة بالزاوية الجنوبية الغربية ٠ بالنظر للتناظر المشاهد في الأقسام المعلومة من مخطط القصر(٥٥) ٠

السور :

كان السور الذي يحيط بالقصر مدعما بمائة برج ، اربعة منها كبيرة ومستديرة ، قطر كل منها ثلاثة امتار ، والبقية صغيرة مستطيلة ٠ والابراج الصغيرة موزعة على اساس (٢٤) برجا لكل ضلع من اضلاع السور الاربع ٠ وهي منشورية الشكل طولها متران وعرضها (١ر٤٠)م ٠ ومما يلفت النظر انها منفصلة عن جدار السور بمقدار ٨٠سم ، مما يحمل على الاعتقاد بانها كانت تتصل بالجدار بواسطة عقود خاصة ٠ اما السور الخارجي فلم يكشف منه سوى برجين أثنين فقط ، قطر كل منهما ثمانية امتار ، والمسافة بينهما (٣٥) متراً (٥٦) ٠

مواد الأبنية :

ان الابنية الرئيسة للقصر كالبهو والقاعات والدواوين مبنية بالآجر والجص ٠ وابعاد الآجر المستعمل هي (٢٥×٢٥×٧)سم ،

(٥٥) حفريات سامراء ١/١٢ـ١٣ ٠

(٥٦) حفريات سامراء ١/١٤ ٠

واما سائر جدران القصر فهي مبنية بالحصى الممزوج بالجص بشكل يشبه الخرسانة • وقد استعمل في بناء الأسس النورة والرماد عوضا عن الجص • اما السور الخارجي فكان مبنيا باللبن (٥٧) •

تبليط الأرض :

بلطت ارض البهو والقاعات والأواوين بالآجر المربع الشكل ، وطول ضلع الأجرة (٣٦)سم • وحالة الآجر المستعمل تدل على اتقان كبير في صناعته ، كما ان عملية التبليط كانت قد تمت بصورة متقنة جداً • وقد بلطت سائر اقسام القصر بطبقة من الجص المخلوط بالرمل ، ويلاحظ ان هذه الطبقة الجصية قد كسيت بطبقة من القار في الحمامات ودورات المياه (٥٨) •

طلاء الجدران :

لقد ظهر للمنقبين ان الجدران كانت مطلية بطبقة من الجبس بصورة عامة • وان جدران القاعات منقوشة بزخارف محفورة في طبقة الجبس • اما جدران الغرف الصغيرة فعارية عن الزخارف ، الا انه يلاحظ ان ابوابها كانت محاطة باطارات جبسية بارزة ذات اشكال متنوعة • وقد لوحظ ان اقسام الجدران الواقعة خلف الزخارف الجبسية قد طليت بالقار ، لمنع تأثير الرطوبة عليها ، كما لوحظ ان خلف الزخارف سلسلة من المسامير مغروزة في الجدار • ولاشك في ان القصد منها ضمان ثبات التصاق الزخارف بالجدران لمنع انفصالها وسقوطها • ويمكن ان يستنتج من ذلك ان بعض تلك الزخارف كانت تعمل على قوالب خاصة اولا ، ثم تثبت

---

(٥٧) نفس المصدر •

(٥٨) نفس المصدر •

حسب الحاجة على الجدران • ومما هو جدير بالملاحظة ان استعمال هذه المسامير والقار لم يظهر خلف الزخارف التي اكتشفت في اطلال سامرا في جانبها الشرقي • وسبب ذلك ان انخفاض مستوى الأرض في الجانب الغربي من دجلة بالنسبة للضفة الشرقية ، ساعد على تكوين الحدائق والبساتين ، غير انه جعل البنايات معرضة لتأثير الرطوبة بطبيعة الحال • ويظهر ان الرغبة في التوقي من تأثير الرطوبة على الزخارف الجصية هي التي حملت البنائين على اتخاذ مثل هذه التدابير (٥٩) •

الزخارف الجدارية :

تتكون عناصر الزخارف المستعملة في تزيين جدران القصر من اوراق العنب وعناقيده بوجه عام • غير ان كيفية توزع وتعاقب هذه الاوراق والعناقيد تأخذ اشكالا متنوعة جداً • كما ان تنظيمها الهندسي يضفي عليها جمالا أخاذاً • وتحاط المنطقة المزخرفة دوما باطار جبسي يتألف من سلسلة حلقات او ضفائر مختلفة الأشكال• ومما يجدر ذكره ان الزخارف الجبسية التي ظهرت بين انقاض القصر الفوقاني مكونة من اوراق وعناقيد مثل زخارف القصر التحتاني الا انها اكثر دقة وتعقيدا • فان بعض الاوراق في هذه الزخارف تأخذ اشكالا تزيينية جميلة جداً ، حيث تكون وردات مجتمعة حول مركز واحد • كما ان العناقيد تقع في وسط الوردات وفوق الأوراق • ويستدل من تعقد الزخرفة واتقانها ان هذه البناية احدث عهداً من القصر التحتاني (٦٠) • وربما كان هذا القسم العلوي بمثابة قصر للنزهة والتفرج ، يصعد اليه الخليفة بين حين

---

(٥٩) نفس المصدر / ١٥ •

(٦٠) نفس المصدر / ١٧ •

وآخر ليشرف على ساحات القصر وحدائقه ، وعلى نهر دجلة ومدينة سر من رأى(٦١) .

٤ ـ قصور المعتصم بالله الاخرى :

كان المعتصم بالله عندما شرع ببناء مدينة سامرا طلب الى المهندسين ان يختاروا من الاراضي اصلحها وأنسبها لأنشاء عدد من القصور عليها . فاختاروا عدة مواضع ، وصير الى عدد من كبار اصحابه بناء قصر ، فصير الى خاقان عرطوج بناء الجوسق الخاقاني، والى عمر بن فرج بناء القصر الذي سمي بالعمري ، والى ابي الوزير احمد بن خالد بناء القصر الوزيري (٦٢) . وقد ذكرنا ما توفر لدينا من المعلومات عن الجوسق الخاقاني ، الا ان بقية القصور المشار اليها لم يعثر على شيء من اطلالها ، ولم يكن لها نصيب من اعمال الحفريات والتنقيب . كما اننا لا نجد عنها في مصادرنا الأولية شيئا يتعلق ببنائها او محتوياتها واوصافها سوى ذكرها عند الكلام عن بعض الاحداث التي وقعت في سامرا . فقد ورد ذكر القصر العمري في حوادث سنة (٢٢٤هـ) عندما تزوج الحسن بن الأفشين من اترنجة بنت اشناس ، اذ يقول الطبري « ودخل بها في العمري قصر المعتصم » (٦٣) . وفي حوادث سنة (٢٤٨هـ) لما بويع للمستعين بالله وثار في دار العامة جمع من فرسان الشاكرية والطبرية ومعهم عدد جم من الغوغاء والسوقة داعين للمعتز بن المتوكل على الله ، فشد عليهم المغاربة والاشروسنية ، وانصرف الأتراك ممن بايعوا المستعين بالله مما يلي العمري والبساتين (٦٤) . ويفهم من هذه

---

(٦١) نفس المصدر / ٢٠ .
(٦٢) كتاب البلدان / ٢٥٨ .
(٦٣) الطبري ٩/١٠١ .
(٦٤) نفس المصدر / ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

الاشارة ان القصر العمري كان في احد البساتين القريبة من دار العامة • اما عن القصر الوزيري فقد وردت في الطبري اشارتان الى « الوزيرية » ولاندري هل لهذا الموضع علاقة بالقصر المذكور • وقد ذكر المسعودي ان المعتصم بالله « لما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فأشترى منهم ارضهم باربعة الاف دينار ، وارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية»(٦٥) • واولى الاشارتين في الطبري كانت عندما احصي ما في دار الأفشين بعد ادانته وكان له بعض المتاع في الوزيرية(٦٦) • وكانت الاشارة الاخرى عندما وافى القائد موسى بن بغا في رجاله للوثوب بالمهتدي بالله ، فصار الى قنطرة في ناحية الوزيرية (٦٧) •

٥ ـ معسكر الاصطبلات ونهر الاسحاقي :

ان بقايا الاصطبلات واطلالها الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة ، على بعد (١٥) كيلومتراً جنوبي مدينة سامراء الحالية، هي بقايا معسكر الجيش الذي بناه المعتصم بالله في أثناء اقامته في القاطول قبل ان يؤسس مدينة سامرا ، ثم اكمله فيما بعد • ومما يدل على اقامته هذا المعسكر في تلك المدة وجود كهاريز للماء وسط مباني الثكنات تستمد مياهها من الينابيع الموجودة في منطقة الجزيرة غربي المعسكر وتوصلها الى داخله ، وذلك قبل احياء نهر الاسحاقي (٦٨) • وعندما قرر المعتصم بالله ان يترك منطقة القاطول ويتجه الى سامرا اكمل ابنية المعسكر واصطبلاته ، وبنى له سوراً خارجيا متينا واحاطه بخندق من المياه •

---

(٦٥) مروج الذهب ٤/٥٤ •
(٦٦) الطبري ٩ / ١١٤ •
(٦٧) نفس المصدر / ٤٥٩ •
(٦٨) ري سامراء ١/١٠١ •

ويمكن القول ان سبب انشاء ثكنات الجيش واصطبلاته في الجانب الآخر من دجلة هو نفس السبب الذي حمل المعتصم بالله على الانتقال من مدينة بغداد والعمل على تأسيس مدينة جديدة تتسع لفصل مساكن الجند وثكناتهم عن غيرهم من الناس ، وعزل أقسام الجيش بحسب عناصرهم واسكانهم متباعدين عن بعضهم ، لكي يتلافى قيام المشاكل التي حدثت في مدينة السلام ٠

ويظهر ان الاغراض التي توخاها المعتصم بالله من احياء نهر الاسحاقي كانت توفير المياه للمعسكر الواسع ، وان يقيم من مجراه خندقا على محاذاة سوره الخارجي زيادة في تحصينه بهذا الحاجز المائي الذي يحول دون الوصول اليه ، وذلك بحسب القواعد العسكرية التي كانت متبعة آنذاك ٠

لقد دلت التنقيبات التي اجريت في اطلال معسكر الاصطبلات على انه كان يتألف من مستطيل صغير طوله (٥٠٠)م وعرضه (٢١٥)م يتصل بمستطيل كبير طوله (١٧٠٠)م وعرضه ٥٥٠م ٠ وان المستطيل الصغير كان مقسما الى سلسلة من الأحواش ٠ اما المستطيل الكبير فكان مقسما الى ثلاثة اقسام متساوية تفصل بينها أسوار شبيهة بالاسوار الخارجية للمعسكر ٠ وان المربع الشرقي من هذه الاقسام كامل البناء ، اذ يشاهد فيه شارعان رئيسان يتقاطعان عند منتصفيهما باتجاه عمودي على جدران السور وعلى الشوارع الاربعة التي تمتد على طول الاسوار ٠ وتنقسم المربعات الاربعة المتكونة على اضلاع هذين الشارعين المتعامدين الى اقسام عديدة بشوارع طولية وعرضية كلها متعامدة او متوازية ٠ اما المربعان الآخران فأن الأوسط منهما قليل البناء ، والغربي خال من البناء لا يرى فيه سوى خطوط الشوارع (٦٩) ٠

---

(٦٩) سامراء لمديرية الآثار العامة / ٧٣ ـ ٧٤ ٠

ومن الواضح ان (الاصطبلات) كان معسكرا كبيرا يحتوي على ثكنات الجنود ودور الضباط وساحات للخيم • كما كان يضم ولاشك اصطبلات واسعة لدواب الجند ، مع ساحات للتدريب ، ومخازن للاسلحة والمؤن ، ومرافق اخرى مما تحتاجه المعسكرات عادة • فقد بنيت فيه من الثكنات ما يكفي لسكن (٢٥٠) الف جندي ، ومن الاصطبلات ما يكفي لايواء (١٦٠) الف حصان(٧٠) •

وكان يحيط بالمعسكر سور خارجي يبدأ من الشمال من حافة نهر دجلة الغربية في المكان المعروف باسم «تل بندري» ويمتد على مسافة (٣٦) كيلومتراً غربي المعسكر ، ثم ينتهي جنوبا عند حافة دجلة الغربية عند التل المسمى « تل مسعود » الواقع على بعد (١٣) كيلومترا جنوبي تل بندري • وكان هذا السور محصنا بابراج عديدة في المداخل الرئيسة للمعسكر وفي المنعطفات • ومن جملة هذه الابراج البرجان الواقعان في اول السور عند تل بندري وفي منتهاه عند تل مسعود ، وكانت المياه تحيط بالمعسكر الذي تبلغ مساحته (٥٨) كيلومتراً مربعا من جميع جوانبه • فنهرا دجلة ودجيل يحدانه من الشمال والشرق ، ونهر الاسحاقي يحده من الغرب والجنوب • وكان الاسحاقي اضافة الى احاطته سور المعسكر بحاجز مائي كخندق امامه ، يمون المعسكر بحاجاته من المياه • ولتحقيق هذا الغرض كانت هناك ثلاثة فروع رئيسة له ، تتفرع من ضفته اليسرى فتخترق المعسكر ، ثم يصب بعضها في نهر دجلة وبعضها في نهر دجيل • ويتفرع الأول وهو الشمالي من نقطة تقع على بعد كيلومترين تقريبا جنوبي شرقي المدخل الرئيس للمعسكر في القسم الشمالي من السور ، ثم يصب في دجلة • ويتفرع الاوسط من موضع يبعد حوالي كيلومترين جنوبي شرقي صدر الفرع

---

(٧٠) مختصر تاريخ العرب / ٢٤٨ •

الشمالي ويخترق السور من تحته ويتجه الى الثكنات ، وبعد أن يخترقها يصب في دجلة ايضا • وكان هناك ناظم خاص انشيء على نهر الاسحاقي جنوبي صدر هذا النهر مباشرة لحجز المياه امام الناظم وتحويلها اليه بمنسوب عال • ويشتمل هذا الناظم على ثلاث فتحات لا تزال آثارها ظاهرة • اما الفرع الثالث وهو الجنوبي فانه يتفرع جنوبي الناظم المذكور بكيلومتر ونصف تقريبا ، ويسير بين الاسحاقي وسور المعسكر ، ثم يدخل المعسكر من تحت السور ويخترق قسمه الجنوبي الشرقي ليخرج من تحته ايضا الى خارج المعسكر • وبعد ان يخترق جدار المطبك وخندقه ، وهو جدار قديم ضخم مدعم بابراج ، يتجه نحو نهر دجيل فيصب فيه على مسافة اربعة كيلومترات من مقدم مصب نهر الاسحاقي في نهر دجيل • وكما انشيء ناظم على الاسحاقي لحجز المياه امامه وتحويلها الى هذا الفرع ، فقد انشيء ناظم خاص في فوهة هذا الفرع لتنظيم المياه التي تدخل فيه • ويستدل من آثار الناظمين المذكورين ان ناظم الاسحاقي يتألف من فتحتين ، وناظم صدر الفرع يتألف من فتحة واحدة • ونظراً لسعة مساحة المعسكر ووفرة المياه فقد استعملت مساحة كبيرة منه لاحداث مراع اصطناعية لجياد الجيش ، فكانت الاراضي المخصصة للمرعى تغمر بمياه فروع الاسحاقي(٧١) •

والاسحاقي نهر قديم يعود الى عصور سحيقة ، كان في اوله يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة عند تكريت ويسير جنوبا حتى ينتهي عند منخفض عقرقوف ، بعد ان يروي القسم الأعظم من اراضي الجزيرة الممتدة بين دجلة والفرات شمالي سامرا • وقد اتت عليه عاديات الزمن فاهمل واندثر ، الا ان آثار مجراه كانت واضحة • وعندما شعر المعتصم بالله بحاجة الجانب الغربي من

(٧١) ري سامراء ١/٩٤ ــ ٩٩ •

سامراء الى مزيد من المياه لري المزارع والبساتين الواسعة ، اشير عليه باحياء النهر المندرس المذكور ، فكلف رئيس شرطته اسحاق بن ابراهيم الخزاعي بان يتولى الاشراف على المشروع ، فانفق عليه كثيراً من المال حتى عادت اليه الحياة ، وعادت المياه تجري فيه ، ولذا سمي النهر الجديد باسمه ٠

وبعد ان هجرت سامرا وامتد اليها الخراب استمر نهر الاسحاقي يروي المناطق المذكورة في الجانب الغربي من دجلة ٠ فقد اشار اليه سهراب (المتوفى سنة ٢٩٠هـ) في كتابه بقوله : « يحمل من دجلة من غربيها نهر يقال له الاسحاقي اوله اسفل من تكريت بشيء يسير ، يمر في غربي دجلة ، عليه ضياع وعمارات ، ويمر بطيرهان ويجيء الى قصر المعتصم المعروف بقصر الجص ويسقي الضياع التي هناك في غربي مدينة سر من رأى المعروفات بالأولة والثانية والثالثة والى السابعة ، ويصب في دجلة بازاء المطيرة » (٧٢) ٠

٦ ــ جسر سامرا :

بالنظر لوجود معسكرات الجيش في الجانب الغربي من سامرا ، ولقيام العمران فيه ، اصبح من الضروري ربط جانبي المدينة بجسر يسهل للناس الانتقال بينهما ، وقد بادر المعتصم بالله فور فراغه من بناء الجانب الشرقي من دجلة ، وهو جانب سر من رأى ، الى عقد جسر الى الجانب الغربي من دجلة (٧٣) ٠ ومن المؤسف ان المصادر الأولية لا تزودنا بمعلومات وافية عن هذا الجسر من حيث نوعيته وهل كان ثابتا قد بني بالحجر ام كان طافيا على السفن ٠ ولا تتضمن تلك المصادر سوى اشارات عابرة ٠ فقد اشار المسعودي عند خروج المعتصم بالله لحرب الروم في سنة (٢٢٣هـ) الى هذا

---

(٧٢) عجائب الاقاليم السبعة / ١٢٧ ٠

(٧٣) كتاب البلدان / ٢٦٣ ٠

الجسر بقوله : « فخرج المعتصم من فوره ... فعسكر في غربي دجلة .. ونصبت الأعلام على الجسر » (٧٤) . ويظهر ان الناس كانوا متحمسين لحرب الروم ومتفائلين بهذه الحملة فرفعوا الاعلام فوق الجسر اظهاراً لتأييدهم الخليفة في خروجه للحرب على رأس الجيش العربي . ويذكر الطبري هذا الجسر في حوادث سنة (٢٤٩هـ) بقوله : « وتحركت المغاربة في هذه السنة .. وكانوا يجتمعون قرب الجسر بسامرا »(٧٥) . ويذكره ايضا في حوادث سنة (٢٥٤هـ) عندما حاول بغا الشرابي الوثوب بالمعتز بالله ، فدخل سامرا ليلا بطريق دجلة « فصار الى الجسر في الثلث الأول من الليل، فلما قارب الزورق الجسر . خرج بغا في البستان الخاقاني » (٧٦) . ويشاركه في ذلك ابن الأثير في تاريخه (٧٧) . ولا يستخلص مما رويناه سوى انه كان هناك جسر في سامرا في اثناء الحوادث المذكورة ، وانه قريب من الجوسق الخاقاني .

لقد اقام المعتصم بالله الجسر في الموضع الواقع امام القصر الهاروني الذي شيد في عهد الواثق بالله . ولاتزال بقايا هذا الجسر يمكن مشاهدتها على الجانب الغربي من مجرى نهر دجلة الحالي ، وقد نصبت مضخة ماء على سقف احد الطيقان الضخمة المتبقية من آثار الجسر المذكور . وان قول اليعقوبي « ان المعتصم عقد جسراً » معناه انه بناه على شكل الجسور ذات العقود او الطيقان المألوفة(٧٨) . ويستخلص من تدقيق بقايا الجسر المذكور ان عرضه كان حوالي (١٦) مترا مما يدل على ضخامة بنائه وعظمة تصميمه (٧٩) .

---

(٧٤) مروج الذهب ٤/ ٦٠ .
(٧٥) الطبري ٩/ ٢٦٥ .
(٧٦) نفس المصدر / ٣٨٠ .
(٧٧) الكامل ٧/ ١٨٧ .
(٧٨) ري سامراء ١/ ٧٤ .
(٧٩) نفس المصدر ٢/ ٦٠٠ .

الفصل الثالث

سامرا في عهـد المتوكل على الله

١ ـ عمران سامرا في عهد الواثق بالله :

كان الواثق بالله يختلف عن ابيه المعتصم بالله في كثيـر مـن صفاته وسجاياه ، وهو بعمه المأمون اشبه • ويقول صاحب الذهب المسبوك ان المأمون هو الذي رباه فتقبل افعاله(١) • فقد كان بعيداً عن الروح العسكرية وحياة الخشونة ، ميـالا الى الاداب والعـلوم والمناقشة في المجالس الادبية والعلمية ، وفنانا بطبيعته مولعـا بالشعر والغناء والتلحين • ومع ان اهتمامه بعمران حاضرة الخلافة سامرا التي اسسها ابوه وانفق عليها اموالا طائلة ، لم يبلغ درجة اهتمامه بما يتفق وميوله ، فانه استمر في السكنى بها باعتبارها عاصمة الدولة العربية و » كان قد انتقل من قصور ابيه وبني له قصرا على شط دجلة يقال له الهاروني » (٢) ، واتخذه سكنا له الى حين وفاته فدفن فيه (٣) • وزاد في الاقطاعات ، اي انه اقطع الناس اراضي جديدة لبناء مساكن لهم واسواق ، مما ادى الى توسع المدينة

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •
(٢) كتاب البلدان / ٢٦٤ ، وفتوح البلدان / ٢٩٥ ؛ وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •
(٣) الطبري ٩/١٥١ ، وفتوح البلدان / ٢٩٥ ، والكامل ٧/٣٠ •

وازدياد العمران فيها وزيادة سكانها • كما انه زاد في الأسـواق، لتلبية حاجات سكان المدينة ، ووسع الفرض التى كانت على دجلة لتستوعب السفن التي تـردهـا مـن الموصل وبغـداد وواسـط والبصرة (٤) • مما كان عاملا مهما في تنشيط التجارة وتوسعها •

ان ما اهتم به الواثق بالله من عمران سامرا على قلته ، شجع، الناس على البناء والتعمير في المدينة ، لاسيما تجديد مســاكنهم وعماراتهم فاحكموها واتقنوها لما علموا ان سامرا قد صارت مدينة عامرة ، وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر (٥) •

تشييد القصر الهاروني :

كان الواثق بالله قد اختار موضعا لبناء قصره الهـاروني على، شاطيء دجلة في الجهة الشمالية الغربية من دار الخليفة ، وقد بنى له مسناة قوية (٦) • وجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية ، وكان من احسن القصور (٧) • وقد انتقل اليه • وتكاد مصادرنا الاولية تخلو من ذكر شيء مهم عن هذا القصر الا النـزر اليسير ولاسيما من حيث سعته وما يحتوي عليه من مبان ومرافق اخرى • فقد اشار الطبري في حوادث سنة (٢٢٩هـ) عرضا الى وصف احد، اروقة القصر ، قال : « ذكر عن عزون بن عبدالعزيز الانصاري انه، قال : كنا ليلة في هذه السنة عند الواثق فقال : لست اشتهي الليلة النبيذ ، ولكن هلموا نتحدث الليلة ، فجلس في رواقه الأوسط في، الهاروني في البناء الأول الذي كان ابراهيم بن رباح بناه • وقـد كان في احد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء بيضاء ، كأنها،

---

(٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ •

(٥) نفس المصدر •

(٦) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧٠ •

(٧) كتاب البلدان / ٢٦٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٨ •

بيضة الا قدر ذراع ، فيما ترى العين ، حولها • في وسطها ساج منقوش باللازورد والذهب ، وكانت تسمى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة » (٨) •

كما ورد ذكر الهاروني في بعض الاحداث التي وقعت في سامرا بعد الواثق بالله • فعندما قبض المتوكل على الله على وزيره محمد بن عبدالملك الزيات في سنة (٢٣٣هـ) وأمر باستصفاء امواله واملاكه ، صير ما قبض مما في منزله من متاع وجوار وغلمان ودواب في الهاروني(٩) • اي في قصر الخليفة ، لأنه عندما ولي الخلافة اقام به وبنى به ابنية كثيرة (١٠) • ولما توفى المنتصر بالله اجتمع القواد الاتراك في الهاروني وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش واصحابهم ، لانتخاب من يخلفه(١١) • وعندما ثارت العامة اثر مبايعة المستعين بالله ونادوا بخلافة المعتز « دخلوا دار العامة منصرفين الى الهاروني فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح والدورع والجواشن » (١٢) • ويظهر انه كان قد اتخذ مستودعا للاسلحة •

تقع اطلال القصر الهاروني في الموقع المعروف بالكوير على شاطيء دجلة الشرقي ، ولا تزال بقايا الدكتين الضخمتين ظاهرة يمكن مشاهدتها على شاطيء دجلة الشرقي الحالي في موضع الكوير المذكور • وقد اشتهر آجر هذا القصر ومسناته بالكبر والضخامة حتى صار يضرب به المثل في سامراء الحديثة فيقال آجر الكوير • وكان الجسر الذي اقامه المعتصم بالله على نهر دجلة يقع امام القصر الهاروني تماما • الا ان معالم القصر تكاد تزول بسبب تهافت اهل

---

(٨) الطبري ١٢٥/٩ •

(٩) نفس المصدر / ١٥٨ •

(١٠) معجم البلدان ١٧٥/٣ •

(١١) الطبري ٢٥٦/٩ ، والكامل ١١٧/٧ •

(١٢) الطبري ٢٥٧/٩ •

مدينة سامراء على اقتلاع الآجر من جدرانه والبلوغ في ذلك حتى اسسها (١٣) ٠

ومن بقايا القصر الهاروني قاعدة الحوض الكبير وقد نقلت من بين انقاضه الى دار الآثار العربية (١٤) ٠

وعندما انم الواثق بالله بناء القصر الهاروني مدحه الشاعر علي بن الجهم واصفا بعض معالم الهاروني ، بقصيدة منها قوله : (١٥) :

بان بقرب الخليفة التحف	محل صدق وروضة أنف
دار تحار العيون فيها ولا	يبلغها الواصفون ان وصفوا
لم تنتسب قبله الى احد	ولا تحلت من الألى سلفوا
البحر والبر في يدي ملك	تشرق من نور وجهه السدف
اختاره الله للامام الذي	ينصف من نفسه وينتصف
قد علم الناس ان بالملك الواثق	بالله يشرق الشرف
تبارك الجامع القلوب على	طاعته والقلوب تختلف

٣ ـ توسيع مدينة سامرا :

كان المتوكل على الله مثل ابيه المعتصم بالله يحب البناء والعمران كثيراً ، وقد تفوق عليه فيما اسسه بسامرا من القصور والمتنزهات ، وما شقه من الترع والجداول ، وما بذله من الاموال الطائلة على ذلك ٠ فقد كان ميالا للبذخ مسرفا بطبيعته ، ولهذا

(١٣) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧٠ ٠
(١٤) نفس المصدر ٠
(١٥) كامل القصيدة في ديوان علي بن الجهم / ١٤ـ١٦ ٠

« لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في ايامه »[16] • وكانت فاتحة اعماله العمرانية توسيع مدينة سامرا ، فشق شارعين جديدين في ناحيتها الشرقية موازيين لشوارعها الكبيرة الاخرى ، هما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد • وبنى فيها عدداً كبيراً من القصور التي كانت زينة لها اكملت بهاءها بحيث بلغت اوج عمرانها في عهده •

ويعتبر بناء الجامع الكبير في آخر الحير ، وشق الشوارع الفرعية الثلاثة التي توصل اليه من المدينة ، واقامة الاسواق والحوانيت لمختلف التجارات والصناعات على جوانب هذه الشوارع ، اهم ما ادى الى توسيع المدينة • اذ قامت على هذه الشوارع شكلك وقطائع للسكنى • فقد اقطع المتوكل على الله الكاتبين نجاح بن سلمة واحمد بن اسرائيل ، ومحمد بن موسى المنجم واخوانه ، وجماعة من الكتاب والقواد والهاشميين وغيرهم في آخر الشوارع المذكورة مما يلي قبلة الجامع ، وبذلك اتسعت على الناس المنازل والدور كما اتسع اهل الاسواق[17] •

ويلاحظ اهتمام المهندسين آنذاك بفتح الشوارع الفرعية والدروب التي توصل بين الشوارع الرئيسة في المدينة • ولا يخفى ان ذلك يتيح لأكثر المساكن ان تكون واجهاتها على تلك الشوارع والدروب ، ويسهل الاتصال بين قطائع السكان والأسواق ، اضافة الى تخفيف الزحام داخل المدينة •

اما الشارعان اللذان امر المتوكل على الله بفتحهما في شرقي سامرا فهما شارع الأسكر وشارع الحير الجديد • ويعرف شارع الأسكر بشارع صالح العباسي لأنه ينتهي عند داره التي كانت على وادي ابراهيم بن رباح • وهو يبدأ من المطيرة وينتهي عند حائط

---

(١٦) مروج الذهب ٤/١٢٢ •

(١٧) كتاب البلدان / ٢٦٥ ـ ٢٦٦ •

الحير . وقامت عليه قطائع العسكر الاتراك والفراغنة في دروب منفصلة عن بعضها . وتليها قطائع القواد والكتاب والوجوه من الناس(١٨) . ويبدو ان المتوكل على الله قد انتهج سياسة ابيه في عزل مساكن الجند عن بقية الناس وتوزيعهم بحسب انتماءآتهم منفردين بعضهم عن البعض . ولعل ازدياد عدد الجند كان سبب فتح هذا الشارع لتقوم قطائعهم على جانبيه ، ولهذا سمي بشارع الأسكر او العسكر .

ويقع شارع الحير الجديد شرقي الشارع السابق وموازيا له . وقد سمي بالجديد تمييزاً له عن شارع الحير الذي فتح عند تاسيس المدينة في ايام المعتصم بالله . وقد اقطعت السكك على جانبيه لعدد من قواد الفراغنة والاشروسنية والاشتاخنجية وغيرهم من الأعاجم ، واخلاطا من الناس ، وكان ينتهي عند حائط الحير ايضا (١٩) .

وصار بذلك عدد شوارع سامرا الموازية لنهر دجلة سبعة شوارع ، اولها شارع الخليج في الجهة الغربية من المدينة على ضفاف دجلة مباشرة وآخرها شارع الحير الجديد في الجهة الشرقية لها . وكانت الشوارع الأربعة من جهة الشرق ، وهي شارع الحير وشارع برغاش وشارع الأسكر وشارع الحير الجديد ، تسمى « طرق الحير » لأنها كانت تنتهي عند حائط الحير (٢٠) .

وكان من اجراءات المتوكل على الله في توسيع مدينة سامرا جنوبا ، انه انزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة ، وانزل ابنه المعتز خلفها مشرقا بموضع يقال له بلكوارا وكان قد بني قصراً فسيحا هناك . فاتصل البناء من بلكوارا جنوبا الى آخر الموضع المعروف بالدور شمالا ، مسافة اربعة فراسخ (٢١) .

(١٨ و ١٩) كتاب البلدان / ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(٢٠) ري سامراء ١/١٠٦ .
(٢١) كتاب البلدان / ٢٦٥ .

الطراز الحيري في البناء :

بلغ من حب المتوكل على الله للبناء واهتمامه به انه احيا طرازاً عربيا قديما فيه هو الطراز الحيري ذو الكمين والأروقة . فقد حدثه بعض ندمائه ان احد ملوك الحيرة كان احدث بنيانا على صورة الحرب وهيئتها ، للهجه بها وميله اليها ولئلا يغيب عنه ذكرها . فكان الرواق وفيه مجلس الملك يعتبر الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة وفيهما اقرب خواصه اليه ، وفي اليمين خزانة الكسوة ، وفي اليسار خزانة الشراب . واتبع الناس المتوكل على الله في اتخاذ هذا الطراز من البناء لبيوتهم في عهده وبعده(٢٢) . كما صار الطراز الحيري يتخذ في بناء القصور الكبيرة اذ صار لها مقدم وعلى جانبيه جناحان ، ولها ثلاثة ابواب أوسطها الباب الأكبر والى جانبيه البابان الصغيران (٢٣) . وقد انتقل هذا الطراز من البناء الى بغداد ، فكان قصر التاج الذي بدأ المعتضد بالله بتشييده ببغداد واكمله ابنه المكتفي بالله ، صورة مكبرة للطراز الحيري اذ كان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل عقد يقوم على عشرة اساطين ، والاسطوانة خمسة اذرع(٢٤) . كما نقله الأمير احمد بن طولون الى مصر ، وقد اشرنا الى ذلك عند الكلام عن اعمال ابن طولون العمرانية في مصر .

ساحات الفروسية والسباق :

يظهر من دراسة الخرائط الطوبوغرافية والصور الجوية لأطلال مدينة سامرا انه كان في السهل الممتد شمالي الجامع الكبير ، اي غربي ساحة الحير ، اربع حلقات كبيرة تدور حول مربع

---

(٢٢) مروج الذهب ٤/٨٧ .
(٢٣) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٥ .
(٢٤) معجم البلدان ٢/٥ .

مركزي • وقد اثبتت التنقيبات التي قامت بها دائرة الآثار القديمة ان هذه الحلقات تتكون من طوقين متوازيين بينهما ساحة عرضها ثمانون متراً ، وهما يدوران حول المربع المركزي اربع دورات دون ان تنقطع ، وفي المربع المذكور دكة مرتفعة تظهر عليها آثار بناية من الآجر •

وكانت الدوائر المذكورة ساحة للفروسية او حلبة للسباق، انشئت على شكل مبتكر بديع • وكانت البناية في الدكة المرتفعة معدة للجوس الخليفة وحاشيته للتفرج والتمتع • اما الساحة الممتدة بين الدائرتين المتوازيتين ، والملتوية حول الدكة المذكورة فكانت معدة لجري الخيل وتسابقها • ومن الواضح ان هذا الترتيب المبتكر هو ان يجعل طول الدورة الكاملة في هذه الدوائر المتتالية يزيد على خمسة كيلومترات ، بينما لا يزيد بعدها الاعظم عن الدكة على طول الدورة عن (٦٠٠) متر بحيث يستطيع المتسابقون ان يقعطوا على هذه الساحة مسافة خمسة كيلومترات او اضعافها دون ان يبتعدون عن عين الخليفة واصحابه باكثر من (٦٠٠) متر في جميع الأحوال ، وهو ابتكار يثير الاعجاب ولا ريب • ومما يؤيد ذلك ان هذه الدوائر تقع في نفس المنطقة التي تشاهد فيها معالم حلبتين آخريين من حلبات السباق ، تبدأ احداهما من خلف دار الخليفة ، وتبدأ الاخرى من تل العليق • وان اوضاع هذه الحلبات الثلاث تسوغ الافتراض بأن اقدمها هي التي تبدأ من شرقي دار الخليفة وتتجه شرقا داخل ساحة الحير حتى تنتهي قرب نهر القاطول ؛ ويزيد طول دورتها على عشرة كيلومترات ونصف الكيلومتر • فكان طول الدورة يساعد على اجراء سباقات كبيرة ، غير ان الخيول كانت تتباعد عن الدكة تباعداً كبيراً لا يترك مجالا لتتبع حركاتها ، فيحرم المشاهد من التمتع بمرآها وهي تتسابق نحو الهدف • اما الحلبة التي تبدأ من تل العليق فليست

واضحة المعالم عدا في قسمها الأول ، ومع هذا فان اتجاه هـــذا القسم كاف للحكم على انها كانت طويلة جداً • ومن الطبيعي ان يساعد ارتفاع التل على تتبع حركات الخيول على هذه المسافات الكبيرة ، الا ان ذلك كان يتطلب جهـــداً كبيـــراً وانتباهـــا شديدا (٧٥) •

وقد سبقت الاشارة في البحث الخاص بدار الخليفة الى هاتين الساحتين ، وانهما انشئتا مع الدار المذكورة • اما الساحة التي وصفنا شكلها المبتكر فقد استحدثت بعد الحلبتين المذكـورتـين ، لايجاد حلبة سباق يبقى المتسابقون وخيولهم فيها تحت الأنظـار على الدوام • ويرجح انها من منشآت المتوكل على الله •

تـل العليق :

يقع هذا التل شمالي الجامع الكبير ، وقطره نحو مائتي متر ، وهو يرتفع عن السهل المحيط به بمقدار (٢٥) متراً • ويحيط به خندق عريض دائري يبلغ عمقه نحو ثلاثة امتار • وحوله معالم سور مستدير يبلغ قطره نحو (٤٥٠) متراً (٢٦) • وفي شمالي التل طريق ينحدر من قمته ويعبر الخندق ، ويرجح انه كانت عليـــه قنطرة ، وكانت المياه تصل الى الخندق من القناة التـي حفرهـــا المتوكل على الله لايصال الماء الى سامرا (٢٧) •

ويعلل الناس تسمية التل برواية يتناقلونها هـي ان التـل تكون من التراب الذي نقله الجنود الخيالة بعليق خيولهم •ويروون ان الخليفة المتوكل على الله اراد ان يظهر ضخامة جيشه وكثـرة

---

(٢٥) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٦٣ـ٦٥ •
(٢٦) نفس المصدر / ٦٠ •
(٢٧) ري سامراء ١١٨/١ •

عدد فرسانه بدليل عياني محسوس ، فأمر ان يملأ كل واحد من جنوده الخيالة عليقه بالتراب ، ثم يرميه هناك ، فتكون التل من التراب الذي تجمع على هذا الوجه(٢٨) • وجاء في خلاصة الذهب المسبوك ان المعتصم بالله هو الذي امر بعمل تل المخالي المذكور لما جيش الجيوش الى محاصرة عمورية(٢٩) • ويحتج القائلون بالرأي الأول ان اتصال خندق التل بقناة سامرا دليل على انه من عمل المتوكل على الله الذي انشأ القناة المذكورة • الا اننا نرى ان ما ذهب اليه صاحب الذهب المسبوك اقرب الى الواقع لما عرف عن المعتصم بالله من الروح العسكرية الشديدة وحبه الجيش وعنايته به بحيث انه ترك العاصمة الى مدينة اخرى بسببه ، ولهذا فان التفاخر بضخامة الجيش وكثرة عدد فرسانه اجدر به • اما اتخاذ اتصال خندق التل بالقناة دليلا على انه من منشآت المتوكل على الله ، فلا يغير من الواقع شيئا ، لأن ذلك لا يمنع من ان يكون التل موجوداً وان المتوكل على الله اوصل الماء الى الخندق المحيط به •

من المؤكد ان التل اصطناعي وقد كون بطريقة حفر خندق مستدير وتكويم التراب الذي يرفع منه فوق الدائرة الباقية في داخله • وقد درس هرزفيلد هذا التل خلال تنقيباته في سامرا واستنتج انه كان على قمته قصر مربع الشكل مقسم الى تسع غرف متصلة ببعضها ، واحدة منها في الوسط واربعة متصلة باضلاع هذه الغرفة على شكل اواوين مفتوحة • والاربعة الاخرى بين اضلاع الاواوين المذكورة • والغرض من تكوين هذا التل في وسط السهل وتشييد هذا القصر فوقه انما كان للتفرج من محل مرتفع يمتد فيه النظر ، لأنه كان يشرف على الحير وعلى احدى حلبات السباق(٣٠) • وهناك احتمال ان يكون هذا التل قبر احد

---

(٢٨) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٦١ــ٦٢ •
(٢٩) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ •
(٣٠) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٦١ــ٦٢ •

القواد الرومان ، وقد استعمل للتفرج على السباق بعد ان شيدت فوقه تلك الحجرات ، ومما يجدر ذكره للمقارنة ان هناك مصطبة على الكتف الغربي للقاطول الأعلى حيث تنتهي دورة حلبة السباق، عليها بقايا غرف مماثلة تطل على الساحة المنبسطة ، يحتمل انها شيدت لغرض التفرج منها ايضا (٣١) ٠

الحيـر :

حائر الحير هو الحائط او السور الذي بناه المعتصم بالله في نهاية ابنية سامرا من جهتها الشرقية ٠ وكان يمتد على طول الأبنية من الجوسق الخاقاني حتى المطيرة ٠ وقد احتفظ بالسهل الواسع الممتد خلف هذا الحائط من غير بناء ليكون ساحة ترتع فيها الحيوانات والطيور ، وسميت بساحة الحير ٠ ويذكر اليعقوبي انه كلما توسع عمران سامرا شرقا وامتد الى ساحة الحير هدم السور المذكور وبنى آخر بدلا عنه بعد العمران الجديد ، وعدد اصنافا من الطيور والوحوش كالظباء والحمر الوحشية والأيائل والارانب والنعام وغيرها ، مما كان محجوزاً في الساحة المذكورة (٣٢) ٠

وعندما توسع المتوكل على الله في العمران شرقي سامرا انشأ حائطا جديداً على الحدود الجديدة للبناء الذي اقيم في ظهر شارع الحير الجديد ، بعد ان اقتطع جزءا كبيرا من ساحة الحير ، وجعل لهذا الحائط بابا رئيسا عُرف بباب الحير ، جنوبي الجامع الكبير مما يلي الجوسق ، ليوصل بين الساحة والمدينة ٠ وقد ورد ذكر الحير وبابه في عدد من الأحداث المهمة التي وقعت في ايام الخليفة المهتدي بالله ٠ فقد ذكره الطبري في حوادث السنة (٢٥٦هـ) عندما

(٣١) المرشد الى مواطن الاثار والحضارة ــ (سامراء) / ١٨ ٠
(٣٢) كتاب البلدان / ٢٦٣ ٠

صار القائد موسى بن بغا الى باب الحير وعسكر هنـاك قـرب دار القائد التركي ياجور (٣٣) • وعندما القي القبض على القـائد صالح بن وصيف اخرج من باب الحير ليذهبوا به الى الجوسق(٣٤) • وعندما عزم المهتدي بالله على حرب الأتراك خرج الى الحير وعرض الناس وامر ان تضرب الخيام والمضارب في الحير ، وعبأ اتباعـه لمواجهة الأتراك (٣٥) •

ان المتوكل على الله وسع الحير نحو الشرق وانشأ فيه حديقة واسعة للحيوانات تزيد مساحتها على عشرين الف دونم ، واحاطها بسور بلغ طوله حوالي ثلاثين كيلومترا • وقد جمعت فيها اصناف الحيوانات البرية من الوحش والطير ، كان بعضها حراً طليقـا وبعضها حبيسا في الأقفاص • وللشاعر البحتري قصيدة يمتدح فيها المتوكل على الله ويشير الى حير الوحش ويقدر عدد الوحوش فيه بالفين ، ويقول انها كانت تألفه وتخضع له ، ويذكر نهـر نيزك الذي يروي متنزه الحير ، جاء فيها(٣٦) :

خليفة الله ما للحمد منصرف
الا الى نعم أصبحت توليهـا

فلا فضيلة ، الا انت لابسها
ولا رعية ، الا انت راعيهـا

ملك كملك سليمان الذي خضعت
له البرية : قاصيهـا ودانيهـا

(٣٣) الطبري ٩/٤٣٨ ـ ٤٣٩ •
(٣٤) نفس المصدر / ٤٥٤ •
(٣٥) نفس المصدر / ٤٦٥ •
(٣٦) ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ١/ ٤٥ـ٤٦ •

«وطاعة الوحش اذ جاءتك من خرق
أحرى ، وأدمانة كحل مآقيها[٣٧]

كالكاعب الرود يخفي في ترائبها
روع العبير ويبدو في تراقيها

الفان وافت ، على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها

ان سرت سارت وان وقفتها وقفت
صوراً اليك ، بالحاظ تواليها

يرعن منك الى وجه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيها

حتى قطعت بها القاطول وافترقت
بالحير في عرصة فسح نواحيها

فنهر نيزك ورد من مواردها
وساحة التل مغنى من مغانيها

وقد انشىء في الطرف الجنوبي لهذا المتنزه الواسع قصراً يشرف على بركة ماء واسعة ينتهي اليها نهر نيزك ، وعرف هذا القصر باسم قصر الدكة • وكان طوله (١٦٥)متراً وعرضه (١٢٥) متراً ، اي ان مساحته كانت تربو على عشرين الف متر مربع • ويرجح الدكتور احمد سوسه ، ان هذا القصر كان يعرف بقصر الساج ايضا ، وان البركة التي امامه هي البركة الحسناء التي وصفها البحتري وتغنى بجمالها وروعة الرياض التي تحتها[٣٨] •

---

(٣٧) الخرق : المدهوش من خوف او حياء •
والادمانة : الظبية التي لونها مشرب بياضا •
(٣٨) ري سامراء ٢/٢٩٩ •

وتوجد في الركن الجنوبي لقصر الدكة اطلال بناية واسعة طولها (٤٠٠) متر وعرضها (٢٦٥) متراً ، يرى الدكتور سوسة انه يحتمل ان تكون هذه الأطلال من بقايا قصر البديع الذي بناه المتوكل على الله ، لأن البحتري اقترح في احدى قصائده في مدح المعتز بالله ، ان يمد فرع قناة سامرا الذي شقه المتوكل على الله لتموين قصر الدكة بالماء ، ويوصله الى قصر البديع ومنه ينهيه الى دجلة قرب الجوسق ، اذ يقول :(٣٩)

الحقه يا خير الورى بمسيره
وامدد فضول عبابه المتدفق

فاذا بلغت به البديع فانما
انزلت دجلة في فناء الجوسق

وهو يرجح ايضا ان قصري الصبيح والمليح اللذين بناهما المتوكل على الله يقعان في هذا المتنزه ايضا • وهو يستند في ذلك على وصف البحتري الوارد في احدى مدائحه التي قالها في المتوكل على الله ، وذكر فيها القصرين المذكورين والبركة الحسناء ، التي قال فيها : (٤٠)

واستتم الصبيح في خير وقت
فهو مغنى انس ودار مقام
ناظر وجه المليح فلو يستطيع
حياه معلنا بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذاك
فمن ضاحك ومن بسام

(٣٩) نفس المصدر ١/١٢٥ •

(٤٠) نفس المصدر ٢/٣٠٣ والقصيدة فى ديوان البحتري ٣/٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧ •

حتى يقول :

مستمد بجدول من عباب المـاء
كالأبيض الصقيل الحسـام

واذا ما توسط البركة الخضراء
ألقت عليه صبغ الرخـام

فتراه كأنه ماء بحر
يخدع العين وهو ماء غمام

على ان تأييد ذلك يتوقف على ما ستسفر عنه التنقيبات والتحريات التي ستجريها دائرة الآثار القديمة على الاطلال والآكام المشار اليها· علما ان الدائرة المذكورة لاترى رأي الدكتور سوسه في موضوع البركة ، وترى انها بركة القصر الجعفري الذي شيده المتوكل على الله في مدينة المتوكلية ، وان البركة التي في حديقة الحيوانات من عمل المعتصم بالله عندما بنى قصره على القاطول قبل انتقاله الى سامرا (٤١) ·

٣ ـ مشاريع الري في عهد المتوكل على الله :

تم في عهد المتوكل على الله ثلاثة مشاريع مهمة لري سامرا وما حولها ، هي : قناة سامرا او قناة المتوكل على الله ، ونهر النيزك ، والنهر الجعفري · وسنلقي نظرة سريعة على كل من قناة سامرا ونهر النيزك ، اما النهر الجعفري فنرجيء البحث فيه الى موضوع انشاء مدينة المتوكلية لأنه انشيء لايصال المياه اليها ·

قناة سامرا :

كان من جملة المشاكل التي واجهت مدينة سامراء منذ تأسيسها ان ارتفاع الضفة الشرقية لنهر دجلة التي قامت عليها المدينة

(٤١) نفس المصدر ٢/٣١٢ ·

اولا ، حال دون توفر المياه للشرب وللري الا بالواسطة • وقد اعتمد الناس في شربهم على حمل المياه اليهم في الروايا على الأبل والبغال ، وهذا ما دفع المعتصم بالله الى اعمار الجانب الغربي من المدينة ، لأن ارضه منخفضة عن مستوى النهر ويسهل اسقاؤها سيحا ، مما يساعد على التوسع في الزراعة • وقد اشرنا الى احيائه نهر الاسحاقي الذي صار محور العمران في هذا الجانب من المدينة •

ويظهر ان المتوكل على الله صرف همته الى توسيع مدينة سامرا في الجانب الشرقي منها رأى ان يبدأ بتوفير المياه الكافية لها قبل كل شيء • ولهذا كان اول مشاريعه الاروائية حفر قناة تؤمن ايصال الماء الى هذا الجانب من المدينة بطريقة الري الجوفي المعروف بري الكهاريز • واشتمل مشروعه على كهريزين ضخمين يستعمل احدهما في الشتاء والآخر في الصيف • وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمال الدور ، فيسيران جنوبا حتى يصلا العاصمة • وقد مدت هذه القناة جنوبا لتصل الى المطيرة فالقادسية (٤٢) •

والكهريز مجرى ماء على شكل نفق تحت الأرض لسحب المياه الجوفية من العيون ونقلها الى الاراضي الزراعية سيحا ، وذلك بحفر آبار على مسافات معينة على طول النفق لرفع اتربة المجرى بواسطتها ولاستخدامها كنوافذ هوائية للنفق وللنزول اليه اذا ما اقتضى تنظيفه من الترسبات والعوائق التي تحول دون جريان الماء فيه • وتحفر الآبار عادة بانحدار تدريجي من بئر الى اخرى ادنى مستوى منها ، ليتسنى للمياه الجريان الى الجهة المطلوبة • وتغطى هذه الآبار بابواب لمنع تسرب الاتربة الى المجرى • وتختلف المسافة بين بئر واخرى حسب طبيعة الأرض ، وهي تتراوح بين خمسة

---

(٤٢) ري سامراء ١/ ٢٧٠ ــ ٢٧٢ •

امتار وعشرين متراً • وتكون هذه الآبار عادة باتجاه واحد ، وهي تدل على اتجاه الكهريز وطوله • ومن الطبيعي ان يختلف طول الكهريز باختلاف طبيعة سطح الارض وعمق المياه الجوفية •

لقد تسنى للمتوكل على الله بواسطة هذه القناة ان يوصل المياه الى البركة الكبيرة التي كانت خلف دار العامة ، وهي المعروفة ببركة السباع • ثم الى البركة الثانية التي تقع شمالي غربي البركة السابقة • والى ساحة السباق الواسعة التي انشأها من جهة الحير ، والى خندق تل العليق المشرف عليها • كما انه وفر الماء الكافي للجامع الكبير ولاسيما لنافورته التي لا ينقطع ماؤها •

نهر نيزك :

اراد المتوكل على الله ان يوسع حير الحيوانات خارج مدينة سامرا شرقا ، في المنطقة الكائنة بين القاطول الاعلى والقاطول الأسفل المسمى بنهر القائم ، وذلك بعد ان ضم جزءا كبيراً من اراضي الحير الذي انشأه المعتصم بالله ، الى مدينة سامرا عندما وسعها نحو الشرق بفتح الشوارع الجديدة وتوزيع الاراضي التي اقطعها لبناء المساكن ، وبناء الجامع الكبير • الا ان المنطقة التي اختارها لتكون حديقة واسعة للحيوانات ومتنزها كبيراً لأهل سامرا ، تحتاج الى مزيد من المياه الدائمة الجريان • فعمد الى احياء نهر القادسية القديم الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى للقاطول الأعلى ، من موضع يبعد عن صدره بثلاثين كيلومتراً وينتهي عند منطقة المشرحات فيخترق المنطقة المذكورة ويرويها • وهي المنطقة التي كان الخليفة هارون الرشيد بنى فيها قصراً لنزهته • وكان نهر نيزك ينتهي عند البركة التي انشأها المتوكل على الله في هذا المتنزه • ولكي يؤمن استمرار تدفق المياه في النهر الجديد اقيم ناظم على نهر القاطول ليرفع مناسيب المياه

فيه حتى يتدفق الى النهر المذكور الذي سمي بنهر نيزك • وبذلك
أمن ارواء منطقة الحير الجديد الواسع وحدائقه سيحا •

وكانت تتفرع من نهر نيزك عدة فروع من ضفته الغربية لتسقي اراضي المطيرة ومنطقة بركوارا ، جنوبي سامرا[٤٣] •

٤ ـ الجامع الكبير :

مقدمة :

كان من خطة المعتصم بالله في بناء سامرا ان يبني مسجداً في كل منطقة سكنية ، فعندما اقطع كبير قواده اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ امره ان يبني مع المساكن المساجد والأسواق • كما انه انشأ مسجداً جامعا على شارع السريجة ، وهو الشارع الأعظم ، واختط الأسواق حوله • ولم يزل يجمع فيه الى ايام المتوكل على الله الذي تولى الخلافة سنة (٢٣٣هـ) فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعا واسعا في طرف الحير • يقول اليعقوبي : « وبنى المسجد الجامع في اول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق ، واتقنه ووسعه واحكم بناءه ، وجعل فيه فوارة ماء لاينقطع ماؤها • وجعل الطرق اليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رباح ، في كل صف حوانيت فيها اصناف التجارات والصناعات والبياعات ، وعرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء ، لئلا يضيق عليه الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله » [٤٤] •

---

(٤٣) ري سامراء ٢/٢٨٩ •
(٤٤) كتاب البلدان /٢٦٥ •

يستنتج مما ذكره اليعقوبي ان المتوكل على الله بنى الجامع الكبير خارج المدينة ومد اليه ثلاثة شوارع توصل بينه وبين الشارع الأعظم في سامرا ، وجعل عرض كل شارع من هذه الشوارع مائة ذراع سوداء ، وتقوم على جوانبها حوانيت اصناف التجارات والصناعات بهدف توسيع المدينة وزيادة اسواقها ومتاجرها . وكانت هذه الشوارع الثلاثة تتفرع من الشارع الأعظم جنوبي دار الخليفة والقصر الهاروني وقصر الجوسق ، وتتجه شرقا حتى تفضي الى الجامع في جانب الحائط الغربي الذي كانت فيه سبعة مداخل ، بعد ان تخترق السور الخارجي للجامع .

يقول البلاذري عن المتوكل على الله : « وبنى مسجداً جامعا كبيرا وأعظم النفقة عليه ، وامر برفع منارته لتعلو اصوات المؤذنين فيها حتى نظر اليها من فراسخ ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول » (٤٥) . وجاء في خلاصة الذهب المسبوك ان المعتصم بالله «بنى الجامع الكبير وانفق على ذلك خمسمائة الف دينار وجعل وجوه حيطانه مرايا بحيث يرى القائم في الصلاة من يدخل من خلفه . وبنى المنارة التي يقال انها من احدى العجائب»(٤٦) . وهو لاشك واهم اذا ما اعتبرنا كتاب البلدان لليعقوبي اقدم المصادر واوثقها عن سامرا . وان البلاذري ايده في روايته ، كما ايده ياقوت في معجمه .

يعتبر المسجد الجامع الذي انشأه المتوكل على الله اروع المنشآت ذات الأثر في تلك الحقبة من حياة الدولة العربية . وتشاهد آثاره اليوم مع مئذنته الملوية شمالي شرقي مدينة سامراء الحالية . وتعتبر اضخم وابرز الآثار الباقية من مباني سامرا

---

(٤٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٥ وقد نقل عن البلاذري نفس النص .

(٤٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ .

القديمة . ورغم ان هذا الجامع يشبه المساجد الجامعة الاخرى من حيث تخطيطه العام ومحتوياته الا انه يمتاز عليها جميعا بسعة مساحته وضخامة بنائه ، وبمئذنته الملوية . وهو يعد اكبر جامع في العالم الاسلامي . وكان البدء ببنائه في سنة (٢٣٤هـ) والانتهاء منه في سنة (٢٣٧هـ) [٤٧] . ويذكر ياقوت الحموي ان مجموع ما انفق على بنائه بلغ خمسة عشر الف الف درهم [٤٨] .

ويتضح من تنقيبات هرزفيلد ان اضلاع السور الخارجي للجامع كانت تبلغ ٣٧٦×٤٤٤م ، اي ان مساحة المسجد والزيادات التي في خارجه تربو على (١٧) هكتاراً اي اكثر من (٦٨) دونما عراقيا[٤٩] . ويقدر بروكلمان مساحة صحنه الداخلي باربعة واربعين الف متر مربع ، ويقول : « وبحسبنا لكي نكون فكرة عن معنى هذا الرقم ان نذكر ان صحن كنيسة القديس بطرس في روما يبلغ (١٥١٦٠م٢) ، وصحن ايا صوفيا في استانبول يبلغ (٦٨٩٠م٢) ، في حين لا يزيد صحن كاتدرائية كولون على (٦١٢٦م٢)[٥٠] » .

مخطط الجامع :

يتألف الجامع من اربعة اقسام تحيط بالصحن هي : الحرم ويقع على الضلع الجنوبية للجامع ، وكان فيه خمسة وعشرون رواقا مؤلفة من اربعة وعشرين صفا من الاعمدة في كل صف منها تسعة اعمدة . وينتهي الرواق الأوسط بالمحراب وهو اعرض قليلا من الاروقة الاخرى . ثم القسم الشمالي المقابل للحرم ، وكان فيه خمسة وعشرون رواقا مؤلفة من اربعة وعشرين صفا من

---

(٤٧) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٩ .
(٤٨) معجم البلدان ٣/١٧٥ .
(٤٩) ري سامراء ١/١١٢ .

الاعمدة في كل صف منها ثلاثة اعمدة • وكانت صفوف هذه الأعمدة تمتد على شكل خطوط ذات زوايا قائمة الى داخل المسجد بالنسبة لجداريه الشمالى والجنوبي • والرواق الأوسط في هذا القسم اكثر اتساعا من بقية اروقته • ثم الجانبان الشرقي والغربي من المسجد وكان في كل منهما ثلاثة وعشرون رواقا مؤلفة من اثنين وعشرين صفا من الأعمدة في كل صف منها اربعة اعمدة • وبذلك يبلغ مجموع الأعمدة (٤٦٤) عموداً (٥١) • وهناك اختلاف في مجموع الأعمدة ناشيء من اعتبار البعض عدد صفوف الأعمدة في الحرم عشرة اعمدة بدلا من تسعة ، او من اعتبار عدد صفوف الاعمدة في القسم الشمالي اربعة بدلا من ثلاثة ، بحيث يصبح المجموع (٤٨٨) عموداً •

ان جميع الأعمدة كانت مبنية بالآجر على قواعد مربعة طول ضلعها (٢ر٧٠م) وترتفع بشكل مثمن تاركة في كل زاوية من الزوايا الأربع فسحة لارتكاز عمود رخامي قطره (٣٠سم) • وكان بعض هذه الأعمدة الرخامية اسطوانيا ، وبعضها مثمنا ، وقد ثبتت قطعها باوتاد معدنية ، وملئت الثقوب بالرصاص ، واحيطت مواضع الأتصال باطواق معدنية ايضا • ويبلغ ارتفاع الأعمدة من ارضية الجامع حتى السقف حوالي (١٠ر٥٠م) ، وينتهي اعلاها بتيجان جرسية الشكل • وكانت الأعمدة الرخامية بالوان متعددة وجد منها تسعة انواع مختلفة معظمها من المرمر(٥٢) •

وكانت هذه الأعمدة تحمل السقف الخشبي للجامع دون ان ان ترتبط بعقود او طيقان من البناء كما ارتأى الآثاريون(٥٣) • الا

---

(٥٠) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ / ٥١ •
(٥١) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٧ـ٤٨ •
(٥٢) العمارة العباسية / ١٤٥ ـ ١٤٦ •
(٥٣) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٨ •

انه يظهر ان الفسحة الموجودة بين الأعمدة كانت قد سقفت بعوارض ، وان الحفر التي ثبتت فيها العوارض المتقاطعة كانت لاتزال ترى في الجانب الداخلي للجدار في عام ١٩١١ . كما ان التنقيبات التي اجرتها دائرة الآثار القديمة كشفت عن وجود اكتاف من الطابوق والجص ، وذلك مما يدفع الى القول بان السقف لم يكن يستند مباشرة على الأعمدة (٥٤) .

المحراب :

اما محراب الجامع فانه يقع في منتصف الضلع الجنوبية ، وكان قد تهدم واتخذ شكل باب . غير ان دائرة الآثار القديمة كشفت عن معالمه من تحت الانقاض واعادت بناء القسم الاسفل منه . لاعطاء فكرة عامة عن سابق وضعه(٥٥) . وهو تجويف مستطيل الشكل عرضه (٥٩ر٢م) وعمقه (٧٥ر١م) وهي نفس الأبعاد التي كانت متخذة حينذاك للمحاريب(٥٦) . وكان يحف به من الجانبين زوجان من اعمدة الرخام الوردي اللون ، وفي اسفل كل عمود واعلاه قاعدة بسيطة مستطيلة . ويقوم على العمودين قوسان متحدا المركز يشكلان عقادة المحراب ، وذلك ضمن اطار مستطيل بارتفاع جدار الجامع (٥٧) . وقد عثر بين اللقى على قطع من الفسيفساء المزجج النفيس والمذهب ، يرجح انها مما كان يغطي جدران المحراب . وقد اشار المقدسي الى ان حيطان الجامع قد لبست بالمينا(٥٨) . كما اشار الاربلي الى ان وجوه حيطان الجامع

---

(٥٤) العمارة العباسية / ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٥٥) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٧ .

(٥٦) Creswell, E. M. A. P : 277.

(٥٧) ري سامراء ١/١١١ .

(٥٨) أحسن التقاسيم / ١٢٢ .

جعلت من المرايا (٥٩) • ويظهر انهما قصدا بذلك الفسيفساء المزججة والمذهبة المشار اليها • وكان هرزفيلد قد فسر الميناء بالموزاييك اي الفسيفساء (٦٠) • ويلاحظ ان المحور الرئيس للمحراب يشير الى ان اتجاه القبلة فيه يقع على ١٩٨ درجة و٣٠ دقيقة على حين ان القبلة تقع على ١٩٦ درجة و٤٦ دقيقة ، اي ان اتجاه الجدار يرجع درجة واحدة و٤٤ دقيقة الى الشرق(٦١) • وهذا يتفق مع ما يقوله اليعقوبي عن سامرا « واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ويصدق ذلك ان قبل مساجدها كلها مزورة ، فيها ازورار ، ليس فيها قبلة مستوية »(٦٢) •

وكشف التنقيب عن وجود بابين صغيرين على جانبي المحراب احدهما عن يمينه والأخر عن يساره ، وهما يؤديان الى بناية صغيرة كانت قائمة خلف المحراب • وقد قيل عن هذه البناية انها ربما كانت مكانا لاستراحة الخليفة اذا جاء للصلاة ، لأن قصور الخلفاء في سامرا كانت بعيدة عن المسجد الجامع • كما قد يكون احد البابين قد خصص لدخول الامام المسؤول عن الجامع كي لا يتخطى المصلين من ظهورهم اذا جاء للصلاة بهم (٦٣) •

النافورة :

كان صحن الجامع واسعا فسيحا ، وبعد رفع الركام المتجمع فيه ظهرت في وسطه آثار تدل على انه كانت هناك نافورة مدورة كبيرة • وقد اشار اليعقوبي اليها في معرض كلامه عن بناء الجامع

---

(٥٩) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ •

(٦٠) Creswell, E. M. A. P : 277.

(٦١) ري سامراء ١/٢٨٤هـ •

(٦٢) كتاب البلدان / ٢٦٨ •

(٦٣) مجلة سومر العددان ١ و٢ من سنة ١٩٦٩ / ١٤٨ •

بقوله « وجعل فيه فوارة ماء لا ينقطع ماؤها » (٦٤) • وقال ياقوت الحموي ان المتوكل على الله « اشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء» (٦٥) • وبذلك تأمن استمرار تدفق المياه من النافورة •

وقد اظهرت تنقيبات هرزفيلد ان الحوض كان يرتكز على قاعدة اسطوانية بنيت بالآجر بمونة الكلس والرماد وكسيت بالرخام • وعثر في الانقاض المجاورة للنافورة على قطع من اعمدة رخامية واجزاء من تيجانها ، وزخارف جصية مذهبة ، وقطع من الفسيفساء الزجاجية • ويرجح من وجود بقايا الأعمدة الرخامية حول قاعدة الحوض انه كان ثمة سقف فوق النافورة تحمله هذه الأعمدة (٦٦) • ووصف حمدالله المستوفي الحوض المشار اليه بأنه كان قطعةواحدةمن الحجر محيطها(٢٣)ذراعا ، وارتفاعها (٧) أذرع وسمكها نصف ذراع ، وكانت تعرف بكأس فرغون(٦٧) • واشار المؤرخ ابن الفوطي في حوادث سنة (٦٥٣هـ) الى انه في هذه السنة « حملت القصعة المعروفة بقصعة فرعون من سر من رأى الى بغداد في كلك ، ورفعت تحت دار الخليفة ، وكانت عظيمة جداً ، فلم تزل حتى سنة (٦٥٧هـ) ثم كسرت »(٦٨) •

وسبق ان ذكرنا ان الحوض الكبير الذي كان يتوسط الدار المربعة في جناح الحريم من دار العامة كان من الكرانيت المصري وانه يعود الى عهد الفراعنة ، ولذا يمكن القول بان حوض الجامع الكبير وهو صخرة عظيمة مجوفة كان قد جلب من مصر ايضا مع

---

(٦٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ •
(٦٥) معجم البلدان ٣/ ١٧٥ •
(٦٦) ري سامراء ١/ ١١١ •
(٦٧) نفس المصدر •
(٦٨) الحوادث الجامعة / ٣٠٦ •

الحوض المذكور او بعده ، ومن هنا جاءت نسبته الى فرعون فسمي كأس فرعون او قصعة فرعون ·

جدران الجامع :

لم يبق من بناء الجامع شيء قائم غير جدرانه الخارجية التي تحيط بساحة مستطيلة طولها نحو ٢٤٠ متراً وعرضها ١٦٠ متراً ، اي ما مساحته (٣٨) الف متر مربع · وهذه الجدران سميكة لايقل سمكها عن مترين ، ويناهز ارتفاعها عشرة امتار · وهي مبنية بناء جيداً متقنا بالآجر والجص · وتدعمها من الخارج ابراج نصف دائرية عددها اربعون برجا ، اربعة منها في الاركان ، وثمانية في كل من الضلعين الشمالية والجنوبية ، وعشرة في كل من الضلعين الشرقية والغربية (٦٩) · الا ان المخططات التي وضعها الآثاريون ممن عنوا بدراسة بقايا الجامع ، مثل بيليه وهرزفيلد وفيوله وكريزويل تتفق في ان عدد الابراج الواقعة على كل من الجانبين الأطول منه (١٢) برجا ، وفي كل من الجانبين الآخرين (٨) ابراج ، فيصبح المجموع (٤٤) برجا(٧٠) ·

شيدت الابراج المذكورة على قواعد مستطيلة من صنفين او ثلاثة من الطابوق ، وهي تمس محيط البرج ، طولها (٩٠ر٣م) وعرضها (٢٥ر٢م) لأبراج الجوانب · اما ابراج الاركان فيبلغ طول القواعد التي تقوم فوقها (٤٥ر٥م) وعرضها (٢٥ر٥) · ومعدل قطر ابراج الجوانب (٦٠ر٣م) اما ابراج الأركان فان اقطارها اكبر من ذلك · ويبلغ معدل بروز الابراج جميعا بما فيها ابراج الأركان (١٥ر٢م) من كلا الوجهين ، عدا البرجين

---

(٦٩) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٤٥ ·
(٧٠) العمارة العباسية / ١٣٣ ·

اللذين على جانبي المحراب فانهما مستطيلان من وجهما الداخلي حتى مستوى قمة الأبواب (٧١) ٠

ان الابراج خالية من النقوش والزخارف ٠ اما اجزاء الجدران الواقعة بين الابراج فانها مزدانة في قسمها الأعلى بست خسفات مربعة يظهر في وسط كل منها خسفة مستديرة تكسب الجدار رونقا وجمالا ٠ ويبلغ قطر الخسفة المستديرة متراً واحداً وعمقها (٢٥سم) وقد بني نصفها العلوي على شكل عقد نصف دائري ٠ ولايزال قسم من هذه الخسفات تكسوه طبقة من الزخارف الجصية ٠ وفوق الخسفات بثلاثين سنتمترا يوجد افريز يتكون من صفين من الآجر ٠ ويظهر على كل جزء من اجزاء الجدار بين الابراج شق شاقولي منتظم لاشك في انه كان يحتوي على المواسير المخصصة لتصريف مياه الامطار مما يتجمع فوق سطح الجامع (٧٢) ٠

وقد عثرت دائرة الآثار العامة في أثناء التحري والتنقيب في الجامع على قطع زجاجية زرقاء غامقة مربعة الشكل طول ضلع الواحدة منها (٥٠سم) وسمكها (٥ر٣سم) ويبدو انها كانت بالأصل تزين الجزء السفلي من الجدار القبلي داخل الحرم الى ارتفاع متر اعتبارا من تبليط ارضية الجامع ٠ وقد لوحظ ان هناك صفين من تلك القطع احدهما فوق الآخر ، وتكبس في الفراغات الحاصلة بينهما مساند مدورة من نفس الزجاج لزيادة تماسك القطع الزجاجية التي كانت مثبتة في القديم على ثلاثة صفوف ٠ وماتزال آثارطبعاتها تشاهد بصورة سليمة جلية اسفل الجدار القبلي (٧٣) ٠

---

(٧١) نفس المصدر / ١٣١ ـ ١٣٣ ٠
(٧٢) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٦ ٠
(٧٣) العمارة العباسية / ١٥٠ ٠

ابواب الجامع ونوافذه :

كان للجامع سبعة عشر مدخلا تختلف سعة كل منها باختلاف موقعها • اثنان منها في الضلع الجنوبية ، وقد سبقت الاشارة الى انهما كانا مدخلين خاصين احدهما للخليفة والآخر لأمام الجامع • وقد اختيرت مواقع الأبواب الرئيسة الاخرى بشكل يتفق ونظام اروقة الجامع ، وكانت موزعة على جهات الجامع الثلاث الباقية • ففي الجهة الشرقية خمسة مداخل رئيسة عرض كل منها (٣ر٩٠م) باستثناء احدها فقد وسع بعدئذ ليبلغ عرضه (٤ر٨٥)م • وفي الجهة الغربية سبعة مداخل ، خمسة منها اصلية انشئت عند بناء الجامع وقد بنيت على غرار مداخل الجهة الشرقية من حيث مقاييسها وطراز عمرانها ، وهي تقابلها تماما • اما المدخلان الآخران فقد اضيفا في وقت لاحق بناء على الحاجة اليهما بسبب تزايد عدد المصلين وتزاحمهم على الابواب • وكان عرض احدهما (٢ر٦٥م) وعرض الآخر (٢ر٢٥٨م) • اما الجهة الشمالية فقد كان فيها ثلاثة مداخل ، واوسطها اوسعها اذ يبلغ عرضه (٣ر٩٥م) وهو يقابل المنارة الملوية تماما (٧٤) •

ان جميع الابواب المذكورة مستطيلة الشكل ، وهي تمتد بواسطة دعامات ترتفع عليها عقود ، وفي اغلب الابواب تهدم البناء القائم فوقها ، الا انه تبين بعد فحص النوافذ التي بقيت مصانة انه كان هناك عقد مرتفع مسطح يستند على عوارض (٧٥) •

اما نوافذ الجامع فلم تكن كثيرة ، اذ خلت جدرانه منها عدا القسم الاعلى من الضلع الجنوبية ، اي الجدار القبلي • حيث توجد سلسلة من النوافذ تبدو من الخارج كفتحات ضيقة مستقلة ،

---

(٧٤) مجلة سومر ـ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٩ / ١٤٦ـ١٤٧ •
(٧٥) العمارة العباسية / ١٣٩ ـ ١٤٠ •

الا انها تأخذ في الداخل هيئة شبابيك جميلة ۰ ويتألف كل واحد من هذه الشبابيك من دخاة مستطيلة الشكل يظهر داخلها عمودان من الآجر يحملان طاقا مكونا من خمس حنايا ۰ وكان عدد هذه النوافذ (٢٤)نافذة ، اثنتان منها تقعان فوق البابين الذين على جانبي المحراب ۰ ويحيط بكل نافذة اطار مستطيل ارتفاعه (٥ر٢م) وعرضه (٩٠ر١م) ۰ وهناك شباكان آخران في جنوبي كل من الضلعين الشرقي والغربي ۰ بحيث يصبح مجموع النوافذ (٢٨) نافذة ، ويظهر ان الشبابيك الاربعة فتحت في وقت متأخر عن وقت البناء (٧٦) ۰

وقد عثر هرزفيلد في اثناء تنقيباته على نوعين من الزجاج يتألف النوع الأول من بقايا الواح زجاجية سميكة بيّن انها كانت تستخدم لهذه النوافذ ، والنوع الآخر قطع صغيرة مثلثة الشكل استخدمت لملء الحافات ۰ ومما لفت نظره انه لم يجد هناك اية علاقة تذكر بين صف النوافذ وترتيب الابراج ، بل ان النوافذ جميعها متناسقة مع الاروقة الشمالية والجنوبية للحرم وتقع على محاورها (٧٧) ۰

الاسوار الخارجية للجامع :

يستدل من الحفريات التي اجريت في منطقة الجامع ومن الصور الجوية التي اخذت لها ، انه كان يحيط بالجامع سور عظيم من الآجر من جوانبه الشرقية والغربية والشمالية ۰ ويحيط بهذا السور من الجوانب الاربعة سور كبير آخر يفصله عن السور الأول فضاء مكشوف عظيم الاتساع في جهاته الجنوبية والشرقية والغربية . ويضيق في الجهة الشمالية ، يبلغ طوله (٤٤٤) مترا

(٧٦) مجله سومر ـ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٩ / ١٤٩ ۰

(٧٧) العمارة العباسية / ١٤١ـ١٤٢

وعرضه (٣٧٦) متراً • ويدعمه (٦٨) برجا ، اربعة منها كبيرة دائرية الشكل في اركان السور ، وسبعة عشر برجا ، اربعة منها في كل من ضلعيه الشرقي والغربي ، وخمسة عشر برجا في كل من ضلعيه الشمالي والجنوبي ، وكلها بهيئة نصف دائرة (٧٨) •

كما لوحظت آثار ابنية بين جدران الجامع والسور الداخلي تدل على انها كانت مدارس دينية حول الجامع ، يدرس فيها الطلاب الذين كانوا يسكنون هناك ايضا ، على نمط المدارس الدينية الحالية الملحقة بالجوامع والأماكن المقدسة (٧٩) •

المنارة الملوية :

الملوية مئذنة مخروطية الشكل تستند الى قاعدة مربعة ، ويُصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حولها من خارجها دوران الحلزون • وهي تقع خارج الجامع على بعد (٢٥ متراً) من ضلعه الشمالية وعلى محوره الأوسط ، وترتبط به بممر عرضه (١٢ متراً) • وكانت قد تعرضت الى تخريبات كثيرة وبخاصة في قاعدتها وفي لوالبها الاولى ، حتى ان معالم القاعدة كادت تزول تماما • فقامت دائرة الآثار القديمة باعمال الصيانة اللازمة لها منذ سنة ١٩٣٧ ، فأظهرت اسس القاعدة واعادت بناءها ، وعمرت اللوالب فاعادت المرقاة الى حالتها السابقة (٨٠) • وفي سنة ١٩٧٠ شيدت سلما حديثا عند جانبها الجنوبي ليسهل عملية الصعود اليها ، واصلحت التخريبات التي في بدن المنارة ورممت القمة ،

---

(٧٨) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٤٩ ، مجلة سومر المشار اليها / ١٤٤ •

(٧٩) ري سامراء / ١١٢ •

(٨٠) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٤٥ •

ونصبت سياجا حديديا حول بدن المئذنة بارتفاع مناسب ليؤمن خطر ارتقائها (٨١) ٠

ويمكن تقسيم المنارة الملوية الى ثلاثة اقسام هي : القاعدة ، وبدن المنارة ، وقمتها ٠

تتألف القاعدة من مربعين الواحد فوق الآخر وارتفاعهما معا ٢٠ر٤م وطول ضلع المربع الأسفل ٥٠ر٣١م ، وهناك افريز بارز بارتفاع ١٥سم يمتد حول الجوانب الاربعة للقاعدة ٠ اما المربع التاني فهو فوق المربع السابق مباشرة واصغر منه قليلا ، وابعاده ٦٠ر٣٠م×٤٠ر٣٠م ٠ وجوانب القاعدة مزخرفة بعدد من الحنايا المستطيلة المجوفة ٠ فهناك ست حنايا على الجانب الجنوبي المقابل للضلع الشمالية للجامع ، وتسع حنايا على كل جانب من الجوانب الثلاثة الأخرى (٨٢) ٠

وتتصل قاعدة الملوية بالجامع بواسطة اسس آجرية يرجح انها بقايا السلم المتخذ للصعود الى هذه القاعدة ٠ فقد كشفت الحفريات التي قام بها هرزفيلد والتحريات التي اجرتها مديرية الآثار العامة عن وجود سلم منحدر طوله ٢٥ متراً وعرضه ١٢ متراً مشيد بالآجر ، يبدأ من نقطة تبعد عن جدار الواجهة الشمالية للجامع بمسافة قدرها ٢٥ر٢ متر ثم يأخذ ذلك المنحدر بالارتفاع حتى يتصل بالقاعدة المذكورة ، في نفس المكان الذي يبدأ فيه السلم الحلزوني الموصل الى اعلى المنارة الملوية(٨٣) ٠

ويرتفع بدن المنارة عن القاعدة بـ ٥٠ متراً ٠ وتبدأ المرقاة الحلزونية التي تضمن الصعود الى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية للقاعدة وتدور حول محور المئذنة باتجاه معاكس لاتجاه

---

(٨١) مجلة سومر ــ العددان ١ و ٢ من السنة ١٩٧٠/ ٢٨١ ٠
(٨٢) العمارة العباسية / ١٥٩ ٠
(٨٣) مجلة سومر المشار اليها آنفا / ٢٨٠ ٠

دوران عقرب الساعة ، خمس مرات • وهي تتناقص في سعتها كلما ارتفعت ، اذ انها تبدأ بعرض ٥٠ر٢م وتنتهي بعرض ٩٠ر١ • الى ان تصل باب القمة الذي ينفتح هو ايضا في وسط الضلع الجنوبية • ويقول هرزفيلد ان السلم الحلزوني كان له سياج من الخشب ، وقد استدل على ذلك من الثقوب التي رآها على الجانب الخارجي منه (٨٤) •

وتكون القمة اسطوانة يبلغ ارتفاعها ستة امتار ، وهي مزدانة بروازين عمياء مدببة العقد ومقعرة السطح ، عددها ثمان، غير ان احداها تقوم مقام باب ينفذ الى داخل الاسطوانة ويوصل الى ذروتها بواسطة سلم حلزوني يدور داخلها حول محورها (٨٥) • وهناك ثمانية ثقوب في قاعدة الاسطوانة استدل منها هرزفيلد انها ربما كانت تغطى ذلك الموضع سقيفة محمولة على ثمانية اعمدة خشبية مثبتة في تلك الثقوب • الا ان بعض الآثاريين رجحوا ان هذه الثقوب او الحفر تعود لأعمدة رخامية باعتبار ان الرخام اكثر مقاومة للعوامل الطبيعية • الا ان الهيئة الفنية التي انيط بها صيانة الملوية فى سنة ١٩٧٠ عثرت في احد تلك الثقوب على بقايا من عمود خشبي ، مما دل على ان هرزفيلد كان مصيبا في أستنتاجه(٨٦) •

طراز المنارة الملوية :

امتازت منارة الجامع الكبير في سامرا بانها طراز غريب في نوعه ، سواء من حيث شكلها ومظهرها ، او طريقة ارتقائها الى اعلاها • فقد كانت المنائر حتى تاريخ انشاء الملوية اسطوانية في

---

(٨٤) الاثار القديمة العامة ـ سامراء / ٤٥ •

(٨٥) نفس المصدر •

(٨٦) مجلة سومر ـ العددان ١ و ٢ لسنة ١٩٧٠/ ٢٨٠ •

شكلها او مربعة ويصعد اليها بسلالم داخلية • وكلما كانت المنارة مرتفعة سامقة كانت ادعى الى الجمال والروعة • وملـوية سامرا بضخامتها وشكلها المخروطي اللولبي ليست جميلة رائعة حسب ، بل انها مهيبة تملأ النفس رهبة وخشوعا اضافة الى سـلـمها الخارجي الحلزوني ، مما اكسبها ميزة واضحة على غيرهـا مـن المنائر • ومن هنا كان اهتمام الآثاريين ، لاسيما المعماريين منهم شديداً في معرفة اصول هذا الطراز من المنـــائر ، وحـاولوا ان يتعرفوا على المصدر الذي اقتبسه منه معمار سامرا ، فطرحت عدة افتراضات لذلك ، وامعن بعضها في الغرابة حين افترض ان طراز الملوية مقتبس من معابد النار المجوسية • ويظهر ان اصحاب هذا الافتراض تناسوا ان الدين الاسلامي انما جاء ليقضي على المجوسية ومعابدها، مما لايمكن القول معه ان يقتبس طرازها • كما تناسوا اصالة حضارة وادي الرافدين وعمق جذورها ، وانهـــا عرفت هذا النوع من البناء ذي السلالم الحلزونية الخارجيـــة • فقد اقام العراقيون «الزقورات» في جنوبي البلاد وشماليها ، التي تميز جميعها بضخامتها وتعدد طوابقها وطريقة ارتقائهـــا الى اعلاها • وهي نفس الصفات التي تميزت بها ملوية سامرا • لذا يصح ما قاله كريزويل بان السلم الحلزوني المستخدم في منـارة سامرا ومنارة جامع ابي دلف مقتبس من الزقورات(٨٧) ، قـولا مقبـولا •

ان الزقورات التي شيدت في سومر وبابل وآشور لم تكن من طراز واحد ، كما انها اختلفت فيها طريقة الوصول الى قمتها فقد اتخذت في بعضها السلالم الاعتيادية المتصلة ببعضها بين طابق وآخر ، واتخذ في بعضها الآخر السلم الذي يدور حول البناء عدة دورات حتى يصل الى اعلاه • وكان برج بابل وزقورة خرسـباد

---

(٨٧) Creswell, E. M. A. P : 279

(دور شروكين) قد اتبع فيهما الاسلوب الأخير • ويقول هيرودوتس عن برج بابل « ان حارة الاله (جوبتر ـ بعل) المقدسة فناء مربع طول كل ضلع من اضلاعه نصف الميل ، ذو ابواب من البرنز الصلد ، كانت ما تزال باقية في زمني • ويقع وسط ذلك الفناء او الساحة برج ذو بناء صلد طوله ⅛ الميل وعرضه ⅛ الميل ايضا ، اقيم فوقه برج ثان وعلى هذا برج ثالث ، وهكذا الى البرج الثامن الأعلى • وكان الصعود الى القمة من الخارج بواسطة سلم يدور حول جميع الابراج ، وعندما يبلغ المرء منتصف المسافة في صعوده فانه يجد موضعا للاستراحة ، حيث اعتاد الناس الجلوس بعض الوقت وهم في طريق ارتقائهم الى القمة »(٨٨) •

اما زقورة خرسباد (دور شروكين) فقد كشفت منذ ما يزيد على مائة عام على يد الباحث الفرنسي فكتور بلاس ـ Victor Place الذي عثر على ثلاث طوابق وبقايا طابق رابع ، ولم يجد الزقورة اسطوانية كما كان يتوقع بل وجدها مربعة الشكل طول ضلعها ١٠ر٤٣ متراً ، ولها سلم يبدأ من الزاوية الجنوبية ويستمر على طول الواجهة ويلتف عند الزاوية ، ثم يرتفع ماراً بالزوايا على التوالي حتى يجد الصاعد نفسه في الطابق الأول فوق النقطة التي بدأ بالصعود منها ولكن على ارتفاع ١٠ر٦ متر • ويستمر السلم بالدوران حول البرج بعكس اتجاه دوران عقرب الساعة ـ كما في ملوية سامرا ـ حتى يتم صعود الطوابق الثلاثة بارتفاع ١٠ر٦ متر لكل منها(٨٩) • ويقول المهندس المعماري الهولندي بوسنك ـ Busink احد المختصين بالموضوع ان الزقورة المذكورة تتألف من خمسة طوابق فقط ، وفي الطابق الخامس معبد الاله آشور ، والوصول الى هذا الطابق لم

---

(٨٨) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ٥٧٠ •

(٨٩) Creswell, E. M. A. P : 279

يكـن بسلم اعتيادي وانما بمنحدر حلزونـــي يــدور حــول البرج(٩٠) ٠

ان ما اوردناه آنفا يوضح ان طراز ملوية سامرا طراز محلي عريق توارثته الاجيال في وادي الرافدين خلال العصور الطويلة من تاريخها ، بحيث لا يمكن الزعم بانه لم يكن هنـــاك نمـوذج للملوية في العراق عندما بنيت سامرا واسس الجامع الكبير ، في القرن الثالث ، وان المعمار الذي تولى بنايتها كان خبيراً ماهراً لا تنقصه القابلية على الابتكار والتطويـر فبنـاها على اساس دائري وليس مربعا ، فجاء بهذه التحفة الفنية التي ستبقى خالدة على مر العصور ٠

٥ ـ قصور المتوكل على الله :

اهتم المتوكل على الله ببناء القصور اهتماما عجيبـا يثيـر الانتباه ٠ فقد بنى عدداً منها في انحاء مختلفة من سامرا ، وقــد تفنن في تزيينها وزخرفتها وانشاء حدائقها وبركهـــا الجميلة ٠ ولعله وجد في ذلك ما يشغله ويلهيه عن مشاكل القواد الأتراك ، ويحرره من ضغوطهم المالية والادارية ٠ وقد سبقت الاشارة الى سوء العلاقة بين الطرفين ، ومحاولة كل منهما اخضـــاع الطرف الآخر او الفتك به والتخلص منه ٠ الا ان مما يؤسف له انه رغم متانة بناء تلك القصور ورصانة اسسها ، لم يبق منها شيء سوى اطلال بعضها وآثار من اسسها تساعد الى حــد مـا على معرفة تخطيطها ومساحاتها ومواد بنائها ٠ اما ما احتوت عليه من ريازة وتصاوير وافاريز مما يعبر عما وصل اليه الفن العمراني فــي عهد سامرا ، فقد ذهب به الاهمال وعوادي الزمــن ، ولم يبــق سوى بعض القطع والكِسَر مما يعثر عليه بين الآكام ، فتتخـذ

---

(٩٠) Nenneveh and Btbylon, P. 11.

وسيلة للاستدلال والاستنتاج مما لا يمكن معه الوصول الى الحقيقة كاملة . وان ما جاء في طيات المصادر التي ذكرت تلك القصور لا يزيد على نتف واشارات لاتشفي الغليل ، وان ماقاله الشعراء فيها اقتصر على مدحها والتفاخر بها وذلك في معرض مدح الخليفة والثناء عليه والتزلف اليه . ولا يتضمن شعرهم شيئا عن محتوياتها او زخارفها ورسومها او اثاثها ، سوى النزر اليسير .

على اننا سنحاول ان نتحرى ما جاء في ثنايا الشعر وتلك المصادر عما كانت تضمه تلك القصور بين جدرانها من مرافق واجنحة ، وما يحيط بها من حدائق ، وما يزينها من برك واحواض . ويمكن اعتبار كتاب الديارات للشابشتي ومعجم البلدان لياقوت الحموي اغزر تلك المصادر عن القصور المذكورة . فقد ذكرا اغلبها واشارا الى بعض مما ذكرنا ، ولم يفتهما ان يبينا مقدار ما انفق من الأموال عليها . ويقدر الشابشتي مجموع ما انفقه المتوكل على الله على بناء القصور وعددها (١٩) قصراً بمائتي الف الف واربعة وسبعين الف الف درهم ومائة الف الف دينار (ولعلها مائة الف دينار) ، وهي تعادل آنذاك ثلاثةعشر الف الف دينار وخمسمائة الف دينار وخمسة وعشرين الف دينار(٩١) . ويقول ياقوت الحموي ان مجموع ما انفقه على ذلك هو مائتا الف الف درهم واربعة وتسعون الف الف درهم (٩٢) . اما النويري فيقول : « حكى المؤرخون انه انفق في بنائها مائة الف دينار وخمسون الف دينار عينا ، ومائتا الف الف وثمانية وخمسون الف الف وخمسمائة الف درهم »(٩٣) .

---

(٩١) الديارات / ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٩٢) معجم البلدان ٣/١٧٥ .

(٩٣) نهاية الأرب ١/٤٠٦ .

وسنحاول فيما يأتي من البحث ان نلم باكثر ما جاء في مصادرنا التراثية عن بعض تلك القصور ، وما اسفرت عنه التنقيبات والتحقيقات الحديثة عنها ·

قصر بلكوارا :

اختلفت المصادر في اسم هذا القصر ، اذ ورد باسماء متقاربة بالفاظها · فقد سماه اليعقوبي في (كتاب البلدان) «بلكوارا»(٩٤) · وورد في الطبري « بركوارا » (٩٥) · وذكره الشابشتي باسم « بركوار » وباسم «بركوارا»(٩٦) · اما ياقوت الحموي فقد سماه (يزكوار) و (بركوان) (٩٧) · ويبدو ان هذا الاسم من الكلمات الدخيلة ولذا تعدد صور رسمه والفاظه · ويقول الدكتور احمد سوسه ان المتوكل على الله اطلق عليه اسم «بلكوارا» الا ان بعض المؤرخين سموه بركوارا او بزكوارا(٩٨) · وفسر الاستاذ عبدالحميد الدجيلي الكلمة بقوله انها فارسية وضبطها الصحيح « بزركوارا » اي القصر العظيم الكبير جدا ، ويرى الاستاذ احمد حامد الصراف ، وهو من الادباء المتقنين للغة الفارسية ان الأصح في تسميته هو « بركوارا » ومعناه الهانىء او الهنيء(٩٩) · ورأينا المستشرقين والآثاريين ممن اشاروا الى هذا القصر انهم آثروا استخدام الاسم « بلكوارا » الذي ذكره اليعقوبي ·

---

(٩٤) كتاب البلدان / ٢٦٥ ·
(٩٥) الطبري ٩/ ٤٩٠ ·
(٩٦) الديارات / ١٥٠ و ١٥٦ و١٥٩ و١٦٠ على التوالي ·
(٩٧) معجم البلدان ١/ ٤١٠ و ٣/ ١٧٥ و ٥/ ٧١ ·
(٩٨) رى سامراء ١/ ١٢٥ ·
(٩٩) الديارات / ٣٦٦ ·

لقد شيد المتوكل على الله هذا القصر في اقصى الجنوب لمدينة سامرا في منطقة القادسية عملا بخطته في توسيع عمران المدينة الى مختلف جهاتها · وتقع اطلاله اليوم على مسافة ستة كيلومترات من مدينة سامراء الحالية ويسمى موقعه « المنقور » · ذكره الشابشتي في معرض كلامه عن متنزه القادسية فقال : « وبالقادسية بني المتوكل قصره المعروف ببركوار ، ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز وجعل اعذاره فيه · وكان من احسن ابنية المتوكل واجلّها . وبلغت النفقة عليه عشرين الف الف درهم »(١٠٠) · واشار الى ان الايوان الذي اقيم فيه الاحتفال باعذار المعتز كان واسعا طوله مائة ذراع وعرضه خمسون ذراعا (١٠١) · وذكر ان المتوكل على الله كان يتردد على هذا القصر في المواسم والأعياد ، ويجلس فيه للشراب (١٠٢) ·

ويعتبر قصر بلكوارا القصر الوحيد من القصور التي بناها المتوكل على الله في سامرا مما امتدت اليه ايدي الآثاريين فكشفوا لنا عن معالمه ما لم تتضمنه المصادر التراثية · فقد نقب الاستاذ هرزفيلد في سنة ١٩١١ في هذه المنطقة واكتشف اسس ومعالم القصر المذكور · وقد لخص ما كتبه عنه مؤلف كتاب (العمارة العباسية في سامرا) تلخيصا وافيا سنعتمد في استعراضنا هذا عليه ما لم نشر الى مصدر آخر (١٠٣) ·

تشغل مباني هذا القصر مساحة واسعة من الأرض تزيد على ثلاثة امثال مدينة سامراء الحالية عندما كانت مسورة · ويحيط به سور مستطيل ذو ابراج طوله (١٢٥٠) مترا ، يرتكز جانبه

---

(١٠٠) نفس المصدر / ١٥٠ ·
(١٠١) الديارات / ١٥٠ ·
(١٠٢) نفس المصدر / ١٦٠ ·
(١٠٣) العمارة العباسية / ١٦٥ ـ ١٧٠ ·

الجنوبي على شاطىء دجلة الصخري الذي يرتفع بمقدار خمسة عشرمتراً ٠ وله ثلاثة ابواب تقع في منتصف الجدران الشمالية والشرقية والغربية ٠ ويخترق البناء شارعان رئيسان متقاطعان ٠ وكانت الأرض تضم الى جانب القصر مجموعة من المنازل وثكنات الحرس ٠ وهناك حديقة واسعة خارج جدار القصر يحيط بها سور ذو دعامات يكسوه الملاط ، ينتهي عند الشاطىء بسقفيات غنية بالزخارف ، ويتوسط الحديقة حوض ماء كبير ٠ وقد انشىء الى جانب الحديقة مرفأ خاص للسفن التي يستخدمها القصر(١٠٤) ٠

وكان للقصر مدخل رئيس كبير يتوسط جداره الشمالي الشرقي ، في منتصف ساحة مربعة عند تقاطع الشارعين ٠ وتقسم بنايات القصر الى ثلاثة اقسام متوازية ، يحتوي القسم الأوسط منها على بوابة القصر الضخمة ، وثلاث رحبات وتسع قاعات مرتبة على شكل صليب ٠ وتفتح غرف العرش على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة مفتوحة على النهر ٠ وقد روعي التناسق المحوري والتشابه التام على جانبي القصر ٠ وكانت الواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود ، كما هي الحال في دار الخليفة، ويزيد العقد الأوسط منها اتساعا وارتفاعا على العقدين الجانبيين ٠ وخصصت القاعات ذات المداخل والواجهات المتماثلة للاجتماعات العامة ٠ اما القاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيس للقصر فلهما شكل الحرف T وكان ذلك مألوفا آنذاك في ابنية سامرا ٠ وتقوم حول هاتين القاعتين رحبات وغرف كثيرة للسكن ، بينها حمام فاخر مكسو بالرخام ٠

وهناك اربع مجموعات من الغرف المتشابهة ، بين اذرع الصليب ، يتكون كل منها من ثماني غرف تدور حول فناء مربع

---

(١٠٤) دي سامراء ١/١٢٧ ٠

الشكل • وقد سقفت القاعات الكبيرة بالخشب ، او بسقوف معقودة على الأرجح • اما الغرف الصغيرة فقد سقفت بعقود من الطابوق •

وشيد عدد من المساكن في القسم الممتد بين رحبة الشرق الثالثة والحائط المطل على النهر • اما الفضاء المجاور للرحبنين فقد كان خاليا من البناء تقريبا • وهذه البيوت يمكن اعتبارها نماذج لطراز البيوت الخاصة في سامرا • فهي تتكون من ستعشرة غرفة مجتمعة حول فناء مستطيل الشكل ، ويظهر انها كانت معدة لسكنى الحرم والخدم •

ويلاحظ عند حائط الرحبة الثالثة بقايا مسجد ذي اروقة منتظمة ، وله محراب في رواقه الجنوبي ، ابعاده ١٥×١٣ متراً ، وله صفان من الاعمدة من الرخام او الخشب الساج • وكان المسجد مبنيا بالآجر ، ولم يبق منه سوى آثار مواضع الاعمدة واسس قواعدها • كما وجدت آثار مسجد صغير آخر في القسم الجنوبي من القصر ، تبلغ ابعاده ١٠ر٣٥×٧٦ر٧ متر ، وقد شيد باللبن ، وله ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ، ويتألف محرابه من حنية مستديرة عميقة تحيط بها انصاف اعمدة مزخرفة بزخارف ذات تقوير ، وهي تشكل اطاراً مستطيلا للمحراب •

ويختلف القسم الشمالي من القصر في تخطيطه ، ففيه رحبات كبرى يرجح انها كانت ثكنات للحرس •

وقد تميز قصر بلكوارا بزخارفه الجصية التي كانت تغطي مساحات كبيرة من سطوح جدرانه وسقوفه وافاريزه • ومن طبيعة الزخارف التي تغطي مساحات واسعة انها تعتمد على تكرار الزخرف الواحد ، ولذا يقل التنوع فيها • ولقد زينت جدران بعض الغرف وسقوفها بصور مائية مموهة بالذهب اضافة الى الزخارف الجصية • وكانت تعلو الافاريز حنايا جدارية في ثلاثة

صفوف ، السفلى منها مربعة ، والوسطى مدببة العقد ، والعليا دائرية • اما واجهة القصر ذات العقود الثلاثة فقد زينت بالفسيفساء الزجاجية على ارضية مذهبة •

وعملت ابواب الغرف من الخشب الجيد ، وقد حفرت عليها الزخارف والنقوش الجميلة المختلفة ، وقد موّه اكثرها بالذهب • كما موهت مساميرها النحاسية بالذهب كذلك • اما النوافذ فكانت مغطاة بالزجاج الملون بمختلف الالوان لاسيما الازرق والأصفر الغامق والفاتح ، والأخضر الغامق ، والأحمر القاني ، والبنفسجي والابيض الرائق •

يعد قصر بلكوارا عملا معماريا من الطراز الاول ، ولا يعود ذلك الى سعة مساحته حسب، وانما لما اشتمل عليه من مظاهر عمرانية غنية ، وانسجام في مختلف اقسامه ، وتخطيط قاعاته ورحباته ، وتباين اشكال مداخله ، وبلغ اقصى عظمته المعمارية في واجهته ذات العقود الثلاثة المزينة بالفسيفساء • كما ان اختيار المواقع يشير الى مهارة هندسية كبيرة ، ومعرفة واسعة باختيار المواقع الممتازة للبناء • اذ ان الواقف في الحجرة الوسطى يرى باتجاه الشمال الغربي صفا كبيرا من القاعات ورحبات الشرف الثلاث مع بواباتها ، والحديقة والنهر ، والاراضي المتموجة الممتدة الى الجزيرة •

وقدر رتبت شتى العناصر المتباينة التي كان يتألف منها هذا القصر العظيم ترتيبا متناسقا فبدت جميلة التركيب ، روعي في تخطيطها ان تكون واسعة النطاق على هيئة الحرف T بحيث ينتهي محورها الطويل العمودي على النهر بالغرف الثلاث المعقودة في الواجهة ، وقد زينت زينة بديعة بآيات النحت والفسيفساء(١٠٥) •

---

(١٠٥) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٦ •

واعتبره الآثاري كريزويل من اعظم المنشآت المعمارية لكبر مساحته وضخامة حجمه ، وكثرة الظواهر الفنية المعمارية فيه(١٠٦) • ويقول عنه المستشرق الالماني بروكلمان انه اهم بناء لا تزال اسسه محفوظة لنا في سامرا ، وقد اعجب كثيراً بتخطيطه ومحتوياته وملحقاته ، وبخاصة ظاهرة الانسجام بينها(١٠٧) • ولخص العالم الآثاري ارنست كونل وصف القصر بمايلي : « بناه الخليفة المتوكل لأبنه المعتز ، بالقرب من سامرا ، على غرار قصر الحيرة • وبه عدة افنية كبيرة متتابعة وعدد من قاعات العرش المتعامدة ، ممتدة على طوله على هيئة ابهاء مكشوفة لها واجهات مؤلفة من ثلاثة عقود • وعن يمين وسطه ويساره تمتد اروقة بها عشرات من المساكن لكل منها فناء خاص • وينتهي ذلك كله بحديقة تتجه نحو دجلة ممتدة الى ما وراء السور الخارجي ، وبها حوض ماء ومرسى للزوارق»(١٠٨) •

قصرا الشاه والعروس :

اعتبرهما اليعقوبي من القصور التي انفق عليها المتوكل على الله اموالا عظاما(١٠٩) • وذكرهما الشابشتي في جملة القصور التي انشأها المتوكل على الله (١١٠) • وقال ياقوت الحموي عنهما « قصران عظيمان بناحية سامرا انفق على عمارة الشاه عشرون الف الف درهم وعلى العروس ثلاثين الف الف درهم • ثم نقضت في ايام المستعين ووهب نقضاتها لوزيره احمد بن الخصيب فيما

---

(١٠٦) ري سامراء ١/١٢٧ •
(١٠٧) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/٥٠ •
(١٠٨) الفن الاسلامي / ٣٧ •
(١٠٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١ •
(١١٠) الديارات / ١٥٩ •

وهب له » (١١١) • كما انه ذكر قصر العروس وما انفق عليه في معرض بيان ما بناه المتوكل على الله من القصور (١١٢) •

وجاء في الاغاني « لما عقد المتوكل لولاة العهود من ولده ركب بسر من رأى ركبة لم يُر احسن منها ، وركب ولاة العهود بين يديه ، والاتراك بين ايديهم اولادهم ، يمشون بين يدي المتوكل بمناطق الذهب ، وفي ايديهم الطبرزينات المحلاة بالذهب • ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه ، في الجوانحيات وسائر السفن • وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس ، واذن للناس فدخلوا اليه • فلما تكاملوا بين يديه مَثُل ابراهيم بن العباس بين الصفين ، فأستأذن في الانشاد فاذن له ، فقال (١١٣) :

ولما بدا جعفر في الخميـ	ـس بين المطل وبين العروس
بدا لابسا بهما حُلّة	أُزيلت بها طالعات النحوس
ولما بدا بين احبابه	ولاة العهود وعز النفوس
غدا قمراً بين اقماره	وشمسا مكللة بالشموس

وذكر في حوادث السنة (٢٣٧هـ) في النجوم الزاهرة « وفيها كان بناء قصر العروس بسامرا ، وتكمل في هذه السنة ، فبلغت النفقة عليه ثلاثين الف الف درهم » (١١٤) •

قصرا المختار والبديع :

ذكر اليعقوبي قصر البديع بين القصور التي بناها المتوكل على الله (١١٥) • وذكر الشابشتي القصرين المختار والبديع في

---

(١١١) معجم البلدان ٣١٦/٣ •
(١١٢) نفس المصدر / ١٧٥ •
(١١٣) الاغاني ٦٤/١٠ •
(١١٤) النجوم الزاهرة ٢٩٠/٢ •
(١١٥) تاريخ اليعقوبي ٤٩١/٢ •

جملة قصور المتوكل على الله (١١٦) . وقال ياقوت الحموي عن قصر البديع : « اسم بناء عظيم للتوكل بسر من رأى »(١١٧) . وقال عن قصر المختار « قصر كان بسامرا من ابنية المتوكل . ذكر ابو الحسن علي بن يحيى المنجم عن ابيه ، قال : أخذ المتوكل بيدي يوماً وجعل يطوف الابنية بسامرا ليختار بيتاً يشرب فيه . فلما انتهى الى البيت المعروف بالمختار استحسنه وجعل يتأمله وقال لي : هل رأيت احسن من هذا البناء ؟ فقلت : يمتع الله امير المؤمنين ، وتكلمت بما حضرني . وكانت فيه صور عجيبة من جمتلها صور بيعة فيها رهبان واحسنها صورة شهار البيعة . فأمر بفرش الموضع واصلاح المجلس . وحضر الندماء والمغنون ، واخذنا في الشرب . فلما انتشى في الشرب اخذ سكيناً لطيفاً وكتب على حائط البيت :

ما راينا كبهجة المختار لا ولا مثل صور الشهار

مجلس حف بالسرور وبالنرجس والآس والغنا والزمار

ليس فيه عيب سوى ان ما فيه سيفنى بنازل الأقدار

فقلت : يعيذ الله امير المؤمنين ودولته من هذا ، ووجمنا . فقال : شأنكم وما فاتكم من وقتكم ، وما يقدم قولي خيرا ولا يؤخر شراً » (١١٨) . وقال ياقوت ان النفقة على قصر المختار كانت خمسة آلاف الف درهم (١١٩) .

وجاء في الطبري عن هذين القصرين ان المتوكل على الله لما امر ببناء الماحوزة ، وسماها الجعفري ، امر بنقض القصر المختار

(١١٦) الديارات / ١٥٩ .

(١١٧) معجم البلدان ١/ ٣٥٩ .

(١١٨) معجم البلدان ٥/ ٧٠ ـ ٧١ .

(١١٩) نفس المصدر ٣/ ١٧٥ .

والبديع وحمل ساجهما الى الجعفري(١٢٠) • ويقول الدكتور احمد سوسه ان الاطلال الموجودة في الساحة المسورة في حلبة السباق القديمة يرجح ان تكون من بقايا قصر البديع • ودليله على ذلك ان البحتري في احدى مدائحه الخليفة المعتز بالله اقترح عليه ان يمد فرع قناة سامرا الذي انشيء لتموين قصر الدكة بالماء ، فيوصله الى قصر البديع ومنه ينهيه الى دجلة قرب الجوسق وذلك في قوله (١٢١) :

الحقه يا خير الورى بمسيرة
واممدد فضول عبابه المتدفق

فاذا بلغت به البديع فانما
انزلت دجلة في بناء الجوسق

ويلاحظ ان الشاعر يقصد بذكر البديع الموضع الذي كان يشغله القصر المذكور ، لأنه كان قد نقض في عهد المتوكل على الله ، كما ذكرنا آنفا • ان يكون النقض قد شمل جانبا يسيرا منه وبقي القسم الرئيس للقصر ماثلا حتى عهد المعتز بالله •

قصرا الصبيح والمليح :

يفهم من قصيدة للبحتري يشير فيها الى اربعة قصور من قصور المتوكل على الله ، هي : الجعفري وشيراز والصبيح والمليح ، ان قصر الصبيح شيد بعد المليح ، وانهما يقعان في منطقة واحدة ، وهما متقابلان تتوسطهما بركة من الرخام الاخضر يسقيها جدول

---

(١٢٠) الطبري ٩/٢١٢ •
(١٢١) ري سامراء ١/١٢٥ •

ماء عليه دواليب يديرها النعام بدلا عن الجمال كما هو المألوف ، يقول فيها (١٢٢) :

واستتم الصبيح في خير وقت
فهو مغنى انس ودار مقام

ناظر وجهة المليح فلو
ينطق حياة معلنا بالسلام

البسا بهجة وقابل ذا ذاك ،
فمن ضاحك ومن بسام

كالمحبين لو اطاقا التقاء
افرطا في العناق والالتزام

مستمد بجدول من عباب الماء
كالابيض الصقيل الحسام

فاذا ما توسط البركة الخضراء
القت عليه صبغ الرخام

فتراه كأنه ماء بحر
يخدع العين وهو ماء غمام

والدواليب اذ يدرن ولا ناضح بهن غير النعام

ان خير القصور اصبح موهوبا بكره العدى لخير الامام

وكان مبلغ ما انفق على كل من الصبيح والمليح خمسة آلاف الف درهم(١٢٣) • مما يستدل منه انهما قصران صغيران اعدا للنزهة والاستراحة • ويظهر من قصيدة اخرى للبحتري امتدح بها

---

(١٢٢) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٣/٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٧ •

المتوكل على الله بعد انتهائه من بناء القصر الجعفري في المتوكلية في سنة ٢٤٦هـ ، ان قصر الصبيح كان روضة بهيجة كثيرة الورود ٠ وكنا ذكرنا بعض ابيات هذه القصيدة عند الكلام عن القصر الجعفري ٠

وقد ذكر الشابشتي هذين القصرين بين قصور المتوكل على الله(١٢٤) ٠ كما كنا قد اشرنا في مكان آخر الى ان هذين القصرين يرجع انهما بنيا في المتنزه الذي انشأه المتوكل على الله في حير الحيوانات ٠

قصر البرج :

يقول اليعقوبي ان المتوكل على الله انفق على البرج الف الف وسبعمائة الف دينار (١٢٥) ٠ ويقول ياقوت الحموي ان ما انفق عليه ثمان عشرة آلاف الف درهم (١٢٦) ٠ وذكر الشابشتي نفس المبلغ الذي قال به اليعقوبي (١٢٧) ٠ ويظهر مما سنذكره من بعض اوصاف القصر ان ما ذكره اليعقوبي والشابشتي اقرب الى واقع النفقة عليه ٠

يصفه الشابشتي بأنه « من احسن ابنية المتوكل ، فجعل فيه صوراً عظاما من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة جعل فرشها ظاهرها وبطانتها صفائح الفضة ٠ وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر ، وكلله بالجوهر ، وسماها طوبى ٠ وعمل له سرير من الذهب كبير عليه صورتا سبعين عظيمين ، ودرج عليها

---

(١٢٣) معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠
(١٢٤) الديارات / ١٥٩ ٠
(١٢٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١ ٠
(١٢٦) معجم البلدان ٣/١٧٥ ٠
(١٢٧) الديارات / ١٦١ ٠

صور السباع والنسور وغير ذلك ، على ما يوصف به سرير سليمان بن داود عليهما السلام . وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب . فبلغت النفقة على هذا القصر الف الف وسبعمائة الف دينار . وجلس فيه على السرير الذهب ، وعليه ثياب الوشي المثقلة . وامر الا يدخل عليه احد الا في ثياب وشي منسوجة او ديباج ظاهرة . وكان جلوسه فيه سنة تسع وثلاثين ومائتين . ثم دعا بالطعام ، وحضر الندماء وسائر المغنين والملهين ، وكل الناس . ورام النوم فما تهيا له . فقال له الفتح : يا مولاي ، ليس هذا يوم نوم . فجلس للشرب . فلما كان الليل رام النوم ، فما امكنه ، فدعا بدهن بنفسج ، فجعل منه شيئا على رأسه وتنشقه فلم ينفعه . فمكث ثلاثة ايام بلياليها لم ينم . ثم حم حمى حادة ، فانتقل الى الهاروني قصر اخيه الواثق ، فاقام به ستة اشهر عليلا ، وامر بهدم البرج وضرب تلك الحلى عيناً»(١٢٨) .

وقد نقل النويري طرفا من هذا الوصف ، واضاف : وقد وصفه الشعراء فمن ذلك قول السري(١٢٩) :

مجلس في فناء دجلة ، يرتـــاح اليـــه الخليع والمستور

طائر في الهواء ، فالبرق يسري
دون اعـــلاه والحمـــام يطيـــر

فاذا الغيم سار ، اســـيل منه
حـــلل دون جُـــدره وستور

(١٢٨) الديارات / ١٦٠-١٦٢ .

(١٢٩) نهاية الأرب ١/٤٠٦-٤٠٧ . والسري هو الشاعر ابو الحسن السري ابن احمد بن السري الكندي ، الملقب بالرفاء ، لانه كان في صباه يرفو ويطرز الملابس . توفي سنة ٣٦٦هـ وقيل سنة ٣٤٤هـ ـ وفيات الاعيان ٢/١٠٤ ـ ١٠٥ .

واذا غارت الكــواكــب صبحاً
فهو الكوكب الــذي لا يغـــور

وقال ايضا :
منزل كالربيع حلت عليــه
حالبات السحاب عقد النطاق

يمتع العين في طرائف حسن
تتحامى بهــا عن الاطراق

بين ســاج كأنــه ذائــب
التبر مثل ذائــب الأوراق

ويظهر من هذا الوصف ان قصر البرج كان عظيم الارتفاع ، يناطح الغيم : ناصع البياض يغالب بياضه ضوء الشمس ، وانــه كان متعة للناظرين · ويوحي هذا الوصف ان القصر بقي عامراً شامخا حتى اواخر مقام الخلافة بسامرا وبعدها لعــدة عقــود مــن السنين بحيث ادركه الشاعر السري ووصفه بشعره المذكور · وقد اشار الشابشتي الى ان المتوكل على الله امــر بهدمه في اواسط عهده بالخلافة · الا ان يكون الهدم قد اهمل في حينه بالنظر لجمال القصر وروائه ، او ان الهدم اقتصر على قسم منه ·

القصور الاخرى :

وهناك قصــور اخرى شيدها المتوكل على الله ، الا ان ما جاء عنها في المصادر ليس فيه ما يستحق الذكر سوى نسبة تلك القصور الى الخليفة المذكور ، وذكر المبالغ التي أنفقت عليها · وقد يرد في بعضها معلومات قليلة جداً عنها · ومن هذه القصور مما اتفق على ذكرها الشابشتي وياقوت الحموي مايأتي (١٣٠) :

---

(١٣٠) الديارات /١٥٩ ومعجم البلدان ١٧٥/٣ ·

البهو : وقد انفق على تشييده خمسة وعشرون الف الف درهم ، ولم يذكرا شيئاً عن موضعه وتاريخ انشائه · ويبدو انه كان فخماً فسيحا لارتفاع كلفته ·

الجعفري المحدث : بلغت النفقة عليه عشرة آلاف الف درهم · وقد ذكره الطبري في احداث سنة ٢٤٨ هـ ، وذلك عندما سكنه المنتصر بالله الذي انر ترك المتوكلية والعودة الى سامرا ، وفيه كانت وفاته (١٣١) ·

شيراز : انفق عليه عشرة آلاف الف درهم · وذكره الشابشتي باسم « السندان » ·

الغريب : بلغت النفقة عليه عشرة آلاف الف درهم ·

قصر بستان الايتاخية : انفق على تشييده عشرة آلاف الف درهم · وسماه الشابشتي « القصر » · وقد يكون هو احد القصور التي ذكرها اليعقوبي ان عندها ينتهي شارع ابي احمد في قطيعة القائد ايتاخ (١٣٢) ·

القلائد : ذكره ياقوت الحموي وقال ان المتوكل على الله انفق عليه خمسين الف دينار ، ثم جعل فيه ابنية بمائة الف دينار · وذكره الشابشتي باسم « القلاية » ·

الجوسق : كان المعتصم بالله شيد قصراً كبيراً لسكناه على دجلة جنوبي دار العامة وسماه الجوسق الخاقاني · وقد اشرنا اليه والى اهميته في تاريخ سامرا · وبنى المتوكل على الله قصراً بنفس الاسم انفق عليه خمسمائة الف درهم (١٣٣) · ويظهر من ضآلة المبلغ الذي انفق على بنائه اذا ما قورن بما انفق على القصور الاخرى التي

---

(١٣١) الطبري ٩/٢٣٧ و٢٤٤ و٢٥٤ ·
(١٣٢) كتاب البلدان ٢٦١ ـ ٢٦٢ ·
(١٣٣) معجم البلدان ٣/١٧٥ ·

بناها الخليفة المذكور ، انه لم يكن قصراً فخما قائما بذاته ، بل ربما كان جناحا ملحقا بالجوسق الخاقاني فسمي باسمه ·

وقد سبق للمتوكل على الله لما نزل في اول خلافته في القصر الهاروني انه بنى فيه ابنية جديدة · فمدحه الشاعر علي بن الجهم ووصف بعض معالم هذا القصر بما يوحي كأن المتوكل على الله هو الذي بناه ، بقصيدة منها قوله (١٣٤) :

ما زلت اسمع ان الملوك ... تبني على قدر اخطارها
واعلم ان عقول الرجال ... يقضى عليها بآثارها
فللروم ما شاده الاولون ... وللفرس مأثور احرارها
فلما رأينا بناء الأمام ... رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ... ولا الروم في طول اعمارها
صحون تسافر فيها العيون ... وتحسر عن بعد اقطارها
وقبة ملك كأن النجو ... م تفضي اليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع ... كساها الرياض بانوارها
نظمن الفسيفس نظم الحلي ... لعون النساء وابكارها
فيضن كمصبحات برزن ... بفصح النصارى وافطارها
فمنهن عاقصة شعرها ... ومصلحة عقد زنارها
وسطح على شاهق مشرف ... عليه النخيل بأثمارها
وفوارة ثأرها في السماء ... فليست تقصر عن ثارها
ترد على الحزن ما انزلت
على الارض من صوب مدرارها(١٣٥)

---

(١٣٤) كامل القصيدة في ديوان علي بن الجهم / ٢٨-٣٠ ، ويقول ياقوت انه قالها في القصر الجعفري – معجم البلدان ٣/ ١٧٥ ·

(١٣٥) ورد هذا البيت ببعض الاختلاف في «عيون الاخبار» ١/ ٣١٣ ·

فلا زالت الارض معمورة بعمرك يا خير عمارها

يتضح من بعض ابيات هذه القصيدة ان بناء القصر الهاروني كان مبتكراً في طرازه فاق ما يعرفه الروم والفرس من طرز البناء . وانه واسع الصحون فسيح الابهاء ، تعلوه قبة تناهز النجوم بارتفاعها ، وقد سبقت الاشارة اليها ، وله شرفات تزين جدرانها زخارف الفسيفساء وفيها صور الازهار ، وصور النساء من النصارى وهن بهيئات مختلفة من عاقصة شعرها ، ومصلحة عقد زنارها . كما يظهر ان المتوكل على الله اضاف الى القصر نافورة ماء ، فأشاد الشاعر بقوة دفعها الماء حتى لترد المطر الساقط من السماء . كما اشاد باهتمام الخليفة بالعمران وانه فاق غيره من الخلفاء في ذلك . وقد اشاد الشاعر نفسه بالبركة التي توسطتها الفوارة المذكورة ، وان المتوكل هو الذي انشأها في هذا القصر ، بقصيدة اخرى منها (١٣٦) :

انشأتها بركة مباركة فبارك الله في عواقبها

حفت بما تشتهي النفوس لها وحارت الناس في عجائبها

لم يخلق الله مثلها وطناً في مشرق الارض ومغاربها

كأنها والرياض محدقة بها عروس تجلى لخاطبها

من اي اقطارها اتيت رأيت الحسن حيران في جوانبها

للموج فيها تلاطم عجب والجزر والمد في مشاربها

الوحيد والتل والجامع : انفرد ياقوت الحموي بذكر القصر « الوحيد » وقال ان المتوكل على الله انفق عليه الفي الف درهم . ويظهر من قلة كلفته انه كان دارا صغيرة للاستراحة . و « قصر التل » الذي انفق عليه خمسة الاف الف درهم . وهناك من يرجح

---

(١٣٦) ديوان علي بن الجهم /٣٢ .

ان آثار البناية التي كشفت عنها تنقيبات هرزفيلد في قمة تل العليق قد تكون هي أطلال هذا القصر (١٣٧) ٠

كما انفرد الشابشتي بذكر قصر اسمه «الجامع» الا انه لم يبين موضعه ولا المبالغ التي انفقت عليه ٠

الغرد :

ومن القصور التي ذكرها ياقوت الحموي قصر « الغرد » وقال عنه « هو بناء للمتوكل بسر من رأى في دجلة انفق عليه الفي الف درهم ، ولم يصح لي انا ضبطه وما اظنه الا الغرد ، والله اعلم» (١٣٨) ٠ وقد ذكر البحتري هذا القصر في قصيدتين امتدح بهما المتوكل على الله ، فقد قال في احداهما (١٣٩) :

أحسن بدجلة منظراً ومخيما
والغرد في اكتاف دجلة منزلا

خضل الفناء متى وطئت ترابه
قلت : الغمام انهل فيه فاسبلا

حشدت له الامواج فضل دوافع
أعجلن دولابيه ان يتمهلا

تبيض نقيته ويسطع نوره
حتى تكل العين فيه وتتكلا

كالكوكب الدري اخلص ضوءه
حلك الدجى حتى تألق وانجلى

---

(١٣٧) ري سامراء ١/١١٩ ٠

(١٣٨) معجم البلدان ٤/١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

(١٣٩) ديوان البحتري ٣/١٦٥١ ـ ١٦٥٤ ٠

رفدت جوانبه القبـــاب ميامنــاً

وميـاســراً وسفلن عنــه واعتلى

فتخــــاله وتخــالهـــــن ازاءه

ملكا تدين لــه الملـــوك ممثـــلا

وعلى اعاليــه رقيـــب مـــا يني

كلفاً بتصريف الريــاح موكـــلا

من حيث دارت يطلـــب وجههـــا

فعل المقاتل جــــال ثـــم استقبلا

بدع لبدع في السمــاحة ما ترى

من امـــره الا عجيبـا مجـذلا

ويفهم مما جاء في هذه الأبيات ان بناية الغرد كانت مرتفعة جدا بحيث انها تعلو على ما جاورها من المباني ، وانها كان في اعلاها ما يشير الى اتجاه الريح ، مما اعتبره الشاعر من الاعمال المبتكرة العجيبة .

وجاء ذكر « الغرد » في قصيدة اخرى للبحتري امتدح بهـــا المتوكل على الله عندما عقـــد الصلح مـــع بني تغلب ، ومنهـــا قوله(١٤٠) :

تؤم القصور البيض من ارض بابل

بحيث تلاقى (غردها) و (بديعها)

---

(١٤٠) نفس المصدر ٢/١٢٩٦ـ١٣٠١ .

اذا اشرق البــرج المطـــل رمينه

بأبصار خوص قد أرثت قطوعها

وفيها يصف الشاعر الأبل التي كدها السير وهي تنظــر باعين غائرة الى هذه القصور السامقة • ويبدو ان القصور الثلاثة ، الغرد والبديع والبرج كانت متقاربة من بعضها •

* * *

الفصل الرابع

تأسيس مدينة المتوكلية (الجعفرية)

١ ـ تأسيس المدينة :

كان اضخم اعمال المتوكل على الله العمرانية تأسيسه مدينة جديدة سميت باسمه • فقد بذل اول امره جهودا كبيرة في توسيع مدينة سامرا وتحسينها وايصال الماء اليها ، وانفق على ذلك اموالا طائلة ، ليجعل منها اجمل مدينة تليق بأن تكون عاصمة الدولة العربية المترامية الاطراف • ولكن سامرا ، مع ما اقامه فيها من منشآت عمرانية ومشاريع اروائية ، لم تشبع طموحه ، بل انها ضاقت باحلامه ورغباته • فراح يفكر في انشاء مدينة جديدة يشرف على تخطيطها وبنائها وفق ما يطمح اليه من شوارع عريضة مستقيمة ، وقصور فخمة جليلة ، وحدائق غناء ومتنزهات جميلة ، ومبان واسعة لدواوين الدولة • واستولت عليه رغبة ملحة في ان تنسب اليه المدينة ليخلد بها اسمه • فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر ببابه غيره من المهندسين ان يختاروا موضعاً صالحا لانشاء مدينة خاصة به بالمواصفات التي يريدها • فوقع اختيارهم على موضع يقع شمال مدينة سامرا ، بينها وبين تكريت، يقال له الماحوزة[١] ،

(١) كذا سماها اليعقوبي والطبري والبلاذري ، الا ان المسعودي وابن الاثير يسميانها «الماخورة» ـ كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٩/ ٢١٢ ، وفتوح البلدان ، ٢٩٥ ، ومروج الذهب ٤/ ١٣٠ ، والكامل ٧/ ٨٧ •

على بعد عشرين كيلومترا تقريبا من سامراء الحالية (٢) • وقالوا له ان المعتصم قد رأى ان يبني هنا مدينة ويحفر نهراً كان في الدهر القديم (٣) ، فلقي ذلك هوى في نفسه • ويظهر انه فضل هذا الموضع لأنه يمتد على ضفاف دجلة مثل مدينة سامرا ، وان فيه نهراً مندرسا يسد حاجة المدينة الجديدة ومنشآتها من المياه اذا ما اعيد حفره • وقد ايد المهندسون صلاحية المنطقة للبناء ، وان من الممكن احيـــاء النهر المذكور اذا ما توفرت النفقات اللازمة لذلك ، وكانوا قدروا النفقة على احيائه بالف الف وخمسمائة الف دينار (٤) • ومـــع جسامة المبلغ فقد رضى المتوكل على الله وطاب نفساً وأمر بالمباشرة بحفره بنفس الوقت الذي بوشر فيه بتخطيط المدينـــة والبنـاء فيهـــا •

وقد حدد البلاذري موضع المدينة بقوله « ثم انه احدث مدينة سماها المتوكلية وعمرها واقام بها واقطع الناس فيهـــا القطائع ، وجعلها فيما بين الكرخ المعروف بفيروز والقاطول ، فدخلت الدور والقرية المعروفة بالماحوزة فيها ، وبنى بها مسجدا جامعاً »(٥) •

كانت اعمال تأسيس المدينة وبنائها بدأت مع البدء بحفـــر النهر ، فكان لابد من توفير المياه اللازمة لأعمال البناء ، ولذا امر المتوكل على الله بانشاء كهريز يستمد مياهه من نهر دجلة بالقرب من تكريت ويحملها الى موقع المدينة الجديدة على شاكلة قنـــاة سامرا التي سبق ان انشئت لأيصال المياه الى سامرا وكانت قناة جوفية ، ويمكن تتبع آثار هذا الكهريز على طول المسافة من صـــدره حتى

---

(٢) ري سامراء ٢/٣١٥ •
(٣) كتاب البلدان / ٢٦٦ •
(٤) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، وفي الطبري ٩/٢١٢ ان ما قدر من النفقة كان مائتي الف دينار •
(٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ •

مدينة المتوكلية • فهو يبدأ من دجلة بالقرب من تلول هطرة ، ثم يسير بموازاة قناة سامرا « قناة المتوكل » فيخترق الدور ، ويتابع سيره الى جانب كهريزي القناة المذكورة حتى يصل امام قنطرة الرصاص التي على القاطول الاعلى ، فينحرف نحو الغرب • وبعد ان يقطع قناة سامرا والقاطول يتجه نحو مدينة المتوكلية • ولا تزال شبكة الكهاريز التي كانت تتفرع من الكهريز المذكور ماثلة يمكن مشاهدتها في عدة امكنة داخل اطلال مدينة المتوكلية (٦) • وكان ذلك ضروريا لتعذر نقل كميات المياه المطلوبة للبناء من نهر دجلة على ظهور الحيوانات •

وقد عين المهندسون مواضع قصور الخليفة ، ودار الخلافة والدواوين الرسمية ، والمناطق السكنية ، وقطائع القواد والجند • ووضعوا التفصيلات اللازمة لعمرانها ، وجيء بالعمال والبنائين ، وقام العمل على قدم وساق لانجاز المدينة بأقصر وقت ممكن • ومدوا الشارع الأعظم من دار اشناس التي بالكرخ ، وكانت قد صارت للفتح بن خاقان ، مسافة ثلاثة فراسخ شمالا ، وجعلوا عرضه في مدينة المتوكلية مائتي ذراع ، وقدروا ان يحفر على جانبيه جدولان يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي بوشر بحفره • واقطع الخليفة ولاة عهوده الثلاثة وسائر اولاده ، وقواده وكتابه وجنده ، وسائر الناس كافة ، عن يمين الشارع الاعظم وعن يساره ، وجعل الاسواق الكبيرة في موضع منعزل ، كما جعل في كل مربعة وقطيعة سوقا خاصا بها (٧) • وقد بدأ العمل في بناء المدينة في سنة ٢٤٥هـ •

وتميز الشارع الأعظم بطوله واستقامته ، ولا سيما بعد ان امتد الى آخر مدينة المتوكلية وضوعف عرضه • اذ بعد ان يترك سور

(٦) ري سامراء ٢/ ٣٤٠-٣٤٢ •
(٧) كتاب البلدان / ٢٦٦ - ٢٦٧ •

اشناس يتجه شمالا مسافة كيلومترين تقريبا ثم ينعطف نحو الغرب قليلا فيسير باتجاه مستقيم بين نهر دجلة والقاطول الاعلى ، وبعد ان يسير مسافة كيلومتر واحد تقريبا يتضاعف عرضه الى مائتي ذراع ، ويستمر في نفس الاتجاه مسافة ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر تقريبا فيجتاز السور الذي يفصل بلاط الخليفة وقصوره ودواوين الدولة عن بقية المدينة ، فيعود الى عرضه السابق حتى يصل الى نهاية المدينة • وواضح ان هذه المنطقة من المدينة يقل فيها الزحام ، وتتطلب الهدوء ، ولذا فلا تحتاج الى ذلك الشارع العريض • ويبلغ طول الشارع الاعظم في داخل مدينة المتوكلية حوالي اثني عشر كيلومترا ونصف الكيلومتر(٩) •

ويظهر ان تصميم مدينة المتوكلية وضع على اساس تقسيمها الى ثلاثة اقسام : اولها القسم الجنوبي منها ويعرف باسم دور عربايا او الدور العربانى ، وقد خصص لسكنى الناس بصورة عامة وكانت شوارعه الفرعية مستقيمة ومتوازية ، ويخترق الشارع الأعظم هذا القسم من المدينة من الجنوب الى الشمال ، وكان يعرف بالشارع الغربي ، والى شرقيه شارع آخر هو امتداد لشارع ابي احمد في سامرا ، وكان يسمى بالشارع الشرقي • وخصص القسم الممتد على ضفاف دجلة من هذا الجزء من المدينة الى الفتح بن خاقان وابراهيم بن رباح • وقد سبق ان اشرنا الى ان دار اشناس وقطيعته قد صارت الى الفتح بن خاقان(١٠) •

والقسم الثاني هو القسم الوسطي من المدينة وقد خصص لقطائع القواد واصحابهم ، فكان لكل قائد قصر خاص يطل على دجلة ، وتمتد قطيعته التي تنتشر فيها مساكن اتباعه من الجند ،

---

(٨) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٩/٢١٢ ، والكامل ٧/٨٧ •
(٩) كتاب البلدان / ٢٦٦ وري سامراء ٢/٣٣٩ •
(١٠) ري سامراء ٢/٦٢٤-٦٢٥ •

شرقي قصره ، فتخترق الشارع الأعظم وشارع ابي احمــــد حتى تنتهي الى ضفة القاطول الاعلى • وفي هذا الجزء من المدينـة يتسع عرض الشارع الأعظم الى مائتي ذراع ، وتتفرع من جانبيه شوارع فرعية بزوايا قائمة ، تنتهي الغربية منها الى ضفاف نهر دجلة ، وتنتهي الشرقية الى ضفاف القاطول الاعلى • وشـيد في شمالي هذا القسم جامع المدينة المعروف باسم جامـع ابي دلـف ومئذنته الملوية • وينتهي القسم الوسطي من المدينة شمالي الجامع بقليل حيث يبدأ القسم الثالث منها ، وهو القسم الشمالي الذي خصص لدار الخلافة ودواوين الدولة وقصور المتوكـل على الله ، ويفصله عن بقية اجزاء المدينة سور يمتد بين ضفـة القـاطول الأعلى ونهر دجلة وله ثلاثة ابواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه(١١) • بحيث كانت هذه المنطقة معزولة تماما عن المدينة • وقد روعيت حماية هذا القسم وعزلته فقد كان يحده من الشمال والشرق نهر القاطول الاعلى ، ومن الغرب نهر دجلة ومن الجنوب السور الذي مر ذكره • ولا سبيل للوصول الى هذا القسم من غير الابواب الثلاثة المارة الذكر • كما يلاحظ ان دار الخلافة ودواين الدولة وقصور الخليفة قد احيطت هي الاخرى بسور خاص بهــا يبلغ طوله اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر تقريبا • وقد تركت بين السور الفاصل بين القسمين الوسطي والشمالي ، والقســم الخاص بدار الخلافة والدواوين مساحات واسعة نظمـت فيهــا حدائق وبساتين يخترقها شارعان يؤديان الى دار الخلافة ودواوين الدولة (١٢) •

وكان المتوكل على الله يتفقد بنفسه سير العمــل فـي بنـاء مدينته ، وفي حفر النهر ، فمن رآه من العاملين قد جد في البناء

(١١) كتاب البلدان / ٢٦٦ •

(١٢) ري سامراء ٢/٦٢٥-٦٢٧ •

اجازه واعطاه ، فجد الناس ونشطوا للعمل (١٣) ، وبلغ من حرصه على متابعة العمل والاسراع في انجازه انه انتقل الى قرية المحمدية ليكون قريبا من الماحوزة ليسهل عليه الاشراف على ذلك(١٤) . والمحمدية قرية قريبة من الماحوزة كانت تعرف بالايتاخية نسبة الى القائد التركي ايتاخ ، وسماها المتوكل على الله المحمدية باسم اكبر ابنائه محمد المنتصر ، وكانت تعرف قبل انشاء سامرا بدير ابي الصفرة ، وهم قوم من الخوارج(١٥) . ويرجح ان تسميتها بالمحمدية كانت بعد ان تمكن من القائد المذكور وقتله . ويتبادر الى الذهن ان اقامة المتوكل على الله في المحمدية ، ربما كانت وسيلة للتخلص من معاكسة القواد الاتراك له في سامرا والابتعاد عن مشاكلهم العديدة معه .

لقد ارتفع البنيان في خلال مدة تزيد على السنة ، اذ بنيت القصور وشيدت الدور . وسمي المتوكل على الله المدينة الجديدة « الجعفرية » نسبة اليه ، الا انه كان هو وخاصة اصحابه يسمونها « المتوكلية » (١٦) . وكان البناء قد اتصل منها الى الدور ثم الكرخ وسامرا حتى اسفل المطيرة ، حيث شيد قصر المعتز بن المتوكل على الله ، ولم يبق بين ذلك مكان لا عمارة فيه ، وكان مقدار ذلك سبعة فراسخ(١٧) .

وانتقل المتوكل على الله الى قصور هذه المدينة في اول يوم من المحرم من سنة ٢٤٧هـ . فلما جلس اجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم ، واعطى جميع القواد والكتاب ، ومن تولى عملا وساهم في تأسيس المدينة ، وتكامل له السرور حتى قال : « الآن علمت اني

---

(١٣) كتاب البلدان / ٢٦٦ .
(١٤) الطبري ٢١٢/٩ .
(١٥) معجم البلدان ٦٥/٥ .
(١٦) كتاب البلدان / ٢٦٦ ، والطبري ٢١٢/٩ ، والكامل ٨٧/٧ .
(١٧) كتاب البلدان / ٢٦٦-٢٦٧ .

ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » (١٨) • واقام فيه احتفالا جمع فيه القراء ، واحضر اصحاب الملاهي ، ووهبهم اكثر من الفي الف درهم (١٩) •

وامر الخليفة بان تنقل دواوين الدولة من سامرا الى الجعفرية، فنقل ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الزمام وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد ، وجميع الدواوين الاخرى (٢٠) • ومن الطبيعي ان ينتقل الى العاصمة الجديدة حاشية الخليفة وندماؤه ومستشاروه ، ورجال الدولة وموظفوها ، وكل من له علاقة بمؤسساتها ودواوينها المختلفة • كما انتقل اليها العديد من الناس اقتداء بالخليفة ورغبة في التجديد • ويقول ياقوت الحموي : « ولما انتقل المتوكل من سامراء الى الجعفرية انتقل معه عامة اهل سامراء حتى كادت تخلو ، فقال في ذلك ابو علي البصير هذه الأبيات » (٢١) ، منها قوله :

ان الحقيقة غير ما يتوهم ... فاختر لنفسك أي امر تعزم

أتكون في القوم الذين تأخروا ... عن خطهم ام في الذين تقدموا

لا تقعدن تلوم نفسك ، حين لا ... يجدي عليك تلوم وتندم

أضحت قفاراً سر من را ما بها ... الا لمنقطع به متلوم

تبكي بظاهر وحشة وكأنها ... ان لم تكن تبكي بعين تسجم

رحل الامام فاصبحت ، وكانها

عرصات مكة حين يمضي الموسم.

---

(١٨) نفس المصدر / ٢٦٧ •

(١٩) الطبري ٩/٢١٢ ، والكامل ٧/٨٧ •

(٢٠) كتاب البلدان / ٢٦٧ •

(٢١) معجم البلدان ٢/١٤٣-١٤٤ •

وكأنما تلك الشوارع بعض ما
أخلت اياد من البلاد وجرهم

كانت معاداً للعيون ، فأصبحت
عظة ومعتبراً لمن يتوسم

فارحل الى الارض التي يحتلها
خير البرية ، ان ذاك الأحزم

وانزل مجاوره باكرم منزل
وتيمم الجهة التي يتيمم

ارض تسالم صيفها وشتاؤها
بالجسم بينهما يصح ويسقم

ومن اشهر ما قيل من الشعر في مدينة المتوكلية ما قاله الشاعر البحتري يمتدح المتوكل على الله ويشيد بالمدينة الجديدة . فقد قال في ذلك قصيدة منها (★) :

يهنيك في المتوكلية أنها
حسن المصيف بها ، وطاب المربع

فيحاء مشرقة يرق نسيمها
ميث تدرجها الرياح واجرع

وفسيحة الاكناف ضاعف حسنها
بر لها مفضي وبحر مترع

(★) ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ، ١/٤٢ـ٤٤ .

قد سر فيها الاولياء اذ التقوا
ببناء منبرها الجديد فجمعوا

فارفع بدار الضرب باقي ذكرها
ان الرفيع محله من ترفع

ومن قوله في قصيدة اخرى (٢٢) :

اری المتوكلية قد تعالت محاسنها ، واكملت التماما
قصور كالكواكب لامعات يكدن يضئن للساري الظلاما
وبر مثل برد الوشي فيه جنى الحوذان ينشر والخزامی
اذا برز الربيع له كسته غوادی المزن والريح النعامی
غرائب من فنون النبت فيها جنى الزهر الفرادى والتواما

تضاحكها الضحى طوراً وطوراً
عليها الغيث ينسجم انسجاما

عندما انتقل المتوكل على الله الى عاصمته الجديدة كان الخلاف بينه وبين القواد الاتراك قد بلغ درجة خطيرة • ومما زاد في خطورة هذا الخلاف ان ولي العهد محمد المنتصر انضم الى معارضي ابيه : وبلغ الخلاف بين الجانبين ان بات كل جانب منهما يتربص بالجانب الآخر ويعمل على التخلص منه • وسرعان ما نجح الجانب التركي في تدبير مؤامرة اغتيل فيها الخليفة ، ولم يكن قد مضى على انتقاله الى المتوكلية سوى تسعة اشهر وثلاثة ايام • اذ قتل ليلة الاربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ(٢٣) •

(٢٢) ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ، ١/٣٧ـ٣٩ •
(٢٣) الطبري ٩/٢٣٠ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ ، ومروج الذهب ٤/١١٨ •

وتولى الخلافة محمد المنتصر ، فلم يلبث في المتوكلية سوى ايام قليلة ثم انتقل الى سامرا ، وامر الناس جميعا بالانتقال عن الماحوزة وان يهدموا المنازل ويحملوا النقض الى سامرا . فانتقل الناس ، وخربت قصور مدينة المتوكلية ومنازلها ومساكنها واسواقها في اسرع مدة بحيث صار موضعها موحشا لا انيس فيه ، كأنه لم يعمر ولم يسكن من قبل (٢٤) . ويقول البلاذري ان المنتصر انتقل الى سامرا يوم الثلاثا لعشر خلون من شوال (٢٥) . اما المسعودي فيرى ان مقام المنتصر بالله بعد ابيه في الماحوزة سبعة ايام ثم انتقل منه وامر بتخريب المدينة (٢٦) . بينما يرى الطبري ان اقامته كانت عشرة ايام ثم تحول بعياله وقواده وجنوده الى سامرا (٢٧) .

تقع اطلال مدينة المتوكلية على ضفاف نهر دجلة ، على بعد عشرة كيلومترات من الحدود الشمالية لسامرا . ولا تزال آثار السور العظيم الذي كان يحيط بدار الخلافة والدواوين وقصور الخليفة والذي يربو طوله على اربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر ماثلة للعيان . وتبلغ مساحة الأرض التي كانت تشغلها هذه المباني (٥٤٠) دونما . كما ان هناك آثار سور آخر يقع جنوبي السور السابق، وكان يمتد بين ضفة نهر دجلة والضفة اليمنى لنهر القاطول ويفصل دار الخلافة والدواوين وقصور الخليفة عن بقية المتوكلية كما اشرنا آنفاً (٢٨) . ولعدم القيام بالتنقيب في اطلال المدينة خلا ما قامت به مديرية الآثار القديمة العامة من التنقيب المحدود في اطلال بعض الدور السكنية ، فلم تتوفر معلومات كافية واضحة

(٢٤) كتاب البلدان / ٢٦٧ .
(٢٥) فتوح البلدان / ٢٩٦ .
(٢٦) مروج الذهب ٤/ ١٣٠ .
(٢٧) الطبري ٩/ ٢٣٤ .
(٢٨) ري سامراء ١/ ١٢٩ .

عن المدينة • وكان هرزفيلد قد القى نظرة خاطفة على هذه المنطقة من سامرا دون ان ينقب فيها كما سنذكر فيما بعد عند الكلام عن القصر الجعفري •

٢ ــ النهر الجعفري :

في الوقت الذي كان فيه العمال منهمكين في انجاز مباني ومنشآت المدينة المتوكلية في الماحوزة كان عدد كبير جداً من عمال الحفر منهمكين ايضاً في حفر النهر الذي سيوصل المياه الى المدينة الجديدة • فقد عهد الخليفة المتوكل على الله الى دليل بن يعقوب النصراني كاتب القائد بغا الكبير ، بأمر الاشراف على حفر النهر المذكور الذي اطلق عليه اسم الخليفة جعفر المتوكل على الله فسمي النهر الجعفري • وقد استخدم في حفره اثنى عشر الف رجل ، ولم يزل دليل يحمل المال اجوراً للعمال وللنفقات الاخرى مما يستلزمه العمل (٢٩) •

يتفرع النهر الجعفري من الضفة الغربية لنهر دجلة من موضع يقع شمالي تكريت بما يقرب من ٣٨ كيلومتراً ، ويسير موازيا لدجلة مسافة ٢٠ كم تقريبا ، فيتجة نحو الشرق مبتعداً عن دجلة وبعد ان يجتاز الدور (دور تكريت) يصل الى تل اصطناعي يسمى « تل البنات » وهو تل كبير ينقسم عنده النهر المذكور الى فرعين يحيطان بالتل • ثم يعود الفرعان بعده للالتقاء ثانية ، فيسير النهر مقترباً من دجلة حتى يصل القاطول الاعلى عند قنطرة الرصاصي الواقعة على مسافة ٧٫٥ كلم من صدر القاطول ، وهنا يتشعب الجعفري الى ثلاثة فروع ، فيعبر فرعان منه نهر القاطول ، يعبر احدهما على عبارة فوق القنطرة المذكورة ، ويعبر الفرع

---

(٢٩) الطبري ٩/٢١٢

الآخر على عبارة اخرى شمالي العبارة السابقة ، ويصب الفرع الثالث في نهر القاطول • وبعد ان يعبر الفرعان ينتهيان الى حوض كبير انشىء في ضفة القاطول اليمنى لتتجمع فيه مياههما • ثم تتشعب من الحوض عدة جداول يمتد احدها الى مدينة المتوكلية ، ويوصل الآخر المياه الى السواقي التي حفرت على جانبي الشارع الأعظم ، ويمتد جدول ثالث الى القصر الجعفري ليزود بركته الواسعة بالمياه • ويبلغ طول النهر الجعفري من مبدئه حتى البركة حوالي ٦٣ كلم (٣٠) •

وكانت العبّارة التي انشئت على قنطرة الرصاصي لعبور فرع النهر الجعفري تستعمل بنفس الوقت جسراً لعبور الناس والدواب ايضاً • ويرجح ان الجعفري كان يجري وسط العبارة ، وعلى جانبيه ممران للسابلة والحيوانات ، ويظهر ان العبارة بقيت تستخدم جسراً للعبور بعد ان اهمل النهر الجعفري • وكانت العبارة الشمالية اصغر وتقتصر على عبور فرع الجعفري عليها • ويلاحظ من الآثار المتبقية لقنطرة الرصاصي الأصلية انها كانت تتألف من ثلاث دعامات وان مجرى النهر كان يمر من تحت القنطرة بفتحتين معقودتين بطاقين ضخمين ، عرض كل فتحة عشرة امتار • ويبلغ طول البناء الذي يشتمل على الفتحتين والدعامات الثلاث تسعاً وعشرين متراً ، وقد قلع هذا البناء من اساسه لاستخراج الرصاص من احجاره (٣١) •

وهناك اختلاف في روايات المؤرخين عن النهر الجعفري ، فبعضهم يقول انه لم يتم حفره ، وبعضهم يرى أنه تم انجازه الا ان الماء لم يجر فيه بالشكل المطلوب • يقول الطبري ان المتوكل على

---

(٣٠) ري سامراء ٢/٣١٩ـ٣٢١ •

(٣١) نفس المصدر / ٣٣٤ ـ ٣٣٦ •

الله قتل فبطل العمل في النهر واخربت الجعفرية ونقضت ولم يتم امر النهر (٣٢) • ويقول اليعقوبي ان النهر لم يتم امره ولم يجر فيه الماء الا جريا ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة رغم انه انفق عليه قرابة الف الف دينار ، وهو يعزو صعوبة حفره الى صلابة الأرض وطبيعتها المتكونة من الحصا والانهار مما لا تعمل فيه المعاول الا بصعوبة بالغة (٣٣) • اما ابن الأثير فيقول ان المتوكل على الله حفر للمدينة نهراً ، وقتل فبطل حفر النهر واخربت المدينة (٣٤) • ويلاحظ من هذه الروايات ان الطبري وابن الأثير يتفقان في ان النهر لم يتم حفره لموت المتوكل على الله ، بينما يفهم من رواية اليعقوبي ان حفر النهر لم يتم كما يجب ، اي ان حفره كان فاشلا بسبب صلابة الأرض ولذا فقد كان جريان الماء فيه ضعيفا متقطعا •

ويظهر من رواية اوردها احمد بن يوسف الكاتب عن مشروع هذا النهر ان ما ذهب اليه اليعقوبي اقرب الى الصواب • وخلاصة ما يقوله : ان المتوكل على الله طلب الى محمد واحمد ابني موسى بن شاكر ، وهما من المتقدمين في علم الرياضة والهيئة وحركات النجوم والحيل ، ان يتوليا حفر النهر الجعفري • فكلفا احمد بن كثير الفرغاني ، وهو مهندس كان قد عمل المقياس الجديد لنهر النيل بمصر في سنة ٢٤٧ هـ « فغلط في فوهة النهر وجعلها اخفض من سائره ، فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائره » فلما علم المتوكل كلف المهندس سند بن علي بأن يتحرى امر النهر المذكور ويبين له ما اذا كان هناك خطأ ارتكب فيه لكي يعاقب الاخوين ابني موسى بن شاكر •

---

(٣٢) الطبري ٩/٢١٢ •
(٣٣) كتاب البلدان / ٢٦٧ •
(٣٤) الكامل ٧/٨٧ •

وكان قد سبق للأخوين المذكورين ان اساءا الى سند بن علي بأن سعيا به لدى المتوكل على الله وباعداه عنه • كما كانا قد دبرا على الكندي العالم الفيلسوف عند المتوكل على الله فغضب عليه ، فتوجها الى داره واستوليا على مكتبته • ولذا فقد توسلا الى سند بن علي ان يتستر على عيوب النهر والاخطاء التي ارتكبت في تخطيطه وحفره • فاشترط سند عليهما ان يعيدا الى الكندي منزلته لدى الخليفة ، ويعيدا اليه مكتبته فأعاداها وأخذا خطه بذلك • فقال لهما سند : « الخطأ في هذا النهر يستتر مدة اربعة اشهر ، وهي فترة زيادة نهر دجلة ، وقد اجمع الحُسَّاب ــ اي المنجمون ــ على ان امير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى ، وانا اخبره الساعة انه لم يقع خطأ في النهر ، ابقاء على ارواحكما ، فان صدق المنجمون افلتنا نحن الثلاثة ، وان كذبوا وجاءت مدته حتى تنقص دجلة وينضب النهر اوقع بنا ثلاثتنا » • فشكر الاخوان له قوله • فدخل سند الى المتوكل على الله وقال له : ما غلطا في امر النهر • وزادت دجلة وجرى الماء في النهر واستتر حاله • ثم قتل المتوكل على الله بعد شهرين من ذلك • وسلم المهندسون المذكورون (٣٥) •

ويظهر من هذا ان النهر الجعفري قد تم حفره وجرت فيه المياه في موسم الفيضان ، وذلك قبيل مقتل المتوكل على الله • وان الخطأ الذي وقع به المهندسون هو عدم التأكد من مناسيب المياه في نهر دجلة في مختلف ايام السنة ، لكي يحفر مستوى النهر وفق ذلك ، بحيث ان صدر النهر جاء اعلى من مستوى المياه في دجلة في الظروف الاعتيادية فلا تجري فيه • وان الماء الذي جرى فيه انما كان في موسم الفيضان اذ ارتفع فيه منسوبه فسهل انسيابه الى الجعفري ولكن لأمد قصير • ولا ينكر ان مجهودات عظيمة قد بذلت واموالا طائلة قد انفقت على النهر ، اذ استغرق العمل فيه قرابة

---

(٣٥) كامل الخبر في المكافأة / ١٩٥ــ١٩٦ ، وعيون الانباء / ٢٨٦ــ٢٨٧ •

سنة ونصف ، وذلك لصلابة الارض التي يمر فيها مما لا يساعد على الحفر العميق • اما موضوع اجماع المنجمين على قرب نهاية اجل المتوكل على الله ، فامر لا يخلو من ان تهديد القواد الاتراك باغتياله قد شاع بين الناس آنذاك ، وان ظواهر الامور تدل على رجحان كفة الاتراك وقرب تحقيق ذلك ، فاستغل المنجمون الأمر لاظهار براعتهم فادعوا ان حساباتهم تعطي تلك الدلالة •

٣ ـ القصر الجعفري :

بنى المتوكل على الله في المدينة التي اسسها في الماحوزة قصراً سماه باسمه « القصر الجعفري » • يقول عنه اليعقوبي : « وانتقل المتوكل الى موضع يقال له الماحوزة •• وبنى هناك مدينة سماها الجعفرية • وبنى فيها قصراً لم يسمع بمثله » (٣٦) • ويقول عنه ابو الفداء في حوادث سنة ٢٤٦هـ « وفيها تحول المتوكل الى الجعفري وكان قد ابتدأ في عمارته ستة ٢٤٥هـ وانفق عليه اموالا تجل عن الحصر » (٣٧) • اما ياقوت الحموي فقد قال عن هذا القصر : « الجعفري : هذا اسم قصر بناه امير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله قرب سامرا بموضع يقال له الماحوزة • وفي سنة ٢٤٥هـ بنى المتوكل الجعفري وانفق عليه الفي الف دينار •• لأن الدراهم كانت في ايام المتوكل كل خمسة وعشرين درهما بدينار ، فيكون عن الفي الف دينار خمسون الف الف درهم • ولما عزم المتوكل على بناء الجعفري تقدم الى احمد بن اسرائيل باختيار رجل يتقلد المستغلات بالجعفري من قبل ان يبنى ، واخراج فضول ما بناه الناس من المنازل ، فسمى

---

(٣٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٢ •

(٣٧) المختصر في اخبار البشر ٢/٤١ •

الله ابا لخطاب الحسن بن محمد الكاتب • فكتب الحسن بن محمد الى ابي عون ، لما دعي الى هذا العمل :

انی خرجت الیك من اعجـوبة
مـمـا سمعت بـه ، ولـمـا تسمع

سمیت للاسواق قبـل بنائهـا
ووليت فصل قطائع لم تقطع(٣٨)

وايد ياقوت النفقة التي اشار اليها ، في مكان آخـر مـن معجمه ، ولذلك عندما عدد قصور المتوكل على الله وما انفقه على كل منها (٣٩) • ويتضح من ذلك انه لم ينفق على اي قصر آخر مثل هذا المبلغ الكبير الذي يزيد على ضعف ما انفق على قصر بلكوارا مع سعته وضخامة بنائه • وقد يكون ياقوت واهما في ذلك • اذ يقول الطبري ان هذه النفقة كانت على بناء مدينة الجعفري التي كان يسميها هو واصحابه المتوكلية (٤٠) • اي ان المبلغ المذكور قد انفق على بناء المدينة كلها وليس على قصر الجعفري حسب • ومما يؤيد ان الطبري يقصد بالجعفري المدينة لا القصر قوله في مكان آخر « فلما عزم المتوكل على بناء الجعفري قال له نجاح ــ وكان من الندماء ــ يا امير المؤمنين ، اسمي لك قوما تدفعهم الي حتى استخرج لك منهم اموالا تبني بها مدينتك هذه »(٤١) • وهو يسميها احيانا الجعفرية (٤٢) •

---

(٣٨) معجم البلدان ١٤٣/٢ •
(٣٩) نفس المصدر ١٧٥/٣ •
(٤٠) الطبري ٢١٢/٩ •
(٤١) نفس المصدر / ٢١٥ـ٢١٦ •
(٤٢) نفس المصدر / ٢٢١ـ٢٢٣ •

ولا تزال بقايا القصر الجعفري وبركته الواسعة تشاهد على ضفة نهر دجلة في شمالي السور الداخلي لمدينة المتوكليـــة ، في الزاوية التي يكونها نهر دجلة من جهة ونهر القاطول من الجهـة الأخرى (٤٣) . وقد تعرف الآثاري هرزفيلد على بقايا هذا القصر في اطلال المتوكلية ، ووصفها بقوله : « انها سور ضخـم يغطي مساحة تبلغ ١ ٢/٣ كيلومتر مربع ، محاطة بجدران مدعمة بابراج من الطابوق المصنوع من اللبن . وتشكل مضلعا غير منتظم يقـع بين ضفة دجلة العليا والقناة ، عند نقطة على هذه القناة بحوالي ٤ ١/٢ كيلومتر شمالي جامع ابي دلف ، وحوالي كيلومتر واحـــد شمالي قنطرة الرصاص . وعثر على مدخل السور حيث ينقطع منه شارع مستطيل خلال مساحة القصر باتجاه ٧٠ درجة جنوب غربي » (٤٤) .

وقد اشتهر القصر الجعفري بحسنه وفخامـة بنائه وببركتـه الواسعة الجميلة . فوصفه عدد من الادباء والشعراء . يقال ان ابا العيناء ، الأديب البصير ، دخل على المتوكل على الله في قصره الجعفري في سنة ٢٤٦هـ ، فقال له المتوكل : ما تقول في دارنـا هذه ؟ فقال : ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك . فاستحسن كلامه (٤٥) . وعندما انتهى المتوكل على الله من بناء قصره هذا مدحه البحتري وأشاد بالقصر ، ومما جاء في شعره قوله (٤٦) :

أصبحت بهجة النعيم وامســت
بــين قصــر الصبيح والجعفري

---

(٤٣) ري - امراء ١/١٣٣ .
(٤٤) العمارة العباسية / ١٧٥ .
(٤٥) مروج الذهب ٤/٢٣٦ ، ومعجم الادباء ١/٦٢ ، ووفيات الاعيان ٣/٤٦٨ .
(٤٦) ديوان البحتري ٤/٢٤٥١-٢٤٥٢ .

في البناء العجيب والمنـزل الآ
نسـ والمنظـر الجميل البهي

ورياض تصبو النفوس اليهـا
وتحيـا بـوردهـن الجنـي

دار ملـك مختـارة لامـام
احـرزت كفـه تـراث النبـي

ولعل احسن ما قاله البحتري في هذا القصر قوله في احـدى مدائحه المتوكل على الله (٤٧) :

قد تم حسن الجعفري ، ولم يكـن
ليتـم الا بالخليفـة جعفـر

ملك تبـوأ خيـر دار اقامـة
في خير مبدى للامـام ومحضر

في رأس مشرفة حصاها لؤلؤ ،
وترابها مسـك يُشاب بعنبـر

مخضرة ، والغيـث ليس بساكب
ومضيئة ، والليل ليس بمقمر

تقرير لطفـك واختيارك اغنيـا
عن كـل مختـار لهـا ومصدر

فرفعـت بنيانا كـأن زهـاءه
اعـلام رضـوى او شواهد صنبر

ازرى على همم الملوك وغض من
بنيان كسرى في الزمان وقيصر

(٤٧) نفس المصدر ٢/١٠٣٩ـ١٠٤٢ ٠

مـلأت جوانبه الفضـاء وعانقت
شرفاته قطـع السحاب الممطـر

عال على لحـظ العيون ، كأنمـا
ينظـرن منـه الى بيـاض المشتري

وتسير دجلـة تحته ، ففنـاؤه
من لجة غمـر وروض أخضـر

أعطيته محض الهوى ، وخصصته
بصفـاء ود منك غيـر مكـدر

واسم شققت له من اسمك فاكتـ
ـسى شرف العلو به وفضل المفخر

وتظهر القصيدة ما كان عليه القصر من سعة المساحة ، وكثرة الشرفات وارتفاعها الذي يناطح السحاب العالي . وان فخامته مما تعجز عن بناء مثله الملوك ، وتقصر عنه ابنية الروم والفرس . وانه كان يطل على دجلة ، وتحيط به الرياض الخضر ، وان الخليفة سماه باسمه ، وذلك مما زاده فخراً وجلالا .

وقد انشأ المتوكل على الله امام قصره الجعفري بركة سميت باسمه ايضا هي « البركة الجعفرية » التي اشتهرت بسعتها وجمال تنسيقها ، واعتبرت في يومها من عجائب الزمان . ولم يبق منها اليوم سوى حفرة عميقة تحيط بها اطلال القصر الجعفري في خرائب مدينة المتوكلية ، وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها زهاء ١٢٠ مترا وعرضها حوالي ٨٠ مترا ، اي بمساحة تقرب من عشرة الاف متر مربع . وكان المتوكل على الله جعل فرعا من النهر الجعفري ينتهي اليها من جهتها الشرقية ليزودها بالمياه . كما انشأ لها ثلاثة كهاريز تخرج من قعرها عند ضلعها الجنوبية ، ثم

تتوحد بكهريز واحد واسع لتصريف مياهها الزائدة الى نهر دجلة (٤٨) .

وقد سبقت الاشارة الى ان مديرية الآثار العامة ترى ان البركة الجعفرية هذه هي التي وصفها البحتري وسماها البركة الحسناء واشاد بها بقصيدته المشهورة التي يقول فيها (٤٩) :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات اذا لاحت مغانيها

يحسبها انها من فضل رتبتها
تعد واحدة ، والبحر ثانيها

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها
في الحسن طوراً ، وطوراً تباهيها

أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها
من أن تُعاب ، وباني المجد بانيها

كأن جن سليمان الذين ولوا
ابداعها فأدقوا معانيها

فلو تمر بها بلقيس عن عرض
قالت : هي الصرح تمثيلا وتشبيها

تنحط فيها وفود الماء معجلة
كالخيل خارجة من حبل مجريها

كانما الفضة البيضاء سائلة
من السبائك تجري في مجاريها

---

(٤٨) ري سامراء ٢/٣٣٧ .

(٤٩) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٤/٢٤١٤-٢٤٢١ .

لا يبالغ السمك المحصور غايتها
لبعـــد مـــا بين قاصيها ودانيهـــا

يعمق فيهـا باوســـاط مجنحـة
كالطير تنفض في جو خوافيهـا

لهن صحن رحيـــب في اســافلها
اذا انحططن وبهـو في اعاليها

صور الى صورة الدلفين يؤنســـها
منه انـــزواء بعينيه يوازيهـــا

وزادها زينة من بعـد زينتهـــا
ان اسمه حين يدعى مـن اساميها

محفوفة برياض لا تـزال تـرى
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

ودكتين مـثل الشعريين غـدت
احداهما بازاء الاخـرى تساميها

ان البحتري يشيد بحسن البركة ، ويشير الى سعتها كأنهـــا البحر ويقول ان دجلة تغار منها لحسنها ، وكأنها من صنع جن سليمان ، ويشبهها بالصرح الذي بناه سليمان لبلقيس من الزجاج الصقيل ، وذلك لشدة صفائها • ويشير الى سرعة تدفق الميـــاه فيها كأنها الخيل في جريها ، وانها من السعة بحيث لا يبلغ السمك الذي فيها طـرفيها ، وان بهوأ مرتفعا يشـــرف عليها ، وان تمثالا للدلفين كان مقاما في احد اركانها • وهي محاطة برياض من الورود متنوعة الالوان كريش الطواويس • وان مما يزيد في جلالها وزينتها ان تسمى باسم الخليفـة جعفر المتوكـل على الله • ويشير في خاتمة شعره الى دكتين كانتـا على البركتين ويشبههما

بالشعريين ، وهما من أسطع النجوم واقربهما الى الأرض، احداهما الشامية وتسمى الغميصاء او الغميضاء ، والاخرى يمانية وتسمى العبور ·

قصر لؤلؤة :

وهناك آثار قصر آخر يقع جنوبي القصر الجعفري على ضفة نهر دجلة ، خارج سور المتوكلية ، يرجح انهـا اطـلال قصـر لؤلؤة(٥٠) · وقد قال عنه الطبري ان المتـوكل على الله بنى في المتوكلية قصراً سماه لؤلؤة لم ير في مثـل علوه (٥١) · وذكـره الشابشتي في جملة قصور المتوكل على الله وسماه « اللؤلؤة »(٥٢) · وقال ياقوت الحموي ان النفقة عليه بلغـت خمسـة الاف الف درهم (٥٣) ·

٤ ـ جامع ابي دلف :

مقدمة :

يقع جامع ابي دلف في مدينة المتوكلية التي بناها المتوكل على الله في اواخر سنوات حكمه واتخذها عاصمة له ، شمالي مدينـة سامرا · وتبعد اطلال الجامع وبقاياه عن مدينة سامراء الحاليـة بنحو خمسة عشر كيلومتراً · وكان العالم الآثاري هرزفيلد قد قام بالتنقيب في اطلال هذا الجامع وتوصل الى كثير من المعلومات عن

---

(٥٠) ري سامراء ١/١٣٥ ·
(٥١) الطبري ٩/٢١٢ ·
(٥٢) الديارات / ١٥٩ ·
(٥٣) معجم البلدان ٣/١٧٥ ·

سوره واروقته وتسقيفه ، الا ان تحرياته لم تتناول جميع اطلال الجامع ، كما ان بعضها لم يكن بدرجة كافية من الدقة • وقد كشفت التنقيبات التي قامت بها مديرية الآثار القديمة العامة عن كثير من المعلومات المتعلقة بمشتملات الجامع وابعادها ، وبتسقيفه • كما قامت بصيانة قسم كبير من بقاياه ، وبخاصة منارته الملوية ، ومابقى من اسواره وجدرانه • ونشر الاستاذان بشير فرنسيس مفتش الآثار القديمة ، ومحمود علي الرسام في مديرية الآثار القديمة العامة مقالا في مجلة سومر(٥٤) ، تضمن جميع ما كشفت عنه التنقيبات المذكورة •

ان جامع ابي دلف من جملة منشآت المتوكل على الله في مدينة المتوكلية • فقد ذكر البلاذري ان المتوكل على الله « احدث مدينة سماها المتوكلية • وبنى بها مسجداً جامعا » (٥٥) • وقال اليعقوبي ان المتوكل على الله عند بنائه الجعفرية «جعل في كل مربعة وناحية سوقا ، وبنى المسجد الجامع» (٥٦) • كما اشار الطبري الى وجود مسجد جامع في مدينة الجعفرية صلى فيه عبدالصمد بن موسى صلاة الفطر بالناس ، ولم يصل بسامرا احد(٥٦) • ويضيف الدكتور احمد سوسه ادلة اخرى على ان هذا الجامع شيد في نفس الوقت الذي شيدت فيه المتوكلية ليحل محل المسجد الجامع في سامرا • منها وجود الشارع الواسع الموازي للشارع الأعظم الذي يبدأ من الحدود الجنوبية للمتوكلية ويخترقها وينتهي عند الجامع المذكور ، والساحتان الواسعتان في شمالي الجامع وجنوبيه تتفرع منهما

---

(٥٤) مجلة سومر ، الجزء : ١ لسنة ١٩٤٧ / ٦٠ـ٧٦ •

(٥٥) فتوح البلدان / ٢٩٥ •

(٥٦) كتاب البلدان / ٢٦٧ •

(٥٧) الطبري ٩ـ٢٢١ •

(٥٨) ري سامراء ٢/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥ •

الشوارع الى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، مما يدل على ان الجامع كان جزءا من تخطيط مدينة المتوكلية (٥٨) ٠

اما نسبة الجامع الى ابي دلف فانها حديثة ويرجح ان الناس اطلقوها عليه في القرون المتأخرة لما يتمتع به صاحب هذا الاسم من الشهرة ، ولعلمهم انه كان من القواد العرب القلائل في تلك الايام وقد عاش في سامرا ، فطاب لهم ان ينسبوه اليه ، فاطلقوا عليه اسم جامع ابي دلف (٥٩) ٠ وابو دلف هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل العجلي ، احد الامراء الشجعان ومن كبار رجال الدولة العربية وقوادها على عهد الرشيد وابنائه من بعده في بغداد وسامرا ٠ وقد سماه المتوكل على الله « شقيق دولة بني العباس » (٦٠) ٠ وقد اشتهر بالسخاء والكرم والوفاء كشهرته بالشجاعة والطعان ٠

تخطيط الجامع :

تعتبر بقايا جامع ابي دلف ابرز اطلال مدينة المتوكلية ٠ وهو يشبه في تخطيطه وشكله العام الجامع الكبير الذي شيده المتوكل على الله في سامرا ٠ في اوائل عهده بالخلافة ، شبها كبيراً ٠ فهو مثله مستطيل الشكل ، ذو صحن مكشوف محاط من جهاته الأربع باروقة ، ومئذنته ملوية ذات مرقاة خارجية ، كما كان محاطا بساحة فسيحة مسورة ٠ اما اوجه الخلاف التي تميز بها هذا الجامع عن الجامع الكبير فتنحصر في الأبعاد وعدد الاروقة وكيفية التسقيف ، كما سترى فيما بعد ٠ كما ان اطلال هذا الجامع على عكس ما هي عليه بقايا جامع سامرا الكبير الذي شيدت اسواره من الآجر فبقي معظمها شاخصا حتى الآن ، بينما لم

---

(٥٩) مجلة سومر ـ العدد المذكور آنفا / ٧٦ ٠

(٦٠) المحاسن والمساوىء / ٢٠٩ ٠

يبق شيء مما كان في داخلها من المباني سوى بعض المعالم والأسس . اما جامع ابي دلف فان منشآته الداخلية قد بنيت بالآجر والجص فبقيت اكثر جدرانها قائمة عدا سقوفها ، بينما تداعت اسواره المشيدة باللبن وتحولت الى خطوط من الآكام والكثبان ، عدا السور الشمالي فانه لا يزال اغلبه قائما قد يصل ارتفاعه في بعض النقاط الى حوالي سبعة امتار (٦١) .

يبلغ طول الضلع الكبرى لجامع ابي دلف ، وهي الضلع الممتدة من الجنوب الى الشمال ٢١٥ر٤٧ متر وضلعه الصغرى الممتدة من الشرق الى الغرب ١٣٨ر٢٤ متر ، فتكون مساحته ثلاثين الف متر مربع تقريبا . وفي وسطه صحن مكشوف مستطيل الشكل ايضا وطول ضلعه الكبرى ١٥٥ر٠٧ متر ، وضلعه الصغرى ١٠٤ر٦٠م اي ما مساحته ستة عشر الف متر مربع ، وتحيط بالصحن من جوانبه الاربعة اروقة مساحتها مع سمك الجدران ١٣ر٥٠٠ متر مربع (٦٢) . اي انه محاط باربعة اقسام : بيت الصلاة او الحرم في الجنوب ، والقسم الشمالي المقابل للحرم ، ثم القسمين الشرقي والغربي . وجميع هذه الاقسام تؤلف بوائك تمتد من الجنوب الى الشمال . وللحرم ست عشرة دعامة تكون سبع عشرة بلاطة ، وكل بلاطة منها تتكون من خمسة اقواس باتساع ٣ر١٢ متر متجهة نحو الشمال . ويمتد صف عقود الرواقين في طرفي الحرم الى الشمال فيؤلفان في كل من الضلع الشرقية والضلع الغربية تسع عشرة بلاطة عمقها ١٤ متراً . والجزء الشمالي من الجامع يشبه الحرم وله ست عشرة دعامة تؤلف سبع عشرة بلاطة . وكل رواق

---

(٦١) مديرية الاثار القديمة ـ سامرا / ٦٦ـ٦٧ ومجلة سومر آنفة الذكر / ٦٣ .

(٦٢) سومر آنفة الذكر /٦٣ .

يتألف من ثلاثة عقود ، معدل اتساع كل عقد ٥٠ر٣ متر ، تتجه نحو الجنوب(٦٣) ٠

ويبلغ عمق بيت الصلاة ٢٠ر٢٩ متر وهو عمق البوائك التي تنتهي عند الضلع الجنوبية بدعامات على شكل الحرف T تسند البائكة المستعرضة للاروقة السبعة عشر الموازية للجدار الجنوبي على بعد ٦٠ر١٠ متر منه ٠ واما هذه الأقواس السبعة عشر جناح عمقه ٦٠ر١٠ امتار يمتد من الشرق الى الغرب بامتداد عرض الجامع ، ويقع بين جدار القبلة والصفوف الأخيرة من اقواس الحرم الموازية للجدار المذكور ٠ ويبدو ان هذا الجناح ظهر لأول مرة في الجوامع الاسلامية مما جعل لجامع ابي دلف مكانة فريدة في سلسلة تطور تصميم الجوامع(٦٤) ٠ وقد كشفت التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار القديمة العامة عن وجود قواعد للاعمدة في هذا الجناح ، مما يرجح انه كان مسقفا مثل حرم الجامع (٦٥) ٠

ويلاحظ ان اقواس اروقة الجامع من طراز الاقواس ذات الأربعة مراكز ، وهي مثل الاقواس التي وجدت في المباني الاخرى بسامرا ، كدار الخليفة ٠ كما انها تشبه اقواس قصر الاخيضر قرب كربلا في البادية ، وفي العراق عدد من المباني القديمة فيها مثل هذه الاقواس ايضاً ٠ وتتكون هذه الاقواس من حلقتين آجرها مربع الشكل ، وقد صف آجر الحلقة الداخلية ووجهه الى الخارج ، في حين ان آجر الحلقة الخارجية قد جعلت حافته الى الخارج ، وسمك الحلقة الواحدة نحو ٥٠سم(٦٦) ٠

---

(٦٣) نفس المصدر / ٦٦ــ٦٧ ، والعمارة العباسية / ١٩١ و١٩٤ــ١٩٥ ٠
(٦٤) العمارة العباسية / ١٩٣ــ١٩٤ ٠
(٦٥) مجلة سومر انفة الذكر / ٦٧ ٠
(٦٦) نفس المصدر ٠

المحراب والمنبر :

يقع محراب جامع ابي دلف في منتصف جـــداره الجنـوبي بمقدار ٥ر١٢ درجة غربا ٠ وقد سبق ان اشرنا الى ان اليعقوبي قد ذكر هذا الانحراف وانه موجود في كل مساجد سامرا ولهـــذا سميت زوراء بني العباس ٠ وهو مشيد بالآجـر والجص ويبرز ظهره عن جدار الجامع من الخارج بمقدار ٤٤ر٢م ٠ ولوحظ من بقايا البناء ما يدل على وجود محرابين للجامع احدهمـا بظهــر الآخر وانهما شيدا في وقتين مختلفين ٠ وقد يكون الأول قد شـيد عند بناء الجامع ثم ارتؤي بعد اكماله ضرورة تصغيره لاســباب ربما كان من جملتها وضع المنبر الذي يشغل جزء مـن المحـراب الأول (٦٧) ٠

وتشاهد عند الركن الأيسر للمحراب بقايا بناء من الآجـر والجص طوله ٦٥ر٢م وعرضه ٢٠ر١م في نهايته ثلاث درجات ٠ ويستنتج من شكل البناء ووضعه انه كان منبراً ، وانه قد اضيف بعد اكمال الجامع ، ولا يستبعد انه بني في وقت واحد مع المحراب الثاني(٦٨) ٠

سور الجامع وابوابه :

يحيط بالجامع سور خارجي يفصله عن جدران الجامع فضاء واسع في الشرق والغرب والشمال وعرضه ١٠٨م ، اما في الجنوب فيضيق الى ٢٠م (٦٩) ٠ وقد شيد السور باللبـن وكسي وجهـاه

(٦٧) نفس المصدر / ٦٧ـ٦٨ ٠
(٦٨) نفس المصدر / ٦٨ ٠
(٦٩) ري سامراء ٢/٦٠٣ ٠

الداخلي والخارجي بطبقة سميكة من الجص • ويتراوح سمك السور بين ٦٠ر١م و٨٠ر١م • وهو مثل سور جامع سامرا الكبير مدعم من الخارج بابراج نصف دائرية • ويقوم في كل ركن من اركانه الأربعة برج مستدير يقوم على قاعدة من الآجر مربعة الشكل طول ضلعها ٦٠ر٣م واضلاعها مماسة لمحيط البرج ، اي ان قطر البرج هو نفس طول ضلع المربع • وقد شيدت الاقسام السفلى من الابراج الى ارتفاع ٥٥ متراً بالآجر مثل القاعدة وما بقي منها بني باللبن • وقد استعمل للبناء ملاط الجص في حالتي البناء باللبن او بالآجر •

وتقوم الابراج الاخرى وهي نصف دائرية على قواعد من الآجر مستطيلة الشكل طول ضلعها الموازية للسور ١٠ر٣م وطول كل من الضلعين المتعامدتين عليه ٩٠ر١م • ولما كانت هذه الاضلاع مماسة لمحيط البرج فان استدارته تزيد على نصف دائرة • وتتوزع هذه الابراج على جوانب السور الاربعة كالآتي : بنيت في الضلع القبلية للسور عشرة ابراج وقد شيد البرجان اللذان يليان برجي الركنين باللبن ، واللذان يليانهما بالآجر ، وهكذا بالتناوب فتكون ستة من ابراج هذا الجانب مبنية باللبن والأربعة الأخر بالآجر • والبعد بين الركنين والبرجين المجاورين لهما ٤٠ر١٢ متراً • والمسافة بين الابراج الباقية ٦٠ر٤ امتار • اما البعد بين بروز المحراب والبرج المجاور له فهو ١٨ متراً • وفي الضلع الشمالية المقابلة لضلع القبلة ثمانية ابراج متناظرة الابعاد ابتداء من برجي الركنين ، فالبرج الذي يلي الركن يبعد عنه ب ٨٠ر١١ متراً ، ويبعد هذا عن البرج الذي يليه ب ٦٠ر١٢ متراً ، ويبعد هذا من البرج الثالث ب ٢٠ر١٢ متراً ، والبعد بينه وبين البرج الرابع ٦٠ر١٢ متراً ، والبعد بين البرجين المجاورين للمدخل الأوسط الذي يقابل المئذنة ٨ر١١ متراً • وكل هذه الابراج مبنية باللبن بملاط الجص • وقد حافظ هذا الجانب من السور على

وضعه تقريبا ، فلم تؤثر فيه عوادي الزمن كما فعلت في اسوار الجوانب الاخرى الا قليلا • وقد لوحظ امام قاعدة هذا السور من الخارج وجود قنوات مكشوفة مشيدة بالآجر عمقها نحو ٢٠سم وعرضها ١٨ سم ، وهي تشبه تلك القنوات التي وجدت في سور جامع سامرا الكبير ، واعتبرت مثلها لتصريف مياه الأمطار • ويبلغ سمك جدار السور في هذه الضلع ١ر٨٠ متراً • اما ابراج الضلعين الكبيرين ، الشرقية والغربية للسور فعددها عشرة في كل منهما • وكلها مبنية باللبن بملاط الجص • والبعد بين برج الركن والبرج الذي يليه ٣٥ر٨٠ متراً ، والأبعاد بين الابراج الاخرى تكاد تكون متساوية وهي تتراوح بين ١٤ متراً و١٥ مترا • وبهذا يكون مجموع الابراج التي تدعم السور ٤٢ برجاً ، اربعة منها وهي ابراج الاركان دائرية الشكل ــ اسطوانية ــ والبقية وعددها ٣٨ برجا نصف دائرية • وكلها مبنية باللبن عدا اربعة ابراج منها في الضلع القبليه بنيت بالآجر كما سبق بيانه (٧٠) •

اما ابواب الجامع فعددها ثمانية عشر بابا ، ثلاثة منها وهي القبلية تؤدي الى مشتملات تتصل بالضلع الجنوبية للسور ، وثلاثة في الضلع الشرقية والغربية • ويلاحظ في مواضع ابواب الجامع من جهاته الأربع انها تقع جميعها على محور الأقواس التي امامها ، كما هي الحال في جامع سامرا الكبير ، دون مراعاة توسطها الجدران • ففي الضلع القبلية ثلاثة ابواب ، يجاور اثنان منها برجي الركنين ويقع الثالث في الوسط عند المحراب • ويبعد البابان الاولان عن برجي الركنين بنحو مترين وعرض كل منهما ١ر٥٨ متراً • واظهرت الحفريات ان كل باب منهما كان يؤدي الى حجرة طولها ١٠ امتار وعرضها ٦ امتار ، وجدرانها من الآجر ، وارضيتها مبلطة بالطابوق • ويظهر من انفراد هاتين الحجرتين

---

(٧٠) مجلة سومر المذكورة / ٦٣ـ٦٤ •

وموضعهما انهما مخصصتان لمن يتولى امور الجامع . اما الباب الثالث وهو الاوسط فانه يبعد عن شرقي بناء المحراب من الخارج ب ٢٠ر١ متراً ، وعرضه ٦٠ر١ متراً ، وهو يؤدي الى بناية واسعة مشيدة بالآجر تقع خلف المحراب ملاصقة للجدار القبلي . ويبدو ان الغرض من تشييد هذه البناية ملاصقة للجامع ان تكون مكانا لاستراحة الخليفة اذا ما جاء لصلاة الجمعة ، فيدخلها من الباب الذي في ظهر الجامع ، وبعد استراحته وتجديد وضوئه ، يدخل الجامع من الباب الذي بجانب المحراب . وقد ظهر من التنقيب ان جميع جدران هذه الدار قد بنيت بالآجر وكسيت بالجص من الداخل والخارج ، وان جميع حجراتها قد بلطت بالجص ايضا (٧١) . ومن الجدير بالملاحظة انها شيدت على الطراز الحيري ذي الصدر والكمين ، وهو الطراز الذي شاع آنذاك في بناء الدور والقصور (٧٢) .

التسقيف والتبليط :

ان ما تبقى من الاقواس وما يعلوها من البناء لا يدل على ان سقف الجامع كان معقوداً بالآجر ، وذلك لعدم وجود التقوسات التي تبدأ منها العقادات . الا انه وجدت عند نقاط تعلو بنحو ٥٠سم عن ذروة الأقواس في جهات متعددة من اروقة المصلى ثقوباً بقطر ٢٠-٢٥سم على استقامة واحدة ، وتتراوح المسافة بين ثقب وآخر بين ٦٠سم و٧٠سم . ويستنتج من وجود هذه الثقوب ان السقف كان قائما على جسور من الخشب ، وانه كان يرتفع عن مستوى التبليط بنحو سبعة أمتار (٧٣) .

---

(٧١) مجلة سومر آنفة الذكر / ٦٤-٦٦ .
(٧٢) نفس المصدر / ٧٤ .
(٧٣) نفس المصدر / ٦٨ .

وكانت الاقسام المسقفة من الجامع مبلطة بطبقة سميكة من الجص ، اما الاقسام المكشوفة فقد بلطت بالطابوق المصقول المربع الشكل ، وطول ضلع الطابوقة ٣٢سم وسمكها ٥سم • ومعدل حجم الطابوق الذي استخدم في تطبيق ساحة المئذنة الملوية ٤٨ × ٤٨ × ٥سم ، وهو مربع الشكل ومصقول ايضا(٧٤) •

المئـــذنة :

لجامع ابي دلف مئذنة مبنية بالآجر والجص وهي تشبه ملوية جامع سامرا الكبير وقد بنيت على شاكلتها الا انها اصغر منهـا حجما • وهي تقع على محور الباب الأوسط للجامع وعلى بعـد ٥٠ر٩ امتار منه • وتقوم على قاعدة مربعة الشكل تقريبا ، طول كل من ضلعيها الشمالية والجنوبية ٨٧ر١٠ امتار ، وطول كل من الضلعين الشرقية والغربية ٦٠ر١٠ امتار ، وتعلو عـن مستوى التطبيق بـ ٧٠ر٢ متراً • ويزين كلا من اوجهها الأربعة صف من المشكيات عددها ١٣ مشكاة في كل وجه عدا الوجه الجنوبي ففيه عشر مشكيات تتوسطها باب المصعد • ويقع باب المصعد في الضلع الجنوبية لقاعدة المئذنة كما اشرنا ، وهو يفض الى درج يصعد منه الى سطح القاعدة ، ويبلغ عرض المدخل ١٥ر١ متراً ، وعدد قدمات الدرج المشيد في صلب القاعدة اربع ، تتجه نحو بدن الملوية من غير ان تنعطف الى الحلزون • ويرتفع جسم المنارة ، اي القسـم الحلزوني منها ، الى علو ٢٠ر١٦ متراً فوق القـاعدة ، فيصبح ارتفاع ملوية جامع ابي دلف من مستوى التطبيق حتى القمـة المتهدمة نحو ١٩ متراً • ويبدأ الحلزون ، وهو سلم المئذنة من يمين

---

(٧٤) مجلة سومر آنعة الذكر / ٦٩ •

الباب ويدور ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة ، وعرضه متر واحد (٧٥) ٠

وقد عثر في الرواقين الواقعين بين المئذنة والجدار الشمالي للجامع على رحبة مربعة يبلغ طول ضلعها ٧٠ متراً تحيط بها جدران اقتلعت حجارتها ٠ ووجد في الجدار الموازي للضلع الشمالية آثار عشر طاقات زخرفية مشابهة لتلك التي وجدت على اوجه قاعدة الملوية ٠ ويظهر من هذا ان جدران رحبة المئذنة كانت كلها مزينة بالزخارف المذكورة ٠ وقد ظهرت في هذه الرحبة آثار قناتين تمتدان بين سور الجامع الخارجي والجدار الذي في يمين المئذنة ويسارها ، ولعلهما كانتا لتزويد الميضأة بالماء ، او لانسياب مياه الأمطار (٧٦) ٠

---

(٧٥) نفس المصدر / ٦٩ ٠
(٧٦) نفس المصدر / ٧٢ ٠

الفصل الخامس

سامرا بعد المتوكل على الله

١ ـ المنتصر بالله :

بويع للمنتصر بالله بالقصر الجعفري بالمتوكلية ، الا انه آثر الابتعاد عن مسرح جريمة مقتل ابيه المتوكل على الله • فلم يلبث سوى بضعة ايام حتى قرر اعادة عاصمته الى سامرا • وسبق ان ذكرنا انه امر الناس جميعا بالانتقال عن الماحوزة ــ وهي منطقة مدينة المتوكلية ــ وان يهدموا المنازل ويحملوا الانقاض الى سامرا • فخربت قصور المتوكلية ومنازلها واسواقها •

وعند عودة المنتصر بالله الى سامرا سكن في القصر الجعفري المحدث الذي بناه ابوه وانفق عليه عشرة الالف الف درهم (١) • وذكر الطبري ان المنتصر بالله عقد مجلسه في هذا القصر ليستمع هو والقواد والقضاة والامراء من بني العباس الى اعلان اخويه المعتز والمويد تنازلهما عن ولاية العهد من بعده (٢) • وفي هذا القصر كانت وفاته في اوائل ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ •

---

(١) معجم البلدان ٣/١٧٥ •
(٢) الطبري ٩/٢٣٧ و ٢٤٤ •

كان من المنتظر بعد ان عادت الجموع الكثيرة من سكان المتوكلية الى سامرا ان يعاد بناء قصورها وبيوتها واسواقها ومرافقها التي سبق ان هدمت او هجرت عند انتقال العاصمة الى المتوكلية • وان يتم ذلك بموجب تخطيط وتنسيق يعيد للمدينة عمرانها وبهاءها • الا ان الوضع النفسي للمنتصر بالله وما كان اعتراه من كآبة وقلق لندمه على المشاركة في اغتيال ابيه ، وقصر مدة حكمه ، فانه لم يقم بشيء من ذلك ، بل انه اهمل مشاريع ابيه العمرانية ، وبخاصة النهر الجعفري فلم يحاول تصحيح الأخطاء التي حصلت في حفره • ولذا فان سامرا لم تحظ في ايامه بشيء من العناية بعمرانها ، ولكن امه طلبت عند وفاته ان تظهر قبره ، فبنت له ضريحا اقيمت عليه قبة عرفت بقبة الصليبية •

قبة الصليبية :

تقع اطلال هذه القبة على الضفة المرتفعة لنهر الاسحاقي في الجانب الغربي من دجلة ، جنوبي قصر المعشوق وعلى مقربة منه • وكانت في الأصل بناية مثمنة الشكل تتوسطها قاعة مربعة يحيط بها رواق مثمن ، ويستدل من سمك جدرانها ومن الاسم الشائع لها انها كانت تعلوها قبة • ولا مجال للشك في انها كانت ضريحا لأحد الخلفاء(٣) • وكان هرزفيلد قد اجرى تنقيبات اولية في اطلال هذه البناية ، ووجد فيها ثلاثة قبور مما جعله يرجح انها كانت موضع قبر الخليفة المنتصر بالله • ثم دفن الى جانبه المعتز بالله والمهتدى بالله (٤) •

---

(٣) الآثار القديمة العامة ـ سامراء / ٧٢ •

(٤) Creswell, E. M. A. P : 388

يقول الطبري عن دفن المنتصر بالله انه اول خليفة من بني العباس عرف قبره لأن امه طلبت اظهار قبره (٥) • ويقول عن دفن المعتز بالله انه لما مات دفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع(٦) • ويضيف ابن الأثير على ذلك ان المهتدى بالله لما مات دفن بمقبرة المنتصر (٧) • وفي هذا ما يؤيد ما ذهب اليه هرزفيلد في ان قبة الصليبية كانت ضريحا للخلفاء المذكورين •

ويرى كريزول ان القبة المذكورة تعود الى زمن متأخر من عهد سامرا لأنها مبنية بنفس المواد التي استعملت في بناء قصر المعشوق الذي شيد في اواخر عهد المعتمد على الله(٨) • وقد يؤيد هذا الرأي قرب القبة من القصر المذكور ، وان المعتمد على الله ربما قد بناها لتكون ضريحا له • لاسيما وانه عندما توفى ببغداد حمل الى سامرا ودفن فيها •

٢ ـ المستعين بالله :

لما توفي المتنصر بالله اجتمع كبار القادة الاتراك في القصر الهاروني واتفقوا على اختيار خلف له فبايعوا حفيد المعتصم بالله احمد بن محمد ولقب بالمستعين بالله • وقد بات ليلته الأولى في القصر المذكور • ويظهر من مجرى الحوادث المهمة على عهده انه سكن في قصر الجوسق الخاقاني ، قصر جده المعتصم بالله الواقع على نهر دجلة جنوبي دار الخليفة • فقد التجأ القائد التركي اوتامش الى الخليفة في هذا القصر لما هاجمه مناوئوه

---

(٥) الطبري ٩/ ٢٥٤ •
(٦) الطبري ٩/ ٣٩٠ •
(٧) الكامل ٧/ ٢٣٠ •
(٨)

من الأتراك ، فدخلوا الجوسق واستخرجوه وقتلوه مع كاتبه شجاع بن القاسم[9] . ولما قتل باغا التركي حاصر اتباعه من الجند والقواد الموالين له في قصر الجوسق ايضا . وعلم المستعين بالله باجتماعهم فترك القصر منحدرا مع بعض قواد وافراد حاشيته الى بغداد [10] .

ونزل الخليفة في بغداد على محمد بن عبدالله بن طاهر في داره . ثم انتقل منها الى دار رزق الخادم في الرصافة . ولما تنازل عن الخلافة وبايع المعتز بالله نقل هو وعياله وولده وجواريه من الدار المذكورة الى قصر الحسن بن سهل بالمخرم ، وانزلوا فيها جميعا [11] .

لقد ظلت شؤون سامرا ومرافقها العمرانية مهملة طيلة خلافة المستعين بالله ، لأنه قضى ما يقارب الثلاث سنوات من حكمه في سامرا في صراع مستمر مع الاتراك مما اضطره على الانتقال الى بغداد ، ثم قيام الحرب بين بغداد وسامرا ، ولذا لم تتح له الفرصة للقيام باي عمل عمراني يذكر في سامرا .

٣ ـ المعتز بالله :

اما المعتز بالله الذي بايعه الاتراك الذين ظلوا في سامرا وفشلوا في اقناع المستعين بالله بالعودة اليها ، فقد كان ينزل في قصر الجوسق اول امره . وقد اضاف اليه جناحا خاصا لسكناه أحسن عمارته وريازته . وقد ذكر الشابشتي ان المعتز بالله بنى في الجوسق بيتا قدرته له امه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان احسن بيت رئي ، ولما انتهى منه دعا المعتز بالله حاشيته اليه فقضوا

---

(٩) الطبرى ٩/٢٦٤ ، والكامل ٧/١٢٣ .

(١٠) الطبري ٩/٢٨٠ .

(١١) الطبري ٩/٣٤٨ .

احسن يوم سروراً (١٢) ٠ وضرب فيه المعتز بالله ديناراً من دنانير الصلة كل دينار بدينارين كتب على كل دينار منها « ضرب هذا الدينار بالجوسق لخزينة امير المؤمنين المعتز بالله » (١٣) ٠ وكان المعتز بالله في بيته هذا لما جيء اليه برأس المستعين بالله في سنة ٢٥٢هـ(١٤) ٠ وبرأس القائد بغا الشرابي في سنة ٢٥٤هـ(١٥) ٠

ويشير البحتري في احدى قصائده في مدح المعتز بالله الى انه بنى قصراً فخما يقال له « الكامل » وقد تضمن مدحه بعض اوصاف القصر ، ومما جاء فيها قوله (١٦) :

لمـــا كملت روية وعزيمــــة
أعملت رأيك في ابتناء الكامل

وغـــدوت من بين الملوك موفقا
منــه لأيمن حلـــة ومنـــازل

ذعـــر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المــزلـة هائل

روفت لمنخرق الرياح سموكــه
وزهت عجائب حسنة المتخـايل

وكأن حيطان الزجــاج بجــوه
لجج يمجن على جنوب ســاحل

وكأن تفويق الرخـــام اذا التقى
تأليقــه بالمنظـــر المتقـــابـل

---

(١٢) الديارات / ٦٧٠ ٠
(١٣) نفس المصدر / ١٦٨ ٠
(١٤) الطبري ٩/٣٦٤ ، والديارات / ١٧٠ ٠
(١٥) الطبري ٩/٣٨٠ ٠
(١٦) ديوان البحتري ٣/١٦٤٦ ــ ١٦٤٩ ٠

حُبُكَ الغمام رصفن بين منمر
ومسير ومقارب ومُشاكل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نورا يضيء على الظلام الحافل

فترى العيون يجلن في ذى رونق
متلهب العالي انيق السافل

فكانما نشرت على بستانه
سيراء وشي اليمنة المتواصل

اغنته دجلة اذ تلاحق فيضها
عن فيض منسجم السحاب الهاطل

وافيته والورد في وقت معا
ونزلت فيه مع الربيع النازل

يتضح من اوصاف البحتري ان الكامل كان قصراً مرتفعاً شاهق البنيان ، يحاذر الحمام ان يطاله في ارتفاعه ، وقد بنى بالرخام والمرمر وموهت سقوفه بالذهب الصقيل ، وزينت نوافذه بالزجاج الشفاف • وانه كان على شاطيء دجلة بحيث يسقى ماؤها بستان القصر ، وان المعتز بالله نزل فيه في اول فصل الربيع •

ومدح البحتري المعتز بالله بقصيدة اخرى اشار فيها الى انه افتتح بناء جديداً ، ولعله يقصد القصر الكامل المشار اليه آنفاً ، كما يظهر من أوصاف البناء ، اذ جاء فيها قوله : (١٧)

---

(١٧) ديون البحتري ـ طبعة صادر ١/١٧٩ـ١٨٠ •

بارك الله للخليفة في الفتـ
ـح الجنوبي ، والبناء الجديد

خير مبهج ، وبنيـان بمـن
في منيف ، عنـد السماك مشيد

فوق صرح ممرد مـن قـوار
ير ، غريب التأليف والتمديد

لو بـدا حسنه لجـن سليما
ن لخـروا من ركـع وسجود

قد عددنا اليوم الذي جئته فيه لافراط حسنه ، يوم عيد

كما ذكر البحتري في احدى مدائحه المعتز بالله قصراً آخـر باسم « قصر الساج » اذ يقول فيها (١٨) :

وكأن قصر الساج خلة عاشق
برزت لوامقها بوجـه مونقِ

قصر تكامل حسنه في قلعـة
بيضاء ، واسطة لبحـر محدق

واني المحل فلا المـزار بشاسع
عمن يزور ، ولا الفناء بضيق

قدرته تقـدير غير مفـرط
وبنيته بنيان غيـر مشـقق

ووصلت بين الجعفري وبينـه
بالنهر يحمل من جنوب الخندق

(١٨) ديوان البحتري ٣/١٤٧٩ ـ ١٤٨٤ .

نهر كأن المـــاء في حجراتــه
افرند متن الصـــارم المتـألق

لقد بنى المعتز هذا القصر ولم يدخر وسعا في الانفاق عليـه بحيث تكامل حسنه • فقد كان كالقلعة البيضاء وسط ساحة خضراء تكتنفها الاشجار الخضراء والوان الورود • وكان واسع الارجـاء قريبا في موقعه •

وكان هناك قصر بديع يقع على ضفة القـــاطول الاعلى في الناحية الشمالية الغربية من ساحة الحير ، يعُرف بقصر الدكـة • وقد عين الطبري موقع هذا القصر في معرض كلامه في حادث مقتل القائد صالح بن وصيف في سنة ٢٥٦هـ فيقول ان الناس اجتمعوا و « تهايجوا من دار امير المؤمنين ، فركبوا في السلاح ، واخذوا في الحير حتى اجتمعوا ما بين الدكة وظهر المسجد الجامع » • ويرجح الدكتور احمد سوسه ان قصر الدكة هذا هو نفسه القصر المعروف بقصر الساج • ودليله على ذلك ان البحتري لما وصف قصر الساج في قصيدته آنفة الذكر اشار في اواخرها الى نهر كان يبدأ من قرب القصر الجعفري وينتهي عنده ، اي ان النهر يوصل بين القصرين المذكورين ، وذلك بقوله :

الحقه يا خير الـورى بمسيره
وامدد فضـــول عبابه المتدفق

فاذا بلغت به البديع فانمـــا
انزلت دجلة في فنـــاء الجوسق

ان وصف البحتري بانه قصر تكامل في حسنه وهو كالقلعـة البيضاء يحيط بها البحر ، وان المعتز بالله وصل بينه وبين الجعفري

(١٩) الطبري ٩/٤٥١ •

بالنهر الذي كان يتفرع من قناة سامرا ، ينطبق على قصر الدكة ، ولذا فهو نصر الساج الذي بناه المعتز بالله[٢٠] ·

ويظهر ان مناطق سكنى الجند من الاتراك قد امتدت بعيداً عن المسجد الجامع الكبير مما صعب على المسنين منهم الوصول اليه لأداء فريضة الصلاة ، فبتنى المعتز بالله مسجداً قريبا من مناطق سكناهم · فأشاد البحتري بصنيع المعتز بالله بقوله [٢١]

يا ابن عم النبي أمتعت العمـ
ـر ومليت نعمة الامتاع
يعلم الله كيف حمد الموالى
ما تعاني من شأنهم ، وتراعى
أعظموا المسجد الجديد فابدوا
واعادوا في الشكر عنه المذاع
رحت خير البانين واخترت بالا
مس لخير البيوت خير البقاع
فصرت خطوة الكبير ولاقى
متعب فضل راحة واتداع

٤ ـ المهتدى بالله ·

كان المهتدي بالله قد اقام في الجوسق منذ ان بويع له الى ان قتل [٢٢] · وبسبب الوضع المالي السيء للدولة فقد اتبع المهتدي

---

(٢٠) ري سامراء ١/١٢٣ ·
(٢١) ديوان البحتري ـ طبعة صادر ١/١٥٠ـ١٥٢ ·
(٢٢) كتاب البلدان / ٢٦٨ ·

بالله سياسة اقتصاد وتقشف في جميع نفقاته وفي النفقات العامة ٠ وكان بطبيعته يمقت حياة البذخ والترف ، فخفض كثيراً من نفقات بلاطه ونفقات اهله وولده ، مقتصراً على الضروري منها ٠ ولذا لم يحدث في ايامه التي لم تتجاوز السنة ، اي عمران يذكر في سامرا ٠

٥ ــ المعتمد على الله :

اقام المعتمد على الله عند مبايعته بالخلافة بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ، ثم انتقل الى الجانب الغربي من المدينة فبنى قصر موصوفا بالحسن سماه المعشوق(٢٣) ٠ وكنا ذكرنا في سيرته انه كان مستضعفا ، فانه رغم ميله الى الفنون والآداب ، ومع طول مدة حكمه لم يستطع ان يضيف شيئاً الى عمران سامرا الا يسيرا ، وهو بناؤه قصر المعشوق ٠ وذلك لعدم توفر المال من جهة بسبب حرب الزنج والثورات الداخلية الأخرى ، ولسيطرة اخيه الموفق على شؤون الدولة من جهة اخرى ، مما حال دون ان يتمكن من ان ينفق شيئا من المال حسب مشيئته ورغباته ٠ كما كان الموفق نفسه رجل حرب قضى اغلب ايامه في جبهات القتال ، فلم يعن بالامور العمرانية ٠

وكان الاهمال العمراني الذي اصاب سامرا بعد المتوكل على الله قد حرم قصورها من العناية بها وصيانتها وتجديدها ، فاصبحت قديمة وقد فقدت جدتها ورونقها ولم تعد صالحة لسكنى الخلفاء ٠ ولهذا يلاحظ المتتبع لتاريخ سامرا خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم المعتمد على الله ، انه كان يتردد في سكناه بين بغداد وسامرا ٠ وسبق ان اشرنا الى انه اتخذ القصر الحسني ببغداد

(٢٣) نفس المصدر ٠

سكناً له عندما يكون فيها ، وبه كانت وفاته • على انه استطاع في سنة ٢٧٥هـ ان يبني قصراً فخماً في الجانب الغربي من سامرا اسماه المعشوق ، وقد انتقل اليه وسكن فيه •

قصر المعشوق :

اشار اليعقوبي الى هذا القصر بقوله « ولما ولي المعتمد اقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل الى الجانب الغربي (٢٤) بسر من رآى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق ، فنزله فاقام به حتى اضطرته الامور فانتقل الى بغداد» (٢٥) • وقال عنه ياقوت الحموي « المعشوق وهو اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامرا في وسط البرية باق الى الآن (٢٦) • ليس حوله شيء من العمران ، يسكنه قوم من الفلاحين ، الا انه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان هناك من القصور غيره • وبينه وبين تكريت مرحلة • عمّره المعتمد على الله » (٢٧) • وذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٥٠هـ ان معز الدولة احمد بن ابي شجاع البويهي نقض المعشوق بسر من رأى وحمل آجره لبناء داره ببغداد(٢٨) • وجاء في كتاب تجارب الامم ان معز الدولة قد اشتدت علته واراد ان يترك بغداد الا ان وزيره ابو محمد المهلبي صرفه عن رأيه واقنعه بان يبنى قصراً في اعالي بغداد • ولما شرع بالبناء قلع الابواب الحديد التي على مدينة ابي جعفر المنصور ، ونقض قصور الخلافة بسر من رءى

---

(٢٤) في الاصل الشرقي •

(٢٥) كتاب البلدان / ٢٦٨ •

(٢٦) توفي ياقوت الحموي في سنة ٦٢٦هـ •

(٢٧) معجم البلدان ٥/١٥٦ـ١٥٧ •

(٢٨) المنتظم ٧/٢ •

ونقل منها الآجر لبناء قصره (٢٩) • ويظهر انه نقض قصر المعشوق ايضا •

وكان علي بن يحيى المنجم نديم الخلفاء مقربا من المعتمد على الله فقلده بناء المعشوق فبنى له اكثره (٣٠) • لأنه توفي في سنة ٢٧٥هـ قبل ان يتم بناء القصر • مما يستدل منه ان المعتمد على الله شيد هذا القصر في حدود السنة المذكورة • فعهد وزيره سليمان بن وهب الى محمد بن عبدالله بن يحى الاشراف على اكمال بناء القصر ، ثم ما لبث ان صرفه الخليفة (٣١) •

ومر باطلال قصر المعشوق كل من ابن جبير وابن بطوطه ، فقال عنه ابن جبير ابو الحسن محمد بن احمد الاندلسي المتوفى سنة ٦١٤هـ ، عند مروره بسامرا « ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق •• فاقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ، وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة »(٣٢) • وقال عنه ابن بطوطة ابو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي المتوفى سنة ٧٩٧هـ في رحلته من بغداد الى الموصل عندما مر به « فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة • وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى سامرا »(٣٣) •

وكان المستشرق الفرنسي فيوله ـ viollet من اوائل المحدثين الذين ابدوا اهتماما بهذا الأثر فنشر دراسة قصيرة عنه وبعضا من مخططاته في سنة ١٩١١م ، عقبه المستشرق الالماني

---

(٢٩) تجارب الامم ٢/١٨٢ـ١٨٣ •
(٣٠) معجم الادباء ٥/٤٧٦ •
(٣١) الوزراء / ٢٨٤ •
(٣٢) رحلة ابن جبير / ١٨٥ •
(٣٣) رحلة ابن بطوطة ١/١٤٧ •

هرزفيلد فاجرى بعض التنقيبات فيه قبيل الحرب العالمية الاولى (٣٤) ·

تقع اطلال قصر المعشوق على الضفة الغربية لنهر الاسحاقي في الجانب الغربي من نهر دجلة ، وتسمى اليوم قصر العاشق · وكان المعتمد على الله آخر خلفاء سامرا قد بناه في اواخر عهده ، قبل انتقال مقر الخلافة الى بغداد · وبناية القصر مستطيلة الشكل ذات طابقين ، وقد تحول الطابق الأسفل الى سرداب لتراكم انقاض اجزاء الطابق الثاني فيه · ويبلغ طول البناية ١٣١ متراً وعرضها ٩٦ متراً ، وكانت محاطة بساحة مسورة ، ويشاهد في هذه الساحة بين القصر والسور آثار عدة مبان فرعية (٣٥) · وكان يدور حول سور القصر خندق واسع يستمد مياهه من قناة جوفية (كهريز) ينحدر اليها الماء من العيون التي في اراضي الجزيرة الغربية فتفضي اليه ، لأن موقع القصر كان مرتفعا بالنسبة الى منسوب المياه في نهر الاسحاقي فلم يكن بالامكان جر الماء منه الى الخندق (٣٦) ·

يعتبر قصر المعشوق من اهم القصور الأثرية المتخلفة عن العاصمة سامرا ، وكان بناؤه متينا اذ ان معدل عرض جدرانه ٢ر٦٠ متراً ، اضافة الى انه معزز بابراج ضخمة تدعمه من جوانبه المختلفة ، وتحيط به مسناة من بعض جهاته لحمايته من مياه الأمطار · وذلك ما حدا بالكتاب والبلدانيين القدماء الى ان يطلقوا عليه صفة القلاع والحصون · وقد نشر المنقب الآثاري السيد ربيع القيسي تقريراً بعنوان « الصيانة الاثرية في قصر العاشق في

---

(٣٤) مجلة سومر ، العدد ١ و٢ من السنة ١٩٦٧/١٨٣ ·
(٣٥) الآثار القديمة العامة ــ سامراء / ٧١ ·
(٣٦) ري سامراء ١/٨٨ ·

سامراء » في مجلة سومر(٣٧) . تضمن وصفا دقيقا لأعمال الصيانة التي قامت بها مديرية الآثار العامة للحفاظ على البقية الباقية من جدران القصر وابراجه المتداعية وكثير من جدرانه الداخلية التي استظهرت بنتيجة اعمال التنقيب . وفيما يلي ملخص بما كشف من مرافق القصر المذكور قد تساعدنا على تصور تخطيطه وما كان يحتوي عليه من الغرف والقاعات والممرات وغير ذلك من المرافق الاخرى .

بني قصر المعشوق جميعه بالآجر من النوع الكبير (الفرشي) من قياس ٥ر١٠ × ٥ر١٠ × ٥ر٢ بوصة . ومن اطلاله الباقية في الوقت الحاضر يشاهد في الجهة الشمالية منه بقايا جدران امكن الاهتداء بواسطتها الى مرافق القصر . وكانت في القصر اواوين على غرار الاواوين في قصور سامرا الاخرى . ووجد ان جدار الجبهة الشمالية للقصر تصاقبه من الخارج مجموعة من الغرف مستطيلة ومتوازية ومتعامدة على هذا الجدار ، وظهر ان احداها وهي الغرفة الشرقية تكون ممراً يؤدي الى مرافق القصر العليا ، ويحتمل ان يكون هذا الممر مدخلا للقصر من جهته الشمالية . وقد شيد هذا المدخل بالآجر والجص بهيئة سلم منحدر على دفق من التراب يرتفع الى مسافة اربعة امتار ثم ينعطف نحو اليسار ، وبعد مسافة ١١ متراً ينحرف مرة اخرى نحو اليسار مشكلا ممراً يصل نقطة تقع فوق باب المدخل وعندها ينتهي الدفن المشيد عليه السلم . وظهرت دلائل معمارية تؤكد استمرار هذا السلّم وانعطافه يساراً مرة ثالثة فيتصل بعقد من الخشب مشكلا سقفاً للقسم الأسفل ، ويؤدي بعد مسافة ١١ متراً الى مدخل بعرض مترين يفضي الى مرافق القصر . وفي جدار المدخل عدة نوافذ للاضاءة والتهوية ، وكشف عن طابق اسفل تحت هذه الجبهة

---

(٣٧) مجلة سومر ـ العددان ١ و٢ لسنة ١٩٦٧/١٨٣-١٨٧ .

بهيئة سرداب مشيد بالآجر والجص على غرار الأواوين في العمائر الاسلامية •

وكشف في منتصف الجبهة الشرقية للقصر مدخل تدل معالمه البنائية على انه من المباني المضافة على هذا القسم ، وعن يسار المدخل المذكور ثلاث غرف مستطيلة الشكل ذات جدران سميكة ، وعلى جدران هذه الجبهة ميازيب عمودية منحوتة عرضها ٣٠سم وعمقها ٢٠سم لتصريف مياه الأمطار • ويظهر انها نحتت بعد تشييد الجدران لأنه لوحظت آثار قص الجدران ، وان هذا القص يخترق جانبا من المشاكي التي تزين ظاهر الجدران • وكان بعض هذه الجدران تزينها نقوش وكتابات •

ووجد في الجانب الغربي من القصر منفذ بهيئة عقد يتوسط البرجين الثالث والرابع وعرضه متران ، مع آثار غرف صغيرة امام المدخل تلاحق جدران القصر من هذا الجانب •

وفي الجبهة الجنوبية من القصر وجدت بقايا اربعة ابراج • وظهر ان بعض جدران هذه الجبهة قد شيدت على وجه الارض من دون اساس وذلك لصلابة الارض التي تقوم عليها هذه الجدران • ووجد مدخل صغير في هذه الجبهة على غرار مدخل الجانب الغربي من القصر • كما وجدت عدة مرافق بقرب هذا المدخل تشابه المرافق الملاصقة لمدخل القسم الغربي •

وقد اشاد البحتري بذكر هذا القصر في قصيدة مدح بها الخليفة المعتمد على الله مطلعها (٣٨) :

أريتك الآن المع البروق

ام شعل مرفضة من حريق

---

(٣٨) ديوان البحتري ـ طبعة صادر ١/١٨٢ ـ ١٨٤ •

الى ان يقول :

لازال معشوك يسقى الحيا
من كل دانى المزن واهي الخروق

فما خلونا مذ رأيناه من
فتح جديد ، وزمان أنيق

أشرق نظاراً الى ملتقى
دجلة يلقاه بوجه طليق

وطالع الشمس على موعد
بمثل ضوءالشمس عند الشروق

لم أر كالمعشوق قصراً بدا
لأعين الرائين غير المشوق

هذاك قد بر في حسنه
سبقا وهذا مسرع في اللحوق

وقد اشار ياقوت الحموي في معجمه الى ان المعتمد بالله كان عمَّر قصراً آخر سمي باسمه هو القصر الأحمدي ، ولكنه لم يذكر موضعه ومتى انشأه ، مكتفياً بهذه اللمحة البسيطة ، وذكر ما قاله فيه ابن المعتز واحد الأدباء • فقد ذكر ابن المعتز هذا القصر في شعر امتدح به المعتمد على الله ، منه قوله (٣٩) :

بدر تنقل في منازله	سعد يصبحه ويطرقه
فرحت به دار الملوك فقد	كادت الى لقياه تسبقه
والأحمدي اليه منتسب	من قبل والمعشوق يعشقه

---

(٣٩) معجم البلدان ٥/١٥٦-١٥٧ •

وقال بعض اهل الادب : اجتزت بسامرا فرايت على جدران القصر المعروف بالأحمدي مكتوباً (٤٠) :

في الأحمدي لمــن يأتيــــه معتبر
لم يبق من حسنه عين ولا أثــر
غارت كواكبه وانهد جانبـــه
ومات صاحبه واستفظع الحيــز

---

(٤٠) نفس المصدر ١١٧/١ .

الفصل السادس

العودة الى بغداد وهجر سامرا

١ ـ العودة الى بغداد :

ليس هناك تاريخ معين لترك المعتمد على الله مدينة سامرا والعودة الى بغداد ، كما لا تتضح الاسباب التي دفعته الى الانتقال ٠ وان ما ورد في المصادر الأولية حول هذا الموضوع لا يلقي ضوءا واضحا على ذلك ٠ ولكن المتتبع لسير الحوادث خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة سامرا كعاصمة للدولة العربية يلاحظ ان الخليفة كان في اثنائها يتردد بين بغداد وسامرا ، فيكون مقره في سامرا احيانا وفي بغداد احيانا اخرى٠ونذكر فيما يأتي بعضا من الحوادث التي وقعت خلال المدة المذكورة وكانت بغداد مسرح حدوثها مع ان سامرا كانت لا تزال عاصمة الدولة ومقر الخلافة ، لأن دواوين الدولة وخزائنها لازالت فيها ٠

ومما حدث في سنة ٢٧٠هـ ان ابا العباس احمد بن الموفق ، وكان بمعية ابيه في حرب الزنج ، قدم بغداد ومعه رأس الخبيث قائد ثورة الزنج ليراه الناس (١) ٠ مما يدل على ان الخليفة كان

(١) الطبري ٩/٦٦٣ ، والكامل ٧/٤٠٥ ٠

حينذاك في بغداد ، لأن من المعتاد ان يحمل رأس الثائر الى الخليفة ليقرر ما يراه بشأنه ، فقد يأمر بدفنه ، او بتعليقه في محل عام او بالطواف به في بعض اقاليم الدولة .

ولتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٧٢هـ قدم ابو العباس بغداد منصرفا من وقعته مع ابن طولون بالطواحين (٢) . وفي هذه السنة ورد الخبر مدينة السلام بدخول حمدان بن حمدون وهارون الشاري مدينة الموصل (٣) .

وعندما حبس الموفق ابنه ابا العباس في سنة ٢٧٥هـ شغب اصحاب ابي العباس وحملوا السلاح ، واضطربت بغداد ، فركب ابو احمد حتى بلغ باب الرصافة (٤) .

ولأربع عشرة خلت من شهر ربيع الاول من سنة ٢٧٦هـ شخص ابو احمد الموفق من مدينة السلام الى الجبل (٥) .

وفي أول يوم من شعبان سنة ٢٧٧هـ قدم بغداد قائد من قواد ابن طولون في جيش عظيم من الفرسان والرجالة (٦) . ومجيء هذا الوفد العسكري الى بغداد يدل على ان الخليفة كان فيها آنذاك .

وان وفاة الموفق في صفر سنة ٢٧٨هـ ودفنه بالرصافة ببغداد (٧) ، ووفاة المعتمد على الله في رجب سنة ٢٧٩هـ ببغداد (٨) ، مما يشير الى انهما كانا قد استقرا في بغداد .

---

(٢) الطبري ٩/١٠ .
(٣) الطبري ٩/١٠ والكامل ٤١٩/٧ .
(٤) الطبري ١٥/١٠ والكامل ٤٣٣/٧ .
(٥) الطبري ١٦/١٠ .
(٦) الطبري ١٨/٠١ ، والكامل ٤٣٩/٧ .
(٧) الطبري ٢٢/١٠ ، والكامل ٤٤٣/٧ .
(٨) الطبري ٢٩/١٠ ، والكامل ٤٥٥/٧ .

يقول ابن الأثير ان المعتمد على الله اول الخلفاء انتقل من سر من رأى مذ بنيت ثم لم يعد اليها احد منهم (٩) ٠

ويؤيد الخطيب البغدادي تردد المعتمد على الله على بغداد ، اذ يذكر انه كان قد استنزل بوران ارملة المأمون عن قصرها المعروف بالحسنى ، فاستنظرته اياماً في تفريغه وتسليمه ٠ ثم رممته وعمرته وفرشته باجل الفرش ، وملأت خزائنه بما يخدم به الخلفاء ، ورتبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه ، فلما فرغت من ذلك انتقلت منه ٠ فانتقل المعتمد اليه ٠ ولما كانت بوران قد توفيت في اواخر ربيع الأول من سنة ٢٧١هـ ، فان انتقال المعتمد على الله الى القصر كان قبل وفاتها ٠

ويشير ياقوت الحموي الى نفس الخبر المذكور فيقول : « فاتاه فرأي ما اعجبه وارضاه واستحسنه واشتهاه ، وصار من احب البقاع اليه ، وكان يتردد فيما بينه وبين سر من رأى فيقيم هناك تارة وهناك تارة اخرى »(١١) ٠ وواضح من هذا ان المعتمد على الله لم ينتقل الى بغداد بصورة نهائية ٠

وقد لاحظ ياقوت ان سامرا « لم تزل كل يوم في صلاح وزيادة وعمارة منذ ايام المعتصم والواثق الى ايام المنتصر بن المتوكل ٠ فلما ولى المستعين وقويت شوكة الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل ، وانفسدت دولة بني العباس ، لم تزل سر من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت بين امراء الاتراك ٠ الى ان كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء واقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله امير المؤمنين»(١٢) ٠

---

(٩) الكامل ٧/٤٥٥ ٠
(١٠) تاريخ بغداد ١/٩٩ـ١٠٠ ٠
(١١) معجم البلدان ٢/٤ ٠
(١٢) نفس المصدر ٣/١٧٦ ٠

وذكر المؤرخ زكريا بن محمد القزويني مثل هذا ، فقال « ولم تزل في زيادة عمارة من ايام المعتصم الى ايام المستعين ، فعند ذلك قويت شوكت الأتراك ووقعت المخالفة في الدولة • فلم تزل في نقص الى زمان المعتضد بالله فانه انتقل الى بغداد وترك سامرا بالكلية»(١٣) •

ان ما ذكرناه يؤيد ان المعتمد على الله كان يتردد بين سامرا وبغداد ، وانه لم ينتقل بصورة نهائية الى بغداد • ولعل قيامه ببناء قصر المعشوق في سامرا خلال سنتي ٢٧٥ و٢٧٦هـ دليل آخر على انه لم يزمع الانتقال منها • الا انه عندما تولى المعتضد بالله الخلافة في رجب من سنة ٢٧٩ وهو في بغداد آثر الاستقرار بها ، ونقل دواوين الدولة اليها ، فعادت من جديد عاصمة للدولة العربية •

وهكذا كانت سامرا عاصمة للدولة العربية خلال المدة من اوائل سنة ٢٢٣هـ حتى رجب سنة ٢٧٩هـ ، اي طيلة مدة تقرب من سبع وخمسين سنة عدا المدة التي انتقل بها المتوكل على الله الى المتوكلية • اما المدة التي انتقل بها المتوكل على الله الى دمشق فانه « لم ير في سفرته هذه شيئا ولا نظر في مصلحة » (١٤) • اي انه لم يمارس اعماله خلالها • والمدة التي انتقل فيها المستعين بالله الى بغداد وبقاؤه فيها حتى تنازله عن الخلافة وقدرها سنة واحدة ، فقد بقيت سامرا خلالها عاصمة للخليفة المعتز بالله الذي بايعه القواد الأتراك اثر انحدار المستعين بالله الى بغداد •

٢ ــ اسباب هجر سامرا :

وكما قامت مدينة سامرا واتسعت خلال مدة وجيزة من الزمن فقد قدر لها ان يغتالها الاهمال ويعمها الخراب بسرعة ايضا • وليس

---

(١٣) آثار البلاد واخبار العباد / ٣٨٦ •

(١٤) تاريخ اليعقوبي ٤٩١/٢ •

هناك اسباب واضحة لهجرها وعودة مقر الخلافة الى مدينة السلام .
الا ان المتتبع يلمس اهمال الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل على الله
شؤون المدينة العمرانية عدا مدة قصيرة في ايام المعتز بالله · وذلك
بسبب انشغال الدولة العربية بالحروب وما اصابها جراء ذلك من
انهاك وارهاق وبخاصة من الناحية المالية ، بقيام ثورة الزنج التي
استمرت خمسة عشر عاما ، وخروج الولايات الشرقية بين حين وآخر
على سلطة الخلافة · بحيث فقدت سامرا وبخاصة قصورها جدتها
وبهاءها واصبحت لا تليق بسكنى الخلفاء فيها · مما جعل المعتمد
على الله ، رغم الظروف المالية الصعبة ، يبني له قصراً في الجانب
الغربي من المدينة · وان المعتضد بالله الذي قضى اكثر ايامه قبل
توليه الخلافة ببغداد ، رأى بعد ان بويع له ان الاقامة بالقصر
الحسنى اكثر راحة واعظم ابهة من السكن باحد قصور سامرا
القديمة ·

ولا ينكر ان عودة العاصمة الى بغداد ونقل مختلف الدواوين
ورجالها اليها ، وما تبع ذلك من انتقال عدد كبير من سكان سامرا
رعاية لمصالحهم ، أثر تأثيراً بالغا في عمران سامرا ، وافرغها من
سكانها تقريبا بحيث كادت تخلو منهم تماما · كما كان لصعوبة
توفير مياه الشرب لسكان الضفة الغربية المرتفعة من سامرا ، وهي
الجانب الأوسع والأهم منها ، تأثير مهم آخر في نزوحهم عنها ·
فهجرت المدينة التي نافست بغداد ردحاً من الزمن زاد على نصف
القرن ، وتطرق اليها الاضمحلال والخراب · وقد احسن ياقوت
الحموي بقوله انها خربت حتى لم يبق منها سوى موضع المشهد
ومحلة بعيدة يقال لها الكرخ ، واصبح « سائر ذلك خراب يباب
يستوحش الناظر اليها بعد ان لم يكن في الأرض كلها احسن منها
ولا اجمل ولا اعظم ولا آنس ولا اوسع ملكاً »(١٥) ·

---

(١٥) معجم البلدان ٣/١٧٦ ·

٣ ـ سامرا بعد هجرها :

وقد وصف سامرا بعد هجرها بسنين عديدة بعض البلدانيين ، وذكرها بعض الرحالين الذين مروا بها • فقال عنها الاصطخري « وهي خراب ربما يسير الرجل في مقدار فرسخ منها لا يجد بها داراً معمورة » (١٦) • وقال المقدسي « والآن خربت ، يسير الرجل الميلين والثلاثة لايرى عمارة ، وهي الجانب الشرقي ، وفي الغربي بساتين •• فلما خربت سميت ساء من رأى » (١٧) • وقال ابن حوقل « ومدينة سر من رأى في وقتنا هذا مختلة واعمالها وضياعها مضمحلة ، قد تجمع اهل كل ناحية منها في مكان لهم به مسجد جامع وحاكم وناظر في أمورهم ، وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم • وهواؤها وثمار اصح من ثمار بغداد وهوائها • ولها نخيل وكروم وغلات تحمل الى مدينة السلام ، وهي الآن خراب اكثرها » (١٨) •

ومر بها الرحالة ابن جبير في طريقه من بغداد الى الموصل ، فقال عنها « ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر من صفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق • وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة سر من رأى وهي اليوم عبرة من رأى ، اين معتصمها وواثقها ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى عليها الخراب الا بعض جهات منها هي اليوم معمورة • وقد اطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها • وهي كما وصف وان لم يبق الا الأثر من محاسنها » (١٩) •

---

(١٦) كتاب الاقاليم / ٤٨ •
(١٧) احسن التقاسيم / ١٢٢-١٢٣ •
(١٨) صورة الارض / ٢١٨ •
(١٩) رحلة ابن جبير / ١٨٥ •
(٢٠) رحلة ابن بطوطه / ١/ ١٤٧ •

اما ابن بطوطه الذي توفى سنة ٧٧٩هـ اي بعد وفاة ابن جبير ب ١٦٥ عاما فقد مر بها ايضا وقال عنها « فنزلنا موضعاً على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبني على الدجلة • وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى ايضا سامرا •• وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل • وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودروس معالمها • وفيها ايضا مشهد صاحب الزمان »(٢٠) •

ولم يفكر احد من الخلفاء بعد المعتضد بالله بالعودة الى سامرا • ولكن يظهر مما ذكره ابو الحسن الهلال الصابي ان المكتفي بالله كان كلفاً بها وكان يخرج اليها للصيد (٢١) • ويشير الطبري في حوادث سنة ٢٩٠هـ الى ما يدل على ان المكتفي بالله قد اراد الانتقال اليها • فهو يقول « ولعشر بقين من جمادى الآخرة خرج المكتفي بعد العصر عامداً سامرا مريدا البناء بها للانتقال اليها ، فدخلها يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الآخرة ، ثم انصرف الى مضارب ضربت له بالجوسق ، فدعا القاسم بن عبدالله والقوام بالبناء فقدروا له البناء وما يحتاج اليه من المال للنفقة عليه ، وكثروا عليه في ذلك ، وطولوا مدة الفراغ مما اراد بناءه ، وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك ويعظم امر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المال ، فثناه عن عزمه » (٢٢) • وقد ذكر ابن الجوزي مثل هذا في حوادث سنة ٢٩٠هـ (٢٣) • وقد يكون نقله عن الطبري • كما اشار الى ذلك ابن الأثير في حوادث السنة المذكورة (٢٤) •

---

(٢١) الوزراء / ٢٥٢ •

(٢٢) الطبري ١٠/٩٨-٩٩ •

(٢٣) المنتظم ٦/٣٨ •

(٢٤) الكامل ٧/٥٢٩ •

وكتب عبدالله ابن المعتز الى صديق له يمدح سر من رأى ويصفه خرابها ، ويذم بغداد واهلها ، ويفضل سامرا ، نجتزىء منه بعض الفقرات (٢٥) : كتبت اليك من بلدة قد انهض الدهر سكانها ، واقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرها يطوى ، وكأن خرابها ينشر ، وقد وكلت الى الهجر نواحيها ، واستحث باقيها الى فانيها . وقد تمزقت باهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره احلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع . فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد . كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها .. على انها وان جفيت معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، وشرابها مرىء .. لا كبغدادكم الوسخة السماء ، الومرة الهواء ، جوها نار وارضها خبار ، وماؤها حميم ، وترابها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشرينها تموز . فكم في شمسها من محترق ، وفي ظلها من عرق ، ضيقة الديار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان قليلة الضيفان . اهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لايجوز انفاقه ولا يحل خناقه ، حشوشهم مسايل وطرقهم مزابل ، وحيطانهم اخصاص وبيوتهم اقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم . وبعد اللجاجة انتهاء ، والهم الى فرجة ، ولكل سابلة قرار ، وبالله استعين ، وهو محمود على كل حال :

---

(٢٥) معجم البلدان ٣/١٧٧–١٧٨ .

غدت سر من را في العناء فيا لها
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

واصبح اهلوها شبيها بحالهـــا
لما نسحبتهم من جنـــوب وشمأل

اذا ما امروء منهم شكا سوء حاله
يقولون لا تهلك اســـى وتجمل

واذا ما تتبعنا الأخبار عن سامرا بعد هجرها فاننا نجد ذكرها يتردد مقرونا باحداث بعض السنوات ٠ فقد جاء في حوادث السنة ٢٨١هـ ان الأعراب دخلوا سامرا واسروا ابن سيما(٢٦) ٠ وذكر في حوادث السنة ٢٩٦هـ عندما خلع المقتدر وبويع عبدالله بن المعتز ثم عاد المقتدر ، ان ابن المعتز ومن بايعه من القواد حاولوا ان يسيروا الى سر من راى بمن تبعهم من الجند فيثبت أمرهم ويشتد سلطانهم ، فلم يتبعهم احد (٢٧) ٠ وفي حوادث السنة ٣٢٠هـ ان مؤنساً انحدر من الموصل في شوال وبلغ خبره جند بغداد فشغبوا وطلبوا ارزاقهم ، ففرق المقتدر بالله فيهم اموالا كثيرة ، وانفذ ابا العلاء سعيد بن حمدان وصافياً البصري في خيل الى سر من رأى ، وانفذ ابا بكر بن ياقوت في الفي فارس ومعه الغلمان الى المشوق(٢٨) ٠ وعن وفيات السنة ٣٢٢هـ يقول ابن الأثير « وفيها توفى خير بن عبدالله النساج الصوفي من أهل سامرا » (٢٩) ٠ وذكر في حوادث سنة ٣٣٠هـ عندما هرب ابو حسين البريدي من بغداد الى واسط وعـــاد الخليفـــة المتقي بالله اليها مع ابن حمدان ، وكان المتقي قد سير اهله مـــن

---

(٢٦) الطبري ٣٧/١٠ ، والكامل ٤٦٨/٧ وفيه انهم قتلوه ٠
(٢٧) تجارب الامم ٦/١ ، والكامل ١٦/٨ ٠
(٢٨) تجارب الامم ٢٣٤/١ ، والكامل ٢٤١/٨ ٠
(٢٩) الكامل ٢٩٨ ٠

بغداد الى سر من رأى ، فاعادهم . كما عاد من هرب اليهـــا مـــن الأعيان (٣٠) . ولما نشبت بين اصحاب معز الدولة بعكبـــرا وناصر الدولة ومن معه من الاتراك بسر مـــن رأى في ســـنة ٣٣٤هـ. عبـــر اصحاب معز الدولة من الديلم من الجانب الشرقي من سر من رأى الى الجانب الغربي وساروا الى تكريت فنهبوها ، ثم صار بعضهم الى سر من رأى فنهبوها ايضا (٣١) . ويذكر ابن الأثير ان جامع سر من رأى احترق في سنة ٤٠٧ هـ(٣٢) . وعندما خرج امر الخليفـــة القادر بالله في سنة ٤١٥هـ بصرف ابن ابي طالب عن نقابة الكوفة انكر الوزير المغربي ما يجري على صهره ابن ابي طالب من العزل ، وكان عند قرداش بسر من رأى(٣٣) . وورد في وفيات السنة ٤٢٥هـ وفاة ابي سنان غريب بن محمد الملقب بسيف الدولة في شهر ربيع الآخر في كرخ سامرا ، وكان قد ضرب دراهم سماها السيفية (٣٤) . وجاء في حوادث السنة ٤٧٨هـ ان السلطان بركياروق قتـــل عمـــه تكش وغرقه في سر من رأى(٣٥) .

---

(٣٠) تجارب الامم ٢/ ٣٠ ، والكامل ٨/ ٣٨٥ .
(٣١) تجارب الامم ٢/ ٨٩ـ٩٠ ، والكامل ٨/ ٤٥٣ .
(٣٢) الكامل ٩/ ٢٩٥ .
(٣٣) الكامل ٩/ ٣٣٦ .
(٣٤) الكامل ٩/ ٤٣٨ .
(٣٥) الكامل ١٠/ ٢٣٩ .

الفصل السابع

دور السكنى في سامرا

ان دور السكنى التي تم الكشف عنها في اطـلال سـامرا كانت تتألف من طابق ارضي واحد بوجه عام · وجدرانها مبنية باللبن والجص · اما الآجر فقد استعمل في تطبيق ارض بعض الغرف ،في عقد الطيقان · وقد شوهد في بعض الدور نوع مـن الطابـوق المصنوع من الجص في بناء الطيقان والعقادات المهمة ·

اما ارضية الغرف فيبلط بالآجر وبعضها بالجص ، وقليـل جدا منها بلط بالرخام الابيض او الاسمر ، وقطع الرخام المستعملة مربعة الشكل او مثلثة · وكانت الجدران عادة تطلى بالجبس · ولوحظ في بعض الدور ان القسم الأسفل من جدران غرفها كانت تكسوه قطع الرخام الى ارتفاع متر واحد تقريبا · وعلى جدران معظم الغرف زخارف محفورة في الجبس بالوان جميلة · اما الجدران الخارجية فلا أثر للتزيين فيها · وشوهد في كثير من البيوت اعمدة واساطين مصنوعة من الجص ملتصقة بالجدران ، وتحتهـا قواعد بديعة · ولاشك ان رؤوس هذه الأعمدة كانت على هيئة التيجان · واغلب الأعمدة التي عثر عليها جصية كلها ، وقليل منها يتكـون داخلها من اللبن او الطين وقد كسيت بالجص لتجميل منظرهـا ·

ووجد في جدران بعض الغرف روازين مزينة بالزخارف • وكانت ابواب الغرف تحاط باطار بارز من الجص بوجه عام(١) •

ويظهر ان بيوت سامرا بنيت على نسق واحد ، اذ يتقـــدم البيت مدخل مسقف ــ وهو ما نسميه بالمجـاز ــ يفضي الى باحـة مكشوفة مستطيلة في آخرها قاعة رئيسة على شـكل حـرف "T" مقلوب مع غرفتين صغيرتين في الزاويتين ، وتحاط القاعة بصفوف من الغرف للسكن او لاتخاذها مخـازن . والســقوف جميعهـا خشبية (٢) •

وقد يكون في الدار اكثر من صحن واحد ، وكما اشرنا آنفاً فان الغرف في جميع البيوت المكتشفة مرتبة على نظام واحد : الغرفـة الأصلية وتتألف من قسمين ، الأول بمثابة الايوان ويتعامد مع القسم الثاني من وسطه ويكون عادة اعرض منه وأقل طولا • وتقوم على طرفي الايوان غرفتان صغيرتان تنفتح باب كل منهما على جناح القسم الثاني الذي يكون بمثابة رواق يمتد امام الغرفتين ويتصل بالايوان الذي يتوسطهما • ومما يلفت النظر ان هذا الترتيب ينطبق تماما على « الطراز الحيري » الذي سبقت الاشارة اليه • فــكان القسم المتوسط الشبيه بالايوان هو « الصدر » والغرفتان اللتان على جانبيه هما « الكمان » اما القسم الذي يتعامد مع الصدر والكمين فهو « الرواق » • وقد ظهر في بعض الدور مجازان طويلان على على طرفي الكمين والرواق ، وهما بمثابـة « خـزانة الكســوة » و « مستودع الشراب » • كما لوحظ في بعض الدور ان الصــدر لا يتصل بالكمين مباشرة ، بينما كان في دور اخرى متصلا بهمـا بصورة مباشرة • وقد وجد في احدى الدور المكتشفة ان الصدر كان غرفة مثمنة الشكل ذات ثلاثة ابواب ، وان بعض الغرف مقسمة الى

---

(١) حفريات سامراء ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ / ١ / ٢٥ •

(٢) Creswell. E. M. A. P : 286-287.

قسم داخلي وقسم خارجي بواسطة جدارين صغيرين او بسلسلة من الأعمدة (٣) ٠

واظهرت التنقيبات في الدور المكتشفة عدة حمامات ، ومرافق صحية ، وبالوعات منتظمة يزيد عمق بعضها على ثلاثة امتــار ٠ وشوهد في بعض الدور مجاري للمياه متقنة الصنع ٠ كما شوهد في كثير من هذه الدور محلات مخصصة لتربية الحمام ، يقع بعضها في احدى زوايا الدار ، وبعضها الآخر تحت الـــدرج ٠ وشوهدت في بعض الدور غرف مخصصة لذلك وقد بنيت على جدرانها اكنان على نظام بديع ٠ وكان قسم من هذه الاكنان واسعة يستدل منهـا انها كانت لتربية الطيور الداجنة الكبيــرة كالاوز والدجـــاج ٠ وكشف عن وجود سراديب في بعض دور السكنى المذكـــورة على اختلاف مواقعها ، ووجد في بعضها سردابان ٠ والسراديب المذكورة محفورة في الطبقة الصخرية التي تعرف بين الاهلين باسم «السن» ٠ وكان ينزل الى هذه السراديب بدرج منظم يتألف قسمه الاعلى من خمس قدمات ، وقسمه الاسفل من ست قدمات ٠ ويدخل النور الى السرداب عادة من طاقات مفتوحة في سقفه ، وتظهر هذه الطاقات في ارض الدار كفوهات آبار ٠ وحفرت في جدران بعض السراديب نوافذ عمياء (روازين) لوضع بعض الحاجات والاسرجة(٤) ٠

ومن المعتاد ان يكون في مدخل الدار دهليز او مجــاز مستطيل تقوم على طرفيه دكتان ممدتان للجلوس ، ويعقب هذا الدهليز او المجاز مجاز آخر فيه دكتان او اكثر ٠ ومما يلفت النظر ان امثال هذه الدكات كانت لا تزال تشاهد في دور سامراء الحالية في وقت القيام بالتنقيبات ٠ ويكون مدخل الدار في اغلب الاحيان بارزاً عن جدار الدار ، وعلى طرفيه حنايا على شكل محاريب ، وعلى طرفيها بعض

(٣) حفريات سامراء انف الذكر ١/٢٧ــ٢٨ ٠
(٤) نفس المصدر / ٣١ــ٣٢ ٠

الأعمدة ، مما يكسب مدخل الدار جمالا • ولوحظ في معظم الدور المكتشفة آثار تغييرات حصلت في بنائها ، وفي زخارفها ، اكثر من مرة ، كاستحداث باب في احد الجدران ، او سد باب قديم ، او تقسيم غرفة الى قسمين او اكثر ، او ردم الأرض وتعلية التطبيق • او تجديد بعض الزخارف والنقوش • وذلك ما نسميه اليوم بالصيانة والأدامة • وتدل هذه التغييرات على نزعة التجديد • لقد لقد شوهدت في بعض الدور مثلا ، قاعة كبيرة قد قسمت الى غرف صغيرة بجدران بسيطة • حتى ان بعض المغاسل والمراحيض استحدثت في زاوية من زوايا غرفة غنية بالزخارف البديعة ، مما يدل بشكل واضح على ان التغييرات كانت قد أحدثث بعد ان هجرت الدار من اصحابها الأغنياء فتحولت الى مأوى يسكنه عدد من العائلات الفقيرة (٥) •

وقد وجدت بعض البيوت التي تقع على الشارع العام ، تحتوي على صف من الدكاكين (٦) • وكان تزيين البيت من الداخل سمة لها شأنها • فقد كانت الافاريز العالية المزخرفة والمنقوشة توجد في معظم البيوت ، لاسيما في الغرف ، وهي تدور في جميع جوانبها • وكذلك كانت السقوف ايضا تزين بالنقوش ، كما تزخرف اطارات الابواب والنوافذ ، وجل هذه الزخارف من الجص ، وقد تفنن صانعوها في رسمها وصنعها وزينوها احيانا بالصور (٧) •

وكان من المعتاد ان يزداد عدد الغرف في الدار كلما اتسعت مساحتها ، وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك تغطيها الواح من الزجاج المتنوع الألوان ، يتراوح عرض اللوح الواحد بين العشرين والخمسين سنتمتراً (٨) •

---

(٥) حفريات سامراء آنف الذكر ١/٣٢-٣٣ •

(٦) Creswell, E. M. A. P . 287.

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٦ •

(٨) الحضارة الاسلامية ٢/١٧٢ •

الفصل الثامن

زخـارف سامرا

مقـدمة :

لاشك في ان توفر مادة الطين لصنع اللبن ، والتربة الكلسية الصالحة لتحضير الجص لاستخدامه ملاطا ومؤنة للبناء ولطلاء الجدران وزخرفتها بالرسم او النقش او الحفر ، مما ساعد على تقدم الريازة وتطور طرز العمارة في سامرا وازدهار الزخرفة الجصية التي اتخذت لتزين البنايات والقصور ازدهاراً كبيراً ، بحيث نشأ فيها طراز خاص من هذه الزخرفة باشكال لا تعد ولا تحصى ارتبط باسمها فعرف في تاريخ الفن المعماري بزخارف سامرا • وان ما كشفت عنه التنقيبات من النقوش الزخرفية في قصور سامرا ومنازلها يدل على براعة صانعيها ، ومدى تقدمهم في هذا الفن أنذاك • ويلاحظ ان من مميزات هذه الزخارف انها قد تعمل في خلال البناء او بعد اتمامه ، وان القشرة الجصية التي عليها الزخارف يمكن ان ترفع بسهولة وان تعوض بقشرة جديدة تزخرف باشكال تختلف عن الأشكال السابقة • وبعد ان اتخذ القالب لصنع الزخارف المطلوبة صار عملها بهذه الطريقة رخيصا مما عمم استعمالها واتاح للفنانين مجالا واسعا للعمل في هذا المضمار (١) •

---

(١) الاثار القديمة العامة ــ سامراء / ٣٩ــ٤٠ •

ولاينكر ان ثمة عوامل فنية اخرى توفرت في سامرا لأنها غدت مركزاً جذبت اليها فنانين وصناع كثيرين من جميع انحاء المعمورة ، وقد استهوتهم ثروة بلاط الخلفاء والرعاية التي كانوا ينعمون بها في ظلهم • فقدر لهذه المدينة ان تكون البوتقة التي انصهرت فيها فنون امم مختلفة من روم وسريان وفرس واقباط وهنود ، وبزغ من ذلك فن جديد هو فن الريازة العربية (٢) • وسوف نحاول ان نترسم خطى تطور هذه الزخارف التي اتسع نطاق استخدامها فاتخذت في الحجر وفي الخشب اضافة الى الجبس والجص •

الزخارف الجصية :

سبق ان اشرنا الى ان جدران الغرفة القائمة في مدخل السرداب الصغير في دار الخليفة قد زينت برسوم قافلة من الجمال حفرت على الجبس ، وان جدران اواوين هذا السرداب نقشت عليها زخارف جصية • وقد ازدانت جدران قصور سامرا ومساكنها بالزخارف الجصية الجميلة • وتفاوتت رسوم هذه الزخارف واشكالها تفاوتا كبيرا ، فبعضها غاية في البساطة والغلظة ، مستقيم الخطوط ، غائر العمق ، وبعضها احكم زخرفا وابدع زينة ، وقد اهتم الآثاريون بهذه الزخارف اهتماما خاصا ، فدرسوا مصادرها وتتبعوا مراحل تطورها • ويمكن القول ان العالم الآثاري هرزفيلد اول من عني بذلك • وقد قسم هذه الزخارف الى ثلاثة انواع بحسب تطورها الزمني • ويظهر ان تقسيمه نال قبولا لدى العلماء الآثاريين ممن اهتموا بهذا الفن الذي ازدهر في عهد سامرا فنسب اليها •

والنوع الأول هو النوع القديم الذي كان امتداداً للطراز الزخرفي الذي كان سائدا عند تأسيس مدينة

---

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٧ •

سامرا . ويتميز هذا النوع بعمق حفره وقرب زخارفه من الطبيعة ، وهي تتكون من تفريعات العنب ، وكيزان الصنوبر ، والمراوح النخيلية ، داخل تقسيمات هندسية ، ولها خلفيات واضحة . ومع ان الزخارف هنا تعتمد على اساليب الزخرفة الاموية ، الا ان رجال الفن في سامرا ابتكروا اشكالا جديدة ذات مظهر زخرفي رائع(٣) . ويرى كريزول ان الشكل المميز لهذا الطراز هو استخدام العنب فيه ، مما يشاهد في زخارف قبة الصخرة مع بعض التغيير في عدد الاوراق المستخدمة في الزخرفة ، واختفاء حبات العنب التي كانت تظهر فوق الورقة عند اتصالها بالساق ، واضافة عيون جاحظة بين الورقات ، واملاء الأرضية ، وهذا النموذج من الزخارف يرى على باب العامة وهو من البنايات الأولى في سامرا (٤) .

وفي النوع الثاني ابتعد الفنان عن الطبيعة في رسم زخارفه التي تتكون من اشكال وتفريعات هندسية تحمل اوراقا ثمانية او اشكالا مختلفة من المراوح النخيلية . كما اهمل خلفية الرسم وصارت مجرد خطوط تفصل عناصر الزخرفة . الا انه احتفظ بمميزات الطراز الأول الاخرى كعمق الحفر واحاطة الزخارف باشكال هندسية (٥) . وهذا النوع من الزخارف الجصية لا تظهر فيه الشجرة او النبتة كاملة ، اذ اختفت سيقانها المتشابكة واخذ كل منها يظهر مستقلا ومتفرقا في نهايته . اي ان الصفة الغالبة على هذه الزخارف انها ابتعدت عن الطبيعة ، وان التفاف السيقان والتقاؤها هو الغالب بحيث امكن املاء المربعات والمثمنات بالسيقان والبراعم (٦) .

---

(٣) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢١–٢٢ ، الفنون الاسلامية / ٩٣ .

(٤) Creswell, E. M. A. P : 289.

(٥) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٢ ، والفنون الاسلامية /٩٣ .

(٦) Creswell, E. M. A. P : 289.

اما النوع الثالث فهو احدث الطراز المذكور ، وفيه تبلورت الاسس الفنية لزخارف سامرا • فابتعد الفنان تماما عن الطبيعة واهمل خلفية الرسم • واصبحت الزخرفة تقوم على خطوط متصلة ببعضها بشكل لا يحتاج معه الى الزخارف الدقيقة التي كانت تملأ الفراغ بين الزخارف الكبيرة ، لأن الأرضية في هذا النوع كادت تختفي تماما (٧) • وان طريقة عملها اصبحت تعتمد على القوالب ، بحيث ان الزخارف لم تعد ترسم وتحفر على الجدار مباشرة ، كما كان الحال في النوعين الأول والثاني ، حينما كان الفنان يرسم الزخارف على الجدران في المكان المطلوب زخرفته ثم يحفر الأرضية والخلفيات حول الرسم ليبرز العناصر الزخرفية المطلوبة • وكان ذلك يتطلب دون ريب جهداً ومالا • فاتبعت طريقة القوالب وبخاصة في زخرفة المساحات الواسعة من الجدران والسقوف • اذ يعمل الزخرف على قالب من الطين ثم يفخر ليكتسب صلابة ، ومن ثم يصب ملاط الجص او الجبس فوق القالب بعد ان يدهن كي لا يلتصق الجص بالقالب ، ثم يرفع لوح الجص بعد جفافه تماسكه • وواضح ان هذه الطريقة وفرت مالا ووقتا وجهداً • لأن القالب يستخدم لمرات عديدة في صنع زخارف متماثلة • ولكي لا تتشوه الواح الجص المزخرفة عند رفعها من قوالب فقد اتبع في حفر القالب طريقة الحفر المائل • واساس هذه الطريقة ان تنحت العناصر الزخرفية نحتا مائلا ، وتتقابل حوافها في شكل زوايا منفرجة • وقد اتبعت هذه الطريقة ايضا في النحت على الحجارة وزخرفة الخشب • ويطلق عليها الاصطلاح المعروف بالنحت المشطوف او المائل « Beveled » (٨) • ويقول كريزول ان القالب يعمل اول الأمر من الخشب ثم تصب عليه نماذج عديدة من الطين ، وبعد ان

---

(٧) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٢-٢٣ ، والفنون الاسلامية / ٩٣ •
(٨) الفنون الاسلامية / ٩٤ •

تفخر هذه النماذج تصبح هي القوالب التي تصب عليها الزخارف المطلوبة من الجبس ، وكان اهم عامل لذلك هو الرغبة في سرعة انجاز الزخارف بالنظر لسعة الحركة العمرانية (٩) .

ويزعم بعض الآثاريين ان الفنان في سامرا اقتبس هذه الطريقة في الحفر من الزخارف التي رآها محفورة حفراً مائلاً على بعض بعض الحلي التي كان الرقيق الاتراك يجلبونها معهم من بلادهم . ومن هؤلاء ارنست كونل Ernest Kuhnel الذي يرى ان « هذا التطور الأخير في سامرا يعتبر ثورة زخرفية كامدة . وابتكارا لطراز عباسي خاص مطعم بالفن التركي ، يقوم على اساس الطراز السيتي لتصوير الحيوان في الفن الشعبي الطوراني ، وقد اخذ عن الخشب اصلا ، ثم استعمل في ادوات الزينة . ومعروف ان الحفر المائل يمثل هجرة الشعب السيتي وحده »(١٠) . على انه مهما كانت العوامل المؤثرة والتي دفعت الى ابتكار هذا الطراز فنحن امام اسلوب جديد في الزخرفة الجصية غير مسبوق ، او بعبارة اخرى امام فن عربي ناضج ، وقد خرج من العراق ، او على الأدق من سامرا الى شرق العالم الاسلامي وغربه ، محمولاً على ايدي العراقيين ، او على ايدي فنانين مسلمين وفدوا الى العراق لكي يتعلموا طراز الخلافة العباسية على ايدي فناني العراق وصناعه (١١) .

ان هذه الوحدات الزخرفية النباتية من الازهار والاوراق والفروع والبراعم التي رسمها الفنان العربي في زخارف سامرا بعد ان حورها واحسن تنسيقها ، واسبغ عليها جمالها الفني الذي تميزت به ، اطلق عليها الاوربيون اسم الأرابسك "Arabesque"

(٩) Creswell, E. M. A. P : 290

(١٠) الفن الاسلامي / ٣٩ .

(١١) العراق مهد الفن الاسلامي / ٢٦ .

ويتضح من هذه التسمية ان هذه الزخارف عربية اصلا • وقد توسع استعمال هذه الوحدات الزخرفيــة ، فنقشت على سقوف القاعات والغرف ، وعلى ابواب الجوامع وقبابها ، وعلى المقرنصات والدلايات • ولم يقتصر صنعها على الجص والجبس ، بل اتخذت ايضا على الحجر والاجر والخشب ، كما رسمت على الطابوق المزجج القاشاني الذي غلفت به قباب الجوامع •

وهذه الزخارف النباتية التي ولدت تحت سماء سامرا وتجلت خطوتها الاولى في الطراز الثالث من طراز الزخارف الجصية ، قد اخذت تنمو وتتقدم حتى وصلت ذروة جمالها في بعض مباني مدينة الموصل ، لاسيما المحاريب الحجرية التي يحتفظ بها المتحف العراقي ببغداد (١٢) • ويحتفظ المتحف العراقي بنماذج عديدة لزخـارف سامرا الجصية بمراحلها او طرزها الثلاث • فهناك لوحـان من الجص من هذه الزخارف ، وهما من النـوع الأول ، عثـر على احدهما في قصر الجص الذي بناه المعتصم بالله في الجانب الغربي من سامرا ، وعثر على اللوح الآخر في احد دور سامرا التي اجـرى التنقيب في اطلالها (١٣) • وثلاثة الواح من الجص نقشت بزخارف هندسية على طراز سامرا الثاني ، وجزء من جدار فيه شباك مزين بالواح جصية مزخرفة من الجانبين بنقوش هندسية ونباتيــة من الطراز المذكور (١٤) • وثلاثة الواح من الجص مزخـرفـة بنقوش نباتية وهندسية ، وهي من الطراز الثالث لزخـارف سامرا(١٥) • ومحراب من الجص مزخرف بنقوش وكتابات كوفية وجد في احد

---

(١٢) العراق مهد الفن الاسلامي / ٣٥ •
(١٣) كنوز المتحف العراقي / ٤١٤ •
(١٤) نفس المصدر / ٤١٧ •
(١٥) نفس المصدر / ٤١٩

القصور بسامرا (١٦) • ولوحان من الرخام نقشا بزخارف محفورة حفراً عميقاً باشكال هندسية بديعة وجدا في سامرا (١٧) •

الزخارف الخشبية :

لم تكن القطع الخشبية التي عثر عليها في خلال الحفريات التي اجريت في اطلال سامرا كثيرة ، بسبب سرعة تلف الخشب اذا ما تعرض للعوامل الجوية او لفعل الأرضة • ولكنها رغم قلتها كانت متنوعة تنوعا كبيراً • فقد لوحظ ان بعضها سميكة ومزخرفة بطريقة الحفر او الخرط ، وبعضها قليلة السمك مزخرفة بطريقة النقش بالاصباغ ، وقسما منها مزخرفة بطريقتي الحفر والنقش معا • واكثر ما عثر عليه من القطع الخشبية حشوات للابواب ، او اجزاء من زخارف سقفية ، وكانت الالوان الغالبة في زخرفتها اللون الأحمر والازرق والابيض ، وقد استخدم اللون الأصفر احيانا (١٨) • اما اشكال النقوش التي رسمت باللوان مختلفة على الخشب فتغلب عليها الرسوم الهندسية المؤلفة من خطوط منكسرة ومثلثات متتالية او سلسلة من الدوائر ، مما يؤلف زخارف معقدة جميلة ، وقد استخدمت في بعض النقوش عناصر نباتية وحيوانية (١٩) •

لقد ابتكر الفنان العربي في خلال القرن الثالث ، اي في عهد سامرا ، طريقة جديدة في الحفر هي طريقة الحفر المائل او المشطوف ، وابتكر اسلوبا زخرفيا يناسبها • ومع ان طريقة الحفر المائل استخدمت في حفر الزخارف الجصية على نطاق واسع الا انه

---

(١٦) نفس المصدر / ٤١٨ •
(١٧) نفس المصدر / ٤١٩ •
(١٨) حفريات سامراء / ٢/١٤ـ١٥ •
(١٩) نفس المصدر / ١٥ •

يرجح ان اول ظهورها كان على الخشب (٢٠) • ويحتفظ متحف المتروبوليان بامريكا من هذا الاسلوب الزخرفي الجديد بمصراعي باب وحشوتين قد تكونان جزء من كتفي باب او من سقف منقوش ، وقد عثر عليهما في تكريت ويرجح انهما جاءا من سامرا ، وتعتبر هاتان الحشوتان من اكمل امثلة الحفر على الخشب في سامرا • اما زخارف مصراعي الباب فموزعة ـ حسب الطريقة التقليدية ـ على اقسام مستطيلة ومربعة داخل اطار خال من الزخرفة ، وقد استخدمت في زخارف الباب وفي الحشوتين الفروع النباتية واشكال الزهريات وقد جمعت بشكل بعيد عن الطبيعة(٢١) • وان الالواح الخشبية التي عثر عليها في اطلال احد قصور سامرا الذي اجريت فيه التنقيبات تحتوي على رسوم قوامها موضوعات نباتية وفق اسلوب زخارف سامرا الجصية ، وهي ملونة بالالوان المشار اليها آنفاً ، وتحدها خطوط باللون الاسود(٢٢) •

وفي المتحف العراقي مجموعة من قطع الخشب المزخرف من حشوات الأبواب ومصاريعها ، وكلها ذات زخارف بارزة من طراز القطع المائل ، وجد معظمها في حفريات سامرا • منها لوحان من الخشب احدهما مزخرف بنقوش نباتية دقيقة جداً ، والواح مزخرفة وملونة • وقطعتان مزينتان بنقوش نباتية محفورة (٢٣) •

وقد دخل اسلوب زخرفة الخشب ونقشه الى مصر واصبح شائعاً فيها في عهد الامارة الطولونية • وفي المتحف الاسلامي في

---

(٢٠) الفنون الاسلامية / ٣٧ •
(٢١) نفس المصدر / ١١٧ـ١١٨ •
(٢٢) نفس المصدر / ٣٧/ ٣٨ •
(٢٣) كنوز المتحف العراقي / ٤١٩ •

القاهرة مجموعة من الأخشاب المزخرفة تعود الى العهد المذكـــور ، وتشتمل على قطع من الابواب والسقوف والافاريــز ، وقطــع الاثاث المدهون بعضها بالالوان الزاهية ، كما يوجد منهــا بمتحــف المتروبوليتان امثلة اخرى جميلة (٢٤) ٠

ولعل من احسن أمثلة الخشب المحفور من عهد ســامرا ممــا لا يزال محافظا على شكله الأصلي منبر جامع القيروان الذي جلبه الأمير الاغلبي ابو ابراهيم احمد بن محمد من العراق(٢٥) ٠ ويتكون المنبر المذكور من صفوف من الحشــوات المقســـمة الى مستطيلات تزينها الزخارف الهندسية المتشابكة والنباتات المجردة والتفريعات من ورق العنب ٠ ونجد في احدى الحشوات شجرة نخيل مستمدة من شجرة الحياة الشرقية ، وهذه تنتهي بزوج من القرون تعلوها كيزان الصنوبر ، وشكل كروي على جانبيه مراوح نخيلية ٠ ويتمثل في هذه الزخارف اسلوب سامرا المجرد ، وذلك في زخارف من فروع العنب تحمل اوراقا نباتية ، في البعد عن الطبيعــــة ، وكيــزان صنوبر بدلا من عناقيد العنب ٠ وبعض كيزان الصنوبر قريب من مظهره من الطبيعة ، وبعضها الآخر ينتهي باشكال من انصاف المراوح النخيلية ، وهذه تغطيها اوراق نباتية ٠ وتزين مناطق اخرى من تلك الحشوات موضوعات مجردة تتكون من عدة تعبيرات مركبة يمكن اعتبارها من الاصول الفنية لبعض العنـــاصر الزخرفيـــة للاسلوبين الثاني والثالث من زخارف سامرا الجصية (٢٦) ٠

---

(٢٤) الفنون الاسلامية / ١١٨ ٠

(٢٥) هو الامير السادس من بني الاغلب وقد امتدت امارته من سنة ٢٤٢ حتى سنة ٢٤٩هـ ٠

(٢٦) الفنون الاسلامية / ١١٥ـ١١٦ ٠

الرسوم الحائطية :

كان من المعتاد ان يغطي الجزء الأسفل من جدران الغرف الرئيسة في القصور وفي كثير من البيوت بوزرة من الجص او الطابوق المصقول الى ارتفاع متر واحد تقريبا ، مع حشوات زخرفية . اما بقية الجدار فتزين بالصور والرسوم الحائطية . ومن اطرف هذه الرسوم ما عثر عليه في جناح الحريم ، وتضم مناظر راقصات وموسيقيين ، وطيوراً وحيوانات ، تنحصر بين دوائر او تفريعات نباتية (٢٧) .

وقد كشفت التنقيبات التي اجريت في اطلال قصور سامرا عن رسوم حائطية رسمت على عديد من جدران الأبهاء والقاعات والغرف والحمامات ، وقد ابدع صانعوها في رسمها وتلوينها . وكانت بعض الرسوم بالالوان المائية تموه بالذهب ، كما اشرنا الى ذلك في تزيينات قصر بلكوارا وزخارفه . كما سبق ان اشرنا الى انه قد رسم على جدار احدى القاعات في قصر المختار الذي بناه المتوكل على الله صورة رهبان الكنيسة وقائد صلاتهم . وتم العثور على بعض المساكن الخاصة وفي احد الحمامات . واعظم هذه الرسوم اهمية هي التي وجدت في قصر الخليفة ، وبخاصة في قسم الحريم منه . وفي هذه الرسوم فروع نباتية تشغل الفراغات ، ورسوم بشرية ، ورسوم حيوانات (٢٨) . وكانت الدرجات في حمامات سامرا تزين بالصور بدلا من البلاط المختلف الالوان ، وذكر المسعودي ان الناس يصورون العنقاء في الحمامات (٢٩) .

---

(٢٧) نفس المصدر / ٣٧ .
(٢٨) فن التصوير عند العرب / ٤٢ .
(٢٩) الحضارة الاسلامية ٢/١٨٥ .

ولعل اروع الصور التي عثر عليها سليمة واضحة وقد احتفظت بالوانها وكانت تزين حائط احدى غرف قسم الحريم في قصر الخليفة • وتعد هذه الصورة مثالا نموذجيا لاسلوب سامرا في الرسم المائي • وهي تمثل راقصتين كاملتي الملبس ، تبدوان وكأنهما تتحركان احداهما نحو الاخرى وتمسكان بايديهما المتقاطعتين بكأسين تصبان فيهما الخمر بشكل متزن من وعائين يظهران خلف رأسيهما • وان الاواني الذهبية ، والتيجان والأحزمة ، واللآلىء في رأسيهما وفي آذانهما ، وكذلك الألبسة الثقيلة والجدائل الطويلة ، كل هذه توضح بان تينك المطربتين تنتميان الى قصر الخليفة • وقد تجلت المهارة والدقة والابداع في الرسم وفي التلوين ، وجميعها تنطق بان المصور العراقي في عصر سامرا قد بلغ درجة عالية من النضوج (٣٠) •

وفي المتحف العراقي قطع جدارية من الجص عليها رسوم بالالوان المائية بزخارف هندسية ونباتية وحيوانية وجدت في اطلال مختلفة من قصور سامرا (٣١) • وقطع من الخشب مصبوغة بالوان مختلفة عليها رسوم باشكال هندسية متنوعة ، وجدت في حفائر سامرا (٣٢) •

الزخرفة بالفسيفساء :

عثر بين انقاض بعض الغرف في دار الخليفة على كمية كبيرة من الفصوص الزجاجية : مكعبات صغيرة من الزجاج الملون بينها

---

(٣٠) العراق مهد الفن الاسلامي / ٥٠ ، وفن التصوير عند العرب / ٤٢ •
(٣١) كنوز المتحف العراقي / ٤١٧ •
(٣٢) نفس المصدر / ٤١٩ •

الأخضر والأسود والأحمر والازرق والذهبي ، وكان البعض منها ملتصقا بقطع جصية مما يستدل منه انها كانت تستعمل لتغطية الجدران بزخارف من الفسيفساء ٠ كما وجدت بين الأنقاض المذكورة كمية من القطع الصدفية التي تختلف عن بعضها اختلافا بينا من حيث اشكالها وابعادها ، وكان بعض هذه القطع ملتصقا بقطع جصية بين فصوص زجاجية منتظمة ، مما يدل على انها كانت تدخل في تركيبات الفسيفساء الزخرفية لتكسبها رونقا وجمالا خاصا ٠ ووجدت كذلك قطع زجاجية سوداء وحمراء مختلفة الأطوال والأشكال مما يدل على انها كانت تتخذ لتطعيم جص الجدران وتكوين انطقة واطارات للزخارف (٣٣) ٠

وفي المتحف العراقي كسر من القاشاني الملون او من نوع الفسيفساء وجدت في اطلال سامرا ، واكثرها من دار الخليفة (٣٤) ٠

---

(٣٣) حفريات سامراء ١٩٣١ ـ ١٩٣٩ ، ٢ / ١٣ ٠

(٣٤) كنوز المتحف العراقي / ٤١٤ ٠

الباب الثاني

خلفاء سامرا

١ ـ الخلافة والمبايعة وولاية العهد

٢ ـ المعتصم بالله

٣ ـ الواثق بالله

٤ ـ المتوكل على الله

٥ ـ المنتصر بالله

٦ ـ المستعين بالله

٧ ـ المعتز بالله

٨ ـ المهتدى بالله

٩ ـ المعتمد على الله

الباب الثاني

خلفاء سامرا

الفصل الأول

الخلافة والمبايعة وولاية العهد

١ ـ الخلافة :

يتطلب فهم طبيعة عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، من حيث اسلوب الحكم الذي اتبع في ادارة شؤون الدولة العربية المترامية الأطراف . وطرق معالجة المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهتها .معرفة نظام الخلافة واسسه التي قام عليها والعوامل المختلفة التي اثرت في تطوره ، ولذا سنحاول فيمايلي ان نوضح ذلك مختصراً ٠

لقد تطور نظام الحكم العربي في العهد العباسي عما كان عليه في عهد الأمويين ٠ وقد حصل هذا التطور بفعل عوامل متعددة أثرت فيه ، لعل اهمها الاساس الديني الذي بنى عليه العباسيون حقهم في الخلافة ٠ اذ انهم ثبتوا نظام الوراثة في الحكم ، واعتبروا قرابتهم

من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأساس الشرعي لخلافتهم . وكان نهج العباسيين هذا تطورا تاريخيا طبيعيا للدولة العربية لأنها لم تقتصر على البلاد العربية وحدها ، بل انها ضمت تحت لوائها اقواما عديدة اعتنق اغلب ابنائها الدين الاسلامي وجعلوا ولاءهم له ، وهو يدعو الى التوحيد بين الناس ويعتبرهم سواسية ولايفضل احدا على آخر الا بالتقوى . فقد جاء في خطاب ابي العباس السفاح اول خلفاء بني العباس ، عندما بويع بالخلافة قوله : «الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وايده بنا وجعلنا اهله وكهفه وحصته .. وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته»(١) .

كما انهم اكدوا على الأساس الديني لحكمهم . وقد جاء في خطبة داود بن علي وهو عم السفاح قوله : « ورجع الحق الى نصابه في اهل بيت نبيكم ، اهل الرأفة بكم والرحمة لكم والتعطف عليكم ، الا وان ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس لكم ان نسير فنحكم في الخاصة والعامة منكم بكتاب الله وسنة رسوله » (٢) . بحيث اصبحت الخلافة منصباً مقدساً يستلزم الولاء والطاعة والنصرة (٣) . وانها خلافة عن صاحب الشريعة مع حراسة الدين وسياسة الدنيا (٤) . وولاية عامة على كافة الأمة ، والقيام بامورها والنهوض باعبائها(٥) . فكان الخليفة رأس الدولة ومصدر السلطات كلها ، وهو المرجع الأخير لشؤون الرعية الدينية منها والدنيوية .

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك / ٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٥٠ .
(٣) الاحكام السلطانية للماوردي / ٨ .
(٤) مقدمة ابن خلدون / ١٠٤ .
(٥) مآثر الانافة ١/٨ .

اما الشروط التي يجب ان تتوفر فيمن يتولى الخلافة فان الماوردي يرى ان الشروط المعتبرة سبعة ، اولها : العدالة ، والثاني : العلم المؤدي الى الاجتهاد ، والثالث : سلامة الحواس ، والرابع سلامة الأعضاء ، والخامس الرأي المفضي الى سياسة الرعية ، والسادس · الشجاعة والنجدة ، والسابع : النسب وهو ان يكون من قريش (٦) ·

ويرى ابو يعلى الحنبلي انها اربعة ، احدها : ان يكون قرشيا من الصميم ، والثاني : ان يكون على صفة من يصلح ان يكون قاضيا ، والثالث : ان يكون قيما بأمر الحرب والسياسة واقامة الحدود . والرابع : ان يكون من افضلهم في العلم والدين : وقد روي عن الامام احمد بن حنبل ما يجيز اسقاط اعتبار العدالة والعلم والفضل (٧) ·

ويتفق ابو يعلى مع الماوردي في جواز ان يسمى خليفة من عقد له الامر ، وان يسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه خلفه في امته (٨) ·

وقد لخص ابن خلدون الشروط المذكورة باربعة هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي ، واذا ما تقرر ان نصب الخليفة واجب فهو من فروض الكفاية ، ويتعين على اهل الحل والعقد نصبه ، ويجب على الجميع اطاعته (٩) ·

---

(٦) الاحكام لسلطانية للماوردي / ٤ ·
(٧) الاحكام السلطانية لابي يعلى / ٤
(٨) الاحكام السلطانية / ١٢ ، والاحكام السلطانية للحنبلي / ١١ ·
(٩) مقدمة ابن خلدون / ١٠٥ ·

اما واجبات الخليفة فهي عشر ، احدها : حفـظ الديـن على اصوله المستقرة ، والثاني : تنفيذ الاحكام بين المتنازعين حتى تعم النصفة . والثالث : حماية البيضة والذب عن الحريم ، والرابع : اقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهـاك ، والخامس تحصين الثغور بالعدة والعدد ، والسادس : جهاد من عاند الاسلام بعـد الدعوة حتى يسلم او يدخل في الذمة ، والسابع : جباية الفـيء والصدقات على ما اوجبه الشرع ، والثامن : تقدير العطايا ومـا يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، والتاسع : استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ويكل اليهم من الأموال ، والعاشر : ان يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفـح الأحوال لينهض بسياسة الأمة . واذا ما قام الخليفة بهذه الواجبات فقد وجب له على الأمة حقان : هما الطاعة والنصرة ، ما لم يتغير حاله من جرح في عدالته او نقص في بدته(١٠) .

وكان للاستعانة بالعناصر غير العربية في الحكم في عهـد العباسيين أثر مهم في تطور نظام الحكم . فقد تأثر العرب بالانظمة الادارية التي كانت قائمة في البلاد المفتوحة ، واقتبسـوا بعض التقاليد التي اضفت على الخلافة مزيدا من الهيبة والاحترام .

ضعف الخلافة :

ادى تعاظم نفوذ الأتراك في عهد سامرا الى اضعاف شـأن الخلافة والخلفاء . فقد بدأ نفوذ قوادهم يظهر واضحا ويتسع منذ عهد الواثق بالله . اذ انه توسع في تكريمهم ، حتى تسنى لهـم ان يستبدوا بالحكم دون الخلفاء بشكل سافر خلال المدة التي امتدت بين اغتيال المتوكل على الله واستخلاف المعتمد على الله . اذ تميزت

(١٠) الاحكام السلطانية للماوردي /١٣ـ١٤ ، الاحكام السلطانيـة للحنبلي / ١١ ـ ١٢ .

هذه المدة بأستبداد القادة الاتراك بالخلفاء ، فكانوا يختارون من يريدونه للخلافة ويجبرونه على التنازل عندما يختلفون معـــه • والواقع ان تدخلهم في اختيار الخلفاء بدات بوادره عنـدما توفـي الواثق بالله ، الذي لم يعهد لأحد بالخلافة من بعده ، احتجوا بعدم لياقة ابنه للخلافة وقالوا انه غلام امرد لاتجوز معه الصلاة (١١) • دلالة على صغر سنه • فاختاروا اخا الواثق بالله جعفر بن المعتصم بالله الذي لقب بالمتوكل على الله • وكان اول من بايعه القائدان التركيان وصيف وسيما الدمشقي (١٢) • وقد شجعهم هذا التدخل في اختيار الخليفة على الاستمرار في التدخل بشؤون الدولة طيلة عهده الذي قضاه في صراع مستمر ضد تدخلهـــم ومحاولتهـــم السيطرة على السلطة ، ذلك الصراع الذي انتهى باغتيـاله على ايديهم •

وقد تكون ازاحة الوزير القدير محمد بن عبدالملك الزيات عن مسرح الحكم حينما قتله المتوكل على الله في مطلع استخلافه ، قد افقدت الخليفة ظهيراً على درجة كبيرة من الحنكة والدهاء مما لم يتوفر فيمن استوزرهم بعده ، بحيث يستطيعون كبـح جمـاح اولئك القادة المتعطشين للسلطة والثروة والجاه •

وبعد ان استطاع القواد الاتراك اغتيال المتـــوكل على الله استفحل نفوذهم بحيث غدوا اصحاب السلطة الفعلية في الدولة العربية • وسوف نرى في فصول قادمة مراحل الصراع بين الخلفاء وهؤلاء القادة ومظاهره وما ترتب عليه من النتائج من جـــراء تدخلهم في سياسة الدولة وفي اختيارهم الخلفاء • « فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاءوا ابقوه وان شاءوا خلعوه وان شـاءوا

---

(١١) الطبري ٩/١٥٤ •

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ •

قتلوه (١٣) وذلك حسبما تمليه عليهم رغباتهـم ، وبما يؤمن مصالحهم • وقد استمر هذا الوضع حتى استخلف المعتمد على الله حينما استطاع اخوه ابو احمد الموفق ايقافهم عند حدهـم ، واستعادة سلطة الخلافة الى حين •

٣ ـ المبايعة وولاية العهد :

عندما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتخب المسلمون ابا بكر الصديق دون ان يكون هناك نص بذلك اوامر من الرسول صلى الله عليه وسلم • وعندما انتخبوه عاهـدوه على السمع والطاعة بما فيه رضاء الله سبحانه وتعالى ، وعاهدهم هو من جانبه على ان يعمل بموجب كتاب الله وسنة نبيه • وكان التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو ما قصد به « البيعة او « المبايعة » لأنه يشبه ما يفعله البائع والمشتري عند عقد صفقة بينهما ، اذ انهما يتصافحان بايديهما دلالة على اتمام معاملة البيع • وكما ان عملية البيع تستلزم الوفاء فان المبايعة توجب الوفاء بها • اما من الناحية الشرعية فان البيعة اتفاق تعاقدي بين جانبين الأول هو المرشح ويؤلف ركن الايجاب ، والآخر هو الشخص المختار ويؤلف ركن القبول • ويشترط على من يبايع ان يظل مخلصا لأوامر الله ، وهذا يعني ان الحاكم اذا لم يظل متمسكا بهذه الأوامر فـان لمن بايعوه الحق في التحلل من التزاماتهم • على ان الأثر الملزم للبيعة شخصي ويستمر مدى الحياة ، ولذا فان الجزاء الدنيوي لنكث البيعة هو القتل (١٤) •

---

(١٣) الفخرى / ٢٢٠ •

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية / ٤٣ـ٤٤ •

ان البيعة على رأي ابن خلدون « هي العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد اميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لاينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره • وكانوا اذا بايعوا الأمير وعقدوا ايديهم في يده تأييدا للعهد ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري ، فسمي بيعة ، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي » (١٥) •

ومن المعتاد ان تتم مبايعة الخليفة على مرحلتين او اكثر • والمرحلة الاولى هي ما اصطلح على تسميتها « البيعة الخاصة » وفيها يشترك عدد محدود من كبار رجال الدولة والحاشية ، ثم تعقبها « البيعة العامة » وتتم بمرحلة واحدة او اكثر • وقد تؤخذ البيعة احيانا بموجب عهد مكتوب ، تتم المبايعة وفق ما جاء فيه • وذلك تأكيداً لأثبات الحق الشرعي للخليفة المبايع له • ويتضمن هذا العهد المبايعة بالخلافة ، والتعهد بالطاعة والامتثال لأوامر الخليفة وعدم عصيانه ، واليمين الكفيلة بالالتزام بذلك • كما جاء في كتب بيعة بعض خلفاء سامرا (١٦) •

وقد تطورت طريقة اختيار الخليفة على يد ابي بكر الصديق (رض) ، اذ انه اختار من يخلفه في الأمر عند مماته • وبذلك اصبح من حق الخليفة القائم ان يختار من يخلفه وعلى الأمة ان تعاهده على طاعته • وهذا ما سمي بولاية العهد • يقول الماوردي « ان انعقاد الخلافة بعهد من الخليفة السابق امر انعقد الاجماع على جوازه ، وتم الاتفاق على صحته » (١٧) • ويقول ابن خلدون « لما كانت الامامة هي النظر في مصالح الأمة لدينهم

---

(١٥) مقدمة ابن خلدون / ١١٤ •

(١٦) يلاحظ مثلا كتاب بيعة المنتصر بالله ، الطبري ٩/٢٣٧-٢٣٩ ، وكتاب بيعة المعتز بالله ، نفس المصدر / ٢٨٤ - ٢٨٦ •

(١٧) الاحكام السلطانية / ٧ •

ودنياهم ، والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ، وتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امورهم كما كان هو يتولاها ، ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا فيما قبل . وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الامة على جوازه وانعقاده »(١٨) .
وفحوى هذين القولين ان الخليفة ، وهو المسؤول عن شؤون الامة الدينية والدنيوية يجوز له شرعا ان يعين من يخلفه في منصبه بحيث يطمئن الى قيام من عهد اليه بواجبات الخلافة في حفظ بيضة الدين ورعاية مصالح الامة . واذا ما عين الخليفة احدا لولاية العهد بعده ، وجب على الامة الاعتراف به والخضوع لسلطته ، ويتمثل هذا الاعتراف بمبايعته .

واذا اراد الخليفة ان يعهد لاحد من بعده فعليه ان يجهد رأيه في آلاحق بها والاقوم بشروطها . فاذا تعين له الاجتهاد في واحد جاز ان ينفرد بتفويض العهد له ان لم يكن ولدا او والدا . اما اذا كان ولي العهد ولدأ او والدأ فقد رأى بعض الفقهاء وجوب مشاورة اهل الأختيار ، واجاز البعض للخليفة الانفراد بتفويض العهد له . واذ عهد الخليفة الى من يصح العهد له على الشروط المعتبرة فيه فليس للخليفة المولّي عزل من عهد اليه ما لم يتغير حاله . كما لايجوز لأهل الاختيار عزل من بايعوه اذا لم يتغير حاله . اما اذا عهد الخليفة الى اثنين او اكثر ورتب الخلافة فيهم ، فقال من بعده فلان ، فان مات فالخليفة بعد موته فلان ، فان مات فالخليفة بعده فلان ، جاز له ذلك وكانت الخلافة متنقلة الى الثلاثة على ما رتبها . واذا مات الخليفة والثلاثة احياء كانت الخلافة بعده حسب ترتيبه . اما اذا مات الاول في حياة الخليفة صارت

---

(١٨) مقدمة ابن خلدون / ١١٤ .

الخلافة بعده للثاني ، واذا مات الاول والثاني في حياة الخليفة فالخلافة بعده للثالث . لأنه قد استقر العهد لكل واحد من الثلاثة . ولو مات الخليفة والثلاثة من اولياء عهده احياء ، وافضت الخلافة الى الاول منهم واراد ان يعدل بها الى غير الاثنين مما يختاره لها ، فمن الفقهاء من منعه من ذلك الا ان يستنزل عنها مستحقها طوعاً (١٩) .

من الواضح ان اغلب الاحكام المشار اليها بشأن ولاية العهد نظرية بحتة ، لأن الخلفاء لم يكونوا يتقيدون بها الا بقدر ما يؤمن من رغباتهم ويلائم اهواءهم ، اما تجربة العهد لأكثر من واحد فقد فشلت عمليا لما تثيره من خلافات ومنازعات بين من عهد اليهم . وهناك من الخلفاء من يتزمت بعظم المسؤولية تجاه الأمة فلا يريد ان يتحمل وزر من يخلفه ، فلا يعهد لأحد من بعده ، انما يترك ذلك لاختيار الأمة بعد وفاته . فان الواثق بالله لم يعهد لاحد من بعده لأنه لم يرد ان يتحمل المسؤولية حياً وميتاً (٢٠) .

---

(١٩) يلاحظ كتاب تنازل كل من المعتز والمؤيد عن ولاية العهد ـ الطبري ٢٤٦/٩ ، وان المعتز لما خلع اخاه المؤيد من ولاية عهده اخذ منه رقعة بخطه بخلع نفسه ، نفس المصدر / ٣٦٢ .

(٢٠) تاريخ اليعقوبي ٤٨٣/٢ .

الفصل الثاني

المعتصم بالله

ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد

١ ــ وصية المأمون :

عندما مرض المأمون وهو في بلاد الروم في سنة ٢١٨هـ واشتدت به علته احضر ابنه العباس وجمعا من القضاة والفقهاء والقواد والكتاب واوصى بحضرتهم . وفيمايلي بعض ما جاء في وصيته : « هذا ما اشهد عليه عبدالله بن هارون . وبعد ان استغفر واسترحم لنفسه .. ثم طلب الى اخيه ابي اسحاق ان يدنو منه ، وقال له : ادن مني واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة اخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله .. ولا تغل امر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فان الملك بهم ، وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم .. ولا ينهين اليك امر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره عن هواك ، وخذ من اقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم .. وعجل الرحلة عني والقدوم الى دار ملكك بالعراق .. والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة

وجلد ، واكنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من انصارك واوليائك ٠٠ ثم دعا به ثانية ، حين اشتد به الوجع ، وقال له : يا ابا اسحاق عليك عهدالله وميثاقه ٠٠ لتقومن بحق الله في عباده ولتؤترن طاعته على معصيته اذ انا انقلها من غيرك اليك ٠٠ فانظر من كنت تسمعني اقدمه على لساني فاضعف له التقـــدمة ، عبدالله بن طاهر ٠٠ واسحاق بن ابراهيم ٠٠ وعبدالوهاب عليك به من بين اهلك فقدمه عليهم ٠٠ وابو عبدالله بن ابي دواد فلا يفارقك واشركه في المشورة في كل امرك ٠٠ ولاتتخذن بعدي وزيرا ٠٠ فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته ٠٠» (١) ٠

كما سبق ان نفذت كتب المأمون الى عماله في البلدان ، وكان في اولها : من عبدالله المأمون امير المؤمنين واخيه الخليفة من بعده ابي اسحاق بن امير المؤمنين الرشيد ٠ ويقول الطبري ان ذلك لم يكتبه المأمون ، بل كتب استنادأ الى امره بعد ان افاق من غشـية اصابته في مرضه انه اذا حدث به حدث الموت في مرضـه هـــذا فالخليفة من بعده ابو اسحاق بن اميرالمؤمنين الرشيد ، فكتب الكتب بالصيغة المذكورة (٢) ٠

ويتضح من هذا ان المأمون عندما احس بدنـو اجلـه اوصى اخاه ابا اسحاق بحضور العباس بن المأمون وجمع مـن القـــواد والقضاة والكتاب ، بما يلتزم به اذا ما طوقه الله بالخلافة ، وهو لم يعهد له بها صراحة ٠ ويبدو ان مؤيدي ابي اسحاق تنبهوا الى ذلك فكتبوا الى العمال في البلدان على لسان المأمون بان الخليفة مـــن بعده هو اخوه ابو اسحاق ٠ وانهم كتبوا بذلك استنادا الى امـــر المأمون بانه اذا ما توفى في مرضه فالخليفة من بعده ابو اسحاق ٠

---

(١) كامل النص في الطبري ٨/٦٤٧ ـ ٦٥٠ ٠

(٢) الطبري ٨/٦٤٥ ـ ٦٤٦ ٠

فكانت هذه الملابسات سببا في ان مبايعة ابي اسحاق لقيت معارضة من العباس بن المأمون ومؤيديه من القواد ، مما سبب بعض المشاكل للمعتصم بالله فيما بعد ٠

ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان الخليفة هارون الرشيد عندما عهد بالخلافة الى ابنائه الثلاثة ، جعل للمأمون عندما يتولى الخلافة اثبات القاسم او خلعه ٠ فقد نص في كتاب العهد على « اذا افضت الخلافة الى عبدالله بن امير المؤمنين فالأمر اليه في امضاء ما جعله امير المؤمنين من العهد للقاسم بعده او صرف ذلك عنه الى من رأى من ولده واخوته » (٣) ٠ وبينما اعتاد الخلفاء ان يعزلوا اخوتهم من ولاية العهد استئثاراً بها لأبنائهم فان المأمون نقلها من اخيه القاسم ، ولكن ليس لابنه العباس ، وانما ليعهد بها الى اخيه الآخر ابي اسحاق ، رغم ان العباس كان مؤهلا لمنصب الخلافة بعد ابيه ، فقد كان شجاعا محبباً الى الجند ٠ ولم يوضح المأمون سبب اختياره اخيه ابي اسحاق وتفضيله على ابنه ٠ ويقول ابن دحية ان المأمون نص على خلافة المعتصم دون اولاده لرؤيا رآها من النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ٠ على اننا نرى ان الروح العسكرية التي كان يتميز بها ابو اسحاق هي التي جعلت المأمون يفضله على ابنه ، بالنظر لما كان يهدد الدولة العربية من الأخطار ، لاسيما تمرد الخرمية التي كانت تستهدف القضاء على الدولة ، وخطر الروم الذي ما زال يهدد الثغور العربية ٠ اضافة الى ان ابا اسحاق كان مقربا الى اخيه المأمون ، وقد ولاه الشام ومصر منذ سنة ٢١٤هـ ، واستصحبه معه في حملته الأخيرة على بلاد الروم ٠

---

(٣) نفس المصدر / ٢٨٠ ـ ٢٨١ ٠

(٤) النبراس / ٦٣ ٠

٢ ـ مبايعة المعتصم بالله :

تجمع المصادر التي تذكر مبايعة ابي اسحاق بالخلافة اثر وفاة اخيه المأمون في يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من شهر رجب سنة ٢١٨هـ على ان قسما من الجند والقواد الذين كانوا في حملة المأمون ، كانوا ميالين الى مبايعة العباس دونه ، وانهم طلبوا نقل الخلافة الى ابن المأمون • فقد اشار ابن قتيبة الى ذلك بقوله « فاراد الناس ان يبايعوا العباس ، فأبى وسلم الى ابي اسحاق الأمـــر ، فتوجه ابو اسحاق نحو بغداد مسرعا خوفاً على نفسه من جمـاعة من القواد كانوا هموا به » (٥) • ويقول اليعقوبي « وامتنع بعض القواد من البيعة لمكان العباس من المأمون ، فخرج اليهم العباس من مضربه فكلمهم بكلام استحمقوه فيه فشتموه وبايعـــوا لأبـي اسحاق . وانصرف المعتصم يريد العراق » (٦) • وجاء في الطبري ان الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة ، وان الجند شغبوا لما بويع له ، وطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فارسل ابو اسحاق الى العباس فجاء وبايعه واخبر الجند انه بايع عمه وسلم اليه الخلافة فسكنوا (٧) • اما الملاسعودي فيذكر انه كان بين ابي اسحاق والعباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم انقاد العباس الى بيعته (٨) • ويقول مؤلف كتاب العيون والحدائق بما يشبه ما اورده الطبري من شغب الجند على المعتصم بالله ومناداتهم العباس باسم الخلافة فارسل اليه فجـــاء وبايعه وخرج الى الجند واخبرهم بانه بايع عمه وسلم اليه الخلافة فسكتوا . وسار المعتصم بالله الى بغداد مسرعا خوفا على نفسه من

---

(٥) المعارف / ٣٩٢ •

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٧١ •

(٧) الطبري ٨/ ٦٦٧ •

(٨) مروج الذهب ٤/ ٤٦ •

القواد وكانوا هموا به (٩) . وكذلك يقول مسكويه ان الناس شغبوا على المعتصم وطلبوا العباس ونادوا باسم الخلافة ، فارسل ابو اسحاق الى العباس فاحضره . فبايعه وخرج الى الجند وقال لهم قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه فسكنوا (١٠) . اما ابن الأثير فيقول ولما بويع له شغب الجند ونادوا باسم العباس ، فارسل اليه المعتصم فاحضره فبايعه ، ثم خرج الى الجند فقال لهم ما هذا الحب البارد ، قد بايعت عمي فسكنوا (١١) . وينفرد ابو حنيفة الدينوري بالقول ان المأمون كان قد بايع لابنه العباس بولاية العهد من بعده ، ولما مات المأمون جمع اخوه ابو اسحاق محمد بن هارون اليه وجوه القواد والجند ودعاهم الى بيعته فبايعوه ، فسار من طرسوس حتى وافى مدينة السلام ، وخلع العباس بن المأمون وغلبه عليها (١٢) . وهو قول يدحضه ما اتفق عليه من سبقه من المؤرخين الذين اشرنا اليهم .

يستنتج مما جاء في هذه الروايات التي تتفق في فحواها ان العباس بن المأمون كان يطمح الى تولي الخلافة بعد ابيه ، وله من يؤيده من القواد والجند وان هؤلاء كانوا مطمئنين الى انه سيتولاها بعد موت ابيه . ولما قيل ان المأمون قد عهد لأخيه ابي اسحاق فقد اشفقوا من قيام النزاع بين العم وابن اخيه ، وهذا ما حدث فعلا . ويبدو ان القواد والجند قد انقسموا الى فئتين ، احداهما تناصر ابا اسحاق وتحتج بأن المأمون قد عهد اليه بالخلافة في وصيته ، وتناصر الاخرى العباس . اما لأنها كانت تراه اصلح للخلافة بالنسبة لمصالحها ، او انها كانت تدعى ان المأمون قد عهد اليه بها من بعده ، كما ذكر الدينوري ، ولهذا اخذت تطعن بما جاء في

---

(٩) العيون والحدائق ٣/ ٣٨٠ .
(١٠) تجارب الامم ٦/ ٤٧٠ .
(١١) الكامل ٦/ ٤٣٩ .
(١٢) الاخبار الطوال / ٣٣٧-٣٣٨ .

وصية المأمون من عهد بالخلافة الى اخيه دون ابنه . ويظهر ان الموالين للمعتصم بالله قد ارغموا العباس على مبايعة عمه ، وان يعلن ذلك على مؤيديه ويطلب اليهم الاقتداء به ، فبايع مؤيدوه المعتصم بالله على مضض وبعد مناقشة حادة مع العباس . مما جعل المعتصم بالله يشك بولائهم ويخاف انتفاضتهم عليه ، فاسرع في العودة الى بغداد مستصحبا معه العباس كي لا ينفرد به المعارضون فيغيروا من رأيه فينقاد الى طلبهم ، فيقوم النزاع بينهما ثانية .

ويلاحظ ان الجيش يتدخل لأول مرة في امر مبايعة الخليفة وينقسم على نفسه بشأنها . وكان هذا التدخل مبادرة خطيرة صارت لها نتائج بعيدة الأثر على الدولة العربية . على ان هذه الفئة التي عارضت مبايعة المعتصم بالله ، ظلت ، رغم مبايعتها ، تتحين الفرصة المناسبة لامتناع العباس بمبايعته والوثوب بعمه .

عاد المعتصم بالله الى بغداد ، ويصف الخطيب البغدادي دخوله المدينة بقوله « ودخل بغداد على بغلة كميت بسرج مكشوف ، وعليه قلنسوة لاطئة وسيف بمعاليق ، فأخذ على باب الشام حتى عبر الجسر ، ثم دخل من باب الرصافة (١٣) . وكان دخوله اليها يوم السبت مستهل شهر رمضان سنة ٢١٨هـ (١٤) . ويقول اليعقوبي انه دخل بغداد وعلى جنده الديباج المذهب (١٥) .

وعندما تمت البيعة للمعتصم بالله ، وقف علي بن يحيى المنجم بين يديه ومدحه بعد ان رثى المأمون ، بقوله (١٦) :

أخني على الملك المأمون كلكله
عندي جنايته يامعشر الناس

(١٣) تاريخ بغداد ٣/٣٤٧ .
(١٤) الطبري ٨/٦٦٧ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٢ .
(١٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ .
(١٦) معجم الادباء ٥/٤٦٥ .

أختى على الملك المأمـــون كلكلـه
فصـــار رهنـــا لأحجـار وارمـاس

قد كان ينهد ركن الدين حـين ثوى
ويتـــرك الناس فوضى بـلا راس

حتـى تـداركهـم بـالله معتصـــم
خـير الخـــلائف من اولاد عبـاس

وجعل المعتصم بالله نقش خاتمه ، على ما جاء في كتاب العيون والحدائق « الله ثقة محمد بن الرشيد وبه يؤمن» (١٧) . وفي العقد الفريد « الله ثقة ابي اسحاق بن الرشيد وبه يؤمن »(١٨) . الا ان السيوطي يقول نقلا عن الصولي ان نقش خاتمه كان « الحمد لله الذي ليس كمثله شيء »(١٩) واحسبه نقله عن المســـعودي الذي يقول انه كان « الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو خالق كـل شيء » (٢٠) . وقد يدل تعدد نقش الخاتم على ان المعتصم بالله كان يستبدله بين حين وآخر .

وأمر المعتصم بالله عند مبايعته بـرد المقاصير فـي مساجد الجماعة (٢١) . مما يستدل منه انه كان يخشى الفئة التي عارضت بيعته . وقد سبق للمأمون ان امر بنزعها باعتبارها سنة احدثها معاوية بن ابي سفيان (٢٢) .

---

(١٧) العيون والحدائق ٣/٤١٠ .
(١٨) العقد الفريد ٥/١٢١ .
(١٩) تاريخ الخلفاء / ٣٣٧ .
(٢٠) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ .
(٢١) البدء والتاريخ ٦/١١٤ .
(٢٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٨ .

٢ ـ صفاته وسيرته :

هو ابو اسحاق محمد بن هارون الرشيد ، وعندما استخلفه لقب بالمعتصم بالله وهو اول خليفة اضيف الى لقبه اسم الله تعالى(٢٣) . وامه من مولدات الكوفة ، وذكر عن الفضل بن مروان انه قال ان ام المعتصم بالله تسمى ماردة وهي صفدية الأصل وكان ابوها نشأ بالسواد(٢٤) . وكانت ماردة احظى نساء الرشيد لديه ، وقد اهدتها اليه زوجته زبيدة ضمن عشر جوار عندما تحقق لها انه لم يكن يتعشق المغنية دنانير ، وانما يحب سماعها فقط (٢٥) .

اما صفات المعتصم بالله الجسمية ، فيكاد يجمع الذين وصفوه من المؤرخين على انه كان ابيض مشرباً بحمرة ، اصهب اللحية طويلها ، حسن العينين مربوع القامة (٢٦) . ويقول المسعودي انه لم يشب (٢٧) . ويقال انه كان شديد البدن عظيم القوة ، يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات (٢٨) . وانه حمل ذات مرة بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا وفوقه عكام فيه مائتان وخمسون رطلا ، وكان يسمى ما بين اصبعيه المقطرة لشدتهما (٢٩) . ويلوى عمود الحديد حتى يصير طوقا ، ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته(٣٠) . ويروى عن احمد بن ابي دواد ،

---

(٢٣) المختصر في اخبار البشر ٣٥/٤ ، ومآثر الانافة ٤٣/١ و٤١٧ .

(٢٤) الطبري ١٢٣/٩ .

(٢٥) الأغاني ٦٧/١٨ .

(٢٦) الطبري ١١٩/٩ ، وتجارب الامم ٥٢٧/٦ ، والعيون والحدائق ٤٠٩/٣ .

(٢٧) التنبيه والاشراف / ٣٠٧ .

(٢٨) العيون والحدائق ٤٠٩/٣ .

(٢٩) العقد الفريد ١٢١/٥ ، والعكام هو العدل . والمقطرة خشبة فيها خروق على رجل المحبوس يقيد بها .

(٣٠) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ .

وكان مقرباً جداً من المعتصم بالله انه قال : كان المعتصم بالله يخرج ساعده الي ويقول يا ابا عبدالله عض ساعدي باكثر قوتك ، فاذا هو لاتعمل فيه الأسنة فضلا عن الاسنان(٣١) .

ووصف المعتصم بالله بحسن السيرة واستقامة الطريقة (٣٢) . الا انه كان كثير اللهو مسرفا على نفسه (٣٣) . كما كان سديد الرأي موصوفا بالشجاعة (٣٤) . وما رؤى اشد تيقظا في حرب منه ، فانه لما ادخل عليه مازيار بن قارن ، وكان شديد الغضب عليه ، قيل له ان لا يعجل عليه فان عنده اموالا جمة ، فانشد قول ابي تمام (٣٥) :ـ

ان الاسود اسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وعرف عنه كان قاسياً سريع الغضب ، واذا غضب لا يبالي من قتل وماذا فعل (٣٦) . الا ان استماعه الى نصح قاضي قضاته ابن ابي داود ساعده على تجنب كثير من المظالم . وكان يتشدد في سلوك ابناءالاسرة العباسية ، ولما بلغه ان اخاه ابا علي بن الرشيد كان يتردد على بعض الاديرة ومعه القيان ويقضي اياما في القصف والتهتك أمر اسحاق بن ابراهيم صاحب الشرطة على تأديبه اياه ، وامره ان لا يرخص لأمير من اهل بيته في ذلك(٣٧) .

وكان المعتصم بالله فصيحا رغم جهله القراءة والكتابة الا قليلا . يقول الخطيب البغدادي انه كان يكتب كتابا ضعيفاً ويقرأ

---

(٣١) تاريخ الخلفاء / ٣٣٤ .
(٣٢) مروج الذهب ٤٧/٤ و ٦٤ .
(٣٣) العبر ٤٠٠/١ .
(٣٤) الفخري / ٢٠٩ .
(٣٥) تذكرة ابن حمدون / ١٠٥ .
(٣٦) الكامل ٥٢٦/٦ والعبر ٤٠٢/١ وجاء فيه انه كانت له نفس سبعية .
(٣٧) الديارات / ٣٤ـ٣٥ .

قراءة ضعيفة (٣٨) • وذلك لأنه كان في صغره يكـره الدراسة • ويروى ان اباه سأله يوماً عن وصيف صغير له ، فأجابه بأنه مات واستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : أوبلغ منك الكتاب هـذا المبلغ ، والله لا حضرته ابـداً ، ووجهـه الى البـادية فتعلـم الفصاحة(٣٩) • وذكر القلقشندي ما يشبه هذا فيقول ان سبب ذلك هو ان المعتصم بالله رأى جنازة بعض الخدم فقال : ليتني مثل هذا حتى اتخلص من الكتاب ، فقال له ابوه : والله لاعذبنك بشيء تختار عليه الموت ومنعه من الكتاب(٤٠) • وقد استفاد من البادية فصاحة اللسان الى جانب الفروسية ، فكان اذا تكلم بلغ مـا اراد وزاد عليه (٤١) •

ويذكر اليعقوبي بعض الامور التي كان المعتصم بالله اول من اتخذها من الخلفاء ، واقتدى به الناس • فقد لبس الثياب الضيقة الأكمام فضيق الناس اكمام ثيابهم ، ولبس الخفاف الكبار فقلدوه بلبسها ، وكان اول من لبس شاشية مربعة فلبسها الناس ايضـا تشبهاً به فنسبت اليه فقيل « الشاش المعتصمية » ، كما كان اول خليفة ركب السروج المكشوفة فتشبه الناس به (٤٢) • ويذكـر المسعودي عنه ما يشبه هذا (٤٣) • ولم يكـن المعتصـم بالله يمس الطيب الا قليلا ، وكان يذهب في ذلك الى تقوية بدنه واعانته على الشدائد ، واما في حروبه فكان من دنا منه وجد رائحـة صـدأ

---

(٣٨) تاريخ بغداد ٣/٣٤٣ •
(٣٩) العقد الفريد ٢/٤٤٠ ، وتاريخ بغداد ٣/٣٤٣ •
(٤٠) مآثر الانافة ١/٢١٨ •
(٤١) تاريخ الخلفاء / ٣٣٧ •
(٤٣) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣١ـ٣٢ •
(٤٣) مروج الذهب ٤/٣١٩ •

السلاح والحديد من جسمه (٤٤) . وانه كان يكره رائحة الغالية ولا يستطيع الصبر عليها (٤٥) .

واشتهر المعتصم بالله بالسخاء في بذل المال ، وكانت اعطياته للشعراء والمغنين وفيرة . وعندما كان يستخفه الطرب في مجالس الغناء لا تقتصر اعطياته وخلعه على المغنين وحدهم بل يشمل بذلك جميع الحاضرين (٤٦) . ودخل يوماً دار خاقان عرطوج فرأى ابنه الفتح وهو صغير فمازحه وسأله : ايهما احسن داري ام داركم ؟ فقال الفتح : ياسيدي ، دارنا اذا كنت فيها احسن . فقال المعتصم بالله : لا ابرح والله حتى انثر عليه مائة الف درهم ، وفعل ذلك (٤٧) . واهدى قفلا من الذهب فيه ألف مثقال الى الكعبة المشرفة ، وقد حمله الى مكة في سنة ٢١٩ هـ وفد مؤلف من طاهر بن عبدالله ومحمد بن ابراهيم وابن فرج الرخجي ، وكان من الذهب الخالص ، وعندما ارادوا نزع القفل القديم لوضع القفل الذهبي مكانه احتج حجاب الكعبة على انتزاع القفل القديم وأصروا على بقائه لأنه يعود الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوافق الوفد على ان يقفل على البيت الحرام بقفلين ، القفل القديم والقفل الذي قدموا به ، الا ان الحجاب وفدوا على الخليفة محتجين على رفع القفل القديم ، لأنه قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقتنع بوجهة نظرهم وامر برفع القفل الذهبي الذي كان بعث به وان يكتفى بالقفل الأول فقط ، واجاز الحجاب بأن وهبهم القفل الذهبي (٤٨) .

---

(٤٤) التاج/١٥٥ .
(٤٥) رسوم دار الخلافة / ٣٢ .
(٤٦) الاغاني ٥/٣٢٩ .
(٤٧) معجم الادباء ٦/١١٧ .
(٤٨) الذخائر والتحف / ٣٦ ، والمعرفة والتاريخ ١/٢٠٣ .

وكان المعتصم بالله يبحث عن احوال النـــاس غاية البحـــث ويتطلب في الاطلاع على امورهم (٤٩) • فقد وقع ببغداد حريق كبير عقيب انتقاله الى عاصمته الجديدة سامرا ، عرف بحريق الجمل ، ولما بلغه الخبر اعطى احمد بن ابي دواد خمسة الاف الف درهـــم وطلب اليه ان يعوض المتضررين من الناس عما اصابهم من جراء الحريق (٥٠) • واستخرج منه احمد بن ابي دواد لأهل الشاش ، وهي من بلدان ما وراء النهر ، الفى الف درهم لكري نهر اندفن في صدر الاسلام فأضر ذلك بالمزارعين هناك ، فساعدتهم هبـــة المعتصم بالله على احياء النهر (٥١) • وكانت مدينة الرملة تسقى من آبار نظمت فيها قنوات للمياه ، ينفق عليها الخلفاء من بـــاب البر والاحسان ، فأمر المعتصم بالله ان يعتبر ما تحتاجه من اموال لا دامتها وضمان الماء للناس من النفقات العامة ، فادخلـــت فـــي سجل النفقات بحيث صارت نفقتها جارية يقوم بهـــا العمـــال سنويا(٥٢) • مما يؤمن استمرار تدفق المياه في القنـــوات • كما كانت بئر زمزم في مكة المكرمة مكشوفة الأقبة صغيرة على موضع البئر في ركنها الذي يلي باب الصفا • فغيرها محمد بـــن فـــرج الرخجي في سنة ٢٢٠هـ بأمر المعتصم بالله ، وانفق عليهـــا مالا جزيلا ، فسقف البئر كلهـــا بالســـاج المذهـــب مـــن الداخـــل ، وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء ، واشرع لهـــا جناحـــا صغيراً جعل فيه سلاسل تحمل قناديل للاضاءة (٥٣) •

---

(٤٩) آثار الاول / ٨٦ •

(٥٠) تفصيل الخبر في نشوار المحاضرة ١٨٧/٦ ، وفي اخبار بطاركة كرسي الشرق لماري بن سليمان / ٧٧ •

(٥١) الطبري ١٢١/٩ •

(٥٢) مختصر البلدان / ١٠٢ •

(٥٣) الاعلاق النفيسة / ٤٣ ، والمعرفة والتاريخ ٢٠٤/١ •

٤ ـ الخليفة المثمن :

أولع قدامى المؤرخين بوصف الخليفة المعتصم بالله بالمثمن . وذلك لما فيه من نسبة لرقم الثمانية ، من عمره وتسلسله بين اخوانه وخلافته وعدد اولاده · وقد جمع صاحب العيون والحدائق هذه النسب بقوله ، « هو المثمن من اثنتى عشرة وجهة ، فهو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ، وتوفى وله ثمان واربعون سنة ، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن ، وخلف ثمانية ذكور وثماني بنات ، وغـزا ثماني غزوات ، وخلف ثمانمائة الف دينار عينا وثمانية الف الف درهم ورقا (٥٤) · ويظهر انه نسي جهة ، كما ان بعض ما ذكره لا يتفق والحقيقة ، فان المعتصم بالله لم يكـن الثامن مـن ولـد العباس ، وانما السابع منهم الا انه الثامن من خلفائهم ، وانه لم يخلف هذا العدد من البنين والبنات ، فقد خلف من الذكور ستة فقط هم : هارون وجعفر ومحمد واحمد وعلى والعباس (٥٥) ·

وما ذكره الطبري وابن الأثير في هذا الباب لا يتعدى ما اورده صاحب العيون والحدائق (٥٦) · الا ان ابا المحاسن يضيف الى ذلك : ومن الخيول ثمانين الف رأس ، ومن الجمال ثمانين الف جمل وبغل ودابة ، وثمانين الف خيمة ، وثمانية الآلاف عبد وقيل ثمانيـة عشر الفاً ، وثمانية الاف جارية ، وعمر من القصور ثمانية (٥٧) · ويضيف جلال الدين السيوطي الى ما ذكره من سبقه من المؤرخين : وملك ثماني عشرة ومولده ثمان وسبعون ، وطالعه العقرب وهو ثامن بـرج ، وقتل ثمانية اعداء ، ومات لثمان بقين مـن ربيـع الأول (٥٨) · وغير خاف ان بعض ما ذكره يجانب الواقع ·

---

(٥٤) العيون والحدائق ٣/٤٠٩ ، وجاء فى التنبيه والاشراف / ٣٠٧ ، والعبر ٤٠١/١ والفخري / ٢٠٩ انه خلف ثمانية الف الف دينار ·

(٥٥) تاريخ اليعقوبي ١١٩/٩ ، والكامل ٥٢٤/٦ ·

اما المسعودي فيضيف الى ما ذكره صاحب العيون والحدائق ثمانية فتوح عظام منها اسر بابك ، والمازيار بن قارن ، واسره البوارج ، وهي مراكب هندية والظفر برؤسائها وابطال مقاتلتها ، واخلاؤه الزط من البطائح ، وقتله جعفر بن مهرجش الكردي ، هزيمته تيوفيل ملك الروم وفتح عمورية(٥٩) • كذلك عدد له ابن دحية ثمانية فتوح عظام واعتبر الفتح الثامن قتله الأفشين لما واطأ بابك الخرمي (٦٠) • ولكن ابن الفقيه يقول : وللمعتصم بالله ست فتوح عظام جليلة هي : قتل مازيار ، واسر بابك وقتله ، وفتح عمورية ، واستباحة الزط حيث اجتث اصلهم ، وقتله جعفر الكردي ، وما كان من شق الهند على يد عمر بن النعتل(٦١) •

وحتى الشعراء لم يستغنوا عن هذه الصفة في مدحه او هجائه • فقد جاء في احدى مدائح ابي تمام للمعتصم بالله قوله(٦٢) :

بالقائم الثامن المستخلف اعتدلت
قواعد الملك ممتداً لها الطول

بيمن معتصم بالله لا اود
بالملك مذ ضم قطريه ولا خلل

---

(٥٦) الطبري ٩/١١٩ ، والكامل ٦/٥٢٤ •
(٥٧) النجوم الزاهرة ٢/٢٥١ ، واحسبه نقل ذلك من العبر ١/٤٠١ الذي يضيف : ووقف في خدمته ثمانية ملوك •
(٥٨) تاريخ الخلفاء /٣٣٤ •
(٥٩) مختصر كتاب البلدان /٥٢ـ٥٣ •
(٦٠) النبراس / ٧٣ •
(٦١) مختصر كتاب البلدان / ٥٢ـ٥٣ •
(٦٢) القصيدة في ديوان ابي تمام ٣/٥ـ٢٨ •

وهجاه دعبل الخزاعي منكراً عليه تسلسله بين خلفاء بني العباس(٦١) بقوله :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا في ثامن منهم الكتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة
غداة ثووا فيه وثامنهم كلب

من الغريب حقاً ان تكون للمعتصم بالله هذه العلاقة برقم الثمانية ، بحيث انها لفتت انظار من ارخوا له او كتبوا عنه • وان كان قسم مما ذكروه غير دقيق ولا يخلو من المبالغة ، بل يجانب الحقيقة احيانا • فان اليعقوبي وهو اقدم من ذكرنا من المؤرخين يقول ان عمره تسع واربعون سنة ، وانه خلف من الذكور ستة ، ذكرناهم آنفاً ، كما انه من المتفق عليه انه توفى لثماني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وان هناك اختلافا في سنة ميلاده ، مما يجعل نسبة الثمانية الى هذه الامور غير صحيحة • اما ما ذكروه عن تركته من الاموال والمتاع والجواري والعبيد والدواب فان اغلبه من باب التخمين ، ولا يخلو من المبالغة • كما ان اعتبار المسعودي وابن دحية وابن الفقيه ما اشاروا اليه من انتصارات المعتصم بالله فتوحات عظام ، مبالغ فيه ايضا • فاذا كان اسر بابك والقضاء على الخرمية ، وغزو بلاد الروم وفتح عمورية ، فتحين عظيمين حقاً تما على عهد المعتصم بالله ، فان الانتصارات الاخرى

(*) تاريخ الخلفاء / ٣٣٥ ، وديوان دعبل الخزاعي /٥١-٥٣ وفيه كامل القصيدة •

التي ذكرت لا تعدو ان تكون مجرد اخماد حركات تمرد داخلية او حملات غزو اعتيادية او لرد عدوان ، مما لا يتطلب سوى حركات عسكرية موضعية ضيقة النطاق ، محدودة النتائج ، ومن ثم فانها لم تكن فتوحات عظيمة •

ان الفتح العظيم في الهند كما وصفه ابن الفقيه بانه شق الهند وظفر بمراكبها ورؤسائها وابطال مقاتلتها ، لم يحظ باهتمام المؤرخين • اذ انهم لا يذكرون عنه الا القليل • ويظهر مما ذكروه ان حملة من المراكب الهندية غلبت على جزء من ساحل الخليج العربي الشرقي وعُمان ونواحي البصرة ، اي انها توغلت في الخليج العربي حتى نواحي البصرة • فوجه المعتصم بالله القائد عمر بن الفضل الذي استطاع ان يقطع على الحملة خط الرجعة ويأسر افرادها (**) • مما شجع الحملة العربية على تغزو قسما من السواحل الغربية للهند • وليس من الواضح ما اذا كانت الحملة المذكورة من المراكب الهندية عسكرية منظمة تبغي الفتح والاستيلاء ، ام انها كانت تحمل عدداً من المهاجرين الى السواحل المذكورة ، كما سبق ان هاجرت اقوام من الزط الى جنوبي العراق ، وان كان سير الحوادث يؤيد الافتراض الثاني •

ويذكر خليفة بن خياط ما يدل على ان السواحل الغربية للهند كانت هدفا لغزوات يشنها الجيش العربي والمطوعة في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله • فقد جاء في حوادث سنة (٢٢٦هـ) ان احمد بن عبدالله بن الحسن قد غزا بحر البصرة ، وعندما عزل احمد المذكور وعين بدلا عنه احمد بن رباح ارسل ابراهيم بن هاشم لغزو البحر المشار اليه في سنتي ٢٢٨هـ و٢٢٩هـ ، وكذلك قام بغزوه في سنة ٢٣٠هـ وبلغ ادنى بلاد

(**) النبراس / ٧٣ •

سرشت فاحرق قراها واصاب سبياً • كما يذكر في اخبـــار السنة ٢٣١ﻫ ان مراكب المطوعة في بحر البصرة كسرت في المنطقة الواقعة بين جنابة وسينيز واصيب فيها ناس من المطوعة (٦٣) •

ويشير البلاذري عند بحثه فتوح السند ان حملة من الجيش العربي وصلت في عهـد الخليفة المهـدي الى الحـدود الهنـدية الشمالية الغربية ، وافتتحت بعض المدن • وان هذه الفتوحـــات استمرت في عهد الخليفة المأمون ، اذ كان الفضل بن ماهان قد غلب على بعض مدن السند وبعث الى الخليفة بفيل ، ودعا له في مسجد جامع بناه هناك (٦٤) • ولما مات الفضل قام ابنه مقامه فغزا المدن المجاورة • ثم غلب عليه اخوه ماهان بن الفضل وكتب الى الخليفة المعتصم بالله واهدى اليه ساجا لم ير مثله عظماً وطولا (٦٥) •

وكان المأمون قد عين موسى بن يحيى على المناطق المفتوحة في السند ، وعندما مات استخلف ابنه عمران بن موسى ، فأقره الخليفة المعتصم بالله على ولايته • وقد تغلب عمران على القيقان واغلبهم من الزط ، وبنى مدينة سماها البيضاء واتخذه عسكراً لجنده • ثم استولى على مدينة قندبيل ، وهي مدينة جبلية جنوبي القيقان • وعندما وقعت العصبية بين النزارية واليمانية مال عمـــران الى اليمانية فوثب عليه عمر بن عبدالعزيز الهباري وقتله غيلة (٦٦) •

---

(٦٣) تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥١٨ـ٥٢٠ ، وخبابة وسيتيز من موانئ الساحل الشرقي للخليج العربي •

(٦٤) فتوح البلدان / ٤٣٢ •

(٦٥) نفس المصدر / ٤٣٣ •

(٦٦) فتوح البلدان / ٤٣٢ •

وواضح ان ما اشرنا اليه من فتح بلاد السند لا يمكن اعتباره من الفتوحات العظيمة ٠

على ان من عجيب احوال المعتصم بالله ، كما يقول صاحب الذهب المسبوك ، ان اباه هارون الرشيد جعل ولاية العهد في ثلاثة من اولاده : محمد الأمين وعبدالله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، ولم يعينه معهم ، فلم يكن من نسلهم خليفة ، وساق الله تعالى الخلافة اليه والى عقبه (٦٧) ٠ ويقال ان الرشيد حجب الخلافة عنه لكونه قليل التعلم (٦٨) ٠

٥ ـ وفاته :

تكاد المصادر تتفق على ان وفاة المعتصم بالله كانت في يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول من سنة ٢٢٧هـ(٦٩) ٠ وقد اشار الشاعر مروان بن ابي الجنوب الى ذلك بقوله : (٧٠)

ابو اسحاق مات ضحى فمتنا
وامسينا بهارون حيينا
لئن جاء الخميس بما كرهنا
لقد جاء الخميس بما هوينا

اما سبب وفاته فقد ذكر انه احتجم في اول يوم من المحرم ، واعتل عندها ٠ ويقول القفطي ان ابن ماسويه الطبيب الذي تولى

(٦٧) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ ٠
(٦٨) تاريخ الخلفاء / ٢٩١ ٠
(٦٩) الطبري ١١٠/٩ ، والعيون والحدائق ٤٠٩/٣ ، ومروج الذهب ٦٥/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٨/٢ ، والكامل ٥٢٤/٦ ٠
(٧٠) الطبري ١٢٠/٩ ٠

الاشراف على صحة المعتصم بالله بعد موت طبيبه الخاص سلمويه بن بنان ، قد خالف طريقة سلمويه في فصد المعتصم بالله ، اذ يقول : كان المعتصم قوياً وكان سلمويه يفصده في السنة مرتين ، ويسقيه عقب كل فصد دواء ، فلما باشره يوحنا بن ماسويه اراد عكس ما كان يفعله سلمويه ، فسقاه الدواء قبل الفصد ، فلما شرب الدواء حمى دمه وحم ، وما زال جسمه ينقص حتى مات (٧١) .

وعندما اشتدت علته وحضرته الوفاة جعل يقول : ذهبت الحيل ليست حيلة ، وقيل انه جعل يقول : أؤخذ من بين هذا الخلق (٧٢) . وحكى عنه انه قال : لو علمت ان عمري قصير ما فعلت ما فعلته ، يعني قتل العباس بن المأمون (٧٣) . ويذكر السيوطي عدة عبارات اخرى رويت عن المعتصم بالله لما احتضر ، فيقول انه قال « حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة » (٧٤) ، وقيل انه قال : اللهم انك تعلم أني اخافك من قبلي ولا اخافك من قبلك ، وارجوك من قبلك ولا ارجوك من قبلي (٧٥) . ويقول ابن الطقطقي انه لما مرض مرضته التي مات فيها نزل في سفينة ومعه زنام الزامر فجعل يمر على قصوره وبساتينه بشاطىء دجلة ، وطلب الى زنام ان يزمر له هذا اللحن : (٧٦)

يا منزلا لم تبل اطلاله الخ .. وقد سبق ان اشرنا الى ذلك في فصل آخر . وكانت وفاته في سر من رأى وبها دفن في قصره

---

(٧١) تاريخ الحكماء / ١٣٠ .

(٧٢) الطبري ١١٩/٩ .

(٧٣) العيون والحدائق ٤٠٩/٣ .

(٧٤) سورة الانعام ـ الآية : ٤٤ .

(٧٥) تاريخ الخلفاء / ٣٣٦ .

(٧٦) الفخري / ٢١٢ .

المعروف بالجوسق على دجلة . وقد صلى عليه قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، وكان المعتصم بالله اوصاه بالصلاة عليه (٧٧) .

وهناك اختلاف في تاريخ مولد المعتصم بالله ، فيذكر الطبري ان مولده كان في شعبان من سنة ١٨٠هـ ، ثم يستدرك فيقـــول : وقيل في سنة ١٧٩هـ(٧٨) . ويؤيد كل من المســـعودي والخطيب البغدادي التاريخ الذي ذكره الطبري اولا ، ويضيف المسعودي ان مولده كان في قصر الخلد ببغداد (٧٩) . اما السيوطي فيذكر انه قد ولد في سنة ١٧٨هـ (٨٠) . وقد ترتب على هذا الاختـــلاف ، اختلاف في مقدار عمره . فيقول الطبري ان عمـــره كـــان ستا واربعين سنة وسبعة اشهر وثمانية عشر يوماً ، او سبعا واربعين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما . ويرى كل الخطيب ومســكويه ومؤلف كتاب العيون والحدائق ان عمره كان ثماني واربعين سنة . اما اليعقوبي فيقول ان سنه كانت ٤٩ سنة . ويقول الذهبي انـــه توفى عن سبع واربعين سنة . بينما يرى الدينوري انه بلغ من العمر تسعا وثلاثين سنة ، وهو واهم ولاشك . ويرى المسعودي انه مات عن ٤٨ سنة وقيل : ٤٦ سنة (٨١) . وكانت مدة خلافته ثماني

---

(٧٧) الاخبار الطوال / ٣٤٢ .

(٧٨) الطبري ١١٩/٩ .

(٧٩) مروج الذهب ٦٤/٤ ، وتاريخ بغداد ٣٤٢/٣ .

(٨٠) تاريخ الخلفاء / ٣٣٣ .

(٨١) الطبري ١١٩/٩ ، وتاريخ بغداد ٣٤٢/٣ ، وتجـارب الامـم ٥٢٧/٦ والعيون والحدائق ٤٠٩/٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٨/٢ ، والعبر ٤٠١/١

سنوات وثمانية اشهر ، وقال وزيره محمد بن عبدالملك الزيات يرثيه ويهنيء ابنه الواثق بالله (٨٢) :

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت
عليك أيد بالترب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد
نيا ونعم الظهير للدين

لا جبر الله امة فقدت
مثلك الا بمثل هارون .

* * *

(٨٢) الطبري ٩/١١٩ ، والاخبار الطوال /٣٤٢ ، ومروج الذهب ٤/٦٣-٦٤ .

الفصل الثالث

الواثــق بالله

ابو جعفر هارون بن المعتصم بالله

١ ــ مبايعته :

مات المعتصم بالله ولم يكن قد عهد لابنه هارون بالخلافة ٠ الا ان هارون كان اكبر اخوته الستة ، وان المعتصم بالله لما خرج الى القاطول في سنة ٢٢٠ هـ للبحث عن موقع يبني فيه مدينة لجنده الاتراك ، استخلفه ببغداد (١) ٠ ولما خرج في سنة ٢٢٣ هـ في حملته على بلاد الروم دفع خاتمه اليه واقامه مقام نفسه واستكتب لــه سليمان بن محمد بن عبدالملك الزيات (٢) ٠ وقــد اعتبــر بعض المؤرخين ذلك اشارة الى عهد المعتصم بالله بالخلافــة الى هــارون ٠ ويقول السيوطي انه ولى الخلافة بعهد من ابيه (٣) ٠ وقد خلــت المصادر الأولية عن اشارة واضحة الى ذلك ٠

---

(١) الكامل ٦/٤٥٢ ٠
(٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٣٨ ٠
(٣) تاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ٠

بويع هارون في سامرا غداة وفاة ابيه في يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ ولقب بالواثق بالله ٠ فتوجه اسحاق بن ابراهيم نائب الخليفة ببغداد ، من فوره الى بغداد فوصلها قبل طلوع الفجر ، واتخذ ما رآه ضرورياً من اجراءات المبايعة ، فاحضر القواد والوجوه واخذ عليهم البيعة للواثق بالله (٤) ٠

ويفهم مما جاء في تاريخ بغداد وخلاصة الذهب المسبوك ان اسحاق بن ابراهيم كان ببغداد وجاءه نعي المعتصم بالله في اليوم الثاني من وفاته ، اي في يوم الجمعة ، فلم يظهر النبأ ، وخطب في ذلك اليوم على منابر بغداد للمعتصم بالله وهو ميت(٥) ٠ وفي اليوم التالي طلب اسحاق الى الامراء الهاشميين والقواد والاعيان الحضور الى دار الولاية ، فلما اجتمعوا نعى اليهم المعتصم بالله واخذ عليهم البيعة لهارون الواثق بالله ، فتمت بذلك مبايعته (٦) ٠

ونقش الواثق بالله على خاتمه عندما اصبح خليفة « الله ثقة الواثق » (٧) ٠ ويقال انه نقش عليه « محمد رسول الله » ، وانه كان له ختم آخر نقش عليه « الواثق بالله » (٨) ٠

---

(٤) تاريخ اليعقوبي ٤٧٩/٢ ٠
(٥) تاريخ بغداد ١٦/١٤ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ ٠
(٦) جاء في الطبري ١٢٣/٩ انه بويع يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الاول ، الا انه سبق ان ذكر في ص : ١١٨ ان المعتصم بالله توفي يوم الخميس الثاني عشر من ربيع الاول ٠
(٧) التنبيه والاشراف / ٣٢٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ ٠
(٨) العقد الفريد ١٢٢/٥ ٠

لقد استطاع المعتصم بالله ان يقضي على ثورة بابك الخرمي التي كانت قد استفحل امرها وشغلت خلفاء بغداد ما يقرب من خمسة عشر عاما ، وان يشتت شمل قبائل الزط التي عاثت في البلاد فساداً ، وان يكسر شوكة الدولة البيزنطية ويهدد القسطنطينية بفتحه عمورية وكثير من الحصون الرومية ، ويقضي على حركة الأفشين والمازيار الانفصالية • وبذلك هيأ لابنه الواثق بالله عهداً من الهدوء والاستقرار نعمت به ارجاء الدولة العربية طيلة حكمه ، سوى بعض حركات التمرد الموضعية • وكان من المنتظر ان يستأنف الواثق بالله غزو بلاد الروم ويقضي على الدولة البيزنطية المرهقة والتي بان ضعفها عندما هاجمها ابوه • الا انه كان بطبيعته فنانا يعشق الشعر والموسيقى والغناء ، ويميل الى الآداب والعلوم والمناقشة في المجالس العلمية والادبية ، ويؤثر حياة الدعة والهدوء • فانصرف الى اللهو والشعر والغناء والمجالس ، وساعد على ازدهار الحالة الاقتصادية •

اما من الناحية السياسية فقد انتهج خطة عمه المأمون في سياسة التسامح واللين مع العلويين ، والدفاع عن حرية الرأى ومناصرة المعتزلة ، الا انه في الناحية العسكرية اتبع سياسة ابيه في الاعتماد على الجند الاتراك الذين ازداد نفوذهم على عهده ، وتوسع سلطانهم وتدخلهم في شؤون الدولة • مما كان له اثر مهم في اضعاف الخلافة خاصة والدولة العربية بصورة عامة • اذ انصرف هؤلاء الى العمل على تطمين مصالحهم وتأمين ارزاق جندهم غير مبالين بمصلحة الخلافة والدولة ، بل انهم استغلوهما لتحقيق غاياتهم • وسنشير الى نتائج هذه السياسة وتأثيرها في الفصل الخاص بالنزاع بين الخلفاء والجند الاتراك •

ومع كل ما تقدم يمكن القول ان ايام الواثق بالله التي دامت خمس سنوات ونصف السنة ، كانت عهد سلام وهدوء لا يشوبها سوى تعسفه بأمر المحنة وامتحان الناس بخلق القرآن ، وبعض الاضطرابات الداخلية التي سرعان ما كان يقضي عليها ·

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد الواثق بالله بطريق مكة (٩) ، لعشر بقين من شعبان سنة ١٩٦هـ(١٠) · ومما يؤيد صحة تاريخ مولده هذا ان المسعودي يقول ان عمره كان يوم بويع بالخلافة احدى وثلاثين سنة وبضعة أشهر (١١) · وامه ام ولد رومية اسمها قراطيس (١٢) · وقد توفيت وهي في طريقها الى مكة في اوائل ذى القعدة من اولى سني حكمه ، ودفنت في الكوفة في دار داود بن عيسى (١٣) ·

يتقارب المؤرخون في وصف الواثق بالله بأنه كان ابيض اللون تعلوه صفرة جميلا ، قائم العين اليسرى وفيها نكتة بياض · الا ان المسعودي وابا المحاسن يقولان ان نكتة البياض في عينيه الاثنتين · وينفرد صاحب الذهب المسبوك بان النكتة في عينه اليمنى · كما ينفرد المسعودي بانه كانت تعلوه حمرة (١٤) ، بدل الصفرة ·

---

(٩) الطبري ١٥١/٩ والكامل ٣٠/٧ ·

(١٠) العقد الفريد ١٢٢/٥ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ·

(١١) مروج الذهب ٦٥/٤ ·

(١٢) الطبري ١٢٣/٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٣ ·

(١٣) الطبري ١٢٣/٩ ·

(١٤) التنبيه والاشراف / ٣١٣ ، وتجارب الامم ٥٣٥/٦ ، والعبر ٤١٢/١ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٤٣ ، والنجوم الزاهرة ٢٦٣/٢ ·

وعرف عن الواثق بالله انه كان يتشبه بعمه المأمون في كثير من اخلاقه • ويقول ابن الطقطقي انه كان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته (١٥) • ويعلل صاحب خلاصة الذهب المسبوك ذلك بأن المأمون هو الذي رباه فتقبل افعاله (١٦) • اي انه تأثر به واقتدى بافعاله • ويكاد يجمع من كتب عنه من المؤرخين القدامى انه كان من افاضل خلفاء بني العباس ، كثير المعروف ، واسع العطاء ، سهل الانقياد ، محببا الى الرعية (١٧) • دخل عليه مؤدبه هارون بن زياد يوما فأكرمه واظهر من بره به ما يلفت النظر ، فقيل له : من هذا يا امير المؤمنين الذي اكرمته كثيراً ؟ قال : هذا اول من فتق لساني بذكر الله وادناني من رحمة الله عزوجل (١٨) • وكتب اليه محمد بن حماد بيتين من الشعر هما (١٩) :

جذبت دواعي النفس عن طلب الغنى
وقلت لها عفي عن الطلب النزر

فان أمير المؤمنين بكفه
مدار رحى الارزاق دائبة تجري

فوقع الواثق بالله : جذبك نفسك عن امتهانها دعا الى صونك بسعة فضلي عليك ، فخذ ما طلبت هنيئاً •

---

(١٥) الفخري / ٢١٥ •
(١٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •
(١٧) مروج الذهب ٤/٣١٩ ، والفخري / ٢١٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٦٣ •
(١٨) تاريخ بغداد ١٤/١٧ •
(١٩) نفس المصدر •

ولعل ابرز ما اتصف به الواثق بالله من الاخلاق الحميدة انه كان واسع الحلم كثير التسامح • فلم يكن في الخلفاء احد احلم منه ولا أصبر على اذى (٢٠) • وهناك اخبار تدل على سعة حلمه وميله الى التسامح • فقد كان يعجبه سماع المغني ابي حشيشة الطنبوري ، فوجد المسدود المغنى عليه من جراء ذلك • فهجاه في بيتين من الشعر كتبهما في رقعة كانت معه ، وكان كتب على رقعة اخرى حاجة يريد ان يرفعها اليه ، فأخطأ وناوله رقعة الشعر بدلا عنها ، فقرأها الواثق بالله وكان فيها :

من المسدود في الانف
الى المسدود في العين

انا طبل له شق
فيا طبلا بشقين

فعلم انها فيه ، فقال للمسدود : خلطت بين الورقتين ، فهات الاخرى وخذ هذه ، واحترس من مثل هذا ، ولم يزد على ذلك شيئاً (٢١) • وعندما غضب الواثق بالله على المغني المذكور ونفاه الى عمان ، ثم عفا عنه وكتب في اعادته الى سامرا ، نصحه بان لا يعاود ممازحة خليفة وان اذن له ، وقال له : فليس كل احد يحضره حلمه كما حضرني فيك (٢٢) •

وبلغ من تسامحه ان ابنة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في الشام ، لما دخلت عليه واستعطفته امر برد اموالها

(٢٠) الاغاني ٢٠/٢٩٠ ، والهفوات النادرة / ١٨ •
(٢١) الاغاني ٢٠/٢٩١ ، والهفوات النادرة / ١٨-١٩ •
(٢٢) الاغاني ٢٠/٢٩٠ •

عليها وبالغ في الاحسان اليها (٢٣) • وكان ابن الزيات قد امر يحبس احد كبار الكتاب هو سليمان بن وهب في خلافة الواثق بالله ، وكان سليما آيساً من الفرج • فوردت عليه رقعة من اخيه الحسن بن وهب تخفف من جزعه وتوصيه بالصبر ، فاجاب بما يدل على التفاؤل • فوقعت الرقعتان بيد الواثق بالله ، فأمر باطلاق سليمان وقال : والله لا تركت في حبسي من يرجو الفرج ولاسيما من خير مني ، فاطلقه على كره من ابن الزيات (٢٤) •

وعُرف عن الواثق بالله شدة رعايته لافراد عائلته من العباسيين ، وابناء عمومته من العلويين فكان باراً بهم لا يرد طلباتهم ، ويعاونهم في حل مشاكلهم • على ان رعايته هذه لم تقتصر على ذوى قرباه ، بل شملت رعاياه كافة • فقد كان واسع المعروف ، متفقداً شؤون الرعية (٢٥) • يتفقد احوال الناس ولا يبخل بمساعدتهم مالياً ، والعمل على ما فيه صلاحهم • اذ كان حسن التفكير في صلاح الرعية ، كما يقول صاحب خلاصة الذهب المسبوك (٢٦) • يقول اليعقوبي : فرق الواثق بالله اموالا جمة بمكة والمدينة وسائر البلدان ، وعلى الهاشميين وسائر قريش ، والناس كافة ، وقسم في بغداد قسما كبيرة مرة بعد اخرى ، على اهل البيوتات وعامة الناس (٢٧) •

وقال الواثق بالله يوما لقاضي قضاته ، وقد ضجر بكثرة حوائجه : لقد اخليت بيوت الاموال بطلباتك للائذين بك

---

(٢٣) المستطرف ١/١٨٩ •
(٢٤) الفرج بعد الشدة ١/١٨٦ ـ ١٨٨ •
(٢٥) مروج الذهب ٤/٦٦ •
(٢٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٤ •
(٢٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ •

والمتوصلين اليك • فقال : يا امير المؤمنين ، نتائج شكرها متصل بك ، وذخائر اجرها مكتوب لك ، ومالي من ذلك الا عشق الألسن لخلود المدح فيك • فقال : يا ابا عبدالله ، والله لا منعتك ما يزيد في عشقك وتقوي به منتك ، وامر فاخرج اليه ثلاثون الف دينار يصرفها في الزوار (٢٨) •

اننا قد نستنكر بمفاهيمنا الحالية مثل هـذا الموقـف مـن الخليفة ، وهو رئيس الدولة الاعلى والمسؤول شرعا عن امـور رعيته كافة ، ونرى توجيه قاضي قضاته اياه من باب الاستعطاف والتوسل • الا اننا اذا اخذنا مقاييس عصر الواثق بالله بنظـر الاعتبار وعلمنا ان اموال بيت المال هي صافي ايرادات الدولة بعد ان حسمت منها النفقات المحلية في كل ولاية واقليم بحيـث لا يترتب على بيت المال من النفقات سوى نفقات الخليفـة على بلاطه وحرسه وحاشيته وآل بيته ، ومـا ينفقـه على مجالسـه وملاهيه • ولذلك فان اطلاق بعض الاموال لاسـعاف المحتاجـين ومساعدة المعوزين انما يعتبر تبرعا من الخليفة ومعونة منـه • وان انفاقه بعض الأموال في هذه الاغـراض دليـل على مـدى عنايته بشؤون الامة • اذ كان باستطاعته انفاقهـا على ملذاتـه الخاصة كشراء الجواري وتشييد القصور المترفة ، ومنح مادحيه من الشعراء ، وامثال ذلك •

وكان الواثق بالله اديبا فنانا مولعا بالشعر والغناء والتلحين متتبعا اخبار الأولين ، وسنشير الى شعره واهتمامه بالغناء عنـد الكلام على مجالسه العلمية والادبية والغنائية •

---

(٢٨) المحاسن والمساوىء / ٤٣٩ •
(٢٩) التاج / ١٢٠ •

جاء في كتاب التاج عند الكلام على امارات الخلفاء لجلسائهم بالانصراف ، ان الواثق بالله كان اذا اراد ان يصرف جلساءه وسماره تثاءب ومس عارضيه (٢٩) • وعند ذكر عادات الخلفاء في الشرب واللباس ، اشار الى ان الواثق بالله ربما ادمن على الشرب وتابعه ، غير انه لم يكن يشرب في ليلة الجمعة ولا في يومها (٣٠) • وهو بذلك يشبه اباه المعتصم بالله ، وربما كان يقلده في مواعيد شربه • وكان الواثق بالله اذا شرب وسكر رقد في موضعه الذي سكر فيه ، ومن سكر من ندمائه ترك في مكانه ولم يخرج (٣١) • ويظهر ان الواثق بالله كان مثل ابيه ايضا في عنايته بلبسه ، فهو لا يلبس القميص الا لبسة واحدة ، الا اذا كان نادرأ غريبا ، او كان معجبا به (٣٢) • وكان شديد العناية بالعطر وبخاصة عطر الغالية ، اذ كان يحفظها ليتقادم عهدها فيجود نوعها وتزكو رائحتها (٣٣) •

٣ ـ رجال الدولة في عهد الواثق بالله :

يذكر المسعودي في مطلع بحثه عن خلافة الواثق بالله خبرا يرويه عن الشاعر ابي تمام الطائي • خلاصة ما جاء فيه (٣٤) : ان ابا تمام كان قصد سر من رأى في اول يوم خلافة الواثق بالله ، فلقيه اعرابي قريبا منها • فاستطلع ابو تمام منه عما يعرف عن الخليفة وعاصمته ورجال دولته البارزين وعن عسكره • فاجاب الاعرابي

---

(٣٠) نفس المصدر / ١٥٣ •

(٣١) العقد الفريد ٦/٦٠ ، والمستطرف ٢/١٥٥ •

(٣٢) التاج / ١٥٤ •

(٣٣) نشوار المحاضرة ١/٢٨٩ •

(٣٤) مفصل الخبر في مروج الذهب ٤/٦٦ـ٦٨ •

واصفا الواثق بالله ورجاله كلا بما هو مشهور عنه ، وادعى بسعة معرفته بعاصمة الخلافة ، وعلاقته المتينة باهلهـــا وعسكرها • وينتهي الخبر بشهادة الاعرابي بأن ابا تمام اشعر اهل زمـــانه • ويظهر ان هذا هو بيت القصيد من الخبر •

ويلاحظ ان المسعودي يؤيد صحة ما اشتمل عليه الخبر من صفات ونعوت اسبغها الاعرابي على الخليفة وعلى رجال عهده الا انه يشك في صحة روايته • فهو يرى ان كان ما رواه ابو تمام صحيحا فان الاعرابي قد احسن الوصف ، وان كان ابو تمام هو الذي صنع الخبر وعزاه الى هذا الاعرابي فانه مقصر في نظمه لأنه دون منزلته الأدبية • ولما كان من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل على شخص بدوي بعيد عن حياة المدن وعن الاتصال بالخليفـــة ورجال دولته ، ان يلم بمثل هذه التفصيلات عنهم وعن اعمالهـم وعن اراء الناس فيهم • ولذلك فهو يرجح ان ابا تمام وضع هذا الخبر ، فعمد الى وصف الخليفة ورجاله بطريق الرواية عن غيره ، ليكون بمنأى عن غضب ونقمة من وصفهم بسوء •

لقد وصف الخليفة بأنه وثق بالله فكفـــاه اشجى العاصية ، وعدل في الرعية ، ورغب عن كل ذي جناية • وقال عن احمد بن ابي دواد انه هضبة لا ترام وجبل لا يضام ، تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل حتى اذا قبل هلك ، وثب وثبة الذئب وختـــل ختلة الضب • وابن ابي دواد هذا هو قاضي القضاة • وكان المأمون قد اكتشف فيه سعة العلم وحدة الذكاء ونضج الرأي ، وقد غدا في عهد المعتصم بالله الرجل الأول في الدولة بعد الخليفة ، واحتفــظ بمركزه المرموق في ايام الواثق بالله • ويُظهر الخبر انه كانت تحاك ضد ابن ابي دواد كثير من المكائد فيتغلب عليها •

وقال عن الوزير محمد بن عبدالملك الزيات انه وسع الداني شره ووصل الى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب • لقد كان ابن الزيات سياسيا ماهراً واداريا قديراً، الا انه كان حقودا قاسيا لا يرحم ، اذا رأى آثر نعمة على احد سعى لازالتها ونكبة صاحبها وهذا ما يؤكده الخبر •

اما عن عمر الرخجي فقال انه ضخم نهم ، استعذب الدم ، ينصبه القوم ترسا للوغى • وكان الرخجي هذا من كبار الكتاب ، كتب للمأمون • وتولى في عهد الواثق بالله ديوان النفقات ، وكان نهماً سيء السيرة ، مما اضطر الخليفة ان يعين رقيبا على اعماله • وقال عنه القاضي ابن ابي دواد : ما صحب السلطان أرجل ولا اخبث من عمر بن فرج الرخجي (٣٥) •

ووصف الفضل بن مروان بأنه رجل نبش بعدما قبر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خفقة الموتى • وهو يصفه بعد خروجه من السجن ذليلا ، اذ كان المعتصم بالله قد اقصاه عن الوزارة واستصفى امواله وامر بسجنه •

وهكذا يستمر في وصف ابي الوزير احمد بن خالد ، والأخوين سليمان والحسن ابني وهب ، وابراهيم بن رباح ، واحمد بن الخصيب ، وهم من كبار الكتاب ورؤساء الدواوين • ومهما كان الأمر فان هذا الخبر تضمن امرين مهمين ، اولهما انه يعرفنا برجال الدولة البارزين في عهد الواثق بالله ، وثانيهما انه يصفه كلا منهما بما يراه الناس فيه من صفات حسنة او سيئة ، والواقع انه ، كما يقول المسعودي ، قد احسن في وصفهم •

---

(٣٥) الفرج بعد الشدة ٤/١٧ •

٤ ـ مصادرة الكتاب :

ومما له علاقة بشؤون الرعية المبادرة الاصلاحية التي قام بها الخليفة الوانق بالله بمحاسبة كبار الكتاب في الدولة وتابعيهم على ما احرزوه من اموال لا تتناسب مقاديرها ومصادر ايرادهم المشروعة • فقد لاحظ ان اكثر المتنفذين من الموظفين كانوا يستغلون مراكزهم في حيازة الأموال وجمع الشروات بطرق غير مشروعة كالسرقة والرشوة • فحاول ان يحد من تعسفهم الناس ويمنعهم من استغلال وظائفهم • وليس من الواضح ما اذا كان الغرض من مصادرة الكتاب وحبسهم اصلاح الجهاز الاداري والمالي ، منع الرشوة ، وايقاف استغلال النفوذ ، ام مجرد احتواء الخليفة على اموال الآخرين ممن اتهموا بالاستغلال • ومهما كان الأمر فان مبادرة الخليفة الى محاسبة كبار موظفيه والضرب على ايدي المفسدين منهم بهذه الشدة لابد وانها كان لها أثر في اصلاح جهاز الدولة المالي والاداري ، وتخفيف وطأة موظفيه على الرعية • على انه يجب ان لا يغرب عن البال ان تكون هذه المصادرة بنفس الوقت عاملا يحفز الموظفين المصادرة اموالهم على تعويضها عندما تسنح لهم الفرصة بنفس اساليبهم السابقة ، بل وباساليب قد تكون اشد منها تعسفا وجوراً •

وكان السبب المباشر لغضب الواثق بالله على الكتاب انه سأل ندماءه ذات ليلة عن سبب نكبة البرامكة • فقال احدهم ان الخليفة هارون الرشيد اشترى جارية بمائة الف دينار • فاستكثر وزيره يحيى بن خالد هذا المبلغ واخبر الرشيد انه لا يقدر على هذا المال ، فغضب وقال لابد منه • فارسل يحيى المبلغ بالدراهم ليستكثره الرشيد • وبالفعل امر الرشيد برد الجارية ، الا انه

اوعز بحفظ المال ببيت مال خاص به · ثم اخذ في البحث عن الاموال فوجد ان البرامكة قد فرطوا بها · وكان اعتاد ان يحضر مجلس الرشيد احد الندماء يعرف بابي العود ، فأمر له الخليفة يوما بثلاثين الف درهم ، فماطله يحيى · فاحتال ابو العود في تحريض الرشيد عليه ، وقد شاع انه قد تغير على البرامكة ، فانشده ذات ليلة قول عمر بن ابي ربيعة :

وعدت هند وما كانت تعد
ليت هندأ انجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة
انما العاجز من لا يستبد

فلما علم يحيى بذلك حاول ان يسترضي ابا العود باعطائه المبلغ الذي امر له الرشيد به ، واضاف اليه عشرين الف درهم من عنده · الا ان الرشيد جد في امر البرامكة حتى أخذهم (٣٦) ·

فقال الواثق بالله : صدق والله جدي انما العاجز من لا يستبد · واخذ في ذكر الخيانة وما يستحقه اصحابها · ولم يمض غير اسبوع واحد حتى امر بحبس عدد من الكتاب وضربهم ، والزمهم اموالا كثيرة قارب مجموعها الفي الف دينار ، سوى ما ما اخذه من العمال بسبب عمالاتهم · وجاء في الطبري انه اخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار وامر بضربه ، فضرب فيما قيل نحوأ من الف سوط · واخذ من سليمان بن وهب اربعمائة

(٣٦) مفصل الخبر في الطبري ٩/١٢٦ـ١٢٧ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ـ٥٢٨ ، والكامل ٧/١٠ـ١١ ·

الف دينار ومن الحسن بن وهب اربعة عشر الف دينار ، واخذ من احمد بن الخصيب وكتابه الف الف دينار ، ومن ابراهيم بن رباح وكتابه مائة الف دينار ، ومن نجاح بن سلمة ستين الف دينار ، ومن ابي الوزير مائة الف دينار واربعين الف دينار (٣٧) . وذكر مثل ذلك مسكويه وابن الأثير ، سوى ان مسكويه ذكر ان مجموع ما صودر من الحسن بن وهب وابي الوزير هو مائتا الف دينار ، اي بزيادة ستة واربعين الف دينار . عما ذكره الطبري وابن الأثير(٣٨) .

اما اليعقوبي فيقول عن هذه المصادرة ان الواثق بالله رفع اليه ان احمد بن الخصيب قد حاز اموالا عظيمة فسخط عليه وقبض امواله واموال اخيه ابراهيم وعذبا وعذبت امهما ، كما ان الواثق بالله سخط على ابراهيم بن رباح الذي ولاه ديوان الضياع ، وامر بقبض ضياعه وامواله (٣٩) . ولم يذكر المبالغ التي صودرت منهم .

وقيل ان الذي دفع الواثق بالله الى القبض على احمد بن الخصيب وسليمان بن وهب ومصادرتهما انه غنى ذات ليلة هذا الصوت :

من الناس انسانان ديني عليهما
مليئان لو شاءا لقد قضياني

خليلي اما ام عمرو فمنهما
واما عن الاخرى فلا تسلاني

---

(٣٧) الطبري ١٢٥/٩ .
(٣٨) تجارب الامم ٥٢٨/٦ ، والكامل ١٠/٧ .
(٣٩) تاريخ اليعقوبي ٤٨١/٢ .

فدعا خادما لأبيه المعتصم بالله ، وقال له : انـي سمعت ابـي يتمثل بهذين البيتين وينظر اليك ، فمن اللذان كان يعني بهما ؟ فاخبره الخادم ان اباه وقف على خيانة احمد بن الخصيب وسليمان بن وهب بمبلغ من المال ، وكان يبغي الايقاع بهما ٠ فبادر الواثق بالله الى القبض عليهما (٤٠) ٠

كما قيل ان الوزير بن الزيات هو الذي حرض الواثـق بالله على نكبتهما (٤١) ٠ اذ كان قد صنع شعراً اوصله اليـه على انه لبعض الشعراء وفيه اتهام ابن الخصيب وابن وهب بالخيانة في الاموال ، وجاء فيه :

وليت اربعة امر العباد معـا
وكلهم حاطب في حبـل محتبل

هذا سليمان قد ملكت راحتـه
مشارق الأرض من سهل ومن جبل

خلافة قد حواها وحـده فمضت
احكامه في دماء القـوم والنقل

وابن الخصيب الذى ملكت راحته
خلافة الشام والغازين والقتـل

فنيل مصر فبحر الشام قد جريا
بما اراد من الاموال والحلـل

(٤٠) الاغاني ٢٠/٢٦٨ ٠
(٤١) نفس المصدر / ٢٦٩ ٠

حوى سليمان ما كان الأمين حوى
من الخلافة والتبليغ بالأمـــل

واحمد بن الخصيب في امــارته
كالقاسم بن الرشيد الجامع السيل

وفي آخر الشعر تحريض على الفتك بهما ، كما فتك هارون الرشيد بالبرامكة بعد ان اساءوا استعمال سلطتهم ، اذ جاء فيه :

سميت باسم الرشيد المرتضى فيه
قس الامور التي تنجي من الزلل

عث فيهم ما عاثت يـداه معـا
على البرامك بالتهديم للقلـل

فلما وصل الشعر الى الواثق بالله غاظه ما جاء فيه وبلغ منه ، فأمر بالقبض عليهما ٠ وكان سليمان بـن وهب كاتب القائـد التركي ايتاخ ، وابن الخصيب كاتب القائد اشناس ٠ وكانا هذان القائدان التركيان قد شددا قبضتهما على شؤون الدولة ممـا فسح المجال لكاتبيهما استغلال مركزيهما في احتواء الأموال بمختلف الأساليب ٠ ومما يدل على ان الشعر المذكور من صنع ابن الزيات ان ابراهيم بن العباس الذي تصدى لهجائه وتتبع سقطاته ، قال عندما قبض على الكاتبين المذكورين ، يخاطبه (٤٢) ٠

ايهاً ابا جعفر وللدهر كـــرا
ت وعمـــا يريـــب متسـع

---

(٤٢) الاغاني ٢٠/ ٢٧١ ٠

ارسلت ليثـا على فرائسـه
وانت منها فانظـر متى تقـع
لكنـه قوتـه وفيـك لـه
وقد نقضـت اقواته شـبع

ولما هجا علي بن الجهم الوزيران ابن الزيات بقصيدته التي كان مطلعها :

لعائن الله موفرات   مصبحات مهجرات

هم الواثق بالله بالفتك بوزيره ، الا ان اسحاق الموصلي الذي كان مقربا جداً من الخليفة شفع له ، اذ قال للواثق بالله : أمثل ابن الزيات على خدمته وكفايته يفعل به هذا ، وماجنى وما خانـك ، وانما دلك على خونة اخذت ما اختانوه ، وهذا هو ذنبه(٤٣) . فمحا بذلك ما كان في نفس الخليفة على وزيره .

ويظهر أن حبس الكتاب ومصادرتهـم قوبلت بالرضـا مـن الناس ، فقد قال أحمد بن فنن(٤٤) .

نزلت بالخائنين سـنة   سـنة للناس ممتحنـه
سوغت ذا النصح بغيته   وازالت دولـة الخونـه
وترى اهل العفاف بهـا   وهـم في دولـة حسنة

وقد تولى حبس الكتاب ومصادرتهم صاحـب حرس الخليفـة الأمير اسحاق بن يحيى (٤٥) . ويفهم من خبر اورده بن الطقطقي ان

---

(٤٣) نفس المصدر / ٢٧٢ .
(٤٤) نفس المصدر / ٢٧١ .
(٤٥) الطبري ١٢٥/٩ ، والنجوم الزاهرة ٢٥٦/٢ .

عدداً منهم لبث في السجن مطالبا بالأموال طيلة عهد الواثق بالله ٠ وهم ابن المدبر وسليمان بن وهب واحمد بن اسرائيل ٠ فلما جاءهم نبأ موت الواثق بالله هربوا من السجن ليلا (٤٦) ٠ الا ان الطبري يقول ان الواثق بالله لما امر بحبس سليمان بن وهب واخذه بمائتي الف دينار ادى منها مائة الف وسأل ان يؤخذ بالباقي عشرين شهراً فاجابه الخليفة الى طلبه وامر بتخلية سبيله ورده الى كتابة ايتاخ(٤٧) ٠ علما انه سبقت الاشارة الى ان سليمان بن وهب قد اخذ منه اربعمائة الف دينار ، مما يرجح انه قد صودر اكثر من مرة ٠

وتعتبر مصادرة الكتاب من مظاهر حكم الواثق بالله البارزة ، ويظهر انه اتخذها وسيلة لمعاقبة الكتاب والعمال ٠ الا انها اصبحت من بعد، في عهد اخيه المتوكل على الله ، مصدراً مهما من مصادر ايرادات بيت المال ٠

٥ ــ وفاة الواثق بالله :

توفي الواثق بالله بالقصر الهاروني في سامرا يوم الاربعاء لست ليال بقين من ذي الحجة من سنة ٢٣٢هـ ٠ ويتفق معظم المؤرخين على ان سبب وفاته اصابته بعلة الاستسقاء ، وانه عندما اشتدت علته حفر له في الأرض حفير كالتنور ثم سخن بالحطب الطرفاء وصير فيه مراراً ، فوجد لذلك راحة ٠ وطلب في اليوم التالي زيادة

---

(٤٦) الفخري / ٢٢٥ ــ ٢٢٦ ٠

(٤٧) الطبري ١٤٥/٩ ، والكامل ٢٩/٧ ٠

والكامل ٢٩/٧ ٠

تسخينه وقعد فيه اكثر من اليوم الأول فحمى عليه ، وحمل عنه في محفة فمات على اثر ذلك (٤٨) .

وعندما اشتد المرض على الواثق بالله ، وصل خبر مرضه الى مكة قبل موسم الحج ، فوجه واليها الى سامرا بماء زمزم وخلوق من خلوق الكعبة (٤٩) . وذلك لاستخدامها في غسل الخليفة وتجهيزه عند وفاته . وكان الواثق بالله امر قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ان يصلي بالناس يوم الأضحى ، فصلى بهم يوم العيد ، لأنه لم يقدر على الحضور الى المصلى لشدة علته ، وقد دعا ابن ابي دواد للخليفة فقال : اللهم اشفه مما ابتليته (٥٠) .

وجاء في الطبري انه لما اعتل الواثق بالله علته التي مات فيها أمر باحضار المنجمين فاحضروا ، وكان ممن حضر الحسن بن سهل والفضل بن اسحاق الهاشمي ، واسماعيل بن نوبخت، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وعامة من ينظر في النجوم . فنظروا في علته ونجمه ومولده فقالوا : يعيش دهرا طويلا ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة ، فلم يلبث الا عشرة ايام حتى مات (٥١) .

وقيل انه لما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الناس مشترك
لا سوقة منهم تبقى ولا ملك
ما ضر اهل قليل في تفاقرهم
وليس يغني عن الاملاك ما ملكوا

---

(٤٨) الطبري ٩/١٥٠ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٥
(٤٩) المعرفة والتاريخ ١/٢٠٩ .
(٥٠) مروج الذهب ٤/٨٤ .
(٥١) الطبري ٩/١٥١ .

وامر بالبسط فطويت ، والصق خده بالأرض ، وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه ، يكررها الى ان مات(٥١) ، وكان يقول في علته : لوددت اني اقلت العثرة ، واني حمال احمل على رأسي ٠ وقيل له في البيعة لابنه ، فقال : لا يراني الله اتقلدها حياً وميتاً (٥٣) ٠

وحضر عند وفاته جماعة من الهاشميين ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، واحمد بن ابي دواد ، وعمر بن فرج الرخجي ، فلم يشعروا بموته حتى ضرب بوجهه المحنة (٥٤) ٠ ويقال انه لما سجى عند وفاته وشغل المجتمعون حوله بأمر بيعة خلفه ، تسلل جرذ من البستان وأكل احدى عينيه(٥٥) ٠

ومات الواثق بالله ومجموع ما في بيت المال من العين خمسة آلاف الف دينار ومن الورق خمسة عشر الف الف درهم(٥٦) ٠ وخلف من الاولاد الذكور خمسة هم : محمد الذي تولى الخلافة بعد المعتز بالله ولقب بالمهتدي بالله ، وابراهيم ابو اسحاق ، ومحمد ابو اسحاق ، وابو القاسم عبدالله الذي التحق بابن الليث الصفار لما قتل اخوه المهتدي يالله ، وابو العباس احمد وكان عالما فاضلا ، ومن البنات اثنتان هما : العباسة وقد تزوجها المستعين بالله ، وعائشة وتزوجها المستعين بالله ايضا لما ماتت اختها (٥٧) ٠

---

(٥٢) الكامل ٧/٢٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٥٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٦٣ ٠

(٥٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ٠

(٥٤) الكامل ٧/٣٠ ، وتاريخ بغداد ١٤/٢٠ ، ونشوار المحاضرة ٢/٧٣ــ٧٤ ٠

(٥٥) الكامل ٧/٣٠ ، وتاريخ بغداد ١٤/٢٠ ، ونشوار المحاضرة ٢/٧٣ــ٧٤ ٠

(٥٦) الذخائر والتحف /٢١٨ ٠

(٥٧) العقد الفريد ٥/١٢٢ ، والذهب المسبوك / ٢٢٥ ، والكامل /٣١ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٥ ٠

وقد اختلف المؤرخون في عمره عند وفاته ، اذ يذكر اليعقوبي انه توفي وعمره اربع وثلاثون سنة ، ويتردد المسعودي فيذكر مرة ان عمره اربع وثلاثون سنة ، ومرة اخرى سبع وثلاثون سنة وستة اشهر ، ويفعل مثله الطبري وابن الأثير فيقولان كان عمره اثنتين وثلاثين سنة وقيل ستا وثلاثين سنة ، واحتسبه ابن عبد ربه ستا وثلاثين سنة واربعة اشهر وايام ، واعتبره مسكويه ستا وثلاثين سنة ، ويقول ابن دحية انه توفي وله اثنتان واربعون سنة (٥٨) . ولاشك في ان هذا الاختلاف ناشيء عن اختلافهم في تاريخ مولده . وقد سبق ان اشرنا الى ان ابن عبد ربه والسيوطي يذكر ان مولده كان لعشر بقين من شعبان من سنة ١٩٦ ويؤيد الخطيب البغدادي سنة ميلاده المذكورة (٥٩) . واذا ما اخذنا هذا التاريخ اساسا للاحتساب كان عمره ستا وثلاثين سنة واربعة اشهر واياما ، وهو ما ذكره ابن عبد ربه . على ان الخطيب البغدادي يروي عن احمد بن الواثق بالله انه قال : بلغ ابي ثمانياًوثلاثين سنة(٦٠) . وقد دفن الواثق بالله بسامرا ، وكان اخوه جعفر قد صلى عليه عند دفنه (٦١) .

اما مدة خلافته فقد اتفق المؤرخان اليعقوبي والمسعودي ، والاديب ابن عبد ربه على انها كانت خمس سنوات وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوماً (٦٢) . ويقرب منهم الطبري وابن الأثير اللذان

---

(٥٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، ومروج الذهب ٤/٦٥ ، والطبري ٩/١٥١ ، والنبراس /٧٥ .
(٥٩) تاريخ بغداد ١٤/١٦ .
(٦٠) نفس المصدر /٢٠ .
(٦١) تاريخ بغداد ١٤/٢١ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ .
(٦٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ، ومروج الذهب ٤/٦٥ ، والعقد الفريد ٥/١٢٢ .

يتفقان معهم في عدد السنوات والأشهر ويختلفان في عدد الايام فاحتسباها خمسة ايام بدلا من ثلاثة عشر (٦٣) • وجاء في تجارب الأمم ان مدة خلافته خمس سنوات ـ اما ابو المحاسن ، وهو شديد الاهتمام باحتساب هذه التواريخ ، فقد احتسب مدة خلافته خمس سنوات وستة اشهر (٦٤) •

ونظراً لاتفاق المؤرخين المذكورين في تاريخ مبايعة الواثق بالله بالخلافة وتاريخ وفاته ، فقد كان من الطبيعي ان يتفقوا في مدة خلافته • ولاندري ما اذا كانت الفروق بين ما ذكروه نتيجة وهم او خطأ حسابي • لأن المدة بين تاريخ مبايعته وتاريخ وفاته هي خمس سنوات وتسعة اشهر وخمسة ايام ، وهي المدة التي ذكرها الطبري وابن الأثير •

وكان الواثق بالله نوى اداء فريضة الحج في موسم السنة ٢٣١هـ ، واستعد لذلك ، ووجه عمر بن فرج الرخجي الى اصلاح الطريق ، فاخبره ان الماء قليل في هذا الموسم ، فلم يخرج في تلك السنة (٦٥) • ومرض في السنة التالية في موسم الحج فعاقه ذلك عن الخروج ، وادركته الوفاة في اواخر ذي الحجة من السنة نفسها •

---

(٦٣) الطبري ٩/١٥١ ، والكامل ٧/٣١ •
(٦٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٦٢ •
(٦٥) الطبري ٩/١٤٠ •

الفصل الرابع

المتوكل على الله

ابو الفضل جعفر بن المعتصم بالله

١ ـ مبايعته :

توفي الواثق بالله ولم يكن قد عهد لأحد بعده بالخلافة ٠ وكان قد قيل له في البيعة لابنه ، فقال : لا يراني الله اتقلدها حيا وميتاً (١) ٠ وكان ابنه محمد صغير السن ، كما ان علاقته باخيه جعفر لم تكن ودية ، ولم يكن يتوسم فيه الكفاية لمنصب الخلافة ٠ ويبدو ان اختلاف امهات الاخوين كان سبب النفرة والتباغض بينهما لأن ابناء العلات ـ اي ابناء الرجل من نسوة شتى يختلفون ويتباغضون عادة ٠ وقد اذل الواثق اخاه في عهد خلافته ، مما ملأ نفس جعفر حقداً على اخيه وعلى رجاله ٠

عندما مات الواثق بالله حضر رجال الدولة الى دار الخلافة ، وعلى راسهم الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، وقاضي القضاة

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ ٠

احمد بن ابي دواد ، وابن الوزير احمد بن خالد ، وكبار القواد الاتراك ايتاخ ووصيف وبغا الكبير وغيرهم • فعزموا على مبايعة محمد بن الواثق بالله ، فرأوه لا يزال صبيا صغيرا • وقد اعترض القائد وصيف بانه صغير لا تجوز معه الصلاة (٢) • فتناظر الحاضرون فيمن يولونه الخلافة ، وذكروا عدة اسماء من امراء بني العباس • ثم اتفقوا على مبايعة جعفر اخي الواثق بالله • فلما احضروه استقبله قاضي القضاة والبسه الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وسلم عليه بالخلافة • فبايعه الحاضرون (٣) • واول من بايعه القائدان وصيف وسيما المعروف بالدمشقي (٤) •

وروى المتوكل على الله نفسه كيف تمت مبايعته ، قال ما خلاصته : احتجمت في اليوم الذي توفي فيه الواثق بالله وانا لا اعلم بوفاته ، فقالت لي امي امضي الى اخيك وعده في مرضه • فذهبت لزيارته ودخلت الدار وجلست بحيث كنت اجلس ، فسمعت حركة غير اعتيادية ، فنظرت من ثقب الباب فرايت محمد عبدالملك الزيات وايتاخ ومعهما محمد بن الواثق يلبسانه الرصافية ، ولما بدت كبيرة عليه ، قال احدهما : نعممه ، ثم قال فما نفعل بجعفر ، فقال محمد بن عبدالملك : نقتله بالتنور ، وقال ايتاخ : بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يبين عليه اثر القتل • فغشي علي لما سمعته من عزمهما في امري • ثم لم يلبث ان حضر احمد بن ابي دواد فدخل وتكلم معهما كلاما لم اسمعه لما كنت فيه من خوف

(٢) الطبري ٩/١٥٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦

(٣) نفس المصدرين السابقين •

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ •

وضعف . ثم نودي عليَّ فدخلت عليهم وجلا خائفـا ، الا ان ابن ابي دواد لقيني فقبل يدي وقادني الى السرير وقال لي : اصعد الى المكان فقد اهلك الله تعالى له . فلما صعـدت وجلست سـلم علي بالخلافة . وسلم علي بها محمد وايتاخ ايضا . واخذ ابن ابي دواد عليهما البيعة لي ، وادخل القواد والموال على مراتبهـم يسلمون ويبايعون . ثم علمت فيما بعد ان محمد بن عبدالملك وايتاخ كانا قد اتفقا على ما سمعته منهما ، ووكلا بباب الحجرة من يمنع دخول قاضي القضاة اليهما حتى يفرغا من تدبيرهما . فلما حضر القاضي هابه الموكلون بالباب ففسحوا له فدخل . فلما علم انصرافهما عن ابن الواثق بالله لصغر سنه ، تداول معهما فيمن يبايعون ، وذكروا بعض الاسماء ، ولما ورد اسمي قال ابن ابي دواد لهما : اصفقا على يدي فصفقا ، ثم ارسلوا الي فكان من الأمر ما كان . وبقي ما قاله محمد بن عبدالملك وايتاخ في نفسي فقتلتهما بما اعتزما قتلي به ، فقتلت ابن الزيات بالتنور ، وايتاخ بالماء البارد (٥) .

ولقب جعفر في اليوم التالي بالمتوكل على الله . وقد اراد ابن الزيات ان يلقبه بالمنتصر ، فقال ابن ابي دواد : لقد رأيت لقبـاً موافقا هو المتوكل على الله . فوافق الخليفة عليه وامر ان يكتب به الى مختلف الولايات (٦) . وكانت نسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر ــ ابقاك الله ــ امير المؤمنين اطال الله بقاءه ان يكون الرسم الذي يجري به ذكره على اعواد منابره وفي كتبه الى قضاته وكتابه وعماله واصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجـرى المكتبة بينه وبينه « من عبدالله جعفر الامام المتوكل على الله امير

(٥) كامل الرواية في الهفوات النادرة / ٣٦٢ ــ ٣٦٥ .
(٦) الطبري ٩/١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ .

المؤمنين » فرأيك في العمل بذلك واعلامي بوصول كتابي اليك موفقا ان شاء الله » (٧) ٠

وهناك رواية تقول ان سبب هذا اللقب ان المتوكل على الله رأى في منامه قبل ان يستخلف كأن سكّراً ينزل عليه من السماء مكتوبا عليه « جعفر المتوكل على الله » . فقص ذلك على اصحابه ، ففسروه بانه سينال الخلافة (٨) ٠ واذا صح هذا الخبر فان حلم المتوكل على الله كان انعكاسا لما يحز في نفسه من الحجر والحرمان وما يقاسيه من سوء معاملة اخيه الواثق بالله الذي يرفل في نعمة الخلافة وقوة السلطان . مما جعله يتمنى في قرارة نفسه ان يكون خليفة مكان اخيه وله لقب الخلافة مثله ٠ او ان يكون الخبر موضوعا اصلا للايحاء بان المتوكل على الله كان موعوداً بهذا اللقب الذي هو جدير به ٠

كان عمر المتوكل على الله يوم بويع ستاً وعشرين سنة ، لأنه قد ولد بفم الصلح في شوال من سنة ٢٠٦ هـ (٩) ٠ الا ان الخطيب البغدادي يقول سمع المتوكل على الله يقول : ميلادي سنة ٢٠٧ هـ (١٠) ٠

وعندما تمت البيعة للمتوكل على الله امر للاتراك برزق اربعة اشهر ، وللجند والهاشميين ارزاق ثمانية اشهر (١١) ، وللمغاربة برزق ثلاثة اشهر فأبو ان يقبضوا فارسل اليهم من كان منكم مملوكا

---

(٧) الطبرى ٩/١٥٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠

(٨) الطبري ٩/١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ ٠

(٩) الطبرى ٩/١٥٥ ، ومروج الذهب ٤/٨٥ وفيه سبع وعشرون سنة ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠

(١٠) الطبري ٩/٢٣٠ ، وتاريخ بغداد ٧/١٦٦ ٠

(١١) الطبرى ٩/١٥٥ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٦ ٠

فليمض الى القاضي احمد بن ابي دواد حتى يبيعه ومن كان حرا صيرناه اسوة بالجند ، فرضوا بذلك ، ثم اجروا مجرى الأتراك (١٢) .

ونقش على خاتمه عبارة « جعفر على الله يتوكل » (١٣) .

٢ ـ صفاته وسيرته :

هو ابو الفضل جعفر بن المعتصم بالله ، وامه ام ولد خوارزمية تركية يقال لها شجاع ، وكان من سروات النساء سخاء وكرما (١٤) . ويقال انها كانت خيرة كثيرة الرغبة في عمل الخير وخلفت من العين خمسة الآف الف وخمسين الف دينار ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار (١٥) . وقد توفيت في المتوكلية في ربيع الاخر من سنة ٢٤٧هـ ، وصلى عليها حفيدها محمد المنتصر ، ودفنت عند المسجد الجامع (١٦) .

اما صفاته الجسمية فقد وصف بانه كان اسمر رقيق البشرة يضرب الى الصفرة خفيف العارضين كبير العينين وسيما مهيبا ، وكان الى القصر اقرب (١٧) .

وعندما تولى المتوكل على الله نهى عن الجدل والمناظرة وابطل المحنة . وقد ذكرنا ما قام به في هذا الباب بشيء من التوسع في

---

(١٢) الطبري ١٥٥/٩ .
(١٣) التنبيه والاشراف / ٣١٤ ، والذهب المسبوك / ٢٢٥ وفيه «على الله توكلت»
(١٤) تاريخ بغداد ١٦٦/٧ .
(١٥) شذرات الذهب ١١٧/٢ .
(١٦) الطبري ٢٣٤/٩ ، ومروج الذهب ١١٨/٤ .
(١٧) الطبري ٢٣٠/٩ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٣-٣١٤ ، وتاريخ بغداد ١٧٢/٧ ، وتجارب الامم ٥٥٧/٦ .

موضوع المحنة . وقد ابدى كثيراً من لين الجانب والاهتمام بشؤون الرعية . قال لابراهيم بن المدبر وهو احد اصحاب الدواوين : اذا خرج اليك توقيعي بما فيه مصلحة للناس ورفق للرعية فانفذه ولا تراجعني فيه ، واذا خرج اليك بما فيه حيف على الرعية فراجعني ، فأن قلبي بيدالله عزوجل (١٨) . وقال يزيد المهلبي : قال لي المتوكل على الله يامهلبي ان الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وانا الين لهم ليحبوني ويطيعوني(١٩) . ومر المتوكل على الله يوماً بزرع لايزال اخضر لم يدرك وقت حصاده ، فقال : استأذنني عبيدالله بن يحيى في استفتاح الخراج وارى الزرع اخضر ، فمن اين يعطي الناس الخراج ؟ فقيل له ان هذا أضر بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن اراضيهم وقد كثرت شكاياتهم . وعلم ان سبب ذلك هو المطالبة بالخراج في ابان النيروز ، ونظراً لمنع العرب كبس السنين باعتباره من النسيء الذي نهى الاسلام عنه ، تقدم النيروز حتى صار يقع في نيسان والزرع اخضر ، فطلب الى ابراهيم بن العباس ان يحسب الأيام بما يؤخر النيروز ، ففعل ذلك (٢٠) . ويبدو ان المتوكل على الله اراد تغيير موعد جباية الخراج بحيث يكون عند حصاد الزرع ، الا انه قتل قبل ان يتم تدبير ذلك ، ولم يحاول ان يتمه من جاء بعده من خلفاء سامرا حتى استخلف حفيده المعتضد بالله فأمر باصلاح التقويم بما اخر موعد الجباية وحقق ما كان حاوله جده ، اذ امر في سنة ٢٨٢هـ بالكتابة الى جميع العمال بترك افتتاح الخراج بالنيروز العجمي ، وتأخير ذلك الى

---

(١٨) تذكرة ابن حمدون / ١٠٥ .

(١٩) تاريخ الخلفاء / ٣٥٢ .

(٢٠) الاثار الباقية / ٣٢ ، والخطط المقريزية ١/٢٧٥ .

اليوم الحادي عشر من حزيران ، وسمي ذلك بالنيروز المعتضدي (٢١) .

لقد وصف المتوكل على الله بالكرم الزائد الذي يصل الى حد التبذير ، حتى قيل : ما اعطى خليفة شاعراً ما اعطى المتوكل على الله(٢٢) . فقد انشده علي بن الجهم شعره الذي مطلعه :

هي النفس ما حمّلتها تتحمل   وللدهر ايام تجور وتعدل

وفي يد المتوكل جوهرتان فأعطاه التي في يمينه ، فاطرق ابن الجهم متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره ، فنطن وقال : مالك متفكراً ، انما تفكر فيما تأخذ به الأخرى ، خذها لا بورك لك فيها (٢٣) . ولكثرة ما انفقه المتوكل على الله ايام خلافته ، قال المسعودي : « وقد قيل انه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في ايام المتوكل على الله ... مع كثرة الموالي والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم ، وجليل ما كانوا يقبضون من الجوائز والهبات » (٢٤) . وقد انفق على اعذار ابنه المعتز ستة وثمانين الف الف درهم (٢٥) . ووصفت ايامه بانها كانت حسنة فاخرة كثيرة الخير (٢٦) . وانها « كانت احسن ايام وانضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل » (٢٧) .

---

(٢١) الطبري ١٠/٣٩ ، والكامل ٧/٤٦٩ .
(٢٢) تاريخ الخلفاء / ٣٥٠ .
(٢٣) العقد الفريد ١/٣٢١ .
(٢٤) مروج الذهب ٤/١٢٢ .
(٢٥) الديارات / ١٥٥ .
(٢٦) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣٢ .
(٢٧) مروج الذهب ٤/٨٦ .

ومما له علاقة بكثرة الانفاق في عهد المتوكل على الله اهتمامه بالعمران وولعه ببناء القصور ٠ فقد بنى ما ينوف على خمسة عشر قصراً انفق في بنائها مبالغ طائلة ٠ وقد احدث المتوكل على الله بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري نسبة الى مدينة الحيرة ، فبنى الناس جميعاً بسامرا هذا البناء ٠ وقد تكلمنا عن الماحوزة شمالي سامرا اعظم اعماله العمرانية وكان يسميها المتوكلية . وكنا افردنا لها فصلا خاصاً بعمرانها ٠

وكان المتوكل على الله قد حاول اكثر من مرة ، قبل ان يؤسس مدينة المتوكلية ، ان ينتقل عن سامرا الى مدينة اخرى ٠ ولا ندري ما اذا كان بدافع الرغبة في التحرر من نفوذ القواد الاتراك المعارضين له ، او طلبا لجو يلائم صحته ، او انه كان يريد ان تكون عاصمة تنسب اليه - ولعل ما يؤيد السبب الأخير بناؤه مدينة المتوكلية وانتقاله ودواوين الدولة اليها ٠ وكان قبل ذلك اراد الانتقال الى اصبهان بعد ان سمع عن طيب هوائها ، فبعث جماعة من المهندسين لتخطيط القصور له ولخواص اصحابه ، الا ان اهلها فزعوا الى وصيف القائد وسألوه التلطف في فسخ عزمه فاقنعه بانها لا تتسع له ، واذا ما سكنها ضاق الأمر على الناس في الميرة ، مما اثناه عن عزمه ، فخرج الى دمشق لأنه قيل له ان هواءها مقارب لهواء اصبهان (٢٨) ٠

عزم المتوكل على الله على المقام بدمشق لما وصف له من فضائلها وطيبها . فأمر بالبناء فيها ونقل الدواوين اليها ، الا انه تركها بعد اقام فيها شهرين وبضعة ايام فعاد الى سامرا محتجاً ببرد هواء دمشق

---

(٢٨) الاعلاق النفيسة / ١٥٦ ٠

وثقل مائها وكثرة رياحها (٢٩) • وهناك رأي يقول انه ترك دمشق لأن مناوئيه من الاتراك دبروا فيها وقيعة تستهدف قتله(٣٠) •

الى جانب هذه النواحي الايجابية من سيرة المتوكل على الله وسلوكه كخليفة هناك نواح سلبية ضرب فيها امثلة سيئة من تصرفاته • فقد اشتد على العلويين • كما اساء الى اهل الذمة ولا سيما النصارى منهم ، فحدد نوع لباسهم وركوبهم ونهى عن الاستعانة بهم في اعمال الدولة ودواوينها • واوامر اخرى اتخذها بشأنهم بكتاب وجهه الى الولايات لمعاملتهم بموجبه ، ومعاقبة من لا يلتزم بها • ومن الممكن تفسير موقف المتوكل على الله من العلويين ومن اهل الذمة ، بعاملين اتصف بهما ، اولهما تعضبه الديني الشديد ، والآخر حسده للعلويين لما يتمتعون به وبخاصة أئمتهم ، من ولاء مطلق من اعداد غفيرة من الرعية ، وحسده النصارى لأنهم كانوا يعيشون حياة مرفهة نسبيا ، ومنهم معظم الأطباء المشهورين وكثير من الكتاب المتقدمين •

وقد عرف عن المتوكل على الله انه متقلب المزاج يرضى ويغضب بسرعة ولاتفه الأسباب • وكان يتشبه في الغضب بخلق الجبابرة (٣١) • وانه حقود قاس في غضبه ، يحقد على من يسيء اليه ، ويحسد كل ذي نعما مهما كان نوعها • ومن مظاهر حقده انه امر بقتل محمد بن عبدالملك الزيات الوزير الكفء بعد تعذيبه ، لأن ابن الزيات لم يكن يحسن استقباله عندما كان يراجعه في ايام اخيه الواثق بالله • وموقف ابن الزيات هذا تجاهه ناشيء من ان

---

(٢٩) الطبري ٩/٢١٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٢ •
(٣٠) مروج الذهب ٤/١١٥-١١٦ •
(٣١) شذرات الذهب ٢/١١٥ •

الخليفة الواثق بالله كان لا يود اخاه ، دائم الغضب عليه ، ومن الطبيعي ان يحذو وزيره حذوه والا عرض نفسه لغضب الخليفة ونقمته . وسبق ان ذكرنا ان المتوكل على الله قد كان قد اضمر الشر لابن الزيات وللقائد ايتاخ لأنه اعتقد بانهما عارضا ترشيحه للخلافة واتفقا على قتله .

ولم يسلم من سخط المتوكل على الله وغضبه قاضي القضاة احمد ابن ابي دواد صاحب الفضل الأول في توليه الخلافة ، والذي كان شديد العطف عليه ايام اخيه الواثق بالله ، وكثيراً ما كان يلتمس الخليفة ليحسن معاملة اخيه ويرضى عنه . فقد امر في سنة ٢٣٧ هـ بمصادرة ضياعه، وحبس ابنه ابا الوليد محمداً مع مصادرة امواله واموال اخيه ، رغم ان ابن دواد كان طريح الفراش وقد اصيب بالفالج منذ سنة ٢٣٣ هـ . وليس هناك من سبب واضح لسخطه عليه وعلى اولاده . ويُستبعد ان يكون السبب هو ان ابن ابي دواد من المعتزلة وقد تزعم قضية المحنة ، لأن سخط المتوكل على الله جاء بعد ابطال المحنة ببضعة سنوات . مما يجعلنا نميل الى انه كان يحسده لما صار اليه من مكانة مرموقة في الدولة ، وانه كان موضع ثقة ابيه المعتصم بالله واخيه الواثق بالله واحترامهما ، كما انه نال بمواقفه النبيلة احترام الناس وتقديرهم .

وامر المتوكل على الله بمصادرة عدد من الوزراء وكبار الكتاب، ويبدو ان الدافع الرئيس لذلك هو رغبته في احتواء اموالهم لسد نفقاته الواسعة(٣٢) .

ولعل ضخامة اموال رجال الدولة وكتابها وكثرة املاكهم وتعدد

---

(٣٢) الطبري ٩/٢١٦ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٣ .

ضياعهم وسعة انفاقهم ، مما لفت نظر المتوكل على الله بانها جمعت بطرق غير مشروعة فاراد عقوبتهم بمصادرتها منهم بحجج مختلفة ٠

ولم يكن احد ممن سلف من خلفاء بني العباس قد اظهر في مجلسه العبث والهزل ، والمضاحك ، حتى جاء المتوكل على الله فكان اول خليفة أظهر ذلك ، حتى ذاعت هذه الامور في الناس وجروا فيها(٣٣) ٠ فكان يجمع السماجة — وهم الممثلون الهزليون — بين يديه فيحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم في اصواتهم ، ويأتون بحركات مضحكة عنهم تؤنسه(٣٤) ٠ فكان السابق الى ذلك والمحدث له فاتبعه فيه اغلب خواصه واكثر رعيته(٣٥) ٠

٣ — ولاية العهد :

لعل ما حدث اثر وفاة الواثق بالله من خلاف حول اختيار خليفة له ، لأنه لم يعهد لأحد من بعده ، قد دفع المتوكل على الله الى ان ينظم ولاية العهد في حياته ٠ فعقد في سنة ٢٣٥هـ البيعة لثلاثة من ابنائه هم محمد وسماه المنتصر ، وابو عبدالله — ويختلف في اسمه فيقال محمد او الزبير او طلحة — ولقبه المعتز ، وابراهيم ولقبه المؤيد ٠ وعقد لكل منهم لوائين احدهما اسود وهو لواء ولاية العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل ٠ وضم الى كل واحد منهم عدداً من الولايات ، فاقطع المنتصر افريقية والمغرب وجميع الثغور وبعض الولايات الشرقية ٠ واقطع المعتز خراسان وطبرستان والري وارمينية واذربيجان ٠ اما المؤيد فقد اقطعه جند دمشق وجند فلسطين ٠ كما جعل لكل منهما كاتبا خاصا ، فجعل احمد بن

---

(٣٣) مشاكلة الناس لزمانهم / ٣٢ ٠
(٣٤) الديارات / ٣٩ ٠
(٣٥) مروج الذهب ٨٦/٤ ٠

الخصيب كاتبا للمنتصر ، واحمد بن اسرائيل كاتبا للمعتز ، ومحمد بن علي المعروف كاتبا للمؤيد (٣٦) • واحضر المتوكل على الله القضاة ووجوه الناس من البلدان الى سامرا لبيعة ولاة العهد ، وبعث خواصه الى الأمصار ليأخذوا البيعة لهم ، ووزع الجوائز ، واعطى الجند ارزاق عشرة اشهر (٣٧) • وكتب بولاية العهد كتابا مفصلا باربع نسخ وقعها الشهود بحضرته وامر ان تحفظ نسخة منها في خزانته ، وعند كل واحد من اولياء العهد نسخة (٣٨) •

سار المتوكل على الله في امر ولاية العهد على نهج جده هارون الرشيد الذي عهد لأبنائه الأمين والمأمون والمؤتمن بكتاب موثق اودعه في البيت الحرام سنة ١٨٦هـ وجعلهم متعاقبين في تولي الخلافة (٣٩) • ولم يتعظ بما نشب من الخلاف بين الأمين والمأمون وما ترتب عليه من نتائج خطيرة وكيف ان المأمون عهد بالخلافة من بعده لأخيه ابي اسحاق دون القاسم المؤتمن الذي نص عليه عهد الرشيد • كما يلاحظ ان كتاب المتوكل على الله تجاهل بقية ابنائه ، وكان فيهم طلحة الملقب بالموفق الذي اثبتت الحوادث فيما بعد انه اكفأ اولاده واقدرهم •

٤ ـ مؤامرة قتله :

انتهت حياة المتوكل على الله بعد حكم دام خمسة عشر عاما ، وهو اول خليفة يقتل في سامرا • ويمكن حصر الأسباب التي ادته

---

(٣٦) الطبري ٩/١٧٥ ـ ١٧٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٧ ، والكامل ٧/٤٩ـ٥٠
(٣٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٦ •
(٣٨) نص الكتاب في الطبري ٩/١٧٦ ـ ١٨٠ •
(٣٩) الطبري ٨/٢٧٨ ، ومروج الذهب ٣/٣٦٤ ، والكامل ٦/١٧٣ •

الى قتله بسببين رئيسين اولهما سوء علاقته بابنه الكبير وولي عهده محمد المنتصر ، وثانيهما سياسته تجاه الاتراك المتغلبين على شؤون الدولة ·

كنا ذكرنا ان المتوكل على الله عقد في سنة ٢٣٥هـ لثلاثة من بنيه وهم محمد المنتصر والمعتز والمؤيد · ورغم انه قدم المنتصر على اخويه في ولاية العهد فانه كان اكثر ميلا الى المعتز بتأثير امه قبيحة التي كان المتوكل على الله يفضلها على نسائه ، وعندما وزع امارات ولايات الدولة واقاليمها خص المعتز بالمهمة منها · ثم اضاف اليه في سنة ٢٤٠هـ خزن الاموال في جميع الولايات ودور الضرب اسمه على الدراهم (٤٠) · فكان ذلك من حملة ما آثار حفيظة المنتصر على ابيه · واخذ المتوكل على الله ينتقص من شأن المنتصر ويعبث به ويأمر بصفعه ، وقال له مرة لقد سميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك المنتظر ، ثم صرت الآن المستعجل · وجاهر في احد مجالسه بخلعه من ولاية العهد · ويقال انه عزم على ان يفتك به ، ويقتل وصيفا وبغا (٤١) ·

اما علاقة المتوكل على الله بقادة الاتراك فقد كانت مشوبة بالحذر وعدم الثقة · لأنهم قد صارت اليهم رياسة معظم المراكز الحيوية في الدولة (٤٢) · فأن ايتاخ بقي في عهده محتفظا بمراتبه في الجيش وادارة الاموال والبريد والحجابة وشؤون دار

---

(٤٠) الطبري ٩/١٧٦ ، والكامل ٧/٥٠ ·
(٤١) الطبري ٩/٢٢٥ ، والكامل ٧/٩٧ و١٠٤ ·
(٤٢) التنبيه والاشراف / ٣١٣ ·
بدلا من الجيش ، ويظهر انه الاصح ، لان الطبري سبق ان قال في ص :

الخلافة(٤٣) • ولذلك فان ايعاز المتوكل على الله بقتله في سنة ٢٣٥ هـ ومحاولة الفتك بوصيف وبغا ، يدل على عزمه اضعاف شأنهم وسلطانهم • الا ان هذه السياسة جعلت القواد ينقمون عليه ، واخذوا يستغلون سوء علاقته بابنه المنتصر ، ويحرضون الأخير على الفتك بابيه وتولي الخلافة مكانه ، وسبق لهم ان قرروا قتله عندما انتقل الى دمشق (٤٤) •

وكان بغا الصغير قد استوحش من المتوكل على الله ومال الى المنتصر الذي كان يعمل على اجتذاب القواد الاتراك اليه واستمالتهم ، فلا يُبعد المتوكل على الله احداً منهم الا واستماله اليه ، وكان اوتامش غلام الواثق بالله يعاونه في ذلك (٤٥) • وهكذا كان المتوكل على الله والموالون له وعلى رأسهم الوزير عبدالله بن يحى ، والفتح بن خاقان ، يسعون للفتك بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهما من قادة الاتراك • كما واعد المنتصر القواد الاتراك وعلى رأسهم وصيف على قتل الخليفة • فكان السبق لتدبير الاتراك • وكان السبب المباشر لقتله انه كان امر بانتزاع ضياع وصيف باصبهان والجبل واقطاعها للفتح بن خاقان (٤٦) • فلما بلغ ذلك وصيفا ثارت ثائرته واستعجل جماعته في التخلص من الخليفة • فهيأ بغا الصغير باغر التركي وآخرين من

---

(٤٣) الطبري ٩/١٦٧ ، والكامل ٧/٤٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٤٢ وفيه الحبس ١٦٦ ، وكان من اراد المعتصم والواثق قتله ، فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس •

(٤٤) مروج الذهب ٤/١١٥ •

(٤٥) مروج الذهب ٤/١٢١ •

(٤٦) الطبري ٩/٢٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٤ •

الجند الاتراك ممن يثق بهم ، فاقتحموا مجلس المتوكل على الله وقتلوه ، وقتلوا معه الفتح بن خاقان ٠

وحمل بغا الصغير الخبر الى المنتصر الذي ارسل الى وصيف ان الفتح بن خاقان قد قتل ابي فقتلته ، وامره ان يذيع ذلك في اصحابه ٠ وحضر القواد الموالون للمنتصر واصحابهم وبايعوه بالخلافة ٠ وعندما حضر الناس من القواد والكتاب والوجوه والجند صباح اليوم التالي الى الجعفرية للبيعة العامة ، قرأ عليهم احمد بن الخصيب كتابا يخبر فيه عن المنتصر ان الفتح بن خاقان قتل المتوكل على الله فقتله به ، فبايع الحاضرون (٤٧) ٠

ويقال ان خبر التآمر على المتوكل على الله كان قد بلغ مسامع عبيدالله بن يحيى فشاور الفتح بن خاقان في احاطة الخليفة بما يدبر له ، واتفقا على كتمان الأمر عنه لما رأيا من سروره في ذلك اليوم وكرها ان ينغصا عليه سروره ، وانهما واثقان بانه لا يستطيع احد ان يتجاسر على مثل هذا العمل (٤٨) ٠ الا ان مما يضعف هذا القول ان سير الوقائع يدل على انهما لم يكونا يعلمان شيئاً عن المؤامرة ، اذ لو علما بها لاتخذا من وسائل الحيطة ما يستلزم لحماية مجلس الخليفة وتشديد حراسته وافشال المؤامرة ٠ ويروى ان المتوكل على الله رأى قبيل وفاته حلما تشاءم منه ، اذ رأى كأن دابة تكلمه ، فسأل جلساءه عن تفسيره ففسره له احدهم بشيء آخر ، ثم قال لبعض من حضر : لقد حان رحيله ،

---

(٤٧) الطبري ٢٣٤/٩ ، وتجارب الامم ٥٥٧/٦ ٠

(٤٨) الطبري ٢٢٨/٩ ، وتجارب الامم ٥٥٦/٦ ٠

لقوله تعالى « واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » (٤٩) ٠

وهناك شبه اتفاق في اليوم الذي قتل فيه وهو ليلة الاربعاء لأربع خلون من شوال ، وقيل ليلة الخميس (٥٠) ٠ اما مدة خلافته فقد كانت اربع عشرة سنة وعشرة اشهر وبضعة ايام (٥١) ٠ ويقال انه لم يكن المتوكل على الله يوما اشد سروراً منه في اليوم الذي قتل فيه ، فلقد اصبح في هذا اليوم نشيطاً فرحا مسروراً ، وقال : كأني اجد حركة الدم ، فاحتجم في ذلك اليوم ، واحضر الندماء والملهين ، فاشتد سروره وكثر فرحه (٥٢) ٠ وعند دفنه لف هو والفتح بن خاقان في بساط ودفنا بدمائهما من غير تغسيل في قبر واحد (٥٣) ٠ وكان دفنه في قصره المعروف بالجعفري (٥٤) ٠

---

(٤٩) شذرات الذهب ١١٦/٢ ٠ والآية رقم (٨٢) من سورة النمل ٠
(٥٠) الطبري ٢٣٠/٩ ، ومروج الذهب ١١٨/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٩٢/٢ ، والكامل ١٠٠/٧ ٠
(٥١) الطبري ٢٣٠/٩ ، ومروج الذهب ٨٥/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٩٢/٢ ، والكامل ١٠٠/٧ ٠
(٥٢) مروج الذهب ١٢١/٤ ٠
(٥٣) النجوم الزاهرة ٣٢٤/٢ ٠
(٥٤) تاريخ اليعقوبي ٤٩٢/٢ ٠

الفصل الخامس

المنتصر بالله

ابو جعفر محمد بن جعفر المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

سبق ان ذكرنا ان الخليفة المتوكل على الله كان قد عقد البيعة بولاية العهد لثلاثة من بنيه ، اولهم محمد وسماه المنتصر ، واقطعه اجزاء معينة من المملكة . كما اشرنا الى انه غضب عليه مؤخراً للاسباب التي ذكرناها ، بحيث اخذ المتوكل على الله يجاهر ببغضه لابنه المنتصر ، وقد اشهد جماعة الحاضرين في مجلسه على خلعه من ولاية العهد (١) . مما دفع المنتصر الى الاتفاق مع عدد من قادة الاتراك الناقمين على ابيه ، على العمل للفتك به والتخلص منه . وعندما اتم المتآمرون قتل المتوكل على الله خرجوا الى المنتصر بالله وسلموا عليه بالخلافة . وبادروا الى اخذ البيعة من الحاضرين الآخرين .

---

(١) الطبري ٩/٢٢٥ .

وقد تمت بيعة المنتصر بالله على دفعتين ، الاولى في ليلة الاربعاء ــ ليلة مقتل ابيه ــ والثانية في صباح اليوم التالي لأربع خلون من شوال وقيل لثلاث خلون منه (٢) . وكان قد بايعه ليلة الاربعاء القواد وغيرهم من المتآمرين حالما تم القضاء على المتوكل على الله ،ومنهم بغلون وباغر وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابي وواجن وعدد من اولاد وصيف ، وهم الذين تولوا عملية اقتحام مجلس الخليفة والاجهاز عليه ، وكذلك وصيف واصحابه الذين حضروا بعد نجاح العملية ، كما حضر المعتز والمؤيد ، واخبرا بان اباهما شرق بكأس شربه ومات لساعته ، فبايعا اخاهما المنتصر (٣) . وكانت هذه المبايعة الخاصة للمنتصر .

اما في بيعة صباح الاربعاء ، وهي البيعة العامة ، فقد حضر الى الجعفري القواد والكتاب والوجوه والجند وغيرهم . فقرأ عليهم احمد بن الخصيب الذي اتخذه المنتصر وزيراً ، كتابا يخبر فيه عن المنتصر بالله ان الفتح بن خاقان قتل اباه المتوكل على الله فقتله به ، فبايع الحاضرون . وكان عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله من المبايعين في هذا اليوم . ولما شاع الخبر غداة اليوم التالي في اهل سامرا بمقتل المتوكل على الله ، ظهرت بعض الأصوات المعارضة لمبايعة المنتصر بالله . فقد تجمع قسم من الجند والناس بباب العامة وازدحموا محتجين ومستنكرين مما اضطر الخليفة الجديد ان يوعز الى فريق من الجند فتولوا دفع الناس وتفريق جمعهم بعد ان قتل منهم بضعة انفار (٤) . وكان

---

(٢) الطبري ٩/٢٣٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ، ومروج الذهب ٤/١٢٩ .
(٣) الطبري ٩/٢٢٧ـ٢٢٨ و٢٣٦ ، والكامل ٧/١٠٣ـ١٠٤ .
(٤) الطبري ٩/٢٣٩ ، والكامل ٧/١٠٥ .

قد عرض جمع من الجند على الوزير عبيدالله بن يحيى ان يثوروا بالمنتصر بالله ويقتلوه واتباعه ، فرفض ذلك لأنه رأى ان البيعة قد تمت ولاسيما وان المعتز قد بايع اخاه (٥) .

وبالنظر لهذه الظروف التي احاطت ببيعة المنتصر بالله فقد اراد مؤيدوه اثبات حقه الشرعي في الخلافة بموجب عهد مكتوب تمت المبايعة وفق ما جاء فيه . وفيمايلي اهم ما جاء في كتاب البيعة التي اخذت له (٦) :

بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبدالله المنتصر بالله امير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضا ورغبة باخلاص .. على ان محمداً الامام المنتصر بالله عبدالله وخليفته المفترض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقه وعقده .. وعلى السمع له .. والوقوف عند كل ما يأمر به .. وعلى انكم اولياء اوليائه واعداء اعدائه من خاص وعام .. وتتمسكون ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد .. وعلى ان لا تسعوا في نقض شيء مما اكده الله عليكم .. وعلى ان لا تبدلوا ولايرجع منكم راجع عن نيته .. اذ كان الذين يبايعون منكم امير المؤمنين انما يبايعون الله .. عليكم بذلك ربما أكدت هذه البيعة في اعناقكم ... ان تسمعوا ما اخذ عليكم في هذه البيعة ولا تبدلوا ، وان تطيعوا ولا تعصوا .. وان تتمسكوا بما عاهدتم عليه .. لا يقبل الله منكم فى هذه البيعة الا الوفاء بها ... فمن نكث منكم .. فكل ما يملك كل واحد ممن خان في ذلك بشيء نقض عهده من مال او عقار او سائمة او زرع او ضرع صدقة على المساكين .. وكل مملوك يملكه الى ثلاثين سنة

---

(٥) الطبري ٩/٢٢٩ ، تجارب الامم ٦/٢٥٧ .

(٦) نص كتاب البيعة في الطبري ٩/٢٣٧-٢٣٩ .

من ذكر او انثى احرارا لوجه الله ، ونساؤه في يوم يلزمه الحنث ومن يتزوجه بعدهن الى ثلاثين سنة طوالق ثبتة ·· وعليه المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة ، لا يقبل الله منه الا الوفاء بها ، وهو برىء من الله ورسوله ، والله ورسوله بريئان منه ·· والله عليكم بذلك شهيد وكفى بالله شهيداً :

وبعد ان تمت البيعة للمنتصر بالله امر باعطاء الجند ارزاق عشرة اشهر (٧) ·

٢ ـ صفاته وسيرته :

اسمه محمد وكنيته ابو جعفر وقيل ابو عبدالله وقيل ابو العباس (٨) · ولقبه ابوه المنتصر بالله حينما عقد له البيعة بولاية العهد · وامه ام ولد رومية اسمها حبشية ، وكانت تحبه كثيراً ، وقد حزنت عليه حزنا شديدا لما مات وطلبت ان يبنى له قبر ظاهر مشهود · ويقال انه اول خليفة عباسي عرف قبره(٩) · اي انه اول من بنى له قبر مشهود من خلفاء سامرا ·

اقام المنتصر بالله بعد توليه الخلافة بالجعفرية ثم تحول عنها بعد عشرة ايام ، بعياله وقواده وجنده الى سامرا(١٠) · وسنأتي على تفصيل ذلك في الفصل الخاص بتأسيس مدينة الجعفرية ·

---

(٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ·

(٨) تاريخ بغداد ٢/١١٩ ، والكامل ٧/١١٤ ، وفيه اسمه احمد ، ويرجح ان ذلك خطأ مطبعي ·

(٩) الطبري ٩/٢٥٤ ، ومروج الذهب ٤/١٣٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٦١ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ·

(١٠) الطبري ٩/٢٣٤ ، ومروج الذهب ٤/١٣٠ ، وفيه انه تحول بعد سبعة ايـــام ·

اما وصف المنتصر بالله فتتفق المصادر على انه كان اسمر حسن الوجه ، قصير القامة جسيما ، عظيم البطن ، ضخم الهامة ، أعين اقنى ، وعلى عينه اليمنى اثر اصابة من وقعة في صغره (١١) • وقد وصف المسعودي اخلاقه وصفا دقيقا شاملا بقوله « وكان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا في الخير ، سخيا ، اديباً ، عفيفاً • وكان يأخذ نفسه بمكارم الاخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة الى مثله » (١٢) • وقيل عنه انه كان الى جانب ذلك فاتكا سفاكا للدم (١٣) • ومع ان المسعودي يتفق بوصفه اخلاق المنتصر بالله مع من وصفها من المؤرخين الا انه يتهمه بالبخل فيقول « كان ذا شهامة ومعرفة وامساك للمال ، وحفظ له حتى انكر الناس عليه شدة البخل وشدة المنع » (١٤) • ومما يؤيد هذا ما رواه الطبري عن بنان بن عمرو المغني وكان من اخص الناس بالمنتصر بالله ، وهو خليفة ، ان يهبني ثوب ديباج ، فقال لي : أو خير لك من الثوب الديباج ؟ قلت ما هو ؟ قال : تتمارض حتى اعودك ، فانه سيهدى لك اكثر من الثوب الديباج • الا انه مات في تلك السنة ولم يصل شيء الى بنان (١٥) • لاشك في ان هذ الخبر ينطوي على شيء من خلة الامساك في المنتصر بالله ، اذ لم تجد

---

(١١) التنبيه والاشراف / ٣١٤ ، وتاريخ بغداد ٢/١١٩ ـ ١٢٠ ، والكامل ٧/١١٥ ، والذهب المسبوك / ٢٢٧ •

(١٢) مروج الذهب ٤/١٣٤ ـ ١٣٥ •

(١٣) الكامل ٧/١١٦ •

(١٤) التنبيه والاشراف / ٣١٤ •

(١٥) الطبري ٩/٢٥٥ •

نفسه بثوب ديباج لاقرب المغنين له ، وحاول ان يعوضه بما يهديه اليه الآخرون عند مرضه . وقد يكون اراد بهذا ان يظهر اكرامه له بعيادته عند مرضه وان يجعل الآخرين يكرمونه ايضا ، وهذا ما يتفق مع اخلاق المنتصر بالله وصفاته .

الا انه يقابل هذا ان المسعودي نفسه يروي خبرين يدلان على كرم المنتصر بالله فقد روي عن علي بن يحيى المنجم ، وكان نديما لعدد من الخلفاء ، انه احب ان يشتري ضيعة مجاورة لضيعته ولم يزل يبذل جهده لدى مالكها حتى اجابه الى بيعها . الا انه لم يكن يملك قيمتها حينذاك ، مما اقلقه من ان تفوته فرصة تحقيق امنيته . وعندما حضر مجلس المنتصر بالله لاحظ الخليفة ما ظهر على نديمه من قلق وانشغال بال . فلما علم منه السبب استفسر عن قيمة الضيعة وما مقدار ما يعوزه لشرائها . فلما عاد ابن المنجم الى بيته رأى ان الخليفة كان قد ارسل المبلغ الذي يعينه على شراء الضيعة ، ويقول انه لما بكر الى المنتصر بالله في اليوم التالي لم يذكر عن الأمر شيئاً(١٦) .

وروى ايضا ان المنتصر بالله لما كان اميرا ، بعث احد رجاله واسمه سعيد بن محمد الصغير الى مصر في بعض اموره . فعشق سعيد جارية التقى بها هناك الا انه عجز عن شرائها . فلما علم المنتصر بالله بشدة ولعه بها كتب الى عامل مصر في ابتياعها وحملها الى سامرا ، دون ان يعلم سعيد بشيء من ذلك . فلما وصلت الجارية اهداها اليه (١٧) . يستدل من هذين الخبرين ان المنتصر بالله لم يكن بخيلا شديد المنع ، بل انه كان مدبرا غير

---

(١٦) مروج الذهب ٤/١٣٧ــ١٣٨ .

(١٧) نفس المصدر / ١٤١ ــ ١٤٢ .

مسرف ، وان كرمه من النوع الذي لا يريد صاحبه ان يتفاخر به • ولعل اعطياته الى المغنين ومادحيه من الشعراء تدل على جـــوده وكرمه • وكان من نتيجة تدبيره في الانفاق انه عندما توفى كان في بيت المال الف الف دينار ، ففـرق المسـتعين بالله الجميع في الجنـد (١٨) •

لقد اشتهر عن المنتصر بالله انه كان عادلا منصفا بحيث مالت اليه قلوب الناس من الخاصة والعامة ، مع شدة تهيبها منه(١٩) • ومن اقواله الدالة على سماحته وعلو همته ، ما رواه وزيره احمد بن الخصيب انه قال حين عفا عن الشاري الثائر : ان لذة العفو اعذب من لذة التشفي ، واقبح افعال المقتدر الانتقام (٢٠) • ومن اقواله ايضا : والله ما عز ذو باطل ولو طلع القمر مـن جبينـه ، ولا ذل ذو حق ولو صفق العالم عليه (٢١) • ومن مظاهر انصاف المنتصر بالله انه صالح اخوته واخواته على تركة ابيه من الفرش والرقيق والدواب بمبلغ اربعة وعشرين الف الف درهم ، وانـه اشهد عليهم بذلك (٢٢) •

كان المنتصر بالله قد نقش على خاتمه عندما بويع بالخلافة « محمد بالله ينتصر » (٢٣) • ويظهر مما جاء في العقد الفريد ان

---

(١٨) النجوم الزاهرة ٢/٣٢٨ ، والذخائر والتحف / ٢٢٠ وفيه الف الف درهم •
(١٩) مروج الذهب ٤/١٣٧ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٧ •
(٢٠) مروج الذهب ٤/١٧٧ ، والبصائر والذخائر ٢/٥٢٧ وجاء فيه كمايلي : لذة العفو احبب من لذة التشفي يلحقها الندم •
(٢١) الكامل ٧/١١٦ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢٠ ، وفيه : ولواطبق بدلا مـن ولو اصفق • والذهب المسبوك / ٢٧٧ وفيه : ما ذل ذو حق وان اطبق الناس عليه وما عز ذو باطل ولو طلع القمر بين عينيه •
(٢٢) الذخائر والتحف / ٢٢٠ •
(٢٣) التنبيه والاشراف / ٣١٤ •

خاتمين آخرين ، نقش على احدهما « يؤتى الحذر من مأمنه »، وعلى الآخر « انا من آل محمد ، والله ولي محمد » (٢٤) • وقد يكون اتخذ الخاتم الأخير ليدل على ولائه لآل البيت وحبه للعلويين وعطفه عليهم • على ان الخطيب البغدادي يذكر ان نقش خاتمه كان « محمد رسول الله » وان له ختما آخر نقش عليه « المنتصر بالله » (٢٥) •

٣ ـ ولاية العهد :

بعد ان استتب الامر للمنتصر بالله اخذ الوزير احمد بن الخصيب يحذر القواد الذين تآمروا على اغتيال المتوكل على الله من انتقام ابنائه الآخرين اذا ما تولى احدهم الخلافة ، ولا سيما المعتز ولي العهد والمؤيد الذي كان يليه في ولاية العهد • مما جعلهم يتوجسون خيفة منهما ، ويرون ان سلامتهم وامنهم رهينان بابعادهما عن تولي الخلافة • وقد سبق ان ذكرنا ان المتوكل على الله قد اخذ العهد لاولاده الثلاثة بكتب كتبها وشروط اشترطها ، وخصص لكل منهم جزء من اقاليم الدولة ، وجعل محمد المنتصر ولي عهده وبعده المعتز ثم يليه المؤيد • واخذت البيعة بهذا على الناس • ولذا عمل ابن الخصيب والقواد الاتراك على خلع الاخوين من ولاية العهد ليأمنوا انتقامهما لأبيهما ، والحوا على المنتصر بالله في الأمر وزينوا له ان يولي ابنه عبدالوهاب العهد من بعده •

---

(٢٤) العقد الفريد ٥/١٢٣ •

(٢٥) تاريخ بغداد ٢/١٢٠ •

وكان المنتصر بالله ، رغم تظاهره بحب اخويه والتودد لهما ، يحقد عليهما لأن اباه كان يحسن معاملتهما ويفضلهما عليه وبخاصة المعتز ، ولذلك فقد استجاب للطلب • وامر بالطلب الى اخويه ان يخلعا نفسيهما من ولاية العهد • فوافق المؤيد وتردد المعتز غاضباً ، الا ان اخاه استطاع ان يقنعه حينما وضعه امام امر لا مفر منه ، اذ قال له « هذا الامر قتل اباك فليته لا يقتلك ، اخلعه ويلك ، فوالله لئن كان في سابق علم الله ان تلى لتلين» (٢٦) • فاجاب بالموافقة ايضا • وكتب كل منهما كتابا يخلع فيه نفسه من ولاية العهد ويحل الناس منها ، بموجب صيغة املاها عليهما كاتب الخليفة •

ولما دخل الاخوان على اخيهما الخليفة ليعلماه بموافقتهما على التنازل عن ولاية العهد رحب بهما واظهر لهما انه قام بذلك حرصا على حياتهما وليس طمعا في نقل ولاية العهد الى ابنه ، اذ قال « أترياني خلعتكما طمعا في ان اعيش حتى يكبر ولدي وابايع له ، والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن في ذلك طمع ، فوالله لان يليها بنو ابي احب الي من ان يليها بنو عمي ، ولكن هؤلاء ــ واومأ الى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ــ الحوا علـيّ في خلعكما ، فخفت ان لم افعل ان يعترضكما بعضهم بحديدة ، فيأتى عليكما • فما ترياني صانعا ، أقتله ؟ فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت اجابتهم الى ما سألوا اسهل علـيّ » (٢٧) •

---

(٢٦) الطبري ٩/٢٤٥ •
(٢٧) الطبري ٩/٢٤٥ـ٢٤٦ •

وعندما حضرا للتنازل ، كان اعوان المنتصر بالله قد احضروا الامراء من بني هاشم ، وكبار القواد ، ورؤوساء الدواوين ، والقضاة ، وصاحب الشرطة ، ووجوه الحرس وغيرهم ، ليشهدوا خلع المعتز والمؤيد نفسيهما • وكانت صيغة الكتاب بالتنازل الذي املي عليهما هي (٢٨) « بسم الله الرحمن الرحيم : ان امير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدني هذا الأمر وبايع لي وانا صغير من غير ارادتي ومحبتي ، فلما فهمت اموری علمت أنی لا اقوم بما قلدني ، ولا اصلح لخلافة المسلمين • فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حلّ ، وقد احللتكم منها ، وابرأتكم من ايمانكم ، ولا عهد لي في رقابكم ، وانتم براء من ذلك » •

وقرأ الرقاع الوزير احمد بن الخصيب • ثم قام كل واحد منهما وقال للحاضرين : هذه رقعتي ، وهذا قولي ، فأشهدوا عليّ ، وقد ابرأتكم من ايمانكم وحللتكم منها (٢٩) •

وأمر الخليفة ان يكتب الى خليفته ببغداد محمد بن عبدالله بن طاهر يعلمه بتنازل اخويه عن ولاية العهد التي عقدها ابوهما لهما من بعده ، وامره ان يكتب بذلك الى جميع العمال ويوعز اليهم بالعمل بموجبه ، وهو كتاب مطول جاء فيه (٣٠) « اما بعد •• وقد علمت ما حضرت من رفع ابي عبدالله وابراهيم ابنى امير المؤمنين المتوكل على الله الى امير المؤمنين رقعتين بخطوطهما ، يذكران ان فيهما ••• انهما قد خلعا انفسهما من ولاية العهد وخرجا منها ، وجعلا كل من لهما عليه بيعة ويمين ••• في حل

---

(٢٨) نفس المصدر / ٢٤٦ •
(٢٩) نفس المصدر / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •
(٣٠) نفس المصدر / ٢٤٧ ـ ٢٥٠ •

وسمة من بيعتهم وايمانهم ، ليخلعوهما كما خلعــا انفسهما ..
ويسألان امير المؤمنين ان يظهر ما فعــلاه وينشره .. وان اميــر
المؤمنين وقف على صدقهما فيما ذكرا ورفعا .. ورأى اميــر
المؤمنين ان يجمع في اجابتهما الى نشر ما فعلاه واظهاره .. وأمر
أمير المؤمنين بانشاء الكتب بذلك الى جميع العمال ليتقدموا في
العمل بحسب ما فيها ، ويخلعوا ابا عبدالله وابراهيــم من ولايــة
العهد .. فاعلم ذلك واكتب الى عمالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين
هذا اليك واوعز اليهم في العمل على حسبه » .

ومن الواضح ان عهد التنازل وكتاب الخليفة قد أعدا بصيغة
شملت تنازلهما عن ولاية العهد وما كان ترتب لهما من حقــوق
وامتيازات بموجبها . وقد صيغا بلغة متينة واضحة لا تخلو من
تكرار وتأكيد النقاط المهمة ، وتتضمن من المواثيــق ما يؤمــن
الغاية منها . كما تضمن الكتاب تأكيداً على ســلطة الخليفــة
المطلقة . وبتنازل ابنى المتوكل على الله عن حقوقهما في ولاية
العهد حقق القواد الاتراك مكسبا جديداً في السيطرة على شؤون
الخلافة . وكما استطاعوا التخلص من المتوكل على الله استطاعوا
ازاحة من لا يرغبون به من ابنائه عن ولاية العهد . وبذلك ضمنوا
سيطرتهم على تعيين الخليفة الذي ســيعقب المنتصر بالله عنــد
وفاته .

٤ ــ وفاة المنتصر بالله :

هناك عدة روايات قيلت عن سبب وفاة الخليفة المنتصر بالله ،
يستنتج منها ان وفاته لم تكن طبيعية . فقد قال بعضــهم انــه

اصابته الذبحة في حلقه (٣١) • وقيل ان علته كانت من ورم في معدته ثم تصعد الى فؤاده فمات(٣٢) • وقال آخرون انه وجد حرارة فدعا ببعض من يتطبب له وامره بفصده ، ففصده بمبضع مسموم فكانت فيه منيته (٣٣) • وذكر انه وجد علة في رأسه فقطر طبيبه ابن الطيفوري دهناً في اذنه فورم رأسه ، وعوجل فمات(٣٤) • كما ذكر سبب آخر لموته هو ان المنتصر بالله ضربته الريح ، فقد لعب كرة الصولجان وانصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ، ولما خرج منه نام في البادهنج فضربه الهواء وركبته حمى عالية • ولما عاتبه وزيره ابن الخصيب على ذلك ، اجابه بالا يخاف عليه من الموت ، لأنه رأى في منامه امس من اخبره بأنه سيعيش خمسا وعشرين سنة ، وذلك يعني انه سيبقى في الخلافة هذه المدة (٣٥) • ويبدو انه فسر حلمه كما كان يحلو له ويتمناه • غير ان الطبري يذكر هذا الحلم بشكل آخر خلاصته ان المنتصر بالله رأى في منامه أنه صعد درجا حتى انتهى الى خمس وعشرين مرقاة منه ، فقيل له : قف فهذا آخر عمرك (٣٦) •

على ان رواية موته بالسم يؤكدها اكثر من ذكروا اسباب وفاته من المؤرخين (٣٧) • وهم يعزون ذلك الى القواد الاتراك

---

(٣١) الطبري ٩/٢٥١ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ ، وتاريخ الاسلام ١/١٠٩ وفيه انه مات بالخوانيق •

(٣٢ و ٣٣) نفس المصادر •

(٣٤) الطبري ٩/٢٥٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٦١ ، والكامل ٧/١١٤ •

(٣٥) مروج الذهب ٤/١٣٣ ، والبادهنج هو المنفذ الذي يدخل منه الهواء الى الغرفة •

(٣٦) الطبري ٩/٢٥٣ •

(٣٧) الطبري ٩/٢٥٢ ، ومروج الذهب ٤/١٣٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، والكامل ٧/١١٥ •

الذين اخذوا يتوجسون منه . ويظهر ان المنتصر بالله اخذ يشعر بالندم وتأنيب الضمير لمساهمته في مؤامرة قتل ابيه . لاسيما وان الأمر انتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم بأنه قاتل ابيه ، وان مدة حياته لا تطول اكثر من ستة اشهر بعد ابيه ، وهي المدة التي عاشها شيرويه الفارسي قاتل ابيه . وهناك قصة تروى عن بساط كان مفروشا في احد الأروقة في القصر ، وعليه صورة فرس عليه راكب وعلى رأسه تاج ، وحول الصورة كتابة بالفارسية ، لفتت نظر المنتصر بالله ، فترجمت له . فاذا هي صورة شيرويه قاتل ابيه ابرويز الملك وانه عاش بعده ستة اشهر ، فلما سمع ذلك تغير وجهه وقام من مجلسه (٣٨) . ويظهر من رواية المسعودي للخبر ان البساط المذكور كان تحت المتوكل على الله ليلة اغتياله، وعليه آثار من الدماء (٣٩) . ولعل ذلك كان مبعث تشاؤم المنتصر بالله وتغير وجهه .

لاشك في ان الشعور بالذنب او الندم هو ضريبة الجريمة . وكلما اعتقد المجرم بعظم جرمه وفداحة ما ارتكبه من اثم ازداد هذا الشعور ، فيعيش صاحبه في جو خانق من الخوف والقلق ، مما يسبب له آلاماً نفسية مبرحة ، وتوتراً عصبيا مستمراً . وقد كثرت نتيجة لوضع المنتصر بالله النفسي احلامه التي كانت انعكاسا لشعوره بالأثم وندمه على فعلته . وكان لهذا الوضع النفسي السيء الذى صار اليه المنتصر بالله رد فعل شديد تمثل بحنقه الزائد على القواد الاتراك وبخاصة اولئك الذين قتلوا اباه .

---

(٣٨) تفصيل قصة البساط في : مروج الذهب ٤/١٣٠–١٣١ ، ونشوار المحاضرة ٥/١٨٣–١٨٤ وفيه ان صاحب الصورة هو شيرويه بن كسرى هرمز .

(٣٩) مروج الذهب ٤/١٣١ .

فلما شعر اولئك القواد بتغير شعور المنتصر بالله تجاههم اخذوا يتحينون الفرصة للتنكيل به والتخلص منه قبل ان يبيدهم • فجعلوا لخادم له ثلاثين الف دينار على ان يحتال في سمه ، وجعلوا لأبن طيفور الطبيب الذي كان يشرف على شؤون الخليفة الصحية ، جملة من المال للغرض نفسه(٤٠) • فاتفق الطبيب والخادم على ان يدسوا له السم في كمثراة ناضجة قدمت للمنتصر بالله ، اذ كان يحب الكمثرى ويكثر من اكلها اذا قدمت له مع الفاكهة • فلما اكلها وجد حرارة فعالجه ابن طيفور بالحجامة والفصد ، وكانت الاتهما مسمومة فكان في ذلك موته (٤١) • ويقال ان ابن طيفور القى المبضع المسموم بين مباضعه الاخرى ، ثم انه بعد مدة وجد حرارة فدعا تلميذاً له ليفصده ، فنظر في المباضع فلم يجد أحد من ذلك المبضع ولا اجود ، ففصده به فمات (٤٢) • ويرجح ان في هذا الخبر مبالغة لأن المبضع المسموم قد نفذ سمه باستخدامه في المرة الاولى ، وقد يكون هذا القسم من رواية سم المنتصر بالله بالفصد ، قد اضيف بغرض التأكيد على ان المبضع الذي استخدم في فصده كان مسموما •

ان تعدد الاسباب التي ذكرت لموت المنتصر بالله ، يبدو وكأنها اشيعت للتغطية على سبب موته الحقيقي • وهو ان الطبيب المتوطيء مع القواد الأتراك قد سمه بالسم المعروف آنذاك وهو الزرنيخ • وكان قد استغل اصابته بالبرد الشديد ــ وربما كان

---

(٤٠) الطبري ٩/٢٥٢ ــ ٢٥٣ ، وفوات الوفيات ٢/٣٧٢ ، وتاريخ الاسلام ١/١٠٩ • وفي المصدرين الاخيرين ان الاتراك جعلوا للطبيب ثلاثين الف دينار •

(٤١) الطبري ٩/٢٥٣ ، والكامل ٧/١١٤ ، وشذرات الذهب ٢/١١٩ •

(٤٢) الطبري ٩/٢٥٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٦٠ـ٥٦١ ، والكامل ٧/١١٤ •

قد اصيب بذات الرئة ـ وبقاءه في الفراش قرابة عشرة ايام ، فاخذ يعطيه جرعات منه يوميا مع الدواء الذي كان يسقيه اياه ٠ ولما قارب جسم المنتصر بالله ان يستوفي من كمية الزرنيخ ما يكفي لقتله اظهر الطبيب ان ما وضعه من السم في الكمثرى سيؤدي الى موته ٠

اما تاريخ وفاته فتكاد تتفق المصادر على انه توفى يوم الأحد لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ(٤٣) ٠ وكانت وفاته بالقصر المحدث بسامرا (٤٤) ٠ ويقال انه لما حضرته الوفاة قال : (٤٥)

فما فرحت نفسي بدنيا أخذتها
ولكن الى الرب الكريم أصير

وجاء ذلك في فوات الوفيات كمايأتي : (٤٦) ٠

فما متعت نفسي بدنيا احبتها
ولكن الى الرب الكريم اصير

وما كان ما قدمته رأى فلتة
ولكن بفتياها اشار مشير

وهو يشير بهذا الى ندمه وطلبه المغفرة ، والى الفتوى التي حصل عليها من بعض الفقهاء عندما استفتاهم في قتل ابيه من غير

---

(٤٣) الطبرى ٩/٢٥١ ، ومروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ، والكامل ٧/١١٤ وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٣ وفيه انه توفي يوم السبت لاربع خلون من ربيع الآخر ٠

(٤٤) الطبري ٩/٢٥٤ ٠

(٤٥) نفس المصدر / ٢٥١ ٠

(٤٦) فوات الوفيات ٢/٣٧٣ ٠

ان يسميه ، وحكى عنه اموراً قبيحة (٤٧) · لم تفصح عنها المصادر التي اطلعنا عليها ·

وقد اختلف المؤرخون في مقدار عمر المنتصر بالله عند وفاته · فان كلا من الطبري واليعقوبي والخطيب البغدادي ومسكويه والمسعودي وابن الأثير يرون انه توفي وعمره خمس وعشرون سنة وستة اشهر (٤٨) · الا ان الطبري والخطيب البغدادي يستدركان ويقولان : بل كان عمره اربعا وعشرين سنة (٤٩) · كما ان المسعودي يذكر في كتابه التنبيه والاشراف انه توفي وعمره ثمان وعشرون سنة (٥٠) · ويقول ابن عبد ربه ان عمره كان ستا وعشرون سنة الا ثلاثة اشهر (٥١) · اما الذهبي فيرى انه توفي وعمره ست وعشرون سنة (٥٢) ·

ويعود سبب الاختلاف في مقدار عمر المنتصر بالله الى عدم التثبت من تاريخ ميلاده · فان الخطيب يقول ان مولده كان في ربيع الآخر من سنة ٢٢٢هـ (٥٣) · بينما يرى ابن عبد ربه انه ولد في ربيع الاول من السنة المذكورة (٥٤) · اما صاحب خلاصة الذهب المسبوك فيقول انه ولد في سنة ٢٢٤هـ (٥٥) ·

---

(٤٧) الطبري ٢٥٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٦١/٦ ·

(٤٨) الطبري ٢٥٣/٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٩٣/٢ ، وتاريخ بغداد ١١٩/٢ ، وتجارب الامم ٥٦١/٦ ، ومروج الذهب ١٢٩/٤ ، والكامل ١١٥/٧ ·

(٤٩) الطبري ٢٥٣/٩ ، وتاريخ بغداد ١٢٠/٢ ·

(٥٠) التنبيه والاشراف / ٣١٤ ·

(٥١) العقد الفريد ١٢٣/٥ ·

(٥٢) العبر ٤٥٣/١ ·

(٥٣) تاريخ بغداد ١١٩/٢ ·

(٥٤) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٧ ·

(٥٥) العقد الفريد ١٢٣/٥ ·

ورزق المنتصر بالله من الولد علياً وعبدالوهاب وعبـــدالله واحمد (٥٦) • وكانت مدة خلافته ستة اشهر (٥٧) • وقد صلى عليه عند دفنه احمد بن محمد بن المعتصم بالله الذي تولى الخلافة بعــده ولقب بالمستعين بالله • ودفن بسامرا بقبر ظاهر مشهود كما سبق ان اشرنا (٥٨) وكانت ولادته بسامرا كذلك (٥٩) •

٥ ـ المنتصر بالله والاحلام :

مما يلفت النظر في مدة خلافة المنتصر بالله كثرة الأحلام التي رآها هو بنفسه ورواها لحاشيته والمقربين اليه ، والتي رآهـا اشخاص آخرون ، وبعضهم مما كانت له علاقة بهم • وكلها تدور حول عمره ومدة خلافته • اذ بالاضافة الى الحلم الذي سبق ان ذكرناه ، فان المنتصر بالله انتبه ذات يوم من نومه وهــو يبكــي وينتحب • فسأله نديمه وصاحبه عبدالله بن البازيار عما يبكيه ، فقال : رأيت في نومي كأن المتوكل على الله قد جاءني وقال لي ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغبنتني في خلافتي ، واللــه لا تمتعت بها الا اياما يسيرة ، ثم مصيرك الى النار • فانتبهــت مذعوراً لا املك عيني ولا جزعي • فقال له ابن البازيار مخففــاً عنه : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، بل يعمرك الله ويسرك ، ادع بالنبيذ وخذ في اللهو ولا تعبأ بها (٦٠) •

---

(٥٦) العقد الفريد ٥/١٢٣ •

(٥٧) الطبري ٩/٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٣ ، ومروج الذهــب ٤/١٢٩ وتجارب الامم ٦/٥٦١ •

(٥٨) الطبري ٩/٢٥٤ ، ومروج الذهب ٤/١٣٤ ، وتجارب الامــم ٦/٥٦١ ، والكامل ٧/١١ •

(٥٩) الطبري ٩/٢٥٣ ، والكامل ٧/١١٥ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٧ •

(٦٠) الطبري ٩/٢٥٢ ، والكامل ٧/١١٥ •

وذكر عن احمد بن صالح صاحب المصلى انه قال : كان لابي مؤذن فرآه بعض اهلنا في المنام كأنه أذن أذاناً لبعض الصلوات ، ثم دنا من بيت فيه المنتصر بالله فنـــادى يا محمـــد ان ربـــك لبالمرصاد(٦١) • وقال عبدالملك بن سليمان بن ابي جعفر : رأيت في منامي المتوكل على الله والفتح بن خاقان وقد احاطت بهمـا نار ، وقد جاء المنتصر بالله فاستأذن عليهما ، فمنع من الوصول اليهما ، ثم اقبل المتوكل على الله عليّ فقال لي ياعبدالملك قـل لمحمد بالكأس الذي سقيتنا تشرب ، فلما اصبحت غـدوت على المنتصر بالله فوجوته محموما ، فواظبت على عيادته فمات من ذلك المرض ، وسمعته يقول في مرضه عجلنا فعوجلنا(٦٢) •

وكان وزير المنتصر احمد بن الخصيب غضب على احد عماله وقرر ان يصادره ، فعلم ابن ذلك العامل ما ازمع عليه الوزير ، فاراد ان يخبر اباه بذلك ليتخذ الحيطة • فـزاره بعض كتـاب الديوان وجلس عنده • يقول ابن العامل : وشغلت عـن جليسي فاتكأ على الوسادة وغفا ، ثم انتبه مرعوبا وقال انه رأى رؤيـا عجيبه ، فقد رأى الوزير ابن الخصيب واقفـا يقـول : يمـوت الخليفة المنتصر بالله الى ثلاثة ايام • فقلت له : ان الخليفة فـي الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من الأوهام • فما استتما كلامهما حتى دخل عليهما داخل يقول : ان الخليفة انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فـي البادهنج فضـربه الهواء ، وركبته حمى هائلة (٦٣) •

---

(٦١) الطبري ٩/٢٥٥ •
(٦٢) مروج الذهب ٤/١٣٤ •
(٦٣) نفس المصدر / ١٣٣ •

ويقال ان احد الكتاب رأى في المنام في الليلة التي استخلف فيها المنتصر بالله كأن قائلا يقول (٦٤) :

هـذا الامـــام المنتصر	والملـك الحـادي عشر
فـأمـــره اذا أمـــر	كالسيف ما لاقـى بتـر
وطـرفـــه اذا نظـر	كالدهـر في خير وشر

لا غرابة في حدوث الأحلام التي آشرنا اليها اذا ما نظرنا اليها على ضوء علم النفس الحديث . فان الأفكار والذكريات المؤلمة التي لا يقوى الانسان على تحملها ، اما لتألمه منهـا او لنفرتـه عنها ، تتجمع بتأثير قوة نفسية خفية في غياهب لاشعوره . وذلك ما يدعى بالكبت . وان بعض الرغبات والأماني التي يملل الفرد بها نفسه ويتمناها في يقظته ، ثم يكبتها لسبب ما ، فان الأحلام تتولى غالبا تحقيقها بالتعبير عنها بشكل صريـح مكشـوف ، او بصورة رمزية مقنعة تحتاج الى التفسير والتأويل . وهناك نوع من الاحلام ينبىء عن حوادث مقبلة . وتقوم مثل هذه الاحـلام على توقع الشخص لا شعورياً بحدوث امر معين ، فيظهر له في الحلم ما توقعه .

اما مجتمع سامرا الذي هزته حادثة اشتراك المنتصر بالله في مؤامرة اغتيال ابيه ، وتوليه الخلافة بعده ، ثـم شيوع قصـة البساط وصورة الملك قاتل ابيه وموته بعده بستة اشهر ، فقـد شغلته هذه الأفكار . يقول الطبري « ولم ازل اسمع الناس حين

---

(٦٤) نفس المصدر / ١٣٧ .

افضت اليه الخلافة من لدن ولي الى ان مات يقولون : انما مدة حياته ستة اشهر ، مدة شيرويه : بن كسرى قاتل ابيه ، مستفيضا ذلك على السن العامة والخاصة » (٦٥) • بحيث كان الناس يلهجون بذلك في مجالسهم وهم يتوقعون او يتمنون للمنتصر بالله ما اصاب شيرويه من قصر عمره وعدم تمتعه بالملك بعد ابيه، فكانوا يترقبون موته قريباً •

وبالنظر لفداحة الجرم الذي ارتكبه المنتصر بالله بحق ابيه ، فان الناس كانوا يعتقدون ان الله تعالى له بالمرصاد ، وان مصيره سيكون الى النار • فكانت الاحلام التي رآها بعضهم هي انعكاسات لهذه الخواطر والافكار والتمنيات التي يحاولون جهدهم ان يكبتوها خوفاً من السلطة •

---

(٦٥) الطبري ٢٥٢/٩ •

الفصل السادس

المستعين بالله

ابو العباس احمد بن محمد بن المعتصم بالله

١ ـ مبايعته :

بعد ان ارغم المنتصر بالله اخويه على التنازل عن ولاية العهد حاول القواد الاتراك ان يقنعوه بان يعهد الى ابنه عبدالوهاب • الا انه لم تتح له الفرصة ليعهد الى احد من بعده اذ ادركته المنية بعد فترة وجيزة من تنازل اخويه (١) • وعند وفاة المنتصر بالله اجتمع كبار القواد الاتراك : بغا الكبير وبغا الصغير واوتامش وعدد من رجال الدولة وعلى رأسهم احمد بن الخصيب وزير الخليفة المتوفى ، في القصر الهاروني لاختيار خليفة • فاستحلف القواد الحاضرون من الاتراك والمغاربة على ان يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا

---

(١) تنازل المعتز والمؤيد لسبع بقين من صفر سنة ٢٤٨ ، ومات المنتصر لاربع خلون من ربيع الآخر ـ اي بعد اربعين يوما • الطبري ٢٤٦/٩ و٢٥١ على التوالي •

الصغير واوتامش (٢) • وكان ذلك بتدبير من الوزير لتأمين استمرار السلطة بيد قتلة المتوكل على الله • وقد حرص هؤلاء على ان لا يتولى الخلافة احد ابنائه • فاشار احمد بن الخصيب على القواد الثلاثة بان يبايعوا ابا العباس احمد بن محمد بن المعتصم بالله (٣) • فلما حضر ليبايعوه ، قال : استعين بالله ، فلقب بعد مبايعته بالمستعين بالله (٤) • وقد برروا اختياره بانهم حرصوا على ان لا تخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم بالله(٥) • وكانت تلك هي البيعة الخاصة للمستعين بالله •

ولما حضر المستعين بالله صباح اليوم التالي دار العامة ، وقد لبس زي الخلافة لمبايعته البيعة العامة ، حضر القواد وكثير من بني العباس والطالبيين وغيرهم • ويظهر ان اختيار ابي العباس لقي معارضة من بعض القواد فحرضوا عدداً من الجند والفرسان فجاءوا الى الدار ليبدوا معارضتهم وتبعهم كثير من العامة ، فشهروا السلاح ونادوا بمبايعة المعتز بالله ، فشد عليهم المغاربة والاشروسنية الذين بايعوا المستعين بالله ، وتمكنوا بواسطة بغا الصغير وجماعته من الأتراك من القضاء على هذه الحركة التي استمرت ثلاثة ايام ووقع فيها قتلى من الطرفين • وكان الموالون للمستعين بالله قد اخذوا له البيعة ممن حضروا الدار في ذلك اليوم (٦) • ويقول

---

(٢) الطبري ٩/٢٥٦ •

(٣) الطبري ٩/٢٥٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٨/٤٩٤ والنبراس / ٨٦ وجاء فيه ان احمد هو ابن محمد المعتصم بالله ، وهو واهم في ذلك •

(٤) تاريخ بغداد ٥/٨٤ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ •

(٥) الطبري ٩/٢٥٦ •

(٦) نفس المصدر / ٢٥٧ •

اليعقوبي « وفرق المستعين في الناس اموالا كثيرة ، واستقامت اموره » (٧) ٠

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد المستعين بالله يوم الثلاثاء السابع من رجب سنة ٢٢١هـ(٨) ، وامه جارية صقلبية اسمها مخارق(٩) ٠ وكان المستعين بالله اطلق يدها ولم يمنعها من شيء تريده ، فكانت شديدة الاسراف ، تحتجز أكثر الاموال التي تحمل الى بيت المال ، وقد وجد في خزائنها عندما خلع الاتراك ابنها ما قيمته الف الف دينار(١٠) ٠ وعاشت بعد قتل ابنها مدة ٠

اما صفات المستعين بالله الجسمية فقد كان ربعة خفيف العارضين ، حسن الوجه ، وبوجهه أثر جدري ، يلثغ في السين نحو التاء(١١) ٠ ويضيف المسعودي انه كان مسمناً اسود اللحية (١٢) ٠ اما عن سلوكه وسياسته فقد تفاوتت فيهما اراء المؤرخين ، اذ وصفه المسعودي بانه كان شديد الخوف على نفسه فاداه خوفه وقلة أمنه الى الهرب من دار ملكه فاديرت الأمور عنه(١٣) ٠ الا انه قال عنه في مكان آخر انه كان حسن المعرفة بأيام الناس واخبارهم لهجاً باخبار الماضين(١٤) ٠

---

(٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٤ ٠
(٨) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ ٠
(٩) مروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٤ ٠
(١٠) الذخائر والتحف / ٢٣٨ ٠
(١١) تاريخ بغداد ٥/٨٥ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٦ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٨ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ ٠
(١٢) التنبيه والاشراف / ٣١٥ ٠
(١٣) نفس المصدر ٠
(١٤) مروج الذهب ٤/١٥٦ ٠

وبينما يصمه ابن الطقطقي بانه كان مستضعفاً في رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت ايامه كثيرة الفتن ، ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة سوى انه كان كريما وهويا(١٥) ، يقول عنه الاربلي انه كان سديد الراي حسن التدبير (١٦) • ويقول السيوطي انه كان خيراً فاضلا ، اديبا بليغا ، وهو اول من احدث لبس الاكمام الواسعة فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وصغر القلانس وكانت قبله طوالا (١٧) • ويقول عنه الذهبي انه كان مسرفاً في تبدير الخزائن والذخائر (١٨) • وجاء عنه في فوات الوفيات انه كان خاملا يرتزق بالنسخ ، فلما جاءته الخلافة من حيث لا يحتسب قال :

جاء لطف الله بالأمر الذي لا ارتجيه

فعلي ان اقضي حق الله فيه

ويروي اعداءه البيت الثاني : ان اقضي حق الشرب فيه(١٩) •

يمكن ان يستنتج مما قاله المؤرخون بشأنه انه كان ضعيفا خائر العزم ، مستسلما سهل القياد • فقد استوزر اول امره احمد بن الخصيب ، الا ان انقياده للقواد الاتراك اضطره الى ان يستوزر القائد التركي اوتامش ، وهو ابن اخت بغا الكبير • وكان المتولي لامور اوتامش كاتبه شجاع بن القاسم الذي يقول عنه الحصري « انه امي لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم ، وانما علم علامات يكتبها في

---

(١٥) الفخري •

(١٦) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٩ •

(١٧) تاريخ الخلفاء / ٣٥٩ •

(١٨) شذرات الذهب ٢/١٢٦ •

(١٩) فوات الوفيات ١/١٢٦ •

التوقيع » (٢٠) . ويظهر ان اوتامش كان جشعا لا يهمه من الوزارة غير احتواء الاموال « فعمد الى ما في بيوت الاموال من الاموال فاكتسحها » (٢١) .

وكان من اول اعمال المستعين بالله بعد ان تمت له الخلافة انه ابتاع في جمادى الأولى سنة ٢٤٨هـ من المعتز والمؤيد جميع ما كان لهما من الدور والقصور والضياع والفرش والامتعة وغير ذلك بعشرين الف دينار ، واشهد عليهما بذلك القضاة والشهود العدول ، ويقال ان قيمة ما ابتاعه من المعتز عشرة الاف الف دينار ، ومن ابراهيم المؤيد ثلاثة الاف الف دينار (٢٢) . وكأنه بهذا قد صادرهما بطريقة مشروعة بشرائها بذلك الثمن البخس . ثم حبسهما في الجوسق ووكل بهما .

وعقد المستعين بالله في سنة ٢٤٩هـ لأبنه العباس على مكة والمدينة المنورة والبصرة والكوفة ، وعزم على ان يعهد اليه بولاية العهد ، ولكنه اخر ذلك لصغر سنه . فقال الشاعر ابو علي البصير قصيدة يستعجله البيعة بولاية العهد لابنه رغم صغر سنه يقول فيها (٢٣) :

بك الله احاط الدين وانتاش اهله
من الموقف الدحض الذي مثله يردي
فول ابنك العباس عهدك انه
له موضع ، واكتب الى الناس بالعهد

---

(٢٠) جمع الجواهر / ١٧٢-١٧٣ .
(٢١) الطبري ٩/٢٦٣ .
(٢٢) نفس المصدر / ٢٥٩ .
(٢٣) مروج الذهب ٤/١٥٤ .

فان خلفته السن فالعقل بالغ
به رتبة الشيخ الموفق للرشد

وقد كان يحيى اوتى العلم قبله
صبياً ، وعيسى كلم الناس في المهد

وعندما اشتد الخلاف بين المستعين بالله وبعض قواد الاتراك ، وانقسم القواد المذكورون على انفسهم انحاز الخليفة الى وصيف وبغا وانحدر معهما الى مدينة السلام وليس له معهما امر ولا نهي(٢٤) . وفي مدينة السلام اسلم امره الى اميرها محمد بن عبدالله الذي وقف الى جانبه في محاربة جيش سامرا ، ولكنه ما لبثان تخلى عنه وفرض عليه ان يخلع نفسه من الخلافة (٢٥) . وقد شرحنا ذلك في الفصل الخاص بالحرب بين سامرا وبغداد .

٣ ـ قتله :

لقد اتينا على تفصيلات الخلاف الذي نسب بين المستعين بالله وبعض القواد الاتراك مما اضطره الى الانحدار الى بغداد ، ثم مبايعة القواد في سامرا للمعتز بالله ، مما ترتب عليه وجود خليفتين في آن واحد ، وقيام الحرب بينهما ، وانتهائهما بخلع المستعين بالله نفسه من الخلافة ومبايعته للمعتز بالله ، وذلك في الفصل الخاص بالنزاع بين خلفاء سامرا والاتراك .

---

(٢٤) نفس المصدر / ١٤٥ .

(٢٥) الطبري ٩/٣٤٤ .

كان المستعين بالله نقل اثر تنازله عن الخلافة الى قصر الحسن بن سهل بالمحرم (٢٦) ، مع عياله وولده وجواريه • ووكل بهم سعيد بن رجاء الحضاري في اصحابه • ومنع من الخروج الى مكة حسبما كان قد اشترط عندما خلع نفسه • فاختار ان ينزل البصرة فلم يسمح له كذلك • فأحدر الى واسط فاقام هناك بضعة اشهر محبوسا وقد وكل به القائد التركي احمد بن طولون • الا ان القواد الاتراك الذين كانوا بايعوا المعتز بالله خافوا ان يستميل المستعين بالله بعض القواد والجند فيكيد لهم وللمعتز بالله ، وقد افصحوا عن مخاوفهم لام المعتز بالله فاضطربت خوفاً على ابنها ، فاتفقت معهم على وجوب التخلص من الخليفة المخلوع • ولما تقرر قتله كتب المعتز بالله الى محمد بن عبدالله يأمره بتسليم المستعين الى سيما الخادم ، فكتب محمد الى الموكلين به بواسط بتسليمه الى سيما • فاخرجه احمد بن طولون الى القاطول وسلمه الى سعيد بن صالح ، المعروف بسعيد الحاجب ، الذي كلف بقتله ، واحتز رأسه • وهناك عدة روايات عن الطرق التي اتبعت في قتله • اذ يقال انه ادخله منزله وعذبه حتى مات (٢٧) • ويقال ان سعيد ركب مع المستعين بالله في زورق ومعه عدة حتى حاذى به فم دجيل فشد في رجله حجراً والقاه في الماء (٢٨) • وذكر ان سعيداً كلف به رجلا من الاتراك يقتله ، فسأله المستعين بالله ان يمهله حتى يصلي ركعتين ، وكانت عليه جبة ، فسأل سعيد التركي الموكل بقتله ان يأخذها منه قبل قتله ،

---

(٢٦) الطبري ٩/٣٤٠ ، ومروج الذهب ٤/١٦٣-١٦٤ وفيه انه احدر الى دار الحسن بن وهب ببغداد •

(٢٧) الطبري ٩/٣٦٣ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٥ ، والكامل ٧/١٧٣ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٥ •

ففعل ذلك ، فلما سجد في الركعة الثانية قتله واخذ رأسه (٢٩) ٠ وذكر الطبري الى جانب الروايات المذكورة روايات اخرى (٣٠) ٠ وانفرد صاحب خلاصة الذهب المسبوك بالقول بان الذي قتله هو بغا وحمل رأسه الى الخليفة المعتز بالله (٣١) ٠

وجيء بالرأس الى المعتز بالله ، وكان يلعب الشطرنج مع بعض اصحابه ، فقيل له : هذا رأس المخلوع ، فقال ضعوه هناك ٠ وبعد ان فرغ من لعبه دعا به فنظر اليه ثم امر بدفنه ٠ وامر لقاتله سعيد الحاجب بخمسين الف درهم وولاه معونة البصرة (٣٢) ٠ وهناك رواية اخرى عن عرض رأس المستعين بالله على المعتز بالله في مجلس غنائه (٣٣) ٠

كان المستعين بالله قد قتل في الثالث من شوال سنة ٢٥٢هـ (٣٤) ٠ وقد اختلف في عمره ، فيقول المسعودي انه خمس وثلاثون سنة ، ويقول الخطيب البغدادي انه اربع وعشرون سنة (٣٥) ٠ ويلاحظ التفاوت الكبير بينهما ٠ اما السيوطي فيذكر ان عمره كان احدى وثلاثين سنة ، ويقول الابلي انه مات عن ثلاثين سنة (٣٦) ٠ الا انه لما كان الطبري وابن الأثير والسيوطي يتفقون على انه كان في الثامنة

---

(٢٩) الطبري ٩/٣٦٤ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٥ ٠
(٣٠) الطبري ٩/٣٦٣ ــ ٣٦٤ ٠
(٣١) خلاصه الذهب المسبوك /٢٢٩ ٠
(٣٢) الطبرى ٩/٣٦٤ ، والكامل ٧/١٧٣ ٠
(٣٣) الديارات/١٧٠ ٠
(٣٤) الطبري ٩/٣٦٣ ، ومروج الذهب ٤/١٤٤ ٠
(٣٥) مروج الذهب ٤/١٤٤ ، وتاريخ بغداد ٥/٨٥ ٠
(٣٦) تاريخ الخلفاء / ٣٥٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٩ ٠

والعشرين عندما بويع بالخلافة (٣٧) ، وان مدة خلافته ثلاث سنوات وتسعة اشهر فان عمره يكون في حدود احدى وثلاثين سنة ٠ وهذا يتفق مع سنة مولده في ٢٢١هـ التي سبقت الاشارة اليها ٠ وكانت المدة بين خلعه وقتله تسعة اشهر كان معتقلا فيها (٣٨) ٠

* * *

(٣٧) الطبري ٢٥٦/٩ ، والكامل ١١٧/٧ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٨ ٠
(٣٨) شذرات الذهب ١٢٥/٢ ٠

الفصل السابع

المعتز بالله

ابو عبدالله المعتز بالله بن جعفر المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

عندما عاد القواد الاتراك الذين ذهبوا الى بغداد لمقابلة المستعين بالله واقناعه بالعودة الى سامرا ، وقد يئسوا من عودته ، حرضوا اصحابهم على خلعه من الخلافة ، واجمعوا على مبايعة المعتز بن المتوكل على الله بدلا عنه . وكان المستعين بالله عندما انحدر الى بغداد قد حبس المعتز واخاه المؤيد في الجوسق واوكل بهما رجلا من الاتراك مع عدد من الاعوان (١) . فاخرجوهما وبايعوا المعتز بالله وعينوا المؤيد ولياً للعهد من بعده ، وقد اختلفت المصادر في تاريخ مبايعته ، الا انها لا تتعدى عن النصف الأول من المحرم سنة ٢٥١هـ (٢) . فأمر المعتز بالله للجند برزق عشرة اشهر ،

---

(١) الطبري ٩/٢٨٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٥١ ، الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم ، وتاريخ بغداد ٢/١٢٢ : الاربعاء لثلاث عشرة خلت من المحرم ، والنبراس / ٨٨ : يوم السبت لست خلون من المحرم .

فلم يتوفر المال الكافي لذلك ، فاعطوا ارزاق شهرين فقط . ومن الجدير بالذكر ان المستعين بالله كان خلف في بيت المال بسامرا نحوا من خمسمائة الف دينار ، وكان في بيت مال امه ما قيمته الف الف دينار ، وفي بيت مال ابنه العباس ما قيمته ستمائة الف دينار (٣) .

وقد اخذت البيعة للمعتز بالله كتابة ، وفيمايلي خلاصتها (٤) : « بسم الله الرحمن الرحيم ، تبايعون عبدالله الامام المعتز بالله امير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد .. لا مكرهين ولا مجبرين بل مقرين عالمين بما في هذه البيعة وتاكيدها من تقوى الله وايثار طاعته .. على ان ابا عبدالله المعتز بالله عبدالله وخليفته المفترض عليكم طاعته ونصحيته .. في السر والعلانية .. متمسكين ببيعته بوفاء العقد وذمة العهد .. وبولاية عهد المسلمين لابراهيم المؤيد بالله اخى امير المؤمنين ، وعلى الا تسعوا في نقض شيء مما اكد عليكم .. وعلى الا تبدلوا ولا تغيروا ، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته .. فمن نكث منكم مما بايع امير المؤمنين وولي عهد المسلمين .. فكل ما يملك من مال وعقار او سائمة او زرع او ضرع صدقة على المساكين .. وكل مملوك يملكه اليوم والى ثلاثين سنة ذكر وانثى ، احرار لوجه الله ، ونساؤه يوم يلزمه فيه الحنث ومن يتزوج بعدهن الى ثلاثين سنة طوالق طلاق الحرج ، لا يقبل الله منه الا الوفاء بها .. والله عليكم بذلك شهيد » .

---

(٣) الطبرى ٩/٢٨٤ ، والكامل ٧/١٤٣ .

(٤) نص كتاب البيعة فى الطبري ٩/٢٨٤ ـ ٢٨٦ .

ومما يدعو الى الاستغراب ان القواد الاتراك الذين تآمروا على المتوكل على الله اختاروا المعتز بالله للخلافة وعينوا اخاه المؤيد لولاية العهد ، بعد ان كانوا استبعدوا اولاد المتوكل على الله عندما اختاروا المستعين بالله بعد وفاة المنتصر بالله • وقد يكون سبب ذلك انهم شعروا بانهم اقوى من الخليفة الذي اختاروه وبوسعهم التخلص منه متى ما ارادوا ذلك •

وركب المعتز بالله من غد ذلك اليوم الى دار العامة فاخذت له البيعة العامة على الناس ، وخلع على اخيه المؤيد ، وعقد له عقدين اسود وابيض ، فكان الأسود لولاية العهد بعده ، والأبيض لولاية الحرمين • وبعثت الكتب بذلك الى سائر الأمصار (٥) • وعندما خلع المستعين بالله نفسه من الخلافة لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٥٢هـ وبايع للمعتز بالله(٦) ، استقرت الخلافة للأخير في جميع ارجاء الدولة العربية •

٢ ـ صفاته وسيرته :

تقاربت المصادر التاريخية التي وصفت المعتز بالله في انه كان جميل الوجه لم ير في الخلفاء مثله جمالا ، ابيض مشربا بحمرة ، اسود الشعر كثيفه ، ادعج العينين ، وكان حسن الجسم طويل القامة (٧) • ويقول عنه المسعودي انه كان يؤثر الملذات ويعدم

---

(٥) مروج الذهب ٤/١٦٢ ـ ١٦٣ •
(٦) الطبرى ٩/٣٤٥ ، ومروج الذهب ٤/١٦٣ •
(٧) الطبري ٩/٣٩٠ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٦ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ •

الرأي وتدبره امه قبيحة ، وقد غلب على امره ، وقهر سلطانه ، وكانت الكتب تخرج باسم صالح من وصيف كأنه مرسوم بالوزارة لغلبته على الأمور (٨) . ويرى ابن الطقطقي ان المعتز بالله لم يكن بسيرته وعقله بأس ، الا ان الاتراك كانوا قد استولوا ، منذ قتل المتوكل على الله ، على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاءوا ابقوه وان شاءوا خلعوه وان شاءوا قتلوه (٩) . الا ان ابن دحيه يقول عنه انه كان فيه ادب وكفاية ولكن ذلك لم ينفعه لأدبار امره ولقرب قرناء السوء منه (١٠) .

ووصف المعتز بالله بانه كان سمح الأخلاق ، واسع الصدر ، له ادب وفهم ، وكان يقول شعرا صالحا ، وهو اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب ، وكان الخلفاء قبله يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة (١١) . وقد جعل نقش خاتمه « المعتز بالله » كما يقول المسعودي ، و «محمد رسول الله» كما جاء في خلاصة الذهب المسبوك (١٢) . ويظهر مما يذكره الخطيب البغدادي انه كان له ختمان ، احدهما كما ذكر المسعودي والآخر كما جاء في خلاصة الذهب المسبوك(١٣) .

---

(٨) التنبيه والاشراف / ٣١٦ـ٣١٧ .
(٩) الفخري / ٢٢٠ .
(١٠) النبراس / ٨٨ .
(١١) مروج الذهب ٤/١٨٠ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٩ .
(١٢) التنبيه والاشراف / ٣١٧ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ .
(١٣) تاريخ بغداد ٢/١٢٤ .

ولد المعتز بالله في يوم الخميس السادس عشر من ربيع الاول سنة ٢٣٢هـ(١٤) • وكان مولده بسامرا (١٥) • وامه قبيحة وهي ام ولد رومية(١٦) ، وكانت الزوجة المفضلة عند المتوكل على الله • وقد اختلف في اسمه ، فقد ورد في المعارف وفي مروج الذهب « الزبير » وجاء في الكامل والنبراس « الزبير ويقال طلحة »(١٧) •

٣ ـ خلع المؤيد من ولاية العهد :

نص عهد بيعة المعتز بالله على ان تكون ولاية العهد من بعده لأخيه ابراهيم المؤيد • وكان ذلك احياء للعهد الذي وضعه المتوكل على الله • وكانت العلاقة بين الاخوين ودية ، واستمرت كذلك حتى بلغ المعتز بالله ان عامل ارمينية العلاء بن احمد بعث الى المؤيد بخمسة الاف دينار ، فحاذر من اتصال اخيه ببعض القواد والعمال ، والعمل ضده • فبعث الى اخويه المؤيد وابي احمد طلحة ـ وهما شقيقان لأم واب ـ فحبسهما في الجوسق ، وقيد المؤيد ووضعه في حجرة ضيقة(١٨) • ثم علم ان جماعة من القواد الاتراك يريدون اخراجه من السجن ، ورغم عدم تحققه من ذلك ، فقد امر بضربه •

---

(١٤) تاريخ بغداد ١٢٢/٢ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٥٩ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ وفيه انه ولد في سنة ٢٣٣هـ •

(١٥) الطبري ٣٩٠/٩ ، وتاريخ بغداد ١٢١/٢ •

(١٦) مروج الذهب ١٦٦/٤ •

(١٧) المعارف / ٣٩٤ ، ومروج الذهب ١٦٦/٤ ، والكامل ٤٩/٧ ، والنبراس / ٨٨ •

(١٨) الطبري ٣٦١/٩ •

واحذت منه رقعة بخطه يخلع نفسه من ولاية العهد (١٩) . ثم ما لبث المؤيد ان مات في الحبس .

خشي المعتز بالله ان يتهم بقتل اخيه ، فدعا بلقضاة والفقهاء والشهود فأخرج اليهم ابراهيم المؤيد ميتا لا أثر به ولا جرح ، وحمله الى امه اسحاق على حمار وحمل معه كفن وحنوط ، وامر بدفنه . ويقال سبب موته انه ادرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه (٢٠) . كما يقال انه اقعد في حجر من ثلج ونضدت عليه حجرة التلج فماد بردا (٢١) . ويظهر ان موت المؤيد لم يكن طبيعيا ، وقد مات باحدى وسائل التعذيب المعروفة آنذاك بعد ان قرر المعتز بالله التخلص منه .

وقال الشاعر مروان بن ابي الجنوب قصيدة في مدح المعتز وامر المؤيد ، جاء فيها (٢٢) :

انت الذي يمسك الدنيا اذا اضطربت
يا ممسك الدين والدنيا اذا اضطربا

ما كنت اول رأس خانه ذنب
والرأس كنت وكان الناكث الذنبا

لو كان تم له ما كان دبره
لأصبح الملك والاسلام قد ذهبا

---

(١٩) الطبرى ٩/٣٦٢ ، ومروج الذهب ٤/١٧٦ .
(٢٠) الطبرى ٩/٣٦٢ ، ومروج الدهب ٤/١٧٦ .
(٢١) الطبري ٩/٣٦٢ .
(٢٢) الطبري ٩/٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

أراد يهلــك دنيــانـــا ويعطبهـــا
وقد اراد هـــلاك الديــن والعطبــا

لمــا اراد وثــوبــا مــن ســفاهتــه
امسى عليه امام العــدل قــد ونبــا

لقد رمــاك بسهم لــم يصبــك بــه
ومــن رمــاك عليـــه سهمه انقلبــا

لقد رعيت له مــا كــان مــن ســبب
فمـــا رعى لـــك احسانا ولا سببا

وكنــت اكثـــر بـــرأ من ابيه بــه
ولم تكــن بــأخ في البر ، كنت أبــا

وكان قــرب سريــر الملــك مجلســه
فقد تباعد منــه بعــد مـــا اقتربا

وذل بعـــد تمـــاديــه ونخـــوته
كالحوت اصبح عنه الماء قــد نضبا

وقد فسخت عــن الأعنـــاق بيعتــه
فلا خطيب لــه يدعـــوا اذا اختطبا

أمست قطيعة ابراهيم قــــد قطعت
حبل الصفاء وحبـــل الود فانقضبا

ويستنتج مما جاء في هذه الأبيــات ان المؤيد حــاول الوثــوب باخيه المعتز بالله ، رغم انه كان برأ به ، وقد احسن اليه وقربه حتى صار موضع احترام الجميع . الا انه تجاهل ذلك وتنكر له ، واخذ

يعمل ضد اخيه • هذا اذا لم يكن الشاعر قد حابى الخليفة وقال ما يرضيه •

٥ ـ خلع المعتز بالله وقتله :

لم يلبث القواد الاتراك ان اختلفوا مع المعتز بالله ، لاسيما عندما عجز عن تدبير الاموال لهم ولارزاق جندهم ، فقرروا خلعه والتخلص منه • وقد ذكرنا هذا بشيء من التفصيل في البحث الخاص بالخلفاء والقواد الاتراك • فقبضوا عليه واجبروه على ان يخلع نفسه من الخلافة • وكانوا اتفقوا على ان يبايعوا محمد بن الواثق بالله الا ان محمداً امتنع عن قبول البيعة له ما لم يخلع المعتز بالله نفسه امامه ، فاحضر المعتز بالله فتنازل امام محمد وتمت البيعة للخليفة الجديد الذي لقب بالمهتدى بالله •

وقد حبس المعتز بالله ، وكان القواد الاتراك قرروا قتله • فقتل في محبسه بعد بضعة ايام (٢٣) • وهناك عدة روايات عن كيفية قتله • فيقال انه منع عنه الطعام والشراب ثلاثة ايام ، ثم ادخلوه سردابا وجصصوه عليه فاصبح ميتاً (٢٤) • ويقال انهم ادخلوه الى الحمام حتى عاين الموت وهو يطلب الماء فيمنع عنه ، ثم اعطوه ماء مثلجاً فشربه وسقط ميتاً (٢٥) • ويقال انه ادخل الحمام فاغلق عليه حتى مات (٢٦) • وكانت وفاته في الثاني من شعبان

---

(٢٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٥٠٤/٢ •
(٢٤) الطبري ٣٩٠/٩ ، والكامل ١٩٦/٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٥٠٤/٢ •
(٢٥) العبر ٩/٢ •
(٢٦) النبراس / ٨٨ •

سنة ٢٥٥ هـ(٢٧) . ولما مات اشهدوا على موته بني هاشم والقواد بانه صحيح لا اثر فيه . فدفن مع المنتصر بالله في ناحية قصر الصوامع (٢٨) . اي انه دفن في قبر ظاهر مشهود كقبر المنتصر بالله وفي نفس المكان .

وكان مدة خلافته من يوم بويع له بسامرا الى ان خلع اربع سنين وستة اشهر وثلاثة وعشرين يوما (٢٩) . اما مدتها منذ ان تمت بيعته ببغداد فكانت ثلاث سنوات وسبعة اشهر (٣٠) . وكان عمره عند وفاته اربعا وعشرين سنة (٣١) .

---

(٢٧) تاريخ بغداد ١٢٦/٢ ، وتاريخ اليعقوبي ٥٠٤/٢ وفيه انه توفى لثلاث بقين من رجب .

(٢٨) الطبري ٣٩٠/٩ ، وتاريخ بغداد ١٢٥/٢ ـ ١٢٦ ، وجاء فيه : ويقال انه دفن بموضع يقال له السميدع .

(٣٠) مروج الذهب ١٦٦/٤ وتاريخ اليعقوبي ٥٠٤/٢ ، والنبراس /٨٨ ، وتاريخ بغداد ١٢٦/٢ ، وفيه تنقص المدة ثلاثة ايام .

(٣١) الطبري ٣٩٠/٩ ، ومروج الذهب ١٦٦/٤ ، والكامل ١٩٦/٧ .

الفصــل الثــامن

المهتــدي بالله

محمد بن الواثق بالله

١ ـ مبايعته :

بعد ان قرر الاتراك خلع المعتز بالله اجتمعت كلمتهم على ان ليس في اولاد الخلفاء افضل ولا اعقل من محمد بن الواثق بالله(١) . كانوا عندما حبسوا المعتز بالله بعثوا الى مدينة السلام لاحضار محمد ، وكان المعتز بالله قد نفاه اليها واعتقله فيها . ويقال ان سبب نفيه انه كان يكثر التردد على المعتز بالله وكان هذا يستمع الى اقواله في امور كثيرة ، وفيما يمضيه ويبديه . وكان كثيراً ما يعارض قبيحة ام المعتز بالله فيما تأمر وتنهى ، فضاقت به ذرعا ولم تزل بابنها حتى امر باحداره الىمدينة السلام على كره منه(٢) فلما جيء به الى سامرا عرض عليه الاتراك ان يبايعوه بالخلافة فابى حتى خلع المعتز بالله نفسه امامه واعترف بعجزه عن القيام بمهام

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٥ .
(٢) المحاسن والمساوىء / ٥٣٩ .

الخلافة ، ثم بايعه ، فتبعه القواد الاتراك والحاضرون وسمي المهتدي بالله • وكان ذلك في يوم الاربعاء لليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٥هـ (٣) •

وعندما ورد كتاب المهتدي بالله الى مدينة السلام بالبيعة له هاج من فيها من الجند وخرج معهم العامة وهجموا على دار سليمان بن عبدالله صاحب الشرطة ، وهتفوا باسم ابي احمد الموفق بن المتوكل على الله الذي كان حينذاك منفيا في مدينة السلام ، ونادوا بالبيعة له • فحدثت بالمدينة فتنة قتل فيها كثيرون ، وغرق في دجلة قوم وجرح أخرون • ويقول الطبري « حتى وجه الى اهل بغداد بمال رضوا ووقعت بيعته الخاصة ببغداد للمهتدي يوم الخميس لسبع ليال خلون من شعبان ، ودعى له يوم الجمعة لثمان خلون منه» (٤) •

ومدحه الشاعر البحتري مشيداً بورعه وعدله بقصيدة منها : (٥)

بارك الله للخليفة في الملك الذي حازه له المقدار

رتبة من خلافة الله قد طا
لت بها رقبة له وانتظار

طلبته فقراً اليه ، وما كا
ن به ساعة اليها افتقار

---

(٣) الطبري ٣٩١/٩ ومروج الذهب ١٨٢/٤ وتاريخ اليعقوبي ٥٠٥/٢ وفيه ان بيعته كانت قبل ذلك بيوم واحد • وتاريخ بغداد ٣٤٨/٣ •

(٤) الطبري ٣٩٣/٩ •

(٥) القصيدة في ديوان البحتري ٨٥٢/٢ـ٨٥٦ •

أخـذ الاوليـــاء اذ بايعـــوه
بيـــدي مخبت عليـــه الوقـــار

وتجلى للنـــاظـــرين أبـــي
فيـــه عن جانب القبيح ازورار

وارتنـــا السجاد سيما طويل الليل في وجهه لهـا آثـار

ولديه تحت السكينة والأخبات سطو على العدا واقتـدار

زاد في بهجة الخلافة نوراً فهو شمس للناس ، وهي نهار

واجار الدنيا من الخوف والحيف ، فهل يشكر المجير المجار

٢ ـ صفاته وسيرته :

ولد المهتدي بالله بالقاطول في سنة ٢١٨هـ وقيل ٢١٩هـ ونشأ بسامرا (٦) . وكان عمره عندما بويع له سبعا وثلاثين سنة ، وقيل تسعا وثلاثين(٧) . وامه ام ولد رومية يقال لها قرب(٨) . وقد توفيت قبل ان يبايع له . وكان قد تزوجها المستعين بالله ، ولما قتـل صير المعتز بالله مع الحرم في قصر الرصافة . وقال المهتدي يوما لجماعة من القواد الاتراك : اما انا ليس لي ام احتاج لها الى غلة عشرة الاف الف دينار في كل سنة لجواريها وخدمها والمتصلين بها ، وما اريد لنفسي وولدي الا القوت (٩) . وهو يعرض بهذا بام المستعين بالله

---

(٦) تاريخ بغداد ٣٤٨/٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣١ .
(٧) مروج الذهب ١٨٢/٤ .
(٨) الطبري ٣٩١/٩ ، ومروج الذهب ١٨٢/٤ ، وتاريخ الخلفـــاء / ٣٦١ ويسميها وردة .
(٩) الطبري ٣٩٦/٩ .

وأم المعتز بالله اللتين عرفتا باحتواء الاموال والاسراف في الانفاق، والامعان في حياة الترف ٠

اتفق الطبري والمسعودي على وصف المهتدي بالله بانه كان رحب الجبهة اجلح ، جهم الوجه ، اشهل عظيم البطن ، عريض المنكبين ، قصير القامة ، طويل اللحية (١٠) ٠ ويقول الخطيب البغدادي انه كان اسمر رقيقاً ، حسن اللحية ، اشيب ، حسن العينين(١١) ٠

وقد اختلف المهتدي عن اسلافه من خلفاء بني العباس في سلوكه وسياسته في الحكم ٠ اذ كان ، كما يقول الخطيب البغدادي ، من احسن الخلفاء مذهبا واجلهم طريقة ، واظهرهم ورعا ، واكثرهم عبادة (١٢) ٠ ويضيف السيوطي انه كان عادلا قويا في امر الله ، وبطلا شجاعا ، ولم يزل صائما منذ ان ولي الخلافة الى ان قتل(١٣) ٠ وكان يحاول ان يكون في بني العباس مثل عمر بن عبدالعزيز في بني امية ، وكان يقول انه غار على بني هاشم فاخذ نفسه بهذه السيرة ٠ وقد وجد له سفط فيه جبة صوف وكساء ، وكان يلبس ذلك في الليل ويصلي فيه (١٤) ٠

امر المهتدي بالله باخراج القيان والمغنين من حاضرة الخلافة سامرا ونفيهم الى بغداد ، وامر بقتل السباع التي كانت بدار

---

(١٠) نفس المصدر / ٤٦٩ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ ٠
(١١) تاريخ بغداد ٣/٣٤٨ ٠
(١٢) نفس المصدر ، والكامل ٧/٢٣٣ ٠
(١٣) تاريخ الخلفاء / ٣٦١ ٠
(١٤) تاريخ بغداد ٣/٣٥٠ ، والكامل ٧/٢٣٤ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ ٠

الخلافة وطرد الكلاب (١٥) • واطرح الملاهي ، وحـــرم الغنـــاء والشراب (١٦) • وامر ان يحد شارب الخمر كائنا من كان • فابغضه الجند واهل الفساد بسبب ذلك (١٧) • ومنع الموظفين والعمال عن الظلم والتعدى (١٨) • وذكر المسعودي اجراءات اخـــرى اتخذهـــا المهتدي بالله تقشفا وورعا ، فقد قلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب . وامر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفـــاء ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة الاف درهم ، فازال ذلك وجعل لمـــائـــدته وسائر مؤونته في كل يوم مائة درهم (١٩) •

وكان المهتدي بالله رد المظالم وجلس للعامة يستمع الى شكاواهم ويفصل بينهم (٢٠) • وبنى قبة لها اربعة ابواب سماها قبة المظالم ، وكان اذا جلس فيها للنظر في المظالم امر بان توضع مواقد الفحم في الاروقة عند اشتداد البرد ، واذ دخل المتظلم أمر بـــان يدفـــأ ويجلس ليسكن روعه ويثوب اليه عقله ويتذكر حجته ، ثم يدنيه

(١٥) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •
(١٦) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٣٥ ، والفخري / ٢٢٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٠ •
(١٧) خلاصة الذهب المسبوك •
(١٨) الكامل ٧/٢٣٤ ، والفخري / ٢٢٣ •
(١٩) مروج الذهب ٤/١٨٩ ـ ١٩٠ •
(٢٠) الطبري ٩/٤٠٦ ، والكامل ٧/٢٠٣ •

ويسمع منه (٢١) • وكان هو آخر من جلس لرد المظالم من خلفاء بني العباس (٢٢) • كما كان شديد الاشراف على امور الدواوين وشؤون الخراج ، ويحاسب كتاب الدواوين بنفسه (٢٣) •

ان تقليص نفقات دار الخلافة عامة ، ونفقات الخليفة بصورة خاصة ، وتشديد الرقابة على دواوين الدولة وامور الجباية ، كانت اهم ما قام به المهتدي بالله ، في مدة حكمه القصيرة • ويبدو انه كان يهدف الى اصلاح النظام المالي الذي كان قائما آنذاك ، بتنظيم جباية الايرادات ، واوجه الانفاق • الا انه لم يستطع ان يحقق من ذلك سوى شيء يسير لسوء الجهاز الاداري من جهة ولانشغاله في الصراع الذي نشب بينه وبين القواد الأتراك ، من جهة اخرى •

لقد كان لتزمت المهتدي بالله رد فعل سيء عليه ، فقد ثقلت وطأته على الناس عامة وخاصة ، فاستطالوا خلافته ، وسئموا ايامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه (٢٤) • ويعزو صاحب خلاصة الذهب المسبوك اتفاق الامراء الاتراك على محاربته وخلعه لما كان نهاهم عن جميع المنكرات ، ومنعهم عن تعاطي المحرمات(٢٥) • ومع ما في هذا القول من المغالاة فهو لا يخلو من الحقيقة • وقد قال له احد القواد الاتراك في احدى مناقشاته معهم : أتريد ان تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ قال : اريد ان احملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقال

---

(٢١) المحاسن والمساوىء / ٥٤٠ •
(٢٢) الاحكام السلطانية / ٦٤ •
(٢٣) تاريخ بغداد ٣/٣٥٠ •
(٢٤) مروج الذهب ٤/١٨٣ •
(٢٥) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٢ •

له : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، وانت انما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي ، وغير ذلك من انواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت(٢٦) ؟ وشبيه بهذا ما يقوله المسعودي من ان المهتدي بالله « صاحب اقواما لا تجوز عندهم اخلاق الدين ولا يريدون الا امر الدنيا »(٢٧) . والواقع ان المهتدي بالله لم يجد له ناصرا عندما اصطدم بمخالفيه من الاتراك .

ويعزو ابن دحية ما واجه المهتدى بالله من المصاعب الى الرجال الذين تولوا شؤون الدولة على عهده ، فيقول : ولم يوفق في الوزير والحاجب والقاضي ، لأن وزيره جعفر بن محمود الاسكافي ، وحاجبه صالح بن وصيف ، وقاضيه الحسن بن محمد بن ابي الشوارب ، يحبون الدنيا ويشرئبون اليها ، فكانوا اعانة على سفك دمه (٢٨) .

٣ ـ خلعه وقتله :

تروي المصادر عدة روايات عن اسباب الخلاف الذي نشب بين الخليفة المهتدي بالله وبين القواد الأتراك . ومهما اختلفت تلك الروايات فانها تتفق في ان السبب الرئيس هو الشك القائم بين الخليفة وكبار القواد مما ادى الى صراع شديد بين الجانبين انتهى

---

(٢٦) مروج الذهب ٤/١٨٣ .
(٢٧) التنبيه والاشراف / ٣١٨ .
(٢٨) النبراس / ٨٩ .

بالقضاء على خلافة المهتدي بالله وحياته • فقد ضاق الخليفة المتزمت ذرعا بتسلط اولئك القادة على شؤون الدولة واستئثارهم بمواردها واموالها ، وحاول ان يستغل نقمة الجند على قوادهم وشكاواهم منهم ، وبعض الخلافات القائمة بين القواد انفسهم ، ويعمل للقضاء على بعضهم لأضعاف شوكتهم بصورة عامة • الا ان عمله في هذا كانت تنقصه الحكمة والتدبير ، وكانت محاولاته مكشوفة • فلما ادرك الاتراك نية المهتدي بالله نحوهم وعزمه على فل جمعهم واضعاف شأنهم ، وحدوا كلمتهم فقضوا على احد زملائهم هو القائد صالح بن وصيف الذي كان يظاهر الخليفة ، ومن ثم هاجموا الخليفة نفسه • فقصدوا دار الخلافة في منتصف شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ، وانضم اليهم الجند الاتراك الذين كانوا اعلنوا ولاءهم للخليفة ، فبقي معه عدد قليل من مناصريه ، فجرح واضطر الى الهرب من الدار ، ثم يلبث ان استسلم لاعدائه ، فحبسوه في الجوسق •

اجتمع القواد الاتراك وطلبوا اليه ان يخلع نفسه من الخلافة فأبى • الا انهم اختاروا احمد بن المتوكل على الله وبايعوه بالخلافة، ولقب بالمعتمد على الله • ثم اخرجوا المهتدى بالله من حبسه ميتاً وادعوا بأنه مات متأثراً بجراحه • ويقال انه لما ابى ان يخلع نفسه خلعوا اصابع يديه ورجليه من كفيه وقدميه حتى ورمتا وعذبوه فمات (٢٩) • ويروي المسعودي انهم طعنوه بالخناجر وكان اول من جرحه ابن عم لبايكباك طعنه في اوداجه وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، واقبل يمص الدم حتى ارتوى منه ، وكان هذا

---

(٢٩) الطبري ٩/٤٦٨ •

التركي سكرانا ، فلما تركه كان المهتدي بالله قد مات (٣٠) . ويؤيد ابن دحية انه قتل بخنجر (٣١) . ويروى انهم داسوا خصيته فمات(٣٢) . ويظهر من رواية اليعقوبي انه يؤيد موته من جراحه اذ يقول « فحملوه على دوابه وجراحاته تنطف دماً ، فدعوه الى ان يخلع نفسه فأبى ، ومات بعد يومين (٣٣) .

ويظهر ان طائفة من الاتراك ندموا على قتلهم المهتدى بالله ، فداروا به ينوحون ويبكون عليه لما تبين لهم من نسكه وزهده (٣٤) .

كان عمر المهتدي بالله عند وفاته ثمانية وثلاثين عاما حسبما ذكره الطبري ، الا ان الخطيب البغدادي والاربلي يقولان انه مات عن سبعة وثلاثين عاما واربعة اشهر وعشرة ايام . اما المسعودي فيقول انه كان له من العمر اربعون عاما (٣٥) . واذ ما كان تاريخ ميلاده الذي سبق ان ذكرناه صحيحا فان ما ذكره الخطيب البغدادي والاربلي هو العمر الصحيح للمهتدي بالله .

اما مدة خلافته فقد بلغت احدى عشر شهراً وسبعة عشر يوماً او ثمانية عشر ، كما يقول اليعقوبي والمسعودي والخطيب

---

(٣٠) مروج الذهب ١٨٦/٤ .

(٣١) النبراس / ٨٩ .

(٣٢) الكامل ٢٣٠/٧ .

(٣٣) تاريخ اليعقوبي ٥٠٦/٢ .

(٣٤) مروج الذهب ١٨٦/٤ .

(٣٥) الطبري ٤٦٩/٩ ، وتاريخ بغداد ٣٤٨/٣ ، وخلاصة الذهب المسبوك /

البغدادي(٣٦) • غير ان الطبري يزيد على ذلك بضعة ايام (٣٧) • ونظراً لثبوت تاريخ مبايعته بالخلافة ويوم وفاته ، فان المدة التي ذكر اليعقوبي والمسعودي والخطيب اقرب الى الصواب •

---

(٣٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٦ ، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ ، وتاريخ بغداد ٢٣٢، والتنبيه والاشراف / ٣١٨ •
٣/٣٥١ •
(٣٧) الطبري ٩/٤٦٩ •

الفصـــل التاســع

المعتمد على الله

ابو العباس احمد بن المتوكل على الله

١ ـ مبايعته :

لم يستطع القواد الاتراك ان يرغموا الخليفة المهتدى بالله على ان يخلع نفسه من الخلافة رغم الاساليب القاسية التي اتبعوها معه ، فمات وهو الخليفة الشرعي ٠ الا انهم كانوا قد اخرجوا احمد بن المتوكل على الله من حبسه في الجوسق وبايعوه ، ولقب بالمعتمد على الله ٠ ويظهر انهم بعد ان خاضوا صراعا عنيفا مع المهتدى بالله حتى تخلصوا منه ، حرصوا على ان يختاروا للخلافة من يتوسمون فيه ضعف الشخصية وسهولة الانقياد ، ليكون طوع ارادتهم ٠ فاختاروا احمد بن المتوكل على الله رغم انهم اخذوا على انفسهم الا يفسحوا المجال لأحد من ولد المتوكل على الله ان يصل الى منصب الخلافة ٠

وقد بويع المعتمد على الله في يوم الثلاثاء لاربع عشر بقيت من رجب سنة ٢٥٦هـ (١) وكان عمره خمسا وعشرين سنة (٢) • وكان قد ولد في سنة ٢٢٩هـ (٣) واذا صح تاريخ مولده هذا فان عمره يجب ان يكون قريبا من سبع وعشرين سنة • وكان احمد المعتمد على الله يسمى ابن فتيان نسبة الى امه ، وهي ام ولد رومية اسمها فتيان (٤) •

٢ ـ صفاته وسيرته :

تفاوت المؤرخون في ذكر اوصاف المعتمد على الله • ويقول المسعودي انه كان حسن الجسم ، كبير العينين ، طويلا جسيما ، طويل اللحية ، عظيم الهامة (٥) • ويقول الاربلي انه كان اسمر رشيقا خفيف اللحية (٦) • ويضيف الذهبي على ذلك انه كان مدور الوجه ، مليح العينين ، صغير اللحية وقد اسرع اليه الشيب (٧) •

اما ما ورد عن اخلاقه وسلوكه فان المسعودي يقول انه كان مشغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة انواع اللهو ، وانه اهمل امور الرعية وتشاغل بلهوه ولذاته حتى اشفى الملك على

---

(١) الطبري ٩/٤٧٤ ، والمعارف / ٣٩٤ ، ومروج الذهب ٤/١٩٨ •
(٢) مروج الذهب ٤/١٩٨ •
(٣) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٣ ، وتاريخ الخلفاء ٣٦٣ •
(٤) المعارف / ٣٩١ ، والطبري ٩/٤٧٤ ، وتاريخ بغداد ٤/٦١ ، ومروج الذهب ٤/١٩٨ ويقول انها كوفية •
(٣) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٣٣ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٦٣ •
(٥) التنبيه والاشراف / ٣٢٠ •
(٦) خلاصة الذهب المسبوك /٢٣٣ •
(٧) شذرات الذهب ٢/١٧٣ •

الذهاب(٨) • ويؤيده في ذلك مؤرخون آخرون • اذ يقول التنوخي عنه انه مع سماحة اخلاقه وكثرة جوده وسخائه كان شديد العربدة على ندمائه اذا سكر ، ولا يكاد يسلم له من العربدة مجلس الا في الأقل (٩) • ويقول الذهبي انه كان منهمكا على اللهو واللذات ، يسكر ويعربد (١٠) • ويقول السيوطي انه انهمك في اللهو واللذات واشتغل عن الرعية فكرهه الناس واحبوا اخاه طلحة (١١) • على انه من جهة اخرى كان حليما لطيفا ، من الرأفة والرحمة على غاية(١٢) • وانه كان من اسمح آل العباس ، وكان يمثل بينه وبين المستعين بالله ويقال : ما ولي اسمح منهما ، كما كان جيد التدبير ، فهما بالامور ، فلما قوض امره وغلب على رأيه ، نقصت حاله عند الناس(١٣) • ويقال انه كان يحب الاطراء والمديح ، فاذا عمل جميلا اكثر من ذكره وتبجح به وان كان صغيراً(١٤) •

وقد اشرنا في الفصل الخاص بمجالس الخلفاء الى بعض مظاهر اسرافه ، مما جعل اخاه الموفق يمنع عنه المال لحاجة الدولة الى الاموال لتوفير نفقات الحروب الداخلية ، لاسيما حرب الزنج التي اضطرتها على الاقتراض من التجار (١٥) •

---

(٨) مروج الذهب ٤/٢٢٠ والتنبيه والاشراف / ٢١٨ •
(٩) الفرج بعد الشدة ٢/٢٤٣ •
(١٠) شذرات الذهب ٢/١٧٤ •
(١١) تاريخ الخلفاء / ٣٦٣ •
(١٢) تاريخ الخلفاء ٢/١٧٤ •
(١٣) الديارات / ١٠٢ •
(١٤) الفرج بعد الشدة ٢/٢٤٨ •
(١٥) تاريخ بغداد ٣/٢٠٦ ، ونشوار المحاضرة •

٣ ـ استئثار الموفق بالسلطة :

كانت خلافة المعتمد على الله عجيبة الوضع ، كما يقول ابن الطقطقي ، فقد كان هو واخوه طلحة الملقب بالموفق كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد على الله الخطبة والسكة والتسمية بامرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود الجيش ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزارة والامراء (١٦) . ويقول المسعودي ان اخاه ابا احمد الموفق قد غلب على امره وتدبير ملكه وسياسة سلطانه ، وصيره كالمحجور عليه ، لا امر له ولا نهي ، وان الموفق قام بذلك احسن قيام رغم ما كان يلقى من اعتراض الاتراك وشغبهم وسوء طاعتهم(١٧) . وكذلك يقول ابن الأثير ان المعتمد على الله كان في خلافته محكوما عليه ، قد تحكم فيه اخوه ابو احمد الموفق وضيق عليه (١٨) .

ومما يلفت النظر ان ابا جعفر الطبري واحمد بن واضح اليعقوبي ، وهما من قدامى المؤرخين وقد عاصرا احداث عهد سامرا ، لم يشيرا الى تسلط الموفق على شؤون الخلافة في عهد اخيه المعتمد على الله ، ولم يذكرا شيئاً عن ذلك . ويعتبر المسعودي اقدم من اشار الى تلك العلاقة بين الخليفة واخيه ، من المؤرخين .

ان من يدقق سيرة المعتمد على الله واعماله طيلة مدة خلافته التي قاربت ربع قرن يستنتج انه كان احد اثنين : اما انه كان يزهد

---

(١٦) الفخري / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(١٧) التنبيه والاشراف / ٣١٨ـ٣١٩ ومروج الذهب ٤/ ٢١١ .
(١٨) الكامل ٧/ ٤٥٥ .

السلطة بطبيعته ، ويميل الى اللهو والملذات ، وقد أمن جانب اخيه فترك له كل سلطاتها ليمارسها في تسيير شؤون الدولة ، بحيث غدا المعتمد على الله محجوراً عليه ، فلم يستطع مجابهة اخيه ، فاضطر الى ان ينفس عن قهره وغلبته بالانصراف الى اللهو والاغراق في الملذات . الا ان ممارسة المعتمد على الله سلطاته كخليفة بين حين وآخر ، كتعيين الوزراء والولاة والقضاة ، وتوجيه بعض الامور ، وقيادة بعض الحملات العسكرية ، والاهتمام بالقضاء على الثورات، وتشييد قصر المعشوق وغيره ، يجعلنا نميل الى الرأي الأول .

والواقع ان المعتمد على الله كان يمارس سلطانه في تعيين الوزراء والولاة والقواد منذ توليه الخلافة . فقد استوزر عبيدالله بن يحيى عندما افضت اليه الخلافة (١٩) . ولما مات عبيدالله استوزر الحسن بن مجلد (٢٠) . ثم عزله واستوزر سليمان بن وهب (٢١) .

وقلد القائد التركي اماجور ولاية دمشق واعمالها في سنة ٢٥٦هـ (٢٢) . ولما ظهر علي بن زيد بالكوفة وجه القائد كيجور الى محاربته (٢٣) . ووجه القائد موسى بن بغا ، وهو كبير القواد الاتراك ، الى الري لحرب الحسن بن زيد الطالبي (٢٤) . وسير في سنة ٢٥٧ هـ احمد المولد الى البصرة لحرب صاحب الزنج (٢٥) . وعقد

---

(١٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٧ ، ومروج الذهب ٤/١٩٩ .
(٢٠) مروج الذهب ٤/١٩٩ .
(٢١) الفخري / ٢٢٨ .
(٢٢) الكامل ٧/٢٣٨ .
(٢٣) نفس المصدر / ٢٣٩ .
(٢٤) الطبري ٩/٤٧٤ ، والكامل ٧/٢٤٠ .
(٢٥) الطبري ٩/٤٨٨ ، والكامل ٧/٢٤٦ .

في سنة ٢٥٨هـ لأخيه الموفق على عدد من الولايات وخلـع عليـه ، وعلى مفلح القائد ، وسيرهما الى حرب الزنج (٢٦) . ثم اتبعهمـا بالقائد موسى بن بغا في السنة التالية (٢٧) . وعين في سنة ٢٦٠هـ اساتكين من كبار قواد الاتراك واليا على الموصل(٢٨) . وعين في السنة التاليـة محمد بـن عمـر بن علي الطـائي واليـا على اذربيجان (٢٩) . كما انه خرج في سنة ٢٦٢هـ على رأس الجيش لحرب يعقوب بن الليث الصفار لما أصر على القـدوم بجيشه الى سامرا (٣٠) .

يستدل مما ذكرنا ان الموفق لم يبعد اخاه عن ممارسة سلطاته الا بعد عدة سنوات من توليه الخلافة . وذلك بعد ان اظهر كفـاية عسكرية وسياسية في حربه صاحب الزنج ، وفي رده ابن الصفار عن العراق ، مما اكسبه محبة الناس واحترام القواد . واذا كانت الحوادث الجسام ، او ما نسميه بالازمات ، تظهر قابليات الرجال وتكشف عن معادنهم ، فقد اظهر الموفق في الحروب التـي قادهـا مهارة وحزماً . اضافة الى ما كان يتمتع به من خلق هادئ رصين ، وصفات انسانية . اذ كان شديد الرعاية لجنده وبخاصة الجرحى منهم ، ويتفقد ابناء الشهداء ، وكانت رعايته تشمل جرحى الأعداء ايضا(٣١) . وبذلك استطاع ان يفرض احترامه على القواد والولاة .

---

(٢٦) الطبري ٩/٤٩٠ ، والكامل ٧/٢٥٩ .
(٢٧) الكامل ٧/٢٥٩ .
(٢٨) نفس المصدر / ٢٦٩ .
(٢٩) نفس المصدر / ٢٨٨ .
(٣٠) الطبري ٩/٥١٦ ، ومروج الذهب ٤/٢٠٠ ، والكامل ٧/٢٩٠ .
(٣١) الطبري ٩/٦٠٣ و٦٠٨ ، والكامل ٧/٣٦٥ـ٣٦٦ .

ورجال الدولة في سامرا • مما اتاح له ان يفرض سلطاته على الخليفة نفسه بحيث لم يترك له بعد سنة ٢٦٨هـ من الخلافة غير اسمها ، ولم يعد ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير • وغدا الحكم كله للموفق ، والاموال تجبى اليه ، مما اضجر المعتمد على الله بحيث انه حاول الهرب والالتجاء الى احمد بن طولون في مصر ، فاعيد الى سامرا مرغما •

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ما ذكره ابن دحية من ان ايام المعتمد على الله كانت مضطربة الاحوال مختلة التدبير ، كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالي وغلبتهم عليه (٣٢) • اي ان اضطراب احواله واختلال ادارته في اول امره كان بسبب تأثير القواد الاتراك عليه • ويستنتج مما اورده الحصري ان امر المعتمد على الله كان ، قبل تمكن الموفق ، في يد القواد الاتراك (٣٣) • والواقع انه اضطر بعد ما بويع بالخلافة ان يصافح كبير قوادهم موسى بن بغا ، فعندما كان موسى يخرج من سامرا كان المعتمد على الله يشيعه (٣٤) • كما انه ولاه قيادة الجيش الذي وجهه لقتال صاحب الزنج في سنة ٢٥٩هـ وشيعه بنفسه وخلع عليه (٣٥) • ولما عهد بولاية العهد لابنه جعفر ضم اليه موسى بن بغا فآل اليه حكم الولايات التي جعلت لجعفر ، نيابة عنه (٣٦) • فقد ادرك المعتمد على الله ان بقاءه رهين برضاء القواد الاتراك ، ولابد من مصانعتهم وتلبية طلباتهم ، كي يضمن

---

(٣٢) النبراس / ٨٩ •
(٣٣) جمع الجواهر / ١٥٨ •
(٣٤) الطبري ٩/٤٧٤ •
(٣٥) نفس المصدر / ٥٠٤ •
(٣٦) الطبرى ٩/٥١٤ •

ولاءهم وعدم وثوبهم به • ولما لمس في اخيه الموفق قـوة شخصيته وقدرته على السيطرة حاول ان يضمن بواسطته سلامته وبقاءه على عرش الخلافة • الا ان طموح الموفق وضعف شخصية المعتمد على الله، جعلت الموفق يسيطر على كل شيء • ومما زاد في نفوذ الموفـق انغماس المعتمد على الله في اللهو والملذات ، فغلبه على امره وتدبير ملكه وسياسة سلطانه • فقام بالملك احسن قيام وقمع من قرب من الاعداء واستصلح من نأى منهم (٣٧) • وقد خطب للموفـق على المنابر ، وكان يقال بالخطبة : اللهم اصلح الأمير الناصر لدين الله ابا احمد الموفق ولي عهد المسلمين اخا امير المؤمنين (٣٨) •

وعلى هذا نستطيع ان نقـول ان تصرفـات المعتمد على الله وموقفه من الأحداث يدلان على انه لم يكـن ينقصه الذكـاء او الكفاية ، الا انه كما يبرر ، كان ضعيف الشخصية خاملا ، وفيه ميل شديد الى اللهو والتمتع والابتعاد عن تحمل المسؤولية • وهذا يفسر لنا التناقض الواضح في سيرته كخليفة له السلطة العليا في الدولة ، فقد وصف بالسخاء والكرم على حاشيته وندمائه ، وبحبه مجالس اللهو والطرب وعدم انقطاعه عنها • الا انه بنفس الوقت يتذمر من انه لا يملك التصرف بامور الدولة او حتى باموره الخاصة •

٤ ـ ولاية العهد :

قرر المعتمد على الله في خلال النصف الاول من شـوال سنة ٢٦١هـ ان ينظم امر ولاية العهد بالخلافة من بعده بين ابنه جعفر ، واخيه ابي احمد الموفق طلحة • فولى ابنه العهد بعـده وسـماه

---

(٣٧) النتبيه والاشراف / ٣١٨ ، والديارات / ١٠١ ـ ١٠٢ •
(٣٨) النبراس / ٨٩ ـ ٩٠ •

المفوض . وولاه المغرب وافريقية وعدداً آخر من الولايات ، وضم اليه القائد موسى بن بغا . وولى اخاه العهد بعد جعفر ، وولاه المشرق وولايات اخرى وضم اليه القائد مسرور البلخي . وعقد لكل منهما لواءين اسود وابيض . واشترط ان حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر ، ان يكون الأمر لأبي احمد ثم لجعفر . واخذت البيعة بذلك على الناس (٣٩) . وبعث بنسخة من كتاب العهد مع القاضي الحسن بن محمد بن ابي الشوارب ليعلقه في الكعبة (٤٠) . وذلك توثيقا للعهد وضمانا بعدم الخروج على ما جاء في الكتاب المذكور .

ولما مات الموفق في شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ بايع القواد والغلمان ابنه ابا العباس احمد بولاية العهد بعد المفوض ، ولقب بالمعتضد بالله ، فاخرج ابو العباس العطاء للجند ، وخطب يوم الجمعة التالي للمعتمد على الله ثم للمفوض ثم لأبي العباس المعتضد (٤١) . وفي السنة التالية خلع جعفر وبويع للمعتضد بولاية العهد بعد المعتمد على الله . وهناك روايتان عن كيفية خلع الأول ومبايعة الثاني . الراوية الاولى هي التي يذكرها الطبري اذ يقول ان جعفر المفوض خلع من ولاية العهد في اواخر المحرم سنة ٢٧٩ هـ وبويع للمعتضد ، وانشئت عن المعتضد كتب الى العمال والولاة بأن أمير المؤمنين قد ولاه العهد وجعل اليه ما كان الموفق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل ، وخطب يوم الجمعة للمعتضد بولاية العهد (٤٢) . ويفهم من هذا ان المعتضد هو الذي

---

(٣٩) الطبري ٩/٥١٤ ، والكامل ٧/٢٧٧ ـ ٢٧٨ .
(٤٠) الطبري ٩/٥١٤ .
(٤١) الطبري ١٠/٢٢ ، والكامل ٧/٤٤٤ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٥٥ .
(٤٢) الطبري ١٠/٢٨ .

خلع جعفر المفوض من ولاية العهد والزم المعتمد على الله بأن يعهد بها اليه . وهذا ما يؤيد ذلك الذهبي ايضا بقوله « ان المعتمد على الله نقض ما كان لناصر دين الله الموفق لولده احمد ، فاستبد بالأمر واستخف بعمه ولم يرجع اليه في شيء .. ومتى لم تخلع ابنك جعفراً من الخلافة طائعاً ، خلعته كارهاً ، فخلع المعتمد ابنه وجعل العهد لابن اخيه احمد المذكور » (٤٤) . اي ان المعتمد على الله فعل ذلك مكرها .

اما الرواية الثانية ، فيذكر ابن الاثير ان المعتمد على الله جلس في المحرم سنة ٢٧٩هـ للقواد والقضاة ووجوه الناس واعلمهم انه خلع ابنه المفوض الى الله جعفراً من ولاية العهد وجعلها للمعتضد بالله ابي العباس احمد بن الموفق ، وشهدوا على المفوض أنه تبرأ من العهد واسقط اسمه من السكة والخطبة والطراز ، وخطب للمعتضد ، وكان ذلك يوما مشهوداً ، فقال يحيى بن علي يهنيء المعتضد (٤٥) :

ليهنك عقد انت فيه المقدم
حباك بـه رب بفضلك اعلـم

فان كنت قد اصبحت والي عهدنا
فأنت غداً فينا الامـام المعظم

ولازال مـن ولاك فينـا مبلغـا
مناه ، ومن عاداك يشجى ويرغم

---

(٤٣) مروج الذهب ٤/٢٢٩ .
(٤٤) شذرات الذهب ٢/١٧٣ .
(٤٥) الكامل ٧/٤٥٢ .

وكان عمود الـدين فيـه تأود
فعاد بهـذا العهـد وهـو مقوم

واصبح وجه الملك جذلان ضاحكا
يضيء لنـا منه الذي كان يظلـم

فدونك فاشدد عقد ما قد حويتـه
فانك دون الناس فينـا المحـكم

ويؤيد ابو الفداء رواية ابن الأثير اذ يقول : وفي سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ابنه جعفر المفوض من ولاية العهد وجعل ابن اخيـه الموفق ولي العهد بعده (٤٦) . الا ان السيوطي يأخذ موقفا وسطا بين الروايتين المذكورتين ، فيقول : وفي اوائل سنة ٢٧٩ هـ ضعـف امر المعتمد على الله جداً لتمكن ابي العباس احمد بن الموفق مـن الامور وطاعة الجيش له ، فجلس مجلس عاما واشهد فيه على نفسه انه خلع ولده المفوض من ولاية العهد وبايع لأبي العباس ولقبـه المعتضد (٤٧) .

٥ ـ وفاة المعتمد على الله :

تكاد تجمع المصادر على ان المعتمد على الله توفي ليلة الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ هـ (٤٨) . وكان سبب وفاته انه شرب على الشط في القصر الحسني شرابا كثيرا وتعشى فأكثر

---

(٤٦) المختصر في اخبار البشر ٢/٥٥ .
(٤٧) تاريخ الخلفاء / ٣٦٧ .
(٤٨) الطبري ١٠/٢٩ ، ومروج الذهب ٤/٢٢٩ ، والكامل ٧/٤٥٥ ، والذهب المسبوك / ٢٣٤ ، وفيه انه توفي ليلة الاثنين الخامس عشر من رجب .

من الأكل ، فمات ليلا(٤٩) . وذكر المسعودي تفصيلات عن موته جاء فيها انه تناول مع اثنين من ندمائه رؤوس حملان ، فتهرأ احدهم في الليل . ومات الآخر قبل الصباح ، اما المعتمد على الله فاصبح ميتاً . ثم يقول : وذكر ان سبب وفاته انه سقى نوعاً من السم في الشراب الذي كانوا يشربونه يقال له البيش ، يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت . وجاء فيه ايضا ان القاضي اسماعيل بن حماد أدخل على المعتضد وسلم عليه بالخلافة ، وحضر معه الشهود العدول ، واشرفوا على المعتمد على الله ، ومعهم غلام المعتضد يقول : هل ترون به بأس او اثر ، لقد مات فجأة ، وقتلته مداومته لشرب النبيذ . فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر . وحمل الى سامرا فدفن فيها (٥٠) .

ويشبه هذا ما ذكره الذهبي من ان المعتمد على الله قد سم في رؤوس جداء اكلها ، ثم يستدرك ويقول انه نام فغم في بساط ، وقيل سم في كأس الشراب (٥١) .

واورد ابن دحية اسبابا اخرى قيلت في موت المعتمد على الله اضافة الى السم . قيل انه رمي في رصاص مذاب فمات ، وقيل انه مات في حفرة من ريش مشى عليها فسقط فيها فمات غماً (٥٢). وروى السيوطي ان المعتمد على الله مات فجاءة ، وقيل انه سم ، وقيل بل نام فغم في بساط (٥٣) . ووردت في كتاب « مختصر كتاب

---

(٤٩) الطبري ٢٩/١٠ ، والكامل ٤٥٥/٧ ، والمختصر في اخبار البشر ٥٦/٢ .
(٥٠) مروج الذهب ٢٢٩/٤ ـ ٢٣٠ .
(٥١) شذرات الذهب ١٧٣/٢ .
(٥٢) النبراس / ٩٠
(٥٣) تاريخ الخلفاء / ٣٦٧ .

البلدان » اشارة يفهم منها انه قتل ، اذ يقول « وكان المعتضد بالله كتب الى عمرو بن الليث الصفار وامره بمواقعة رافع لما بلغه من ميل رافع الى محمد بن زيد وانكاره قتل المعتمد وجلوس المعتضد » (٥٤) • اي ان رافعا يتهم المعتضد بقتل المعتمد ليجلس مكانه •

ويبدو ان السبب الذي ذكره الطبري ونقله عنه من جاء بعد من المؤرخين ، وهو الشرب الكثير والأكل الكثير قد اودى بحياة المعتمد على الله ونديميه • وهناك احتمال بان الطعام الذي اكلوا منه قد تسرب اليه الفساد فتسمموا به فماتوا • اما ما اورده الآخرون عن قتله بالسم بوضعه في الطعام او في الشراب ، او قتله بالوسائل التي ذكرت فأمر يشك في صحته • لأن المعتمد على الله كان ضعيفا يسير طوع ارادة اخيه الموفق الذي غلب على اموره ، ولما توفي حل ابنه احمد مكانه واصبح ولياً للعهد ولم يتغير موقف المعتمد على الله منه اذ بقي مستسلما ، منصرفا الى حياته التي اعتادها ، بحيث كان المعتضد الخليفة الفعلي ، فلم يكن والحالة هذه ما يستدعي التخلص منه واللجوء الى قتله •

وهناك اختلاف في عمر المعتمد على الله عند وفاته • فقد قيل انه توفي عن ثمان واربعين سنة (٥٥) • وقيل ان عمره كان خمسين سنة (٥٦) • او خمسين سنة وستة اشهر (٥٧) • واذا ما اعتبرنا ان

---

(٥٤) مختصر كتاب البلدان / ٣١٢ •

(٥٥) مروج الذهب ٤/١٩٨ •

(٥٦) خلاصة الذهب المسبوك/٢٣٤ ، والنبراس / ٩٠ ، والعبر ٢/٦١ •

(٥٧) الكامل ٧/٤٥٥ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٥٦ ، وتاريخ الخلفاء/٣٦٧ •

مولده كان في سنة ٢٢٩هـ كما سبق ان اشرنا ، فان عمره لايمكن ان يكون اقل من خمسين سنة ٠

ويكاد يجمع المؤرخون على ان مدة خلافة المعتمد على الله كانت ثلاثا وعشرين سنة ٠ الا ان ابن الاثير يضيف على ذلك ستة اشهر ٠ بينما يعتبرها الطبري ثلاثا وعشرين سنة وستة ايام ، وتبعه في ذلك الاربلي ٠ ولما كان تاريخ مبايعة المعتمد على الله وتاريخ وفاته معروفين ، فان ما ذكره الطبري اقرب الى الصواب ٠

الباب الثالث

مؤسسات الدولة العربية في عهد سامرا

١ ـ وزراء سامرا

٢ ـ الكتاب

٣ ـ القضاء في عهد سامرا

الفصل الأول

وزراء سامرا

سنعرض فيمايلي ملخصا بسيرة من تولى منصب الوزارة في خلفاء سامرا ، ممن كان لهم دور بارز في ادارة شؤون البــلاد ، ونتعرف من خلال سيرهم على علاقاتهم بالخلفاء واساليبهم فـي الادارة ، وما تركوه من آثار في حياة الدولـة العـربية خـلال عملهـم ٠

١ ـ الفضل بن مروان :

عندما وصل المعتصم بالله الى بغداد وتمت مبايعته بالخـلافـة استوزر كاتبه ابا العباس الفضل بن مروان بن ما سرخس ، وهو نصراني الأصل من اهل البردان (١) ٠ على الرغم من ان اخاه المأمون كان قد اوصاه بالا يتخذ وزيرا لأن تجربته في استيزار يحيى بـن اكثم لم تكن مرضية له ٠ الا ان منصب الوزير بما طرأ عليه مـن ظروف في عهد خلفاء بنى العباس الذين سبقوا المعتصم بالله كان قد استقر وثبت ، واصبح من اركان الدولة العربية ٠ ولهذا فقـد عهد المعتصم بالله به الى كاتبه الذي كان يعتمد عليه كثيراً ٠

(١) وفيات الاعيان ٣/٢١٣ ٠

كان الفضل في اول امره يكتب ليحيى الجرمقاني كاتب المعتصم بالله عندما كان اميراً ، فلما مات الجرمقاني حل محله • وقد اعجب المعتصم بالله به واستصحبه معه الى الشام ومصر ، فاحتوى على كثير من الاموال ، ولما صحب ابو اسحاق اخاه الخليفة المأمون في حملته الاخيرة على بلاد الروم ، عاد الفضل الى بغداد • وكان يتولى تدبير امور ابي اسحاق نيابة عنه ويكتب على لسانه بما يريد • وعندما بلغه خبر موت المأمون ومبايعة المعتصم بالله بالخلافة ، وخلاف بعض القواد عليه ومناداتهم بخلافة العباس بن المأمون ، قام بدور بارز في اخذ البيعة للمعتصم بالله ببغداد ، وضبط الامور فيها • ولما قدم المعتصم بالله عرف له فضله وجهوده ، فاستوزره وخلع عليه ، واسلم مقاليد الامور اليه • وقد استطاع الفضل ان يحل من قلب الخليفة المحل الذي لم يصل اليه احد ، وتمكن منه واستقل بالأمور • فغلب على امره حتى لم يبق للمعتصم بالله معه يد (٢) • حتى قيل ان المعتصم بالله صار خليفة وصار الفضل بن مروان صاحب الخلافة وصارت الدواوين كلها تحت يديه (٣) • الا ان الفضل كان قليل العلم ، ضحل المعرفة ، رغم جودة كتابته • ويصفه ابن الطقطقي بأنه كان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ، وكان رديء السيرة جهولا بالامور (٤) • ويقول ابن الاثير عنه انه كان شرس الاخلاق ، ضيق العطف ، كريه اللقاء بخيلا (٥) • ولكنه كان كما يظهر حسن المعرفة بخدمة الخلفاء (٦) •

---

(٢) مآثر الانافة ١/٢٢٠ •
(٣) الطبري ٩/١٩ •
(٤) الفخري / ٢١٢ •
(٥) الكامل ٦/٤٥٤ •
(٦) الفهرست / ١٩٠ ، ووفيات الاعيان ٣/٢١٣ ، وشذرات الذهب/٢/٢٢ •

لقد استغل الفضل بن مروان ثقة المعتصم بالله به واعتماده عليه • ويروي التنوخي خبراً فيه دلالة على تسلط الكتاب واستغلالهم نفوذهم في حيازة الأموال • فعندما ندب الخليفة المأمون اخاه ابا اسحاق الى مصر لقمع الثورة التي قامت فيها سنة (٢١٤هـ) استصحب معه كاتبه الفضل بن مروان • وقد اشخص الفضل معه احد كتابه هو ابن عبدون الانباري ليساعده في عمله • ويقول ابن عبدون انه كسب في ليلة واحدة مائة الف دينار • وذلك ان القتل لما استشرى في اهل مصر تقدم عدد كبير من رؤساء البلد الى الفضل يسألونه الأمان لهم ، فخول كاتبه ان يجيبهم الى ما التمسوا • فكتب هذا في الامان لمائة رجل منهم • فبعث بعضهم اليه مبالغ من المال بحيث اجتمع له في تلك الليلة ذلك المبلغ(٧) • لاشك في ان المبلغ الذي احتجزه الكاتب الصغير لنفسه جزء مما حصل عليه ابن مروان نفسه • وكان من واجب ابي اسحاق ، وهو قائد الحملة لاخماد الثورة ، ان يصدر عفواً عاماً بعد قضائه على رؤوس الفتنة ، فيعيد الأمن والأطمئنان الى نفوس الناس ، ولا يترك مجالا لهذا الكاتب وامثاله في استغلالهم • الا ان استحواذ كاتبه الفضل بن مروان عليه جعله يترك الأمر لتدبيره مما اتاح له فرصة الانتهاب •

وقد بلغ من جشع الفضل انه اخذ يسرق الخليفة • فكان يخالفه في بعض ما يأمر به من المنح والاعطيات • فكان المعتصم بالله يأمره باعطاء المغنى والملهي ، فلا ينفذ الفضل ذلك (٨) • واخذ يحجب ما كان يحتاج اليه من الاموال في مهام اموره • فقال ابراهيم الهفتي للمعتصم بالله ، وهو احد جلسائه المقربين اليه : مالك من الخلافة

(٧) الفرج بعد الشدة ٣/٨٦ وكامل القصة ٨٢-٨٦ •

(٨) الطبري ٩/١٩ •

الا الاسم . والله ما يجاوز امرك اذنيك (٩) • وكان المعتصم بالله امر له بمبلغ من المال فلم يعطه الفضل شيئاً • وذكر القاضي احمد بن ابي دواد انه كثيراً ما رأى المعتصم بالله يطلب الى الفضل ان يحمل اليه مبلغاً من المال ، فيرد بعدم توفره ، او بعدم استطاعته توفيره • فنصح الفضل الا يرد الخليفة ولا يمتنع عن اجابة طلباته من المال جهد امكانه ، وحتى في حالة عدم وجود المال حقيقة ، فعليه الا يرد الخليفة باجوبة غليظة ، بل يعلله بأن سيعمل على توفيره له • الا ان الفضل امعن في نهجه ، مما اثقل على المعتصم بالله(١٠) • واثار غضبه عليه • ففرض اول الأمر رقابة مالية عليه ، فعين احمد بن عمار لتدقيق النفقات الخاصة ، وعين نصر بن منصور ليدقق اعماله في الخراج وفي الاعمال الاخرى • وكان نصر يتولى آنذاك ديوان الخاتم والنفقات والأزقة (١١) • وامر الفضل بان يرفع اليه تقريراً عما وصله من الاموال واوجه انفاقها •

ولما فرغ الفضل بن مروان في اعداد الحساب لم يناظره فيه المعتصم بالله ، بل امر بحبسه • ثم نفاه الى قرية السن في طريق الموصل • وقيل انه حبسه خمسة اشهر ثم اطلقه والزمه بيته (١٢) • وذلك بعد ان صادر امواله واموال اهل بيته • كما بطش بجماعة من اصحابه واستصفى اموالهم ، وقد تولى المصادرة اسحاق بن ابراهيم نائب الخليفة ببغداد وصاحب شرطته (١٣) • ويقال انه اخذ من بيته الف الف دينار ، واخذ اثاثا وفرشاً وآنية قدرت قيمتها

---

(٩) العيون والحدائق ٣/ ٣٨٤ •
(١٠) الطبري ٩٠/ ٢١ •
(١١) معجم الادباء ٥/ ٣١٨-٣١٩ •
(١٢) شذرات الذهب ٢/ ١٢٢ •
(١٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٧٢ •

بالف الف دينار كذلك(١٤) • ويقول مؤلف كتاب « العيون والحدائق في اخبار الحقائق » انه اخذ منه من الاموال ما لا يحصى حتى ان المعتصم بالله قال : ما كنت اعلم ان في الدنيا من له مثل هذا المال (١٥) • وهناك من يقول انه اخذ منه عشرة الاف الف دينار(١٦) •

وقال المعتصم بالله لما قبض على الفضل بن مروان انه عصى الله في طاعتي فسلطني عليه (١٧) • ان ذلك دليل على استغلال الفضل وبطشه بالناس • وبلغ من تذمر الناس وشكواهم منه انه جلس يوما لقضاء اشغال الناس ، فرفعت اليه قصص العامة ، فرأى في جملتها رقعة كتب عليها (١٨) :

تفرعنت يا فضل بن مروان
فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة املاك مضوا لسبيلهم
ابادتهم الأقياد والحبس والقتل
وانك قد اصبحت في الناس ظالما
ستودى كما اودى الثلاثة من قبل

(١٤) وفيات الاعيان ٣/٢١٤ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٢ •
(١٥) العيون والحدائق ٣/٣٨٤ •
(١٦) العبر ١/٣٧٩ •
(١٧) وفيات الاعيان ٣/٢١٤ •
(١٨) نفس المصدر / ٢١٣ ، ويريد بالفضول الثلاثة : الفضل بن يحيى البرمكي ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع • والفخري / ٢١٢ وقد اقتصر على البيتين الاولين ، وجاء عجز البيت الثاني : ابادهم التقييد والاسر والقتل • ويقول ان هذه الابيات للهيثم بن فراس السامي • ومعجم الادباء ٢/١٢٦ وعجز البيت الثاني فيه : ابادهم الموت المشتت والقتل •

وروى صاحب الهفوات النادرة هذا الخبر على الشكل التالي :
تظلم اعرابي الى الفضل بن مروان من بعض عماله ، فصرف وجهه عنه وانتهره ، فوقف متحيراً واجماً ، ثم قال : أ يأستني من عدلك فاسمع مني واصغ ما بدا لك ، ثم انشده الأبيات المذكورة ، مع تغيير في بعض الالفاظ . فتغير وجه الفضل وامتقع لونه وبان غضبه وغيظه ، وتصبر ، ولم يرد على الاعرابي ، ولا امر بانصافه ، ولم يكن بين ذلك وبين القبض عليه الا ايام يسيرة (١٩) .

وقال الفضل عن اسباب مصادرته : ما في الارض اجهل من وزير يطلب الخليفة منه مالا وهو في ولايته فيعطيه اياه ، فانه يُطمعه في نعمته ، وانما يدفع النكبة مدة ثم تحدث وقد ذهب المال . فمن ذلك ان المعتصم بالله لما خرج لغزو الروم ، وانا وزيره ، استخلفني على سر من رأى ، فلما عاد طمع في فقال لي : قد وردت والمال نزر والجيش مستحق فاحتل لي مائة الف دينار من مالك وجاهك ، ففعلت . فلما مضى شهر طلب مني على هذا السبيل خمسين الف دينار ، ففعلت . فطلب مني في الدفعة الثالثة بمثل هذا الوجه ثلاثين الف دينار ، فوعدته بها ودافعته اياما ثم حملتها اليه . فبلغني انه قال لأبنه هارون : هذا النبطي ابن النبطية اخذ مالي جملة ، وهو ذا يتصدق علي تفاريق (٢٠) .

وقد شمت الناس بالفضل بن مروان لما نكب ، وقال فيه بعضهم (٢١) :

---

(١٩) الهفوات النادرة / ٢٥٦-٢٥٧ .
(٢٠) نشوار المحاضرة ٤٨/٨ .
(٢١) الكامل ٤٥٤/٦ .

ليبك على الفضل بن مروان نفسه
فليس له باك من الناس يُعرف

لقد صحب الدنيا منوعا لخيرها
وفارقها وهو الظلوم المعنف

الى النار فليذهب ومن كان مثله
على أي شيء فاتنا منه نأسف

ومن المأثور عن الفضل بن مروان انه كان يقول: لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فأن اقباله يُعينه عليك ، ولا تتعرض له وهو مدبر فان ادباره يكفيك امره(٢٢) • وقد عفى عنه الخليفة المعتصم بالله بعد مدة واطلق سراحه من الحبس • فخدم جماعة من الخلفاء بعده حتى مات في سنة (٢٥٠ هـ) في ايام المستعين بالله ، وقد جاوز التسعين سنة من عمره • وللفضل كتاب جمع فيه من الاخبار التي علم بها ، والمشاهد التي رآها ، سماه « ديوان الرسائل » (٢٣) •

ولم يحفظ لنا المؤرخون من اعماله واخباره الا النزر اليسير • منها ان الخليفة المهدي بن المنصور كان قد امر بأن يجعل يوم الخميس عطلة لموظفي الديوان يستريحون فيه وينظرون في امورهم ، ويوم الجمعة للصلاة ، اي الى ان ولي الفضل بن مروان الوزارة للمعتصم بالله فازال ذلك والزم الموظفين بالدوام يوم الخميس (٢٤) •

---

(٢٢) وفيات الاعيان ٣/ ٢١٤ •
(٢٣) الفهرست / ١٩٠ •
(٢٤) الوزراء والكتاب / ١٦٦ •

وعندما قبض على الفضل اشار البحتري الى ذلك ببضعة ابيات وجهها اليه (٢٥) :

لا تعجبن فما للدهــر مــن عجب
ولا من الله من حصن ولا هرب

يا فضل لا تجزعن مما رميت به
من خاصم الدهر جاثاه على الركب

كم من كريم نشا في بيت مملكة
أتاك مكتئبا بالهــم والكــرب

اوليته منــك اذلالا ومنقصــة
وخاب منك ومن ذي العرش لم يخب

ما تشتفي فعلة ابكيت ناظرهــا
حتى تراك على عود من الغرب

وظاهر من هذه الابيات ان الشاعر يبكت الفضل ويلومه على سوء معاملته الناس ، وان ما اصابه انما كان نتيجة افعاله ، فلا داعي لأن يتعجب مما آل اليه مصيره .

ولما قبض المعتصم بالله على الفضل ، قعد للعامة فوجد قصته فيهــا (٢٦) :

يا فضل لا تجزعن مما بليت بــه
من خاصم الدهر جاثاه على الركب

(٢٥) ديوان البحتري ١/٣٥٨ .
(٢٦) محاضرات الادباء ١/٨٦ .

خنت الامام وهذا الخلق قاطبة

وجرت حتى اتى المقدار في الكتب

جمعت شتى وقد اديتهـــا جملا

لأنت اخســـر من حمـــالــة الحطب

وكان الشاعر الهجاء دعبل الخزاعي قد نصح الفضل بن مروان وحذره من مغبة اعماله بابيات من الشعر طريفة هي (٢٧) :

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل

وقلت فسير المقـــالة فـــي الفضل

الا ان في الفضل بن سهل لعبـــرة

ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل

وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر

اذا ازدجر الفضل بن مروان بالفضل

وللفضل في الفضل بن يحى مواعظ

اذا اتعظ الفضل بن مروان بالفضل

اذا ذكروا يوما وقـــد صرت رابعـــا

ذكرت بقدر السعي منك الى الفضل

فابق جميلا مـــــن حيث تفـــز بـــه

ولا تدع الاحسان والاخـــذ بالفضل

---

(٢٧) ديوان دعبل الخزاعي / ١٧٠-١٧١ .

فانك قد اصبحت للملك قيما
وصرت مكان الفضل والفضل والفضل

ولم أر ابياتا من الشعر قبلها
جميع قوافيها على الفضل والفضل

وليس لها عيب اذا هي أنشدت
سوى ان نصحى الفضل كان من الفضل

فبعث اليه الفضل بدنانير وقال له : قد قبلت نصحك ، فأكفني خيرك وشرك . وابيات دعبل على بسطاتها وطرافتها لا تخلو من الانتقاد والتعريض ، الى جانب ما تضمنته من النصح والتحذير . قد ادرك الفضل ما قصد اليه الشاعر الهجاء .

وقد اصبحت نكبة الفضل بن مروان مما يضرب به المثل ، فقد قال احد الشعراء (٢٨) :

يكفيك من غير الايام ما صنعت
حوادث الدهر بالفضل بن مروان

٢ ـ محمد بن عبدالملك الزيات ::

لما غضب الخليفة المعتصم بالله على كاتبه ووزيره الفضل بن مروان وأمر بمصادرته وحبسه ، استوزر احمد بن عمار البصري . وكان ابن عمار هذا رجلا موسراً من اهل المزار ـ وهي قصبة ميسان بين البصرة وواسط (٢٩) ـ وكان طحانا ، فانتقل الى البصرة

(٢٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ .
(٢٩) معجم البلدان ٥/٨٨ .

واشترى بها املاكا فكثر ماله ، ثم انتقل الى بغداد فاتسع حاله . وقالوا انه كان يخرج من الصدقة في كل يوم مائة دينـــار (٣٠) . وعندما كان الفضل بن مروان في خدمة المعتصم بالله كان يصف له بن عمار بالأمانة ، فلما طرد الفضل استوزر الخليفة ابن عمـــار لأمانته(٣١) . وقيل ان لم يكن وزيرا بل كان كاتبا خاصا للمعتصم بالله عندما غضب على الفضل بن مروان صير مكانه محمد بـــن عبدالملك الزيات (٣٣) .

ويظهر ان المعتصم بالله استخدم احمد بن عمار لما عرفه مـــن امانته وسعة حاله لكي يأمن استغلاله منصبه في ارهـــاق الناس واحتواء الاموال ، كما فعل ابن مروان . الا ان احمد بن عمار كان جاهلا باعمـــال الوزارة ومهامهـــا . وفيـــه قـــال بعض شـــعراء عصره(٣٤) :

سبحان ربي الخالق الباري
صرت وزيرأ يا ابن عمار
وكنت طحـــانا على بغـــلة
بغيـــر دكـــــان ولا دار
كفرت بالمقدار ان لم تكن
قد جزت في ذا كل مقـــدار

---

(٣٠) الفخري / ٢١٣ .
(٣١) نفس المصدر .
(٣٢) التنبيه والاشراف / ٣٠٨ .
(٣٣) الطبري ٩/٢٠ و ٢٢ ، والعيون والحدائق ٣/٣٨٤ ، وتاريـــخ ابـــن خلدون ٣/٥٤٨ والعبر ١/٣٧٩ .
(٣٤) الفخري / ٢١٣ .

وقد لبث في الوزارة مدة يسيرة ثم اعفي منها ·

فأستأذن الخليفة بان يسمح له بالخروج الى الحج والمجاورة ، فاذن له المعتصم بالله ووصله بعشرة الاف دينار ، ودفع اليه عشرين الف دينار ليصرفها في اهل الحرمين من الهاشميين والقرشيين والأنصار · فقال : واذا تقدم غيرهم ممن يستحق فماذا اعطيهم ؟ فاعطاه خمسة الاف اخرى · وحج ابن عمار وفرق المال كله مع العشرة الاف التي كانت له ، وجاور سنة ثم انصرف · فكان الناس هناك يضربون المثل بذلك العدم ، ويقولون ما رأينا مثل عام ابن عمار (٣٥) ·

اشرنا آنفاً الى ان المعتصم بالله اعجب بسعة اطلاع محمد بن عبدالملك الزيات ووفرة معلوماته فاتخذه وزيرا بدلا من ابن عمار · الا ان رواية صاحب الهفوات النادرة ، ان صحت ، تدحض ذلك وترجح احتمال ان ابن عمار هو الذي رشح صاحبه وصديقه ابن الزيات للخليفة ليوليه الوزارة ، لما يعرفه عنه من غزارة العلم ، والأمانة · وكان جد محمد بن عبدالملك الزيات ابان بن حمزة قرويا من اهل جيل وهي قرية من اعمال بغداد تحت المدائن(٣٦) · وكان يجلب الزيت الى بغداد ، فنسب اليه ولقب بالزيات · ويظهر ان اباه عندما انتقل الى بغداد عمل في التجارة فصار من اغنياء التجار ، بحيث ان ابراهيم بن المهدي عندما بايعه اهل بغداد بالخلافة واحتاج الى المال اقترض من عدد من التجار ، كان عبدالملك الزيات احدهم ·

---

(٣٥) ثمار القلوب / ٢٠٤ ·

(٣٦) معجم البلدان ٢٠٢/٢ · ويقول ابو الفرج ان اسم القرية جبل وهي مقابلة لقرية دسكرة غربي بغداد · الاغاني ٤٦/٢٣ ·

نشأ محمد ببغداد وانصرف الى طلب العلم والمعرفة فصبح اديبا اريبا ، عالماً ، في النحو ، بليغا في اللغة . حتى ان ابا عثمان المازني لما قدم بغداد في ايام المعتصم بالله ، كان اذا اختلف جلساؤه فيما يقع فيه الشك من عام النحو ، يقول لهم عليكم بمحمد فاعرفوا جوابه . وكانت اجوبة محمد مصيبة دائما يرتضيها ابو عثمان(٣٧) . وقد وصفه ابن الطقطقي بحدة الذكاء وانه « برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعراً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك »(٣٨) . وقال عنه الخطيب البغدادي انه كان اديبا فاضلا عالما بالنحو واللغة (٣٩) . وقال عنه ابن خلكان مثل ذلك واضاف انه كان من اهل الأدب الظاهر والفضل الباهر(٤٠) . ويروى انه لما تولى الوزارة اشترط الا يلبس القباء ، وان يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفاً بحمائل ، فأجيب الى طلبه (٤١) .

لقد نهض ابن الزيات باعباء الوزارة على احسن وجه بحيث حاز ثقة الخليفة ورضاه . ويقول ابن الطقطقي انه نهض بالوزارة نهوضا لم يكن لمن تقدمه من اضرابه ، الا انه يقول ايضا انه كان جباراً متكبراً ، فظاً غليظ القلب ، خشن الجانب ، مبغضا الى الخلق(٤٢) . لقد كان ابن الزيات في الواقع وزيرا حازماً واداريا

---

(٣٧) تاريخ بغداد ٣٤٢/٢ ، ووفيات الاعيان ١٨٢/٤ .
(٣٨) الفخري / ٢١٣ .
(٣٩) تاريخ بغداد ٣٤٢/٢ .
(٤٠) وفيات الاعيان ١٨٢/٤ .
(٤١) الاغاني ٥٢/٢٣ .
(٤٢) الفخري / ٢١٣ .

قديرا . عرف بالشدة والصرامة • وقد اناط بـه المعتصم بالله مسؤولية جميع ما بناه في سر من رأى في كـلا جانبيهـا الشـرقي والغربي (٤٣) • وبلغ من قوة نفوذه انه كان يعقد للولاة ، فقد عقد لاسحاق بن ابي خميصته على اليمامة والبحرين وطريق مكة ممايلي البصرة . في دار الخلافة • ولم يذكر ان احداً من الوزراء قام بذلك غيره (٤٤) • وقد وصفه كاتبه احمد ابن اسرائيل بقوله : كان ابن الزيات قليل الخير ، لا يرعى ذماما ولا يوجب حرمة ، ولا يحب ان يصطنع احداً (٤٥) • وروى ابو الفرج بعض الاخبار الدالـة على لؤم ابن الزيات وحقده وحسده • فقد مر ذات يوم بدار ابراهيم بن فرأى فيه قبة مشيدة ، فساءه ان يرى مظاهر الجاه والثراء عليه . فقال :

اما القباب فقد اراهـا شيدت
وعسى امور بعد ذاك تكـون

عبد عرت منه خلائـق جهـله
اذ راح من الثراء وهـو سمين

فما كانت الا ايام حتى اوقع بابن رباح ونكبه (٤٦) • ومـن مظاهر لؤمه ايضاً انه كان له جار ، فلما بلغ ابن الزيات ما بلغ ، شخص اليه ذلك الجار يطلب اقالة عثرته • فقال : قد علمت حالك ، فانصرف وعد الي في غد • فولى الرجل ، فلما صار غير بعيد منه

---

(٤٣) الطبري ٩/٢٠ •
(٤٤) الطبرى ٩/١٤٠ •
(٤٥) الفرج بعد الشدة ٣/٢٧٥ •
(٤٦) الاغاني ٢٣/٧٢ •

دعا به وقال له : والله مالك عندي شيء • ثم اقبل على بعض من كان بين يديه فقال : انما رددته وآيسته بخلا عليه بفسحة الأمل بقية يومه(٤٧) • وذلك منتهى اللؤم والبخل على الآخرين وبخاصة ذوي الحاجة منهم •

على انه مع رغم قسوة ابن الزيات وحقده وصرامته ، فقد كان لا يخلو من العدل والانصاف في معاملة الآخرين احيانا • فقد جلس يوما للمظالم فتقدم اليه رجل ادعى بأنه مظلوم وان الوزير نفسه قد ظلمه • فسأله عن امره ، فأوضح له ان وكيله قد اغتصب ضيعة له ، وهو لا يزال يدفع خراجها لئلا يفقد ملكيتها ، بحيث اصبح(٤٨) وكيل الوزير يأخذ غلتها ، ويؤدي صاحبها خراجها، وان ما لم يسمع في الظلم مثله • فسأله لما تأخر في شكواه، فأجاب بأن خوفه من سطوته وقوة حجته منعه من التقدم بالشكوى • فقال ابن الزيات: ان ذلك يحتاج الى بينة وشهود واشياء • قال الرجل : أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب ؟ قال : قد امنتك • قال : البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شيء ، وما قولك واشياء الا للتعجيز • فضحك محمد(٤٩) قال : صدقت • ثم وقع له برد ضيعته، وان يطلق له كر حنطة وكر شعير ومائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من اصحابه (٥٠) •

نستدل من هذا الخبر على عنت الحكام وسوء تصرف وكلائهم في اغتصاب اموال الآخرين ، او التمتع بغلاتها وخيراتها ، وحرمان

---

(٤٧) جمع الجواهر في الملح والنوادر / ٣٠٠ •
(٤٨) الاغاني ٢٣/٤٧ـ٤٨ ، والهفوات النادرة /٣٨٩ـ٣٩٠ •
(٤٩) العقد الفريد ٣/٢١٣ •
(٥٠) عيون الانباء / ٢٨٤ •

اصحابها الشرعيين من ذلك · واذا ما انصف ابن الزيات احد هؤلاء المغتصبة اموالهم لأنه تجرأ فاشتكى منه اليه ، فمن هناك عديد من امثاله ممن لا تصل شكواهم الى مسؤول ·

يقول ابن عبد ربه ان محمد بن عبدالملك كان يأنس باهل البلادة ويستوحش من اهل الذكاء · فسئل عن ذلك ، فقال : مؤونة التحفظ شديدة(٥١) · وهذا يلقي ضوءاً على جانب من شخصيته ، هو رغبته في التميز على الآخرين ، وذلك لايتاح له الا اذا كانوا دونه كفاية وذكاء · كما ان ذلك يعفيه من التحفظ في اقواله وافعاله امامهم لأنهم لا يملكون قدرة الاعتراض عليه او مناقشته ، وانهم لا ينتبهون الى ما يهدف اليه من بعض اعماله وتصرفاته ·

كان ابن الزيات مولعاً بالآداب والعلوم الى جانب كفايته الادارية والسياسية · وقد شجع نقل الكتب اليونانية الى العربية وقد انفق على ذلك مبالغ كبيرة · يقول ابن ابي اصيبعة ان عطاءه للنقلة والنساخ يقارب الفي دينار فى كل شهر ، وان بعض الكتب نقلت بأسمه ، وقام بذلك كبار الأطباء والمترجمين مثل يوحنا بن ماسويه وسلمويه بن بنان واسرائيل بن زكريا الطيفوري (٥٢) ·

وذكر صاحب الفهرست ان حنين بن اسحاق نقل لمحمد بن عبدالملك الزيات الى العربي كتاب الصوت وهو اربع مقالات (٥٣) · ويمكن ان نستنتج مما كان ينفقه على المترجمين وما كان يهديه اليه بعض المؤلفين انه كانت له بسامرا خزانة كتب كبيرة تضم مجلدات من الكتب الموضوعة والمترجمة في مختلف الفنون والعلوم ·

---

(٥١) الفهرست / ٤١٨ ·
(٥٢) معجم الادباء ٦/٧٥ ·
(٥٣) نفس المصدر / ٨٥-٨٦ ·

كما كان ابن الزيات يرعى الادباء والشعراء • وكان عمرو بن بحر الجاحظ كبير ادباء عصره ملازماً له مختصا به • وقد انحرف بسببه عن قاضي القضاة احمد بن ابي دواد ، للخصومة التي كانت بين ابن الزيات وابن ابي دواد • وقد اهدى الجاحظ كتابه «الحيوان» الى ابن الزيات فمنحه خمسة الاف دينار (٥٤) • وقال الجاحظ : اردت الخروج الى محمد بن عبدالملك ففكرت شيء اهديه اليه فلم اجد اشرف من كتاب سيبويه ، وقلت له اردت ان اهديك شيئاً ففكرت فاذا كل شيء عندك ، فلم أر اشرف من هذا الكتاب وقد اشتريته من ميراث القراء • قال : والله ما اهديت الي شيئاً احب الي منه (٥٥) •

لقد جمع ابن الزيات بين النثر والشعر ، فكان شاعرا مجيدا لا يقاس به احد من الكتاب • قال الصولي : كنا نقول لم يل الوزارة اشعر من احمد بن يوسف حتى ولي محمد بن عبدالملك فكان اشعر منه (٥٦) • ومن رقيق شعره قوله :

سماعا يا عباد الله مني
وكفوا عن ملاحظة الملاح

فأن الحب آخره المنايا
واوله بهيج بالمزاح

وقالوا : دع مراقبة الثريا
ونم فالليل مسود الجناح

---

(٥٣) الاوراق / ٢٠٦ •
(٥٥) الاغاني ٢٣/٤٦ـ٤٧ •
(٥٦) ديوان البحتري ١/ ٦٣٢ـ٦٣٨ •

فقلت : وهل افاق القلب حتى

افرق بين ليلي والصبـاح

وقد افرد ابو الفرج فصلا فى كتابه لابن الزيات باعتباره اديبا شاعرا وروى له عددا من المقاطع الشعرية (٥٧) ٠

ومدح ابن الزيات عدد من شعراء عصره وعلى رأسهم البحتري، فقد مدحه بقصيدة يصف فيها بلاغته وعزمه وكفايته ، جـاء فيهـا (٥٨) :

في نظام من البـلاغـة ماشـ

ـك امرؤ انـه نظـام فريد

ومعـان لو فضلتهـا القوافي

هجنت شعر جـرول ولبيـد

حزن مستعمل الكلام اختبـاراً

وتجنبـن ظلمـة التعقيـد

وركبن اللفظ القريب فادركـ

ـن به غـايـة المـراد البعيد

وارى الناس مجمعين على فضـ

ـلك مـن بـين سيد ومسـود

عرف العالمون فضلـك بالعـ

ـلم وقال الجهـال بالتقليد

(٥٧) ديوان ابي تمام ١/٢٣٩ــ٢٥٩ ٠

(٥٨) نشوار المحاضرة٨/٩١ ٠

صارم العزم حاضر الحزم ساري

الفكر ثبت المقام صلب العود

دق فهما وجل حلماً فأرضى الله فينا والواثق بن الرشيد

قد تلقيت كل يوم جديد

يا اباجعفر بمجد جديد

واذ استطرفت سيادة قوم

بنت بالسؤدد الطريف التليد

ومدحه ابو تمام الطائي بقصيدة منها (٥٩) :

وعاذل هاج باللؤم مأربه

باتت عليها هموم النفس تصطخب

لما اطال ارتجال العذل قلت له

الحزم يثني خطوب الدهر لاالخطب

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف

محمد بن ابي مروان والنوب

لي من ابي جعفر آخيه سبب

ان تبق يطلب الى معروفي السبب

صحت فيما يتمارى من تأماها

من فرط نائله في انها نسب

لن يكرم الظفر المعطى وان اخذت

به الرغائب حتى يكرم الطلب

(٥٩) الاغاني ٤٦/٢٣ .

ردء الخلافة في الجلى اذا نزلت
وقيم الملك لا الواني ولا النصب

القى اليك عرى الأمر الامام فقد
شد العتاج من السلطان والكرب

يعشو اليك وضوء الرأى قائده
خليفة انما آراؤه شهب

وقد بقي محمد بن عبدالملك الزيات محتفظا بمركزه في الوزارة طيلة ايام الخليفة المعتصم بالله ، وفي ايام ابنه الواثق بالله وبعض ايام المتوكل على الله · وقال الفضل بن مروان : لا نعلم وزيراً وزر وزارة واحدة بلا حرف لثلاثة خلفاء منسقين غير محمد بن عبدالملك(٦٠) · ويؤيد ابو الفرج ذلك بقوله : انه وزر ثلاث دفعات وهو اول من تولى ذلك (٦١) ·

وكان من اول اعمال الواثق بالله عندما تولى الخلافة انه اتخذ وزير ابيه وزيرا له ، لما كان يتوسمه فيه من الدراية والكفاية ، وعمق المعرفة وسعة الاطلاع ، رغم انه كان ينقم عليه اموراً كثيرة قاساها منه عندما كان اميراً · بحيث انه قال يوماً لخادمه : قد تم علي من هذا الكلب كل مكروه ، فاذا افضت الي الخلافة فقتلني ان لم اقتله (٦٢) · ويقول ابن الطقطقي ان الواثق كتب بخطه كتابا وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات(٦٢) · الا انه عندما آلت اليه الخلافة

---

(٦٠) نشوار المحاضرة ١٩/٨ ·
(٦١) الفخري / ٢١٤ ·
(٦٢) نفس المصدر ، ونشوار المحاضرة ١٧/٨ــ١٩ ·
(٦٣) وفيات الاعيان ١٨٦/٤ ·

وحصر الدار جميع الكتاب ، لم يرق له ما كتبوه عن موت ابيه و توليه الخلافة ، فاضطر ان يطلب الى ابن الزيات ان يكتب ذلك • فكتب كتابا نال استحسان الواثق بالله بحيث امر بتحرير الكتب الى جميع الجهات بموجبه (٦٤) • واقره في الوزارة لأنه لم يجد من يقوم مقامه من حيث درايته وحسن سياسته الى سعة اطلاعه ومعرفته بتدبير الأمور • وفوض اليه ملكه وصار لا يصدر الا عن رأيه • ويروى انه قال ان عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض (٦٣) • وانه قال : والله ما يمنعني من الوفاء بيميني الا النفاسة على ان يخلو الملك من امثاله (٦٤) • ولذلك فانه لم يستوزر غيره طيلة حياته • على الرغم من ان ابن الزيات كان كما يقول اليعقوبي بشيء من التحامل عليه : شديد القسوة ، قليل الرحمة ، جبّاها للناس ، كثير الاستخفاف بهم ، ولا معروف عنده (٦٥) •

وعندما بويع للمتوكل على الله بالخلافة استمر محمد بن عبد الملك الزيات في الوزارة ، الا ان المتوكل على الله كان يعقد عليه بعض الامور • وقد سبق ان اشرنا الى ما كان يحمله من حقد على ابن الزيات والقائد التركي ايتاخ • لانهما كانا عارضا ترشيحه للخلافة واقترحا قتاله للتخلص منه • اضافة الى ان ابن الزيات كان يسيء معاملته في عهد اخيه الواثق بالله • لذا كان من المتوقع ان يتخلص الخليفة من ابن الزيات الا انه تمهل قليلا قبل ان يقدم على ذلك • ويقول ابو الفرج انه « خشي ان نكبه عاجلا ان يستتر اسبابه فتفوته بغيته فيه ، فاستوزره وخلع عليه • وجعل ابن ابي

---

(٦٤) جمع الجواهر في الملح والنوادر / ٣٠٣ـ٣٠٤ •

(٦٥) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٨٤ •

دواد يغريه به ويجد لذلك عنده موقعا واستماعا » (٦٦) • حتى اذا كان يوم الاربعاء لسبع خلون من صفر من سنة (٢٣٣هـ) عـــزم المتوكل على الله على الفتك به • فأمر كبير قواده وحاجبه ايتاخ ان يقبض على ابن الزيات ويعذبه • فقبض عليه واودعه السجن • ووجه اثنين من وجوه اصحابه هما يزيد بن عبدالله الحلواني وهرثمة شارباميان الى داره واخذا جميع ما فيه (٦٧) •

وكان الخليفة قد وجه راشدأ المغربي الى بغداد لقبض ما لأبن الزيات فيها من الاموال ، وامر ابا الوزير احمد بن خالد بقبض ضياعه وضياع اهل بيته حيثما كانت • واجبر ابن الزيات على ان يوكل العباس بن احمد كاتب القائد عجيف بن عنبسة ببيع ما يملكه . فكانت قيمة ما قبض له تسعين الف دينار ، وقيل مائة الف دينار (٦٨) •

وقيد ابن الزيات في سجنه بأمر الخليفة ، فامتنع عن الطعام ، وكان شديد الجزع كثير البكاء قليل الكلام • وكان ابن الزيات قد اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنوراً من الخشب فيه مسامير اطرافها الى داخل التنور ، يعذبهم فيه • فأمر المتوكل على الله بادخاله في ذلك التنور فبقى فيه اياما فمات (٦٩) • وهناك اختلاف في سبب موته ، فقد قيل انه ضرب فمات وهو يضرب، وقيل انه مات بغير

---

(٦٦) الاغاني ٢٣/٧٢-٧٣ •

(٦٧) الطبري ٩/١٥٨ •

(٦٨) نفس المصدر / ١٥٨ و ١٦١ والاغاني ٢٣/٧٤ •

(٦٩) نفس المصدر / ١٥٩ ، والكامل ٧/٣٧ ، ومروج الذهب ٤/٨٨ وفيه كان التنور من الحديد ، وكذلك جاء في الاغاني ٢٣/٧٤ •

ضرب ، ويفهم مما ذكره مسكويه انه مات من جراء تعذيبه في التنور (٧٠) ٠

ويقول المسعودي ان ابن الزيات لما ادخل التنور طلب دواة وبطاقة فكتب الى الخليفة :

هي السبيل فمن يوم الى يوم
كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعن رويداً انها دول
دنيا تنقل من قوم الى قوم

الا ان المتوكل على الله لم يطلع على الرقعة في يومها ، فلما كان الغد قرأها فأمر باخراجه ، فوجد ميتا (٧١) ٠ وذكر عن احد حراسه انه سمعه قبل موته يقول لنفسه : يا محمد لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وانت في عافية ، حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ، ثم سكت عن ذلك ، وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله ، وكانت وفاته في يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ٢٣٣هـ (٧٢) بعد ان لبث في الوزارة اربعةعشر عاما وبضعة اشهر ٠ ويقول ابو الفرج ان المتوكل على الله « ندم على قتله ولم يجد منه عوضا » وكان يقول لأحمد بن ابي دواد « اطمعتني في باطل ، وحملتني على امر لم اجد منه عوضا » (٧٣) ٠

(٧٠) الطبري ٩/١٥٩ ، والكامل ٧/٣٨ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٩ ٠
(٧١) مروج الذهب ٤/٨٨ ٠
(٧٢) الطبري ٩/١٦٠ ، والكامل ٧/٣٨ ٠
(٧٣) الاغاني ٢٣/٧٣ ٠

وقد رثاه صديقه واقرب الناس اليه الحسن بن وهب بشعر كان يتنصل منه خوفا على حياته ، جاء فيه (٧٤) :

يكاد القلب من جزع يطير
اذا ما قيل قد قتل الوزير

أمير المؤمنين هدمت ركنا
عليه رحاكم كانت تدور

سيبلى الملك من جزع عليه
ويخرب حين تضطرب الامور

فمهلا يابني العباس مهلا
فقد كويت بنملكم الصدور

الى كم تنكبون الناس ظلما
لكم في كل ملحمة عقير

جزيتم ناصرأ لكم المنايا
وليس كذلكم يجزي النصير

٣ ـ احمد بن خالد :

ابو الوزير ، من كتاب الدولة العربية . ولما عزم المعتصم بالله على بناء مدينة سامرا كلف وزيره محمد بن عبدالملك الزيات واثنين من الكتاب لشراء الارض التي قرر انشاء المدينة عليها ،

---

(٧٤) نفس المصدر / ٧٤ .

كان احدهما احمد بن خالد (٧٥) • ويقول الطبري ان المعتصم بالله بعث احمد بن خالد الى ناحية موقع سامرا ليشتري له ارضا يبتني فيها مدينة ، وامره ان يأخذ معه مائة الف دينار ليدفع قيمة ما يشتريه فقال احمد انه سيأخذ خمسة الاف دينار وكلما احتاج الى زيادة بعث الى الخليفة يستزيده ، فاتى الموضع واشترى ما كلفه به الخليفة (٧٦) •

وولي احمد بن خالد للخليفة المعتصم بالله خراج مصر في سنة (٢٢٦ هـ) حينما قدم اليها يحمل معه كتاب ولاية القضاء لمحمد بن ابي الليث (٧٧) • ويظهر انه عاد الى الكتابة في ديوان الخلافة ، اذ كان من جملة الكتاب الذين صادرهم الواثق بالله سنة (٢٢٩ هـ) فاخذ منه صلحا ، اي دون ان يأمر بضربه ، مائة واربعين الف دينار (٧٨) • وعند وفاة الواثق بالله كان احمد بن خالد من الحاضرين في قصر الخلافة مع الوزير ابن الزيات وقاضي القضاة ابن ابي دواد وكبار القواد الاتراك ، وشارك في اختيار المتوكل على الله للخلافة (٧٩) •

وعندما كان المتوكل على الله مغضوبا عليه من اخيه الواثق بالله ، ويلقى عنتا من الوزير ابن الزيات ومن عمر بن فرج الرخجي صاحب ديوان النفقات ، كان ابو الوزير وهو زمام علي عمر المذكور آنذاك يواسيه ويحسن معاملته (٨٠) • مما كان له أثر حسن في نفس المتوكل على الله ، فاخذ عند استخلافه يعتمد عليه في اداء بعض المهام • اذ وجهه لقبض ضياع ابن الزيات عندما

---

(٧٥) كتاب البلدان / ٢٥٧ ـ ٢٥٨ •
(٧٦) الطبري ٩/ ١٧ •
(٧٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٤٤٩ •
(٧٨) الطبري ٩/ ١٢٥ ، والكامل ٧/ ١٠ ، وتجارب الامم ٦/ ٥٢٨ وفيه انه اخذ منه مائتي الف دينار •
(٧٩) الطبري ٩/ ١٥٤ ، والكامل ٧/ ٣٣ ، وتجارب الامم ٦/ ٥٣٥ •
(٨٠) الطبري ٩/ ١٥٧ •

سخط عليه ، كما اشرنا آنفا • ثم اناط به مهام الوزارة من غير ان يسميه بها • الا انه سرعان ما غضب عليه وامر في ذى الحجة من السنة نفسها بمحاسبته ومصادرته ، واخذ منه ستين الف دينار، وبدرا من الدراهم والحلي ، ومن متاع مصر وبضائعها اثنين وستين سفطا ، واثنين وثلاثين غلاما ، وفرشا كثيرة (٨١) • ثم ما لبث ان رضي عنه ثانية ، فولاه خراج مصر في سنة (٢٣٨هـ) شريكا لعنبسة بن اسحاق الضبي (٨٢) •

٤ ـ محمد بن الفضل الجرجرائي :

ابو جعفر ، كان يكتب للفضل بن مروان ، وهو من جرجرايا من اعمال النهروان الأسفل بين بغداد وواسط (٨٣) • وكان شيخا ظريفا حسن الأدب • عالما بالغناء مشتهراً به (٨٤) • استكتبه الخليفة المتوكل على الله بعد ان صرف ابا الوزير احمد بن خالد من عمله في (٢٣٣هـ) (٨٥) • الا انه اضطر بعد مدة الى عزله بعد ان كثرت السعايات به ، وقال : قد ضجرت بالمشايخ اريد حدثا استوزره (٨٦) •

ولما قتل القائد التركي اوتامش المتسلط على الوزارة في عهد الخليفة المستعين بالله ، في سنة (٢٤٩هـ) واشتد الخلاف بين الخليفة

---

(٨١) الطبري ١٦٢/٩ ، والكامل ٢٩/٧ ، والفخري / ٢١٦ •
(٨٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٢٠٠ •
(٨٣) معجم البلدان ١٢٣/٢ •
(٨٤) الفخري / ٢١٦ •
(٨٥) كتاب الطبري ٢٦٢/٩ •
(٨٦) الفخري / ٢١٦ •

والاتراك ،اتخذ الخليفة محمد بن الفضل الجرجرائي وزيرا (٨٧) .
الا انه لم يلبث ان توفي السنة التالية (٨٨) .

٥ ـ عبيدالله بن يحى بن خاقان :

كان المتوكل على الله قد صرف محمد بن الفضل الجرجرائي من الوزارة في سنة (٢٣٦هـ) واستكتب عبيدالله بن يحيى بن خاقان . وكان اول معرفة المتوكل على الله به ، ان عبيدالله كان قد لازم الفضل بن مروان ، وهو يتقلد ديوان الضياع ، ويعاونه في الامور الكتابية . وصادف ان اهل ارمينية طلبوا من الفضل ان يمضي لهم مقاطعة في بلادهم فرفض رغم الحاحهم ولجوئهم الى كثير من اصحابه . فلجأوا الى عبيدالله بن يحيى فخاطب الفضل في امرهم بما جعله يستجيب لطلبهم . فحمل القوم الى عبيدالله خمسة الاف دينار فردها وقال ما كنت لآخذ على معروف ثمنا . فلما خرجوا الى ارمينية حملوا اليه فرش بيت ارمني جميلا جدا ببساط عظيم ومصليات واتخاخ ومخاد وستور ، وكتبوا عليه اسمه وكنيته . وكان المتوكل على الله حينذاك قد وكل بالطرق وامر الا يدخل شيء من الامتعة الا ان يعرض عليه . فلما عرضت عليه الهدية المذكورة استحسنها وسأل عن عبيدالله وعلاقته باهل ارمينية ، ولما اطلع على خبره معهم امر بتسليم الفرش اليه ، وقال هذا فتى يدل فعله على كبر همته (٨٩) . ولما صرف المتوكل على الله محمد بن الفضل الجرجرائي عن الوزارة لم يعين وزيرا وامر اصحاب الدواوين ان يعرضوا عليه اعمالهم ، وجعل التوقيع للقائد التركي وصيف . ثم احتاج الى كاتب يكون بين يديه فأمر ان يطلب له حدث

(٨٧) الطبري ٩/٢٦٤ ، والكامل ٧/١٤٤ ، والفخري / ٢٢٠ .
(٨٨) الكامل ٧/١٣٥ .
(٨٩) نشوار المحاضرة ٨/٥١ـ٥٣ .

من اولاد الكتاب ، فسموا له جماعة كان فيهم عبيدالله بن يحيى • فلما ذكر اسمه تذكر المتوكل على الله حديث الفرش الارمني ، فاختاره للكتابة (٩٠) •

ولم تزل منزلة عبيدالله تتقدم لدى الخليفة حتى امر ان يخلع عليه وان لا يعرض احد من اصحاب الدواين عليه شيئا ، وان يرفعوا اعمالهم الى عبيدالله ليتولى عرضها عليه • واجرى عليه في كل شهر عشرة الاف درهم • وقوى امر عبيدالله فحذف اسم القائد وصيف من التوقيع واثبت اسمه • ثم امر له الخليفة برزق الوزارة ، ثم خوطب بها(٩١) • ولشدة اعتماد المتوكل على الله على عبيدالله قلده كتابة ابنيه المعتز والمؤيد وضم اليهما بضعة عشر الف رجل وجعل تدبيرهم الى عبيدالله ايضا ، فصار وزيرا اميرا (٩٢) • وقد ضم اليه توقيع ديوان العامة في سنة (٢٤٥هـ) فاستخلف ابن عمه يحيى بن عبدالرحمن بن خاقان (٩٣) •

كان عبيدالله من خيرة الكتاب ، حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، ورغم انه كان في تصرفاته بعض التخليط الا ان كرم نفسه وحسن اخلاقه ، ونزاهته وعفته ، غطت على عيوبه (٩٤) • وقد اعجب به المتوكل على الله فرفعه واعلى مرتبته وولاه وامره ان يكتب : مولى امير المؤمنين ، وان يأمر كتاب الدواوين ان يوقعوا باسمه • فاستعفاه يحيى من ذلك • الا انه اخذ يولي العمال على الخراج والضياع والبريد والمعادن ، ويعين القضاة في جميع انحاء الدولة • وقد سلك في اعماله سيرة حسنة

(٩٠) نفس المصدر / ٨٣ •
(٩١) نفس المصدر •
(٩٢) نشوار المحاضرة ٨/١٥ـ١٦ •
(٩٣) الطبري ٩/٢١٧ •
(٩٤) الفخري / ٢١٦ •

جعلته محمودا عند الناس (٩٥) • ومن تعففه ان صاحب مصر حمل اليه مائتي الف دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية ، فلما احضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك ، ثم فتح الأسفاط واخذ منها منديلا لطيفا وضعه تحت فخذه ، وامر بالمال فحمل الى خزانة الديوان (٩٦) •

وقد وصفه ابو العيناء الأديب الشاعر للمتوكل على الله لما سأله عنه ، بقوله : العبد لله ولك منقسم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادل بصلاح رعيتك كل لذة (٩٧) •

وعندما عزم المتوكل على الله بناء مدينة المتوكلية (الجعفرية) حاول نجاح بن سلمة ، وكان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، أن يتقرب الى الخليفة بتحريضه على مصادرة اموال عبيدالله بن يحيى وعدد من رؤوساء الدواوين ، فعرض عليه ان يسمي له قوما يدفعهم اليه حتى يستخرج منهم اربعين الف الف درهم تساعده في نفقة بناء المدينة الجديدة • فطلب اليه الخليفة ان يذكر اسماءهم • فرفع اليه نجاح رقعة يذكر فيها موسى بن عبدالملك صاحب ديوان الخراج ، والحسن بن مخلد صاحب ديوان التوقيع ، وخليفته عيسى بن فرخانشاه ، وعبيدالله بن يحيى واخويه عبدالله وزكريا ، وآخرين غيرهم ، نحوا من عشرين رجلا • فلما علم عبيدالله بذلك عمل على انقاذ الجماعة وتسفيه اقتراح نجاح لدى الخليفة • فأقنع نجاحا بان يعتذر للخليفة عما تقدم به ، وكان عبيدالله اخذ بنفس الوقت رقعة من موسى والحسن يتعهدان فيها باستخراج اموال نجاح بن سلمة اذا سلمه الخليفة اليهما ، وضمنا

---

(٩٥) تاريخ اليعقوبي ٤٨٨/٢ – ٤٨٩ •
(٩٦) الفخري / ٢١٦ •
(٩٧) الديارات / ٩٠ •

تحصيل الفي الف دينار منه • فاقتنع المتوكل على الله باقتراح وزيره ، ودفع نجاحا الى غريميه • فاخذاه واولاده فاقروا بنحو مائة واربعين الف دينار ، سوى الغلات والفروس والضياع وغير ذلك • ثم امروا بضرب نجاح حتى مات • فأقر ابناؤه بعد الضرب بسبعين الف دينار اخرى سوى مالهما من الاملاك فأخذت جميعها منهم • كما اخذ بسببه قوم بسامرا وببغداد وبمكة وبناحية السواد فحبسوا وصودروا (٩٨) •

كان عبيدالله مواليا للمتوكل حريصا على ارضائه • فلما رآه يبعد ابنه محمدا المنتصر وينتقصه شايعه في ذلك ، وبدلا من ان يقرب بين الخليفة وولي عهده ويعمل على ازالة ما بينهما من اسباب التباعد والجفاء انتهج سياسة تزيد في سخط ولي العهد على ابيه • فعندما عزم المتوكل على الله على الصلاة آخر جمعة في رمضان سنة (٢٤٧هـ) واراد الركوب للذهاب الى المسجد الجامع ، قال له عبيدالله والفتح بن خاقان ان الناس اجتمعوا وكثروا ، من بني العباس وغيرهم ، واكثرهم متظلم وطالب حاجة ، وقد يزعجون امير المؤمنين وهو يشكو ضيق الصدر ووعكة ، واقترحا عليه ان يعهد لأحد ولاة العهد بالصلاة بالناس • فأمر المتوكل على الله ابنه المنتصر بالصلاة • فلما نهض المنتصر ليركب للصلاة ، قالا للخليفة ان يأمر ابا عبدالله المعتز ليشرفه بذلك وقد ولد له ولد قبل ذلك بيوم • فأمر المعتز فذهب وصلى بالناس ، مما اغضب المنتصر (٩٩) •

ولما حل عيد الفطر امر المتوكل على الله ان يصلي المنتصر بالناس ، قالا له ان الناس يتطلعون الى رؤية الخليفة ، ولا نأمن ان هو لم يحضر الصلاة ان يرجف الناس بعلته ويتكلمون بامره •

---

(٩٨) الطبري ٩/٢١٤-٢١٧ ، والكامل ٧/٨٨-٨٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٤ •
(٩٩) الطبري ٩/٢٢٢-٢٢٣ •

فأمر بالتهيؤ للصلاة وخرج وصلى بالناس (١٠٠) • فزاد ذلك في غضب المنتصر وسخطه على ابيه ورجاله •

وعندما قتل المتوكل على الله اجتمع الى عبيدالله جند الفرقة التي كانت تحت امرته ويتراوح عددهم بين خمسة الاف وعشرة الاف ، وقالوا له : انما كنت تصطنعنا لهذا اليوم فأمرنا بامرك وأ أذن لنا نمل على القوم ميلة نقتل المنتصر ومن معه من الاتراك وغيرهم • فأبى ذلك وقال : ليس في هـذا حيلة والمعتز في ايديهم(١٠١) • وكان يميل الى المعتز فخاف ان هو تحرك ضد المنتصر واتباعه ان يقتلوا المعتز • ويقول ابن الطقطقي ان الجند كانوا يحبون عبيدالله بن يحيى لحسن سيرته فيهم فلما قتل المتوكل على الله خاف عبيدالله على نفسه، فاجتمع الجند على بابه وقالوا له : انت احسنت الينا واقل ما يجب علينا ان نحرسك في مثل هذه الفتنة ، ولازموا بابه وحفظوه(١٠٢) •

ولما بويع المنتصر الله بالخلافة بايعه عبيدالله بن يحيى وانصرف • واستوزر الخليفة الجديد احمد بن الخصيب احد كبار الكتاب • وظل عبيدالله بعيدا عن الوزارة في عهد الخليفة المستعين بالله الذي لم يكن يرتاح اليه ، فاغتنم فرصة خروجه الى الحج فبعث خلفه احد رجاله وامره بنفيه الى برقة (١٠٣) • وعندما اضطر المستعين بالله على ترك سامرا والالتجاء الى بغداد وتفويض امره الى نائبه فيها محمد بن طاهر بن عبدالله الذي وقف الى جانبه في اول نزاعه مع الاتراك ، لعب عبيدالله بن يحيى دورا في تغيير موقف ابن طاهر من المستعين بالله ، وقد قال له مرة : ان هذا الذي

---

(١٠٠) الطبري ٢٢٣/٩ ، والكامل ٩٦/٧ •
(١٠١) الطبري ٢٢٩/٩ ، والكامل ٩٩/٧-١٠٠ ، وتجارب الامم ٥٥٧/٦ •
(١٠٢) الفخري / ٢١٧ •
(١٠٣) الطبري ٢٥٨/٩ ، والكامل ١١٩/٧ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٩٥/٢ وفيه انه نفاه الى مكة وقبل وصوله اليها بعث خلفه من نفاه الى برقة •

تنصره وتجد في امره من اشد الناس نفاقا . واخبثهم دينا ، والله لقد امر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك .. ولم يفعلاه . حتى صرفه عما كان عليه من الرأي في نصرة المستعين بالله . فقال محمد ابن طاهر : اخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا دنيا (١٠٤) .

وعندما تولى المعتمد على الله الخلافة في رجب سنة (٢٥٦هـ) استوزر عبدالله بن يحيى (١٠٥) . وقد عرف عنه انه كان خبيرا باحوال الرعية وكفوءا بعمله ضابطا للاموال . ولما دخل يعقوب ابن الليث الصفار مدينة نيسابور وقبض على اميرها محمد بن طاهر واهل بيته ، وارسل رسله الى الخليفة يعلمه بذلك ، قال الموفق والوزير عبيدالله بن يحيى للرسل ، ان امير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل وانه يأمره بالانصراف بالذي ولاه اياه ، فانه ان فعل كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين(١٠٦) . وعندما اشتد خلاف يعقوب بن الليث الصفار على الخلافة ، واظهر ما كان يخفيه من مطالعة ، وتوجه بجيشه نحو سامرا في سنة (٢٦٢هـ) خرج المعتمد على الله على رأس جيشه الذي قاده اخوه الموفق ، ونزل بالسيب ، كان الى جانبه وزيره عبيدالله بن يحيى (١٠٧) .

وفي سنة (٢٦٣هـ) مات عبيدالله بن يحيى ، اذ سقط عن دابته في ميدان كرة الصولجان من صدمة خادم له يقال له رشيق . وذلك في يوم الجمعة لعشر خلون من ذى القعدة ، فسال الدم من منخره واذنه . ومات بعد سقوطه بثلاث ساعات ، فصلى عليه ابو احمد الموفق ومشى في جنازته (١٠٨) .

---

(١٠٤) الطبري ٣٤٢/٩ .
(١٠٥) الطبري ٤٧٤/٩ ، والكامل ٢٣٥/٧ .
(١٠٦) الطبري ٥٥٧/٩ ، والكامل ٢٦٢/٧ .
(١٠٧) الطبري ٥١٧/٩ .
(١٠٨) الطري ٥٣٢/٩ ، والمنتظم ٤٥/٥ .

٦ ـ احمد بن الخصيب :

كان احمد بن الخصيب كاتبا للقائد التركي اشناس الذي كان يتولى اعمال الجزيرة والشامات ومصر والمغرب ، وكان ابن الخصيب هو المدبر لشؤونه . وقد استصحبه اشناس في حملة المعتصم بالله على بلاد الروم في سنة (٢٢٣ هـ) وكلفه مع القائد محمد بن يوسف الثغري بالتحقيق مع احمد الخليل فاخبرهما بما يعرفه عن مؤامرة العباس بن المأمون والمشتركين بها وعلى الأخص الحارث السمرقندي داعية العباس ، مما ساعد على القضاء على المؤامرة وهي في مهدها (١٠٩) .

وكان ابن الخصيب احد الكتاب الذين صادرهم الخليفة الواثق بالله ، واخذ منه ومن كتابه ومن اخيه ما مجموعه الف الف دينار (١١٠) . ويقول اليعقوبي انه انتزعت منه ومن اخيه الأموال بعد تعذيبهما وتعذيب امهما (١١١) .

ولما بويع للمنتصر بالله بالخلافة ابعد عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير ابيه عن الوزارة وجعل كاتبه احمد بن الخصيب وزيراً له . الا انه لم يكن موفقا في هذا الاختيار . اذ كان ابن الخصيب تنقصه الكفاية في الادارة ، ولا يعرف شيئاً عن شؤون الدولة . ومع مروءته كانت فيه حدة وطيش (١١٢) . وقد وصفه المسعودي بأنه قليل الخير كثير الشر شديد الجهل (١١٣) . ولذلك

---

(١٠٩) الطبري ٩/١٧٥ .

(١١٠) نفس المصدر / ١٢٥ ، والكامل ٧/١٠ .

(١١١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨١ .

(١١٢) الفخري / ٢١٧ ، والهفوات النادرة / ٢٦١ .

(١١٣) مروج الذهب ٤/١٣٥ .

ساءت الاحوال على عهده ، كما ساءت سمعته بين الناس وكـان كثيراً ما يرفس المتظلمين اليه وذوي الحاجات اذا ازدحموا عليه ، وقد يبصق عليهم ويشتم اعراضهم • فقد عرض له مرة رجل من ارباب الحوائج والح عليه حتى ضايقه وضغط رجله في الركاب ، فاحتد عليه ابن الخصيب واخرج رجله من الركاب وركله فـي صدره ، فقال احمد بن ابي طاهر (١١٤) :

قل للخليفة يا ابن عم محمـد
اشكل وزيـرك انـه محلـول

فلسانه للشتم فـي اعراضنـا
والرجل منه في الصدور تجول

كم طـالب لظـلامة او حاجـة
متعـرض لكـلامه مركـول

وقد اعتبر ابن عبد ربه ركل الوزير احد المتظلمين من سوء الأدب (١١٥) • واورد صاحب « الهفوات النادرة » قصصا تدل على جهل ابن الخصيب المطبق ، وحمقه الزائد وضعف لغته وقلة ادبه وتسرعه في الأحكام(١١٦) • وقال فيه ابو العيناء : لو تأمل احمد اخلاقه فاجتنبها لاستغنى عن الاداب يطلبها ، وذمه برسالة وضعها على السنة الرؤساء والقواد والكتاب ، يصف كـل منهم مساوىء احمد بن الخصيب (١١٧) • وقال عنه احد الشعراء عندما اشتهرت

(١١٤) الهفوات النادرة / ٢٦١ •
(١١٥) العقد الفريد ٤/١٠ •
(١١٦) الهفوات النادرة / ٢٦١-٢٦٦ •
(١١٧) جمع الجواهر في الملح والنوادر / ٢٠٧ و ٢١٠ •

حادثة ركله احد المتظلمين ، يحرض الخليفة عليه ويتهمه بحيازة الأموال (١١٨) :

قل للخليفة يا ابن عم محمـــد
اشكل وزيـــرك انـــه ركـــال

اشكله عن ركل كل الرجال وان ترد
مالا فعنـــد وزيـــرك الامـــوال

واعتبره ابن الجوزي من الحمقى المغفلين ، وروى عنه قصة تدل على جهله وقلة معرفته بالعربية • فقد قرأ ابن ربح بحضرة المنتصر كتاب الصدقات ، وقال : في كل ثلاثين بقرة تبيع • فقال الخليفة : ما هو التبيع ؟ فاجـــاب ابن الخصـــيب : البقـــرة وزوجها (١١٩) • وقد ادخل ابن عبد ربه احمد بن الخصيب في قائمة من ادخلوا انفسهم في الكتابة ولم يستحقوها ، وانما لطخوا انفسهم بالكتابة وما دانوها (١٢٠) • ومما يؤيد ضحالة ابن الخصيب اللغوية انه نظر يوما الى احد الكتاب ، وكان فدماً ــ اي غايظاً سميناً ــ مضطرب الخلق ، طويل العثفون ، فقال : لأن يكون هذا فنطاس مركب اشبه من ان يكون كاتبا (١٢١) •

ومع هذه الصفات السيئة التي كان عليها احمد بن الخصيب ، فقد طالت مدة خدمته للخلفاء • ويرجح انه مع مساوئه المذكورة

---

(١١٨) الهفوات النادرة / ٢٦١ ، والفخري / ٢١٨ ، وذكر البيت الثاني كالآتي :

قد نال من اعراضنا بلسانه ولرجله عند الصدور مجال

(١١٩) اخبار الحمقى والمغفلين /٢٣٢ •
(١٢٠) العقد الفريد /٤ /١٧٠ــ١٧١ •
(١٢١) نفس المصدر / ١٧٢ •

ونواحي الضعف الاخرى فيه ، كان خدوما لهم لا يخرج عن اوامرهم ونواهيهم . وقد فسر ابن الخصيب نفسه سبب اتصال خدمته للخلفاء بانه لم تكن في حياته لذة في بناء ولا فرش ولا غلمان ولاجوار ولا مفاخرة بمروءة ، وانما كانت لذته في العمارة والتوفير مما جعلهم يستخدمونه (١٢٢) . على انه يبدو انه كان الى جانب ذلك داهية يجيد حبك المؤامرات . فقد لعب دوراً بارزا في مبايعة المنتصر بالله اثر مقتل ابيه(١٢٣) . ولما نشب الخلاف بينه وبين القائد وصيف ، استطاع ان يحرض الخليفة عليه ويقنعه بابعاده عن حاضرة الخلافة ، وخوفه منه ، فارسله في حملة لغزو بلاد الروم(١٢٤) . وتولى ابن الخصيب كتابة الكتاب الذي وجهه الخليفة الى عامله في بغداد يطلب اليه ان يحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله وأن يوافوا عسكر وصيف في ثغر ملطية(١٢٥) . كما استطاع ان يقنع القواد الذين تآمروا على قتل المتوكل على الله بارغام المنتصر بالله على خلع اخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، وقد أخذ ابن الخصيب رقاعهما بالتنازل وتولى قراءتها على الذين حضروا للشهادة على تنازلهما (١٢٦) .

استمر ابن الخصيب في منصب الوزارة طيلة ايام المنتصر بالله ، اذ لم يستطع الخليفة ان يستبدله ، ولعل قصر مدة خلافته لم يتح له فرصة كافية لذلك .

---

(١٢٢) نشوار المحاضرة ٨/ ٤٩ـ٥٠ .
(١٢٣) الطبري ٩/ ٢٣٥ .
(١٢٤) نفس المصدر / ٢٤٠ .
(١٢٥) الطبري ٩/ ٢٤١ـ٢٤٣ والكامل ٧/ ١١١ـ١١٢ .
(١٢٦) الطبري ٩/ ٢٤٤ـ٢٤٦ ، والكامل ٧/ ١١٢ـ١١٤ .

وقد لعب احمد بن الخصيب دوراً رئيساً في اختيار الخليفة المستعين بالله بعد موت المنتصر بالله ، فاستكتبه الخليفة الجديد ، وعهد بامور الوزارة الى القائد اوتامش • ورغم خروج ابن الخصيب من الوزارة فقد ظل الى جانب الخليفة يستمتع بنفوذ كبير • ولما اراد الاتراك ان يقتلوا اخوي المنتصر بالله ، المعتز والمؤيد ، عندما شغب الغوغاء والشاكرية في اوائل عهد المستعين بالله ، وكانا محبوسين في الجوسق بحراسة بغا الصغير ، منعهم ابن الخصيب من ذلك واقنعهم بان لا علاقة لهما بالذين شغبوا ، فابقوهما محبوسين (١٢٧) •

على ان الاتراك ما لبثوا ان غضبوا على ابن الخصيب في جمادى الأولى من سنة (٢٤٨هـ) فاستصفى الخليفة امواله واموال ولده ، وامر بنفيه الى اقريطش (١٢٨) ، وبقي مدة في منفاه ثم عاد الى سامرا ، وقد توفي في سنة (٢٦٥هـ) •(١٢٩) •

٧ ــ احمد بن اسرائيل :

ابو جعفر الانباري ، كان من حذاق الكتاب في سامرا ، وكان الخليفة الواثق بالله قد اتهمه مع آخرين من الكتاب بخيانة الواجب ، فأمر بحبسه والزمه تأدية ما خانه من الاموال • ودفعه الى صاحب الحرس يحيى بن معاذ وامره بضربه كل يوم عشرة

---

(١٢٧) الطبري ٩/٢٥٩ ، والكامل ٧/١١٩ •
(١٢٨) نفس المصدرين السابقين •
(١٢٩) العبر ٢/٢٩ـ٣٠ •

اسواط • ويقال انه ضربه نحواً من الف سوط ، واستخرج منه ثمانين الف دينار (١٣٠) •

وقد استخلفه عبيدالله بن يحيى بن خاقان على ديوان الخراج، وكان ابن اسرائيل يتولى يومئذ الكتابة للامير المعتز بن المتوكل على الله (١٣١) • وظل محتفظا بعمله في الديوان حتى ايام المستعين بالله ، وقد التحق به لما انحدر الى بغداد اثر خلافه مع بعض قواد الاتراك في سنة (٢٥١هـ) • وبعثه الخليفة في وفد يحمل كتابا الى القائد الحسين بن اسماعيل عندما هزم وجيشه امـام جيش سامرا في جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، يلومه فيه على ضعفه وتخاذله (١٣٢) •

ويظهر ان ابن اسرائيل كان مقربا من المستعين بالله ، فاراد مؤيدوا المعتز بالله ان يفرقوا بينهما باثارة شكوك الخليفــة في ولائه • فكلفوا رجلا يقف بباب الخليفة ويدعو للمعتـز باللــه بالنصر والتأييد • ولما قبض عليه ادعى بان احمد بن اسرائيل امره بذلك • فغضب الخليفة عليه ، الا انه ما لبثت الحقيقة ان ظهرت وعرف امر الرجل (١٣٣) • على ان ابن اسرائيل ادرك ضعف مركز المستعين بالله وتزايد قوة المعتز بالله فانضم الى الجانب الذي كان يسعى للصلح مع الموفق قائد جيش المعتز بالله ، وخرج الى معسكر الموفق مع عدد من رجال المستعين بالله باذن من محمد بن عبدالله بن طاهر امير بغداد حينذاك لمناظرة ابي احمد الموفق في الصلح بين

---

(١٣٠) الطبري ١٢٥/٩ •
(١٣١) الطبري ٢١٧/٩ •
(١٣٢) الطبري ٣٢٤/٩ •
(١٣٣) الفرج بعد الشدة ١٢٥/٤ •

الطرفين(١٣٤) . كما ايد ابن اسرائيل عبيدالله بن يحيى في صرف محمد بن عبدالله عن نصرة المستعين بالله ، والسعي لايقاف القتال بين المعتز بالله والمستعين بالله ، والسعي للصلح (١٣٥) . ثم صار الى المعتز بالله في سامرا فولاه البريد ووعده بالوزارة ان تم له النصر (١٣٦) .

ولما رأى المستعين بالله ضعف امره وخذلان ناصريه اجاب الى خلع نفسه من الخلافة وبايع للمعتز بالله . فانتهت الحرب بين سامرا وبغداد ، واستقر الأمر للمعتز بالله . فكافأ المعتز بالله ابن اسرائيل على انتصاره له وخذلانه المستعين بالله بأن استوزره وخلع عليه ووضع تاجاً على رأسه(١٣٧) .

وكان القائدان التركيان وصيف وبغا اللذان التحقا بالمستعين بالله ، لما رأيا ان الخلافة انتهت الى المعتز بالله ، قررا المصير اليه في سامرا ، فوجه وصيف اخته سعاد الى المؤيد ليكلم اخاه المعتز بالله بالعفو عنه ، وكان الموفق قد كلم المعتز بالله في امر العفو عن بغا ايضاً . فكتب الخليفة اليهما بالرضا عنهما . فتوجها الى سامرا . ويبدو ان المعتز بالله لم يكن راغبا في مجيئهما الى سامرا لأنه كتب الى امير بغداد محمد بن عبدالله ان يمنعهما من الخروج من بغداد (١٣٨) . ولما علم احمد بن اسرائيل بوصول القائدين المذكورين الى بغداد بكر في زيارتهما قبل ان يحضرا دار

---

(١٣٤) الطبري ٩/٣٣٦ .
(١٣٥) نفس المصدر / ٣٤١ ـ ٣٤٢ .
(١٣٦) نفس المصدر / ٣٤٤ .
(١٣٧) نفس المصدر / ٣٤٩ .
(١٣٨) نفس المصدر / ٣٥٥ .

الخلافة(١٣٩) . ولعله كان يهدف من زيارته الترحب بهما ليكسب تأييدهما له ، بعد ان علم انهما اعيدا الى سابق مراتبهما واعمالهما . ولما اشتد الخلاف بين الخليفة والقائد بغا ، وقف احمد بن اسرائيل الى جانب الخليفة وصحبه الى كرخ سامرا ليلا للالتجاء الى القائد بايكباك ومن معه ممن كانوا ضد بغا . وكان بغا قد غامر بالخروج على الخليفة فانتهى امره بالقتل وجيء برأسه الى المعتز بالله . فبعث الخليفة من ساعته الى احمد بن اسرائيل ، وبعض رجال دولته ، يبلغهم بذلك (١٤٠) .

وبالنظر لازدياد الجند الأتراك وازدياد نفقاتهم فقد عجز الوزير ابن اسرائيل عن تأمين الأموال اللازمة لهم ، فاستغل الاتراك تأخر ارزاقهم فهاجموه . وقد تزعم حركة تذمرهم القائد صالح بن وصيف ، فقابل الخليفة بحضور الوزير وقال له : يا امير المؤمنين ليس للاتراك عطاء ، ولا في بيت المال مال ، وقد ذهب ابن اسرائيل واصحابه باموال الدنيا . فرد عليه احمد بن اسرائيل واتهمه بالعصيان . فأمر صالح اتباعه فقبضوا على الوزير واثنين من كبار الكتاب من مؤيديه هما الحسن بن مخلد ، وهو كاتب قبيحة ام المعتز بالله ، وابو نوح عيسى بن ابراهيم ، وكان كاتب الفتح بن خاقان ، وقيدوهم واثقلوهم بالحديد . ورفض صالح طلب الخليفة وامه باطلاق سراح احمد ابن اسرائيل . ولما لم يحصل الاتراك على شيء من المال منهم ، وجه صالح في قبض ضياعهم ودورهم ، وضياع ذويهم واموالهم (١٤١) .

---

(١٣٩) نفس المصدر / ٣٥٦ .
(١٤٠) الطبري ٣٧٩/٩ ـ ٣٨٠ .
(١٤١) نفس المصدر / ٣٨٧ـ٣٨٨ .

وعندما تفاقم الخلاف بين الخليفة والاتراك خلعوه وقتلوه ، وبايعوا لمحمد بن الواثق بالله بالخلافة ولقب بالمهتدي بالله • واستمر صالح واتباعه في التشديد على الوزير والكتاب حتى يوم الخميس لثلاث بقين من رمضان سنة (٢٥٥هـ) فأخرج ابن اسرائيل الى باب العامة وضرب خمسمائة سوط ، ثم حمل على بغل من بغال السقائين منكس الرأس مكشوف الظهر ، وحين وصلوا به خشبة بابك مات • فقال الخليفة لما بلغه ذلك اما عقوبة الا السوط والقتل ، اما يكفي الحبس (١٤٢) • وقد اختلف فيمن امر بضربه ، فان الطبري يقول ان صالح بن وصيف وكل بضربه حماد ابن محمد بن حماد بن دنقش ، ويتفق معه ابن الأثير بان صالحا هو الذي امر بضربه (١٤٣) • بينما يقول المسعودي ان المهتدي بالله لما افضت اليه الخلافة اخرج احمد بن اسرائيل الى باب العامة بسامرا فضرب خمسمائة سوط فمات ، وذلك لامور كانت قد استحق عند المهتدي فيما يجب في حكم الشريعة ان يفعل ذلك (١٤٤) •

كان احمد بن اسرائيل يعيد النظر ، مرضيا في عمله ، وقد حاز ثقة الخلفاء الذين خدمهم وتقديرهم • وقد عرف بقوة حفظه وحدة ذهنه ، وقالوا انه كان يحفظ وجوه المال جميعها دخلا وخرجا • وضاعت مرة حسبة من الديوان فأوردها من خاطره ، فلما وجدت كانت كما قال من غير زيادة او نقيصة (١٤٥) •

---

(١٤٢) نفس المصدر / ٣٩٨ •

(١٤٣) نفس المصدر / ٣٩٧ — ٣٩٨ ، الكامل ٧/ ٢٠١ •

(١٤٤) مروج الذهب ٤/ ١٨٧ •

(١٤٥) الفخري / ٢٢٢ •

وذكر الصابي خبراً يؤيد ذلك ، فقد كان يلقى على الكتاب الطويل نظرة سريعة فيستوعب ما فيه ، ويأمر بما يجاب به (١٤٦) •

٨ ـ سليمان بن وهب :

ابو ايوب سليمان بن وهب بن سعيد من بيت كتابة وانشاء ، حزم اجداده عدداً من الخلفاء الأمويين في الشام ، وبعض الخلفاء العباسيين في بغداد • وكان ابوه وهب بن سعيد كاتبا للفضل بن سهل وزير المأمون ، ثم كتب بعده للحسن بن سهل الذي قلده بعض الولايات فأبدى كفاية في الادارة (١٤٧) •

عمل سليمان في الكتابة في سن مبكرة • فقد كتب للمأمون وهو ابن اربع عشرة سنة ، وكتب لايتاخ ثم لأشناس ، وهما من كبار القواد الأتراك (١٤٨) • ويقول ابن الطقطقي انه من قرية واسط ، واصل اهله نصارى اسلموا وخدموا في الدواوين ، ويعتبر سليمان من كبار الكتاب وذوي الرأي منهم (١٤٩) • ثم كتب سليمان للخليفة المعتصم بالله ، وقد بعثه ليحصي ما في دار الأفشين عندما حبسه (١٥٠) • ولما حبس الواثق بالله الكتاب والزمهم اموالا ، امر بحبس سليمان بن وهب ، وكان حينذاك يكتب لايتاخ ، والزمه بمائتي الف درهم ـ وقيل دينار ـ فقيد والبس مدرعة من مدارع الملاحين ، فأدى مائة الف درهم وسأل ان يؤخذ

(١٤٦) الوزراء / ٢١٣ •
(١٤٧) وفيات الاعيان ٢/١٤٥ •
(١٤٨) نفس المصدر •
(١٤٩) الفخري / ٢٢٣ •
(١٥٠) الطبري ٩/١١٤ •

بالباقي في عشرين شهراً ، فاجابه الخليفة الى ذلك واخلي سبيله ورده الى كتابة ايتاخ(١٥١) • ويقال ان سليمان بن وهب بلغه ان الواثق بالله نظر الى احمد بن الخصيب الكاتب فأنشد :

من الناس انسانان ديني عليهما
مليّان لو شاءا لقد قضياني

خليلي اما ام عمرو فانها
واما عن الاخرى فلا تسلاني

فقال : انا لله ، احمد بن الخصيب ام عمرو ، واما الاخرى فانا • فنكبهما الخليفة بعد إيام (١٥٢) • ومن شعر سليمان لما سجنه الواثق بالله قوله (١٥٣) :

نوائب الدهر ادبتني
وانما يوعظ الأريب

قد ذقت حلواً وذقت مراً
كذاك عيش الفتى ضروب

ما مر بؤس ولا نعيم
الا ولي فيهما نصيب

---

(١٥١) نفس المصدر / ١٢٨ ، وسبق ان ذكر فى ص : ١٢٥ انه اخذ منه اربعمائة الف دينار وكذا جاء في تجارب الامم ٥٢٧/٦ ، وفي الكامل ١٠/٧ •
(١٥٢) وفيات الأعيان ١٤٧/٢ •
(١٥٥) الأغاني ٢٣-١٤٨ •

ولما امر المتوكل على الله اسحاق بن ابراهيم بالقبض على ايتاخ وحبسه في سنة (٢٣٥هـ) حبس اسحاق كاتبيه ايضا ، وكان احدهما سليمان بن وهب (١٥٤) • الا ان المتوكل على الله رضي عنه بعد ذلك فولاه ديوان الخراج(١٥٥) • ثم تولى الكتابة للقائد موسى بن بغا • وعندما عاد معه الى سامرا من الجبل في سنة (٢٥٥هـ) استوزره المهتدي بالله ولقب بالوزير(١٥٦) • ويلاحظ ان سليمان بن وهب لم يبد كفاية في معالجة الخلاف الذي نشب بين الخليفة والقواد الاتراك • وكان بحكم علاقته بموسى بن بغا يميل الى جانب القواد المذكورين • وقد قتل المهتدي بالله وسليمان لايزال وزيره •

كان المعتمد على الله قد استوزر الحسن بن مخلد اثر وفاة عبيدالله بن يحيى ، وكانت علاقة الحسن بالقائد موسى بن بغا سيئة ، فلما قدم موسى الى سامرا في اوائل ذى الحجة سنة (٢٦٣هـ) اختفى الحسن • فاستوزر المعتمد على الله مكانه سليمان ابن وهب ، وولى ابنه عبيدالله بن سليمان كتابة ابنه جعفر المفوض (١٥٧) • الا ان الخليفة سخط عليه في السنة التالية فحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وابراهيم ، واعاد استيزار الحسن بن مخلد ، وذلك في اواخر ذى القعدة من سنة (٢٦٤هـ)(١٥٨) • ويقول التنوخي ان المعتمد على الله طلب من

---

(١٥٤) الطبري ١٦٩/٩ ، والكامل ٤٦/٧ •
(١٥٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٢٠٣ و٥٠٨ •
(١٥٦) الاغاني ١٤٣/٢٣ •
(١٥٧) الطبري ٥٣٢/٩ ، والكامل ٣١٠/٧ •
(١٥٨) الطبري ٥٤٠/٩ ، والكامل ٣١٦/٧ •

وزيره سليمان مالا لنفقته على ان لا يعلم الجند بذلك ، فدافعه سليمان ، فقبض عليه وقال له : قد تقلدت منذ ايام المعتز الى الآن اعمالا متوالية منها الوزارة للمهتدى وما نكبت وما صودرت ، واريد منك خمسمائة الف دينار (١٥٩) ٠

الا ان الموفق جاء الى سامرا واطلق سليمان من الحبس ، وهرب الحسن بن مخلد فكتب الموفق في قبض امواله (١٦٠) ٠ الا انه سرعان ما أمر الموفق بحبس سليمان ثانية وحبس معه ابنه عبيدالله ، ووكل بحفظ داريهما ، وقبض ضياعهما واموالهما واموال ذويهما وضياعهم ، ثم صولحا على مبلغ قدره تسعمائة الف دينار ، فصيرا في موضع يصل اليهما فيه من أحبَّا (١٦١) ٠ ويظهر ان سبب قبض الموفق على سليمان وابنه عبيدالله ، ان المعتمد على الله لما قبض على سليمان ذهب ابنه الى الموفق يلتمسه في انقاذ ابيه فوعده بذلك ، الا انه الح بطلبه ، فاعتذر الموفق ، فقال له سليمان : تخرج بمن معك فتنتزعه قسراً ، فقال الموفق : ان هذا يحتاج الى مال ورجال ، فقال عبيدالله : عليَّ ذلك ٠ وقال عبدالله ان الموفق اخذ يدافعني بعد ان رآني بصورة من يملك المال وطاعة الرجال في قتال خليفة ، فراوغني وبعث بصاعد بن مخلد الى المعتمد على الله يشير عليه باطلاق ابي فاطلقه ٠ ولما عاد صاعد شرع الموفق في القبض على سليمان وابنه عبيدالله (١٦٢) ٠

---

(١٥٩) نشوار المحاضرة ٨/٩٦ ٠

(١٦٠) الطبري ٩/٥٤١ ٠

(١٦١) الطبري ٩/٥٤٣-٥٤٤ ، والكامل ٧/٣٢٧ ٠

(١٦٢) نشوار المحاضرة ٨/٩٧ ٠

وقيل ان الموفق نكب سليمان بن وهب وابنه عبيدالله لكثرة اموالهما فقال ابن الرومي ، وكان حاضراً (١٦٣)

ألم تر أن المـال يتلـف ربـه
اذا جم آتيـه وسـد طريقـه
ومن جاور المـاء الغزير فجمه
وسد مغيض المـاء فهو غريقه

ولبث سليمان في حبس الموفق الى ان ادركته منيته ، في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة بقيت من صفر من سنة (٢٧٢هـ) (١٦٤) . وقد مدحه عدد من الشعراء . فمن محاسن قول ابي تمام فيه من قصيدة قالها في مدحه (١٦٥) :

كل شعب كنتم فيه آل وهـب
فهو شعبي وشعب كـل اديـب
ان قلبي لكـم لكالكبـد الحـر
ي ، وقلبي لغيركم كالقلـوب

وقال البحتري في مدحه (١٦٦) .

كأن اراءه والحـزم يتبعهـا
تريه كل خفـي وهـو اعـلان

---

(١٦٣) الاغاني ١٥٣/٢٣ .
(١٦٤) الطبري ٩/١٠ والكامل ٤١٠/٧ ، ووفيات الاعيان ١٤٦/٢ وفيه قيل سنة ٢٧١ .
(١٦٥) وفيات الاعيان ١٤٦/٢ .
(١٦٦) نفس المصدر .

ماغاب عن عينيه فالقلب يكلؤه

وان تنم عينه فالقلب يقظان

ولما مات سليمان رثاه البحتري بقصيدة منها (١٦٧) :

هذا سليمان بن وهب بعدما

طالت مساعيه النجوم سموكا

وتنصف الدنيا يدبر امرها

سبعين حولا قد تممن دكيكا

أغرت به الاقدار بغت ملمة

ما كان رس حديثها مأفوكا

فكأنما خضد الحمام بيومه

غصناً بمنغرق الرياح نهيكا

(١٦٧) ديوان البحتري ٣/١٥٧٩ ، السموك : الارتفاع ، الدكيك : التام
رس الحديث : طرف منه ، مأفول : مكذوب منخرق الرياح : مهبها ٠

الفصل الثاني

الكُتّاب

يعتبر الكتاب اعوان الوزراء ، فقد كان لكل وزير كاتب او اكثر لمعاونته في عمله • كما كان لرجال الدولة وكبار القواد وولاة الأقاليم كتاب يستعينون بهم وقد تدرج بعض الكتاب الى منصب الوزارة • وكان هؤلاء الكتاب يمتازون بالثقافة العامة والاطلاع الواسع على معارف عصرهم ، بحيث انهم كانوا يمثلون صفوة المثقفين ، وهم الذين يقومون بشؤون دواوين الدولة •

ومن الواضح ان ما يجب ان يتقنه الكاتب ويلم به من المعارف ، يختلف باختلاف عمله • فان كان كاتب خراج عليه ان يلم بالحساب والمساحة والخراج والفنون والرتوق ، وان كان كاتب خراج عليه ان يلم بالحساب والمساحة والخراج ، والفتوق والرتوق ، وان كان كاتب احكام عليه ان يكون عالما بالحلال والحرام والاحتجاج والاجماع والأصول والفروع ، اي ان يكون متفقها في الدين ، اما اذا كان كاتب معونة فانه يحتاج الى ان يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات • وعلى كاتب الجيش ان يكون عالماً بحلي الرجال وشيات الدواب ومداراة الأولياء ـ أي

الاتراك لأن غالبية الجيش منهم ـ وعلى معرفة بالنسب والحساب. ويحتاج كاتب الرسائل ان يكون عالماً بالصدور والفصول والاطالة والإيجاز وان يكون بلغياً حسن الخط بالنظر لطبيعة عمله(١) .

ان الكاتب بصورة عامة ومهما كان عمله ، يجب ان يكون اديباً ذا اطلاع واسع في مختلف العلوم والفنون المعروفة حينذاك. اي ان يكون موسوعيا ، بحيث يستطيع تحرير مختلف انواع الرسائل الرسمية ، مما يتطلب منه مقدرة فائقة في اللغة من نحو وصرف وبلاغة وبيان ، وملما بالامور الفقهية ، ويحفظ كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة . كما يحفظ انماطا مختلفة من الشعر والامثال . وقد شرح النويري ما كان يحتاج اليه الكاتب من المعارف نلخصه بما يأتي (٢) :

١ ـ حفظ كتاب الله تعالى ومداومة قراءته ، وملازمة درسه ، وتدبير معانيه . ذاكراً له في كل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج فيها الى الاستشهاد به .

٢ ـ الاستكثار من حفظ الاحاديث النبوية ، والنظر في معانيها وفقه ما لابد من معرفته من احكامها . ليحتج بها في مكان الحجة ، ويستدل بموضع الدليل .

٣ ـ قراءة ما يتفق له من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفته العربية ، وقراءة ما يتهيأ له من مختصرات اللغة ، وحفظ خطب البلغاء .

---

(١) الفرج بعد الشدة ٣/٣٠٩ .

(٢) نهاية الأرب ٧/٣٠ـ٣٤ .

٤ ـ النظر في ايام العرب ووقائعهم وحروبهم ، وتسمية الايام التي كانت بينهم ، وما جرى في ذلك من الاشعار ، لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة او يوم مشهور .

٥ ـ النظر في التواريخ ومعرفة اخبار الدول ، لما في ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياساتهم ووقائعهم ومكائدهم وحروبهم ، وما اتفق لهم من التجارب .

٦ ـ حفظ اشعار العرب ومطالعة شروحها واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما اختاره العلماء منها ، كالحماسة والمفضليات والأصمعيات ، بما يساعد على الاستشهاد ووضعه في مكانه .

٧ ـ النظر في رسائل المتقدمين وفي كتب الامثال الواردة عن العرب نظما ونثراً .

٨ ـ النظر في الأحكام السلطانية .

وينسب الى عبدالحميد بن يحيى الكاتب كتاباً موجها الى طائفة الكتاب (٣) . تضمن بيان اهميتهم في المجتمع ، والصفات التي يجب ان يتحلو بها ، وما يحتوجون اليه من انواع المعارف « فقد جاء فيه عن اهميتهم والحاجة اليهم « حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة .. فان الله عزوجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين .. فجعلكم معشر الكتاب في اشرفها صناعة ، اهل الأدب والمروءة .. بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم ، وبتدبيركم وسياستكم

(٣) نص الكتاب في « الوزراء والكتاب / ٧٣ـ٧٩ ، وفى مقدمة ابن خلدون مع اختلاف كثير ١٣٥ـ١٣٦» .

يصلح الله سلطانهم وتعمر بلادهم · يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدني من ولايته ، لايستغني عنكم منهم احد ، ولا يوجد كاف الا منكم · فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون »(٤) ·

اما عن الصفات التي يتحلى بها الكاتب فقد قال : « فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان يكون حليماً في موضع الحلم ، مقداما في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، لينا في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة · مؤثراً للعفاف والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفياً عند الشدائد · عالما بما يأتي ويذر ويضع الامور في مواضعها · فقد نظر في كل صنف من صنوف العلم فاحكمه ، فان لم يحكمه شدا منه شدواً (٥) ، يكتفي به · يكاد يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل امر عدته ويهيء لكل امر اهبته » (٦) ·

واما ما يحتاج اليه الكاتب من المعارف ، فقد جاء فيه : « فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين · وابدأوا بعلم كتاب الله عزوجل ، والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، واجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا

---

(٤) الوزراء والكتاب / ٧٤ ·
(٥) شدا بمعنى أخذ ·
(٦) الوزراء والكتاب / ٧٤ــ٧٥ ·

الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وايـام العـرب والعجـم واحاديثها • وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم • ولا يضعفن نظركم في الحساب فانه قوام كتاب الخراج منكم • وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها ، ومساوىء الأمور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب » (٧) •

ويرى ابن المدبر (٨) ان الكاتب المستحق اسم الكتابة هو « من اذا حاول صنعة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، وبدرت من مواطنها ، من غير استكراه ولا اغتصاب » (٩) • ولكي يكون الكاتب بليغاً فصيحاً عليه ان يتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما يُرجع اليه ، لتلقيح ذهنه واستخراج بلاغته • بالاضافة الى الاستعانة بنوادر كلام الناس وبالاشعار والأخبار والسير (١٠) • وهو يرى أن على الكاتب ان يخاطب كلا على قدر ابهته وجلالته ، فيجعل طبقات كلامه على ثمانية اقسام : اربعة منها للطبقة العلوية ، واربعة دونها • والطبقة العلوية هي الخلافة التي اعلى الله شأنها عن مساواتها باحد من ابناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل • والطبقة الثانية الوزراء والكتاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم ، ويرتقون الفتوق بارائهم ، والثالثة

---

(٧) الوزراء والكتاب / ٧٥ •

(٨) ابراهيم بن المدبر من مشاهير كتاب القرن الثالث وقد ولي رئاسة عدد من الدواوين في عهد خلفاء سامرا ، وله : «الرسالة العذراء» في ثقافة الكاتب وصفاته وزيه ، وادوات الكتابة ومعرفته بها ، وما قيل في الكتابة •

(٩) الرسالة العذراء / ٣٦ •

(١٠) نفس المصدر / ٧ •

امراء ثغورهم وقواد جيوشهم ، والرابعة القضاة فانهم وان كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم ابهة السلطة وهيبة الامراء (١١) • اما الطبقات الاخرى التي هي دون الطبقات آنفة الذكر فهي : الأولى الملوك الذين اوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب، والثانية الوزراء وكتابهم واتباعهم الذين بهم تقرع ابوابهم ، والثالثة العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة اهله • والرابعة لأهل القدر والجلالة والظرف والعلم والأدب ، فانهم يضطرونك بحدة اذهانهم وشدة تمييزهم وانتقادهم ، الى الاستقصاء عن نفسك في مكاتبتهم (١٢) •

كما يوصي ابن المدبر الكاتب بالاهتمام بصدد كتابه ، وينصحه باختيار الألفاظ والمعارف بما يناسب الموضوع الذي يكتب فيه ، ويبين له انسب الأوقات للكتابة ، فيقول : « وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك ، وافتتاح كلامك شاهد على مقصدك •• ولا تطيلن صدر كلامك اطالة تخرجه من حده ، ولا تقصر به عن حقه » (١٣) • « واذا حاولت صنعة رسالة او انشاء كتاب فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت ••• وادر الالفاظ في اماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها » (١٤) • « وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف • لأن سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزوناتها،

---

(١١) نفس المصدر / ١٠ •
(١٢) نفس المصدر / ١١ •
(١٣) نفس المصدر / ٢٢ •
(١٤) نفس المصدر / ٢٩ •

انما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء ، والمحبة الغالبة فيه ، والغضب الباعث فيه ذلك » (١٥) ٠

وبالنظر لأهمية الكتاب والحاجة اليهم فقد كونوا طبقة لها زيها الخاص ، واشترطوا مواصفات معينة فيمن ينتسب اليها ٠ فقد اشترطوا في صفات الكاتب « طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وملاحة الزي» (١٦) ٠ حتى قال احدهم لابنائه : تزيوا بزي الكتاب فان فيهم ادب الملوك وتواضع السوقة (١٧) ٠ ويرى النويري ان من كمال صفات الكاتب ان يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، وحسن البيان ، رقيق حواشي اللسان، حلو الاشارة، مليح الاستعارة (١٨) ٠

---

(١٥) الرسالة العذراء / ٣٠ ٠
(١٦) نفس المصدر / ٨ ٠
(١٧) نفس المصدر /٩ وعيون الاخبار ٤٦/١ ٠
(١٨) نهاية الارب ١٢/٧ ٠

الفصل الثالث

القضاء في عهد سامرا

١ ـ مقدمة :

يعتبر القضاء من المناصب الدينية الرئيسة في الاسلام ، لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعاً للتنازع ، وذلك بموجب الشريعة المستندة الى الكتاب والسنة (١) ٠ وقد تطور هذا المنصب واستقرت اسسه في العهود التي سبقت انتقال عاصمة الدولة العربية الى سامرا من حيث الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولاه ، والصلاحيات التي يمارسها ، والواجبات التي عليه ان يلتزم بها ، وعلاقته بالدولة ٠ وقد اسهب الفقهاء في بيان ذلك ، ومنهم القاضي ابو الحسن الماوردي والقاضي ابو يعلي الحنبلي ٠ فقد عقد كل منهما في كتابه « الأحكام السلطانية » باباً خاصا بالقضاء واحكامه ، وتناول كل منهما الموضوع من الناحيتين الفقهية والادارية ٠

---

(١) مقدمة ابن خلدون / ١٢٠ ٠

وهناك شروط معينة يجب ان تتوفر فيمن يعين للقضاء ، واهمها : الاسلام ، والحرية ، وكمال العقل ، وسلامة الحواس ، وان يكون اهلا للاجتهاد فيما يجوز له ان يقضي بين الناس(٢) • واهم واجبات القاضي ان يسوى في الحكم بين القوي والضعيف ، وان يعدل في احكامه فلا يتبع هواه في تقصير المحق او ممالاة المبطل(٣) • وقد اتسعت سلطات القاضي في خلال العهد العباسي الأول ، فبعد ان كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية اصبح ينظر في قضايا اخرى تتعلق بالحقوق العامة كالنظر في شؤون الاوقاف والتصرف بمواردها ، وتنفيذ الوصايا ، والنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى واهل السفه ، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء ، واقامة الحدود الدينية على مستحقيها • وقد تضاف اليه احيانا الشرطة او المظالم او الحسبة او دار الضرب او بيت المال (٤) •

ويعتبر الخليفة ابو جعفر المنصور اول من عيّن القضاة في الأمصار ، وكان تعيينهم قبل ذلك يتم محلياً من قبل الولاة (٥) • وكان القاضي يعين مشافهة او بالعهد كتابة • وكان عهد التعيين يتضمن تحديد منطقة عمل القاضي ، وتعيين القضايا التي ينظر فيها • وقد اورد قدامة بن جعفر نسخة من عهد تولية احد القضاة ، وهو يتضمن توجيهات الخليفة له حول عمله بما يؤمن العدل وتطبيق احكام الشريعة ، وتوجيهات اخرى (٦) •

---

(٢) الاحكام السلطانية للماوردي / ٥٤ •
(٣) نفس المصدر / ٥٩ •
(٤) مقدمة ابن خلدون / ١٢١ •
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٨٩ •
(٦) الخراج وصناعة الكتابة / ٣٩ـ٤٠ •

وكان الخلفاء عند تعيين القضاة في الولايات يتوخون الأنسجام بين الوالي والقاضي المعين ، وذلك ضمانا لعدم قيام النزاع بين السلطتين التنفيذية والقضائية .

ويعاون القاضي في اداء مهمته اضافة الى الشهود والى من يقوم بالتحري عن عدالتهم وعدم ارتكابهم ما يمنع من قبول شهاداتهم ، عدد من الموظفين يؤلفون معه ديوان القضاء . فكان هناك كاتب الاحكام الذي يجب ان يكون عارفا بعلوم الشريعة وحدودها وله خبرة بالاقرار والانكار ، ودربة باحكام الوكالات والشهود وطبقاتهم (٧) . وكاتب آخر يتولى عرض الدعاوى والخصومات ، وخازن يقوم بخزن اوراق القاضي واحضارها عند الطلب ، وعدد من الحرس والأعوان يتولون حماية مجلس القضاء وتنفيذ الأحكام (٨) .

وكان اللباس الرسمي للقاضي الطيلسان الاسود والعمامة السوداء(٩) . اما رواتب القضاة فقد كانت زهيدة اول الأمر، فقد عين الخليفة المهدي المفضل بن فضالة قاضياً على مصر واجرى عليه ثلاثين ديناراً في كل شهر (١٠) . ثم زيدت رواتبهم فبلغت في ايام المتوكل على الله لبعض القضاة مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر (١١) .

---

(٧) سلوك المالك / ١٥٩ـ١٦٠ .
(٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٥٧٤ .
(٩) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٥٢٢ .
(١٠) نفس المصدر / ٣٧٧ .
(١١) نفس المصدر / ٥٠٧ .

٢ ـ قاضي القضاة :

انشيء في العهد العباسي الاول منصب قاضي القضاة ، اي رئيس القضاة ، وكان يقيم في حاضرة الخلافة ليكون على مقربة من الخليفة الذي لا يستطيع الاستغناء عنه في الامور والقضايا الفقهية والشرعية • وكان قاضي القضاة يولي من يراه لمنصب القضاء في الأمصار والأقاليم ممن تتوفر فيهم شروط القضاء وصفاته ، بعد ان يستحصل موافقة الخليفة على ذلك • ويعتبر ابو يوسف يعقوب ابن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وقاضي هارون الرشيد اول من اشغل هذا المنصب في الدولة العربية في عهد العباسيين ببغداد •

اما في عهد سامرا فقد تولى هذا المنصب ستة من كبار الفقهاء هم على التوالي : احمد بن ابي دواد ، ويحيى بن اكثم التميمي ، وجعفر بن عبدالواحد الهاشمي ، وجعفر البرجمي ، والحسن بن ابي الشوارب ، وعلي بن ابي الشوارب ، وفي الصفحات التالية تعريف موجز بكل منهم •

احمد بن ابي دواد :

ابو عبدالله احمد بن ابي دواد بن جرير بن مالك الأيادي • اصله من قنسرين بين حلب ومعرة النعمان • ويقال ان اسم ابي دواد الفرج ، الا ان المأمون كان سأل احمد عن اسم ابيه فاجاب هو اسمه ، ويؤيد الخطيب البغدادي ان كنيته اسمه (١٢) • ولد

---

(١٢) تاريخ بغداد ٤/١٤١ـ١٤٢ •

بالبصرة وفيها نشأ ، ونبغ في الفقه وعلم الكلام . وهو احد القضاة المشهورين من المعتزلة ، ورأس محنة القول بخلق القرآن . تلك الحركة التي شغلت الخلافة العباسية والعالم الاسلامي على عهد المأمون والمعتصم بالله والواثق بالله وقسم من عهد المتوكل على الله . اذ حمل المعتصم بالله وابنه الواثق من بعده الفقهاء والقضاة على الامتحان بذلك . كان ابن ابي دواد واسع الاطلاع على اخبار العرب وانسابهم ، فصيح المنطق قوي الحجة . قال ابو العيناء : ما رأيت رئيسا افصح قط ولا انطق من ابن ابي دواد [13] . وهو اول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، اذ كانوا لا يبدأهم احد حتى يبدأوه [14] . وله شعر جيد ، ومن شعره قوله [15] :

ما انت بالسبب الضعيف وانما
نجح الامور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا اليك فانما
يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

اتصل ابن ابي دواد باربعة من خلفاء بني العباس : المأمون والمعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله . وكان مقربا اليهم محترما لديهم ما خلا فترة قصيرة في اواخر ايامه على عهد المتوكل على الله . اتصل اول امره بالخليفة المأمون ، قدمه اليه قاضيه يحيى بن اكثم ، فاعجب به ، حتى انه قال عنه : اذا استجلس

---

(13) تاريخ بغداد 4/142 ، ووفيات الاعيان 1/63 .

(14) وفيات الاعيان 1/63 .

(15) الفهرست / 254 ، وتاريخ بغداد 4/143 .

الناس فاضلا فمثل احمد (١٦) • وقد حاز ثقته فركن اليه • وعندما اوصى الى اخيه ابي اسحاق جاء في وصيته « وابو عبدالله احمد ابن ابي دواد لا يفارقك واشركه في المشورة في كل امرك»(١٧) •

ولما استخلف المعتصم بالله جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة ومستشاره الخاص ، ولم يكن يخرج عن رأيه • قال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين : ان ابن ابي دواد عندنا لا يحسن اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه ، ولكن عند المعتصم بالله يعرف هذا كله (١٨) • ومع ما في هذا القول من التجني والمبالغة بانكار معرفة ابن ابي دواد شيئاً مما ذكره ابن الضحاك ، فان تقدير المعتصم بالله له امر طبيعي اذا ما قورن علمه ومعرفته بالفقه وعلم الكلام بجهل المعتصم الله الذي كان امياً رغم فصاحته(١٩) • والواقع ان وجوده الى جانب الخليفة عدل من مزاجه وحد من قسوته • لأن المعتصم بالله كان متسرعا عجولا ، فاذا اسرع اليه الغضب هدأه ابن ابي دواد واراه وجه التوءدة والأناة ، فلا يسعه الا ان يسير في سبيلهما • فصار لأحمد من الدالة عليه وسمو المركز لديه ، ما يستعين به على الخير والصلاح • فكانت له معه مواقف جليلة حاسمة معتمداً فيها على ثقته به وتأييده اياه في كل ما يقول ويفعل •

ومن هذه المواقف انقاذه ابي دلف القاسم بن عيسى العجلي عندما حاول القائد التركي الأفشين اغتياله (٢٠) • اذ ذهب ابن ابي

---

(١٦) وفيات الاعيان ١/٦٤ •

(١٧) الطبري ٨/٦٤٩ •

(١٨) وفيات الاعيان ١/٦٦ والفرج بعد الشدة ٢/٦٦ـ٧٥ •

(١٩) العقد الفريد ٢/٤٤٠ ، وتاريخ الخلفاء / ٣٣٤ •

(٢٠) وفيات الاعيان ١/٦٤ـ٦٥ •

دواد الى دار الافشين واستنقد ابا دلف باسم الخليفة الذي اقره على فعله ، وعنف الأفشين فيما كان عزم عليه • ويظهر ان الأفشين كان يمهد للوثوب بان يتخلص من القواد العرب الموالين للخلافة العباسية ، ولا ريب ان هذا ما دفع ابن ابي دواد الى انقاذ ابي دلف واقرار المعتصم بالله مبادرته •

وعندما غضب الخليفة على محمد بن الجهم وامر بضرب عنقه ، انقذه ابن ابي دواد بما ارضى المعتصم بالله ساعة غضبه ، بحيث امر بحبس ابن الجهم حتى يحقق معه (٢١) • ولما قرر المعتصم بالله معاقبة القائد خالد بن يزيد الشيباني لجأ هذا الى ابن ابي دواد ليشفع له عند الخليفة ، فكلمه فلم يجبه • ولما جلس الخليفة لمعاقبة خالد حضر ابن ابي دواد المجلس وجلس دون مكانه المعتاد ، ووقف من الخليفة موقفا جعله يرضى عن خالد ويخلع عليه ويكرمه • فلما خرج خالد وعليه الخلع ، وكان بعض اتباعه في الخارج يتوقعون الأيقاع به ، صاح احدهم : الحمد لله خلاصك ياسيد العرب • فقال خالد : اسكت ، سيد العرب والله ابن ابي دواد (٢٢) •

وفي ثنايا مصادر التاريخ العربي بعض الأخبار مما يستدل منها على شدة احترام المعتصم بالله قاضي قضاته ابن ابي دواد • فقد جاء في تاريخ بغداد ان احمد بن ابي دواد قال : عندما كنا بعمورية قال لي المعتصم بالله ما تقول يا ابا عبدالله في البسر ؟ فقلت : يا امير المؤمنين نحن ببلاد الروم والبسر بالعراق • قال

---

(٢١) نفس المصدر •

(٢٢) وفيات الاعيان ١/٧٠ـ٧١ ، والفرج بعد الشدة ٢/٦٠ـ٦٢ •

قد وجهت الى مدينة السلام فجاءوني بكباستين ، وقد علمت انك تشتهيه • ثم قال يا ايتاخ هات احدى الكباستين • فجــاء بكباسة بسر ، فمد المعتصم بالله ذراعه وقبض عليها بيده ، وقال : كــل بحياتي عليك من يدي • فقلت : جعلني الله فداك يا امير المؤمنين ، بل تضعها فآكل كما اريد : لا والله الا من يدي • فــوالله ما زال حاسراً ذراعه ومادا يده وانا اجتني من العذق(٢٣) • وقال ابن ابي دواد انه ركب يوما مع المعتصم بالله فانتهوا الى واد لا يعرف غور مائه ، فقال الخليفة لرحال ابن ابي دواد : مكانك حتى اتقــدم فاعرف غور الماء واطلب قلته واتبع انت سيري • وتقدم رجل فدخل الوادي وجعل يطلب قلة الماء ، وتبعه المعتصم بالله فمرة ينحرف عن يمينه واخرى عن شماله وتارة يمضي لسننه ، ونحن نتبع اثره حتى قطعنا الوادي(٢٤) •

لقد كان ابن ابي دواد يمثل الروح العربية الأصيــلة فــي الكرم والأيثار والنخوة ، تلك الروح التي ساعدت العــرب علــى الاحتفاظ بمقامهم في الدولة في عهد العباسيين ، رغم ســيطرة الجند الاتراك وسلطان قوادهم • كما كان كريما جواداً ، حتى قيل انه لم ير في ابناء جنسه اكرم ولا انبــل ولا اســخى(٢٥) • ورآه اعرابي فقال : صفتــه شــافية للقلــوب ، ونصحيتــه جالبــة للمنافع (٢٦) •

وكان ابن ابي دواد يعزف عن مجالس اللهو ويكــره ســماع الموسيقى والغناء • يروى عنه انه قال : كنت اعيب الغناء وانكر

---

(٢٣) تاريخ بغداد ٣/٣٤٥ •
(٢٤) نفس المصدر •
(٢٥) الفهرست / ٢٥٤ •
(٢٦) البصائر والذخائر ١/١٣٣ •

الامر الطرب على الناس وما يستفز الناس منه ويغلب على عقولهم، واناظر المعتصم بالله في ذلك . حتى كان يوم خرج فيه المعتصم بالله الى الشماسية في حراقة يشرب ، ووجه في طلبي فصرت اليه . فلما قربت منه سمعت غناء حيرني وشغلني عن كل شيء ، فسقط سوطي من يدي ، فالتفت الى غلامي اطلب منه سوطه ، فقال لي : قد سقط مني لصوت سمعته فشغلني عن كل شيء ، فاذا قصته قصتي . فلما دخلت على المعتصم بالله اخبرته بالأمر ، فضحك وقال : هذا عمي ابراهيم بن المهدي كان يغنيني :

ان هذا الطويل من آل حفص

نشر المجد بعدما كان ماتا

فان ثبت مما كنت تناظرنا عليه في ذم الغناء ، سألته ان يعيده . ففعلت وامره باعادة غنائه . فبلغ بي الطرب حداً كبيرا بحيث رجعت عن رأي في الغناء منذ ذلك اليوم (٢٧) .

وقد عرف احمد بن ابي دواد بحبه الأدب ورعاية الادباء والشعراء واغداقه عليهم ، واعالة بعضهم بحيث انهم افتقدوه عند موته . وكان الجاحظ ملازما محمد بن عبدالملك الزيات خاصا به ، ومنحرفا عن ابن ابي دواد للخصومة التي كانت بين الأثنين . فلما قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيداً الى قاضي القضاة فانبه وعاتبه . الا انه سرعان ما عفا عنه واطلق سراحه(٢٨) . فنال الجاحظ بعد ذلك حظوة لديه عندما اهدى اليه كتابه « البيان

---

(٢٧) الاغاني ١٠/١٠٦ـ١٠٧ .

(٢٨) معجم الادباء ٦/٥٨ـ٥٩ ، والفرج بعد الشدة ١/٣٦١ .

والتبين » فاعطاه خمسة الاف دينار • ولعل من المناسب ان ننقل نص كلمة الاهداء التي صدر بها الجاحظ الكتاب • يقوم امام الادباء : « حفظك الله وابقاك وامتع بك ، وجعل ما بيني وبينك من ود موصولا أبد الدهر • فقد عرفتك صديقا لا يشوب صداقته زيف من شوائب الدنيا • وعرفتك على تقادم العهد وتطاول الزمان ، أخا ثابت الاخاء ، وثيق النفس ، ليس كمن يدور بخاتته بين الناس ملتمسا بها الغنم وباغيا بها النفع • فكان ذلك ، ايدك الله ، مما اكبرك في عيني واعظمك في نفسي • وبسطني ان اقدم اليك هذا الكتاب الخالد ، لترى فيه ، ولتعلم ايها السمي الكريم ، أني احفظ لك في نفسي مثل ما تحفظ لي من وفاء ، واطوي لك صدري مثل ما تطوي من ولاء » (٢٩) •

كما مدحه ببضعة ابيات من الشعر بمناسبات مختلفة ، منها قوله (٣٠) :

وعويص من الامور بهيم
غامض الشخص مظلم مستور

قد تسهلت ما توعر منه
بلسان يزينه التحبير

مثل وشي البرود هلهله النسج وعند الحجاج در نثير

حسن الصمت والمقاطع اما
نطق القوم والحديث يدور

---

(٢٩) البيان والتبين ١/٣ •

(٣٠) نفس المصدر / ٢٢٣ ، ومعجم الادباء ٦/٥٩ـ٦٠ ، مع تغيير طفيف •

ثم من يعد لحظة تورث اليسر وعرض مهـذب موفـور

ومدح بعض الشعراء القاضي بن ابي دواد ، وعلى رأسهم ابو تمام الطائي الذي امتدحه بقصائد عديدة في مناسبات مختلفة - قال في احدى قصائده في مدحه(٣١) :

يا ابا عبدالله أوريـت زنـداً
في يدي كان دائـم الاصـلاد

انت جبت الظلام عن سبل الآمال اذ ضل كل هاد وحاد

كـادت المكـرمات تنهد لـولا
أنهـا أيـدت بحي ايـاد

وقال في قصيدة اخرى يمدحه بها (٣٢) :

لقد انست مساوىء كل دهـر
محاسن احمـد بن ابـي دواد

متى تحلل بـه تحلـل جنابـا
رضيعـا للسواري والغـوادي

توشـح نعمـة الأيـام فيـه
وتقسم فيـه ارزاق العبـاد

وما اشتبهت طـريق المجـد الا
هداك لقبلة المعـروف هـاد

(٣١) القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٣٥٦-٣٦٨ ٠
(٣٢) القصيدة فى ديوان ابي تمام ١/٣٦٩ - ٣٨٢ ٠

وما سافرت في الآفاق الا
ومن جدواك راحلتي وزادي

وعندما ولى احمد ابن ابي دواد ديوان المظالم مدحه ابو تمام بقصيدة انطوى قسم منها على بعض الحكم ، ومطلعها (٣٣) ․

ألم يأن بأن تروى الظماء الحوائم
وأن ينظم الشمل المشتت ناظم

ويقول فيها :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل
ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا
هلكن اذن من جهلهن البهائم

الى ان يقول :

الى احمد المحمود رامت بنا السرى
نواعب في عرض الفلا ورواسم

الى سالم الاخلاق من كل عائب
وليس مال على الجود سالم

له من اياد قمة المجد حيثما
سمت ولها منه البنا والدعائم

(٣٣) القصيدة في ديوان ابى تمام ٣/١٧٦–١٨٣ ․

ثم ينتهي بقوله :

اذا انت لم تحفظه لم يك بدعة
ولا عجباً أن ضيعته الأعاجم

فقد هز عطفيه القريض توقعا
لعدلك مذ صارت اليك المظالم

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاة الندى من اين توتى المكارم

كما مدح الشاعر ابو حفصة مروان بن ابي الجنوب ابن ابي دواد بقوله (٣٤) :

لقد حازت نزار كل مجد
ومكرمة على رغم الاعادي

فقل للفاخرين على نزار
ومنهم خندف وبنو اياد

رسول الله والخلفاء منا
ومنا احمد ابن ابي دواد

وليس كمثلهم في غير قومي
بموجود الى يوم التنادي

ولما اصابته العلة الباردة ـ الفالج وعجز عن الكلام قال ابن ابي الجنوب فيه (٣٥):

---

(٣٤) وفيات الاعيان ١/٦٩ .
(٣٥) ناريخ بغداد ٤/١٥٠ .

لسان احمد سيف مسه طبع
من علة ، فجلاها عنه جاليها

ماضر احمد باقي علة درست
والله يذهب عنه رسم باقيها

موسى بن عمران لم ينقص نبوته
ضعف اللسان به قد كان يمضيها

قد كان موسى على علات منطقه
رسائل الله تأتيه يؤديها

وقد هجا ابن ابي دواد شعراء آخرون ، وعلى رأسهم البحتري الذي كان ينقم عليه انه رأس المحنة بالقول بخلق القرآن ، ولذا فقد هجاه وهجا كتابه بعدة قصائد • فقد قال يهجوه (٣٦) :

يا احمد بن ابي دواد
والحادثات بكل ناد

ماذا رأيت اذا انتسبت الى اياد في اياد

وهجاه بقصيدة اخرى عندما رفع المتوكل على الله المحنة ، باعتبار ان ابن ابي دواد هو المسؤول عن قيامها ، وسنأتي على بعض ابياتها فيما بعد •

وهجا الشاعر هفان المهزمي ابن ابي دواد عندما سمع مدح مروان بن ابي الجنوب فيه ، فقال يعارضه (٣٧) :

---

(٣٦) ديوان البحتري •
(٣٧) وفيات الاعيان ١/٧٠ ، وتاريخ بغداد ٤/١٤٣ •

فقل للفاخرين على نزار
وهم في الأرض سادات العباد

رسول الله والخلفاء منا
ونبرأ من دعي بني اياد

وما منا اياد ان اقرت
بدعوة احمد بن ابي دواد

فلما بلغت هذه الأبيات ابن ابي دواد قال : ما بلغ مني احد ما بلغ هذا الغلام المهزمي ، لولا اني اكره ان انبه عليه لعاقبته عقابا لم يعاقب احد بمثله جاء الى منقبة لي فنقضها عروة عروة .

كما هجاه ابو الحجاج الأعرابي بقوله (٣٨) :

نكست الدين يا ابن ابي دواد
فأصبح من اطاعك في ارتداد

زعمت كلام ربك كان خلقاً
أمالك عند ربك من معاد ؟

كلام الله انزله بعلم
وأنزله على خير العباد

ومن امسى ببابك مستضيفا
كمن حل الفلاة بغير زاد

(٣٨) نشوار المحاضرة ٥/٢٢٠ ، وتاريخ بغداد ٤/١٥٣ وفيه « اظرفت » في اول البيت الاخير .

لقد آطرفت يا ابن ابــي دواد

بقــولك انني رجـــل ايــادي

ومن الشعراء المشهورين الذين هجوا ابن ابي دواد الشــاعر الهجاء دعبل الخزاعي . فقد كان ابن ابي دواد يطعن بالشــاعــر المذكور بحضرة المأمون والمعتصم بالله ويسبه تقربا اليهما لأنهمــا يبغضانه لطول لسانه . فلما تزوج ابن ابي دواد بامرأتين من قبيلة عجل في سنة واحدة قال دعبل يهجوه بابيات مقذعة ، منها (٣٩) :

غصبت عجلا على فرجين في سنة

افسدتهم ما اصلحت مــن نسبك

ولو خطبــت الى طـــوق واسرته

فزوجوك لمــا زادوك في حسبك

ان كان قوم اراد الله خـــزيهـم

فزوجوك ارتغابا منك في ذهبك

فذاك يوجب ان النبع تجمعــــه

الى خلافك في العيدان او غربك

ولو سكت ولــم تخطب الى عــرب

كما نبست الذي تطويه من سببك

عــد البيوت التي ترضى بخطبتها

تجد فزارة العكلي مــن عربــك

(٣٩) ديوان دعبل / ٦٩ ، والاغاني ٢/١٣٤-١٣٥ .

ولما ولي الواثق بالله الخلافة ابقى ابن ابي دواد على قضاء القضاة ، وقد حسنت حاله لديه ، وبقي على ما كان عليه من سعة النفوذ والتأثير على الخليفة • وكان اليه تعيين القضاة ، فلم يعيّن الا من كان من القائلين بخلق القرآن •

وقد استمر الواثق بالله في مناحرة المعتزلة بتأثير ابن ابي دواد ، بل لقد تطرف واشتد في محاربة اهل السنة ، حتى انه قتل الفقيه احمد بن نصر الخزاعي لأنه لم يستجب الى دعوته بالقول بخلق القرآن • وكان ابن ابي دواد هو الذي تولى محاكمته بحضرة الخليفة مع عدد آخر من الفقهاء ، وقد فصلنا ذلك في الفصل الخاص بالمحنة •

كان الواثق بالله شديد الاعجاب باحمد بن ابي دواد ، ويستشيره في معظم اموره ويعمل بمشورته • وقد امره ان يصلي بالناس في يوم عيد ، وكان عليلا ، فلما انصرف من الصلاة ، قال له : يا ابا عبدالله كيف كان عيدكم ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه • فضحك الواثق بالله وقال : يا اباعبدالله انا مؤيد بك(٤٠) •

قال احمد بن ابي دواد : دخلت يوما على الواثق بالله ، فقال لي : ما زال قوم في ثلبك ونقصك • فقلت : يا امير المؤمنين « لكل امرىء ما اكتسب من الأثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم »(٤١) والله ولي جزائه ، وعقاب امير المؤمنين من ورائه ، وما ذل من كنت ناصره ، ولاضاع من كنت حافظه فماذا قلت لهم ؟ قال : قلت •

---

(٤٠) تاريخ بغداد ١٨/١٤ •

(٤١) الآية (١١) من سورة النور •

وسعى الي بعيب عزة نسوة　　جعل الأله خدودهن نعالها

وقال الواثق يوماً لابن ابي دواد ، وقد ضجر من كثـرة حوائجه : ان بيوت الأموال خلت بطلباتك للائذين بك والمتوسلين اليك . فقال : يا امير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائر اجرها مكتوبة لك ، ومالي من ذلك الاعشق الأنس بحلو المدح فيك . فقال : يا ابا عبدالله لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوي همتك ، فتناولنا بما احببت (٤٢) .

ولما توفي الواثق بالله حضر ابن ابي دواد ساعة وفاته فاغمضه واصلح من شأنه ، وصلى عليه وانزله قبره (٤٣) . وحضر مع بقية رجال الدولة والقواد الاجتماع الذي عقد في دار الخلافة لاختيار خليفة للواثق بالله . وقد أبعد ابنه لصغر سنه ، فشارك في اختيار اخي الواثق بالله جعفر بن المعتصم بالله ، وهو الذي البسه الطويلة وعممه وسلم عليه بالخلافة ، واقترح ان يلقب بالمتوكل على الله .

وكان ابن ابي دواد يحسن معاملة جعفر في عهد اخيه الواثق بالله الذي كان يجفوه ويحنق عليه . وقد كلمه ابن ابي دواد في ذلك واقسم عليه بحق ابيه المعتصم بالله ان يرضى عنه ، فرضي الواثق بالله عن اخيه . فلما استخلف جعفر ابقاه على رئاسة القضاء . الا ان ابن ابي دواد اصيب بالفالج في جمادى الآخرة سنة (٢٣٣هـ) ورغم ذلك ابقاه الخليفة في منصبه حتى اواخر شهر

---

(٤٢) تاريخ بغداد ٤/١٤٦ .

(٤٣) الطبري ٩/١٥٠ ـ ١٥١ .

(*) الطبري ٩/١٥٤ـ١٥٥ ، والكامل ٧/٣٤ .

صفر من سنة (٢٣٧هـ) فغضب عليه وعزله من رئاسة القضاء وامر بالقبض على ضياعه واملاكه ، وحبس ابنه ابا الوليد وسائر اولاده . فحمل ابو الوليد الى المتوكل على الله مائة وعشرين الف دينار وجواهر قيمتها عشرون الف دينار ، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر الف الف درهم ، واشهد الخليفة عليهم جميعا ببيع املاكهم (٤٤) . ويظهر مما ذكره ابن وكيع القاضي ان احمد ابن ابي دواد كان يميل الى الامويين (٤٥) . الا ان هذا القول لا يمكن الاعتداد به لأن خدمة ابن ابي دواد الطويلة برهنت على اخلاصه لبني العباس ، ولم يكن هناك سبب واضح لغضب الخليفة عليه سوى طبيعة المتوكل على الله المتقلب المزاج ، وحسده ذوى النعمة والمكانة من رجاله ، مما سيأتي ذكره في فصول قادمة .

توفي احمد بن ابي دواد في المحرم من سنة (٢٤٠هـ) (٤٦) ونقل عنه انه قال : ولدت سنة ستين ومائة (٤٧)، وهذا يتفق مع ما جاء في كتاب العبر من انه مات وله ثمانون سنة (٤٨) . وعندما شيعت جنازته وقف ببابه جماعة من الشعراء ، فقالوا : يدفن من كان على ساقة الكرم وتاريخ الأدب ولا يتكلم فيه ، فقال احدهم (٤٩) :

اليوم مات نظام الفهم واللسن

ومات من كان يستعدى على الزمن

---

(٤٤) الطبري ٩/١٨٩ ، والكامل ٧/٥٩ .

(٤٥) اخبار القضاة ٣/٢٩٨ .

(٤٦) الطبري ٩/١٩٧ ، والكامل ٧/٧٥ .

(٤٧) وفيات الاعيان ١/٧٣ .

(٤٨) العبر ١/٤٣١ .

(٤٩) وفيات الاعيان ١/٧٤ .

واظلمت سبل الآداب اذ حجبت
شمس المكارم في غيم من الكفن

وتقدم آخر فقال :

ترك المنابر والسرير تواضعا
وله منابر لو يشا وسرير

ولغيره يجبى الخراج وانما
تجبى اليه محامد واجور

وقال ثالث :

وليس فتيق المسك ريح حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

وليس صرير النعش ما تسمعونه
ولكنها اصلاب قوم تقصف

يحي بن اكثم التميمي :

ابو محمد ، يتصل نسبه باكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب المشهور • بدت عليه علائم النباهة في سن مبكرة ، فقد جلس لسماع الحديث على عبدالله بن المبارك ، وهو صغير السن ، فاحتفل ابوه بهذه المناسبة فصنع طعاما ودعا الناس متفاخراً بابنه (٥٠) • وعبدالله بن المبارك من علماء العرب في خراسان ، ومن قبيلة بني تميم كذلك • وقد جمع الحديث والفقه واللغة وقضى عمره في

---

(٥٠) تاريخ بغداد ١٩٢/١٤ •

الاسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، توفي سنة (١٨١هـ) في هيت على الفرات منصرفا من غزو الروم (٥١) ٠

لقد نشأ يحيى عالما بالفقه بصيرا بالاحكام ، وكان عالما بالقرآن والحديث واللغة ، متكلما ، فاذا جادل رجلا اتاه من جميع الابواب حتى يفحمه ، فاذا وجده يحفظ الحديث سأله عن الفقه ، واذا رآه يحفظ الفقه سأله عن النحو ، فاذا رآه ملماً به سأله عن الكلام ، حتى يقطعه ويخجله ، ويعزو الخطيب البغدادي ذلك الى شدة حسده (٥٢) ٠ ولكنه على اية حال دليل على سعة علمه وتعدد معارفه ٠

وكان يحيى مع فقهه وسعة علمه من ادهى الناس واخبرهم ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ٠ وقد تولى قضاء البصرة وسنه احدى وعشرون سنة ، فاستصغره شيوخها فامتحنوه ، فقالوا ، كم سن القاضي ؟ قال : سن عتاب بن اسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة ، فجعل جوابه احتجاجا (٥٣) ٠ ولقيه مرة رجل ، وهو يومئذ قاضي القضاة ، فقال له اصلح الله القاضي ، كم آكل ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع ، فقال : فكم اضحك؟ قال : حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك ، قال : فكم ابكي ؟ قال : لا تمل البكاء من خشية الله تعالى ، قال : كم اخفي من عملي ؟ قال : ما استطعت ، قال : فكم أظهر منه ؟ قال : ما يقتدى بك البر ويؤمن عليك قول الناس (٥٤) ٠

---

(٥١) الاعلام ٤/٢٥٦ ٠
(٥٢) تاريخ بغداد ١٤/١٩٥ ، ووفيات الاعيان ٥/٢٠٢ ٠
(٥٣) تاريخ بغداد ١٤/١٩٨ ، ووفيات الاعيان ٥/١٩٩ برواية اخرى ٠
(٥٤) تاريخ بغداد ١٤/٢٠٠ ٠

وقد اتهم يحيى بن اكثم ببعض الهنات التي اشيعت عنه وهو منها برىء . ومما يؤيد انها نسبت اليه بهتانا انه ذكر للامام احمد ابن حنبل عنه وما يرميه بعض الناس به ، فعجب من ذلك وانكره انكارا شديدا (٥٥) . وكتب الخليفة المتوكل على الله الى الامام احمد يسأل عن رجلين احدهما يحيى بن اكثم ، فكتب اليه : اما فلان فلا ولا كرامة ، واما يحيى بن اكثم فقد ولي القضاء فما طعن عليه احد (٥٦) . ولما قدم احمد بن المعذل وهو من فقهاء المالكية على المتوكل على الله ، ذكر يحيى بن اكثم في مجلس الخليفة ، فقال بعض الحاضرين : ذاك صاحب غلمان ، فستر ابن المعذل وجهه ، وقال : سبحانك هذا بهتان عظيم (٥٧) . ويقول ابن وكيع القاضي كان يحيى كثير المزاح لا يدع الهزل في مجلسه ، وله طرائف في الهزل (٥٨) . وروى عن احد العلماء قوله : كان يحيى بن اكثم لا يدع العبث والنظر ، فاما ما وراء ذلك فلا ، والحمد لله (٥٩) . ومما يؤيد ما ذكره ابن وكيع ان احد البلغاء سئل عن يحيى بن اكثم واحمد بن ابي دواد ، أيهما انبل ؟ فقال : كان احمد يجد مع جاريته وابنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه (٦٠) . ولعل ميل يحيى الى الهزل وأنسه بالناس وممازحتهم سببت له تلك السمعة المشينة . ولا ينكر ان من يكون في منزلته العلمية والاجتماعية لا يخلو ممن يحسده ويروج ما يسىء الى سمعته وينتقص من منزلته .

---

(٥٥) وفيات الاعيان ٥/٢٠١ .
(٥٦) اخبار القضاة ٢/١٦١ .
(٥٧) اخبار القضاة ٢/١٦٥ .
(٥٨) اخبار القضاة ٢/١٦٦ .
(٥٩) نفس المصدر ٢/١٦٤ .
(٦٠) تاريخ بغداد ١٤/١٩٨ ، ووفيات الاعيان ٥/١٩٨ .

لقد اتصل يحيى بن اكثم بالخليفة المأمون لما كان في مرو ، وخرج معه في بعض غزواته الى بلاد الروم • وبعثه المأمون في سنة (٢١٦هـ) في حملة الى بلاد الروم فغزا وعاد ظافراً(٦١) • وقد اعجب المأمون بسعة علم يحيى بالفقه والحديث ، وغزارة ادبه ، وسرعة جوابه ، وقوة حجته ، فقربه اليه ونادمه ، فغلب عليه يحيى، بحيث لم يتقدمه عنده احد من الناس (٦٢) • وكان اذا صحب المأمون في سفر ركب معه بمنطقه وقباء وسيق بمعاليق ، واذا كان الموسم شتاء ركب في اقبية الخز وقلانس السمور والسروج المكشوفة(٦٣) • واستصحبه المأمون الى مصر في سنة (٢١٧هـ) وكانت مصر بلا قاض ، فأمره الخليفة ان يجلس في المجلس للقضاء ، فجلس وقضى بين الناس لمدة قصيرة (٦٤) • ويقول ابن خلكان انه حكم ثلاثة ايام (٦٥) •

وقلده المأمون منصب قاضي القضاة واوكل اليه تدبير اهل مملكته ، فكان وزراء الخليفة لا يعملون شيئاً الا بعد مطالعة يحيى ابن اكثم (٦٦) • الا انه لم يلبث ان سخط عليه عندما كان في مصر ، ويبدو ان للحسد والوشايات دوراً في ذلك • يقول اليعقوبي ان يحيى كان قد وشى بالمعتصم الى المأمون وقال له : بلغني انه يحاول الخلع • وكان المأمون قد وجه ابا اسحاق الى مصر عندما استفحلت الثورة فيها في سنة (٢١٤هـ) فبعث اليه يأمره بالقدوم • ولما

---

(٦١) الاعلام ٢٥٦/٤ •
(٦٢) وفيات الاعيان ١٩٨/٥ •
(٦٣) مروج الذهب ٢٢/٤ •
(٦٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ٤٤١–٤٤٢ و٥٨٦ •
(٦٥) وفيات الاعيان ٢١١/٥ •
(٦٦) تاريخ بغداد ١٩٧/١٤–١٩٨ ، ووفيات الاعيان ١٩٨/٥ ، والعبر ٤٣٩/١ •

ذهب المأمون الى مصر في اوائل سنة (٢١٧هـ) وشى محمد بن ابي العباس واحمد ابن دواد بيحيى بن اكثم الى المأمون تقربا الى ابي اسحاق ، فسخط عليه المأمون وامر بنفيه من عسكره ونزع السواد عنه — دليل اقصائه من منصبه — واخراجه الى بغداد وامره ان لا يخرج من منزله (٦٧) .

ويستنتج مما جاء في وصية المأمون الى اخيه ابي اسحاق عن يحيى بن اكثم انه اتهمه بخبث السيرة والخيانة ، اذ قال : « ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقي اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى ابان الله ذلك منه في صحة مني ، فصرت الى مفارقته ، قالبا له غير راض بما صنع في اموال الله وصدقاته ، لاجزاه الله عن الاسلام خيراً » (٦٨) .

وقد ابعده المعتصم بالله لما ولي الخلافة ، عملا بوصية اخيه . وقد يكون لسبق وشاية يحيى عند المأمون تأثير في ابعاده عن مناصب الدولة . فبقي بعيداً عن القضاء طيلة عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله . لأن الواثق بالله كان شديد التأثر بعمه المأمون ويحاول ان يقتدي به في كل اموره ، فلم يستخدم يحيى طيلة حكمه لأن عمه لم يكن راضيا عنه .

وعندما غضب المتوكل على الله على قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وعزله عن عمله في سنة ٢٣٧هـ رضى عن يحيى بن اكثم ، وكان مقيما ببغداد ، فأشخصه الى سر من رأى وولاه منصب قاضي القضاة واضاف اليه رد المظالم (٦٩) . ويقول الخطيب البغدادي ان

---

(٦٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٥–٤٦٦ .
(٦٨) الطبري ٨/٦٤٩ .
(٦٩) الطبري ٩/١٨٨ ، ومروج الذهب ٤/٩٦ .

الخليفة خلع عليه خمس خلع (٧٠) • وقد استفتح يحيى عمله بأن ولى حيان بن بشر القضاء على الجانب الشرقي من بغداد وسوار ابن عبدالله العنبري قضاء الجانب الغربي منها ، وكلاهما اعور ، فقال الجماز الشاعر (٧١) :

رأيت من الكبائر قاضيين
هما احدوثة في الخافقين

هما اقتسما العمى نصفين قداً
كما اقتسما قضاء الجانبين

وتحسب منهما من هز رأسا
لينظر في مواريث ودين

كأنك قد وضعت عليه دنا
فتحت بزاله من فرد عين

هما فأل الزمان بهلك يحيى
اذ افتتح القضاء باعورين

الا ان المتوكل على الله سخط على يحيى بن اكثم في سنة (٢٤٠هـ) فعزله عن القضاء ، وامر بمصادرة امواله واملاكه ، وأعيد الى بغداد والزم منزله • فقبض ما كان له ببغداد ومبلغه خمسة وسبعون الف دينار ، ومن اسطوانة في داره الفا دينار ، واربعة آلاف جريب في البصرة (٧٢) •

---

(٧٠) تاريخ بغداد ٢٠١/١٤ •
(٧١) الطبري ١٨٩/٩ •
(٧٢) الطبري ١٩٧/٩ ــ ١٩٨ ، والكامل ٧٤/٧ ، والعبر ٤٢٩/١ وفيه انه اخذ منه مائة الف دينار •

وخرج يحيى الى الحج في سنة (٢٤٢هـ) وحمل اخته معه ، وعزم على ان يجاور وينقطع للعبادة • ويقول ابن وكيع ان المتوكل على الله نفاه الى مكة (٧٣) • واتصل بيحيى ان الخليفة قد رضى عنه فبدأ له في المجاورة ، ورجع يريد العراق ، حتى اذا صار الى الربذة وافته المنية في يوم الجمعة منتصف ذي الحجة من السنة نفسها ، وقيل في مطلع السنة التالية ، وعمره ثلاث وثمانون سنة ودفن هناك(٧٤) •

جعفر بن عبدالواحد الهاشمي :

هو جعفر بن عبدالواحد بن سليمان بن علي ، هاشمي من البيت العباسي • كان فقيهاً حافظا للحديث ، لسناً بليغا ، وقد وصف بأنه رجل تصلح له الخلافة من ولد العباس لما يتمتع به من سكينة ووقار(٧٥) • ولاه المتوكل على الله منصب قاضي القضاة بسامرا في صفر سنة (٢٤٠هـ) بعد عزل يحيى بن اكثم (٧٦) •

وعندما تم الاتفاق على المفاداة مع الروم في شوال سنة (٢٤١هـ) طلب جعفر بن عبدالواحد ان يؤذن له في حضور عملية الفداء ، وان يستخلف رجلا يقوم مقامه في اثناء غيابه ، فوافق الخليفة المتوكل على الله وامر له بمائة وخمسين الف درهم معونة ، وارزاق ستين الف • فاستخلف جعفر الحسن بن ابي الشوارب ، ولحق بشنيف الخادم المكلف بالفداء ، وحضر معه عملية المفاداة (٧٧)

---

(٧٣) اخبار القضاة ٣/٣٠٣ •

(٧٤) تاريخ بغداد ١٤/٢٠٣ ، ووفيات الاعيان ٥/٢١٢ •

(٧٥) تاريخ بغداد ٧/١٧٤ •

(٧٦) الطبري ٩/١٩٨ ، والمنتظم ٥/١١ •

(٧٧) الطبري ٩/٢٠٢-٢٠٣ ، والكامل ٧/٧٧ •

ولما آلت الخلافة الى المنتصر بالله استمر جعفر بن عبدالواحد في منصبه • وعندما خلع المعتز والمؤيد نفسيهما من ولاية العهد في صفر سنة (٢٤٨هـ) بناء على طلب اخيهما الخليفة المنتصر بالله ، حضر قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد للشهادة على ذلك مع كبار القواد وبني هاشم واصحاب الدواوين (٧٨) •

وعندما بويع للمستعين بالله بالخلافة ابقى جعفر بن عبدالواحد قاضيا على القضاة حتى ربيع الأول من سنة (٢٥٠هـ) حينما تمرد الشاكرية فبعث به الخليفة اليهم ليستمع الى شكاواهم ويدعوهم الى الطاعة • ويظهر انه فشل في ذلك ، مما جعل القائد وصيفاً يزعم بانه افسدهم • فغضب عليه الخليفة وعزله من منصبه وامر بنفيه الى البصرة (٧٩) • ويظهر انه عفي عنه وعاد الى سامرا عندما بويع فيها للمعتز بالله • فقد استعان به الخليفة المذكور ليصلح بين الجند من الاتراك والمغاربة عندما استولى المغاربة على الجوسق وبيت المال ، فاستطاع جعفر ان يصلح ذات البين بينهما ، فاصطلحا على الا يحدثا شيئاً (٨٠) •

ولما قتل المهتدى واشهد على وفاته ، صلى عليه جعفر بن عبدالواحد (٨١) • وقد توفى جعفر في سنة (٢٥٨هـ) ، ويظهر مما ذكره الخطيب البغدادي وابو المحاسن انه كان قاضياً على الثغور عند وفاته (٨٢) •

---

(٧٨) الطبري ٩/٢٤٦ •
(٧٩) الطبري ٩/٢٧٦ ، والكامل ٧/١٣٤ •
(٨٠) الطبري ٩/٣٦٩ •
(٨١) الطبري ٩/٤٦٢ ، والكامل ٧/٢٣٣ •
(٨٢) الطبري ٩/٣٧١ •

جعفر البرجمي :

جعفر بن محمد بن عمار البرجمي ، من اهل الكوفة من قبيلة تميم . كان يتولى قضاء الكوفة عندما ولي منصب قاضي القضاة بسامرا ، بعدما عزل جعفر بن عبدالواحد (٨٣) . وكان قد تولى قضاء سامرا في سنة (٢٣٥هـ) ، وتولى بعد ذلك قضاء واسط . وكان البرجمي صلباً في القضاء لا يسمح لأحد بالتدخل في احكامه . ويقال ان صاحب البريد اراد ان يحضر مجلس قضائه ، فقال له : من انت ؟ قال : بعث بي لأجلس معك . فقال : انت متصفح وجوه حرم المسلمين ، وختم القمطر وقام . فبلغ الخليفة ذلك فارسل اليه وولاه قضاء القضاة (٨٤) . وبقي البرجمي في منصبه حتى مات في اوائل شهر رمضان سنة (٢٥٠هـ)(٨٥) ، اي بعد ستة اشهر تقريبا من توليه منصب قاضي القضاة .

وكان الشاعر ابو السري احمد بن بديل قد هجاه ، ثم عاد فمدحه . ومما قاله في مدحه (٨٦) :

سأشكر جعفراً واقول فيه
مقالة صادق فيما يقول

جبلت على العفاف وكل فضل
وجل الناس خيرهم القليل

---

(٨٣) الطبري ٩/٢٦٥ و ٢٧٦ ، والكامل ٧/١٢٤ .
(٨٤) اخبار القضاة ٣/١٩٤ .
(٨٥) الطبري ٩/٢٧٦ ، والكامل ٧/١٣٥ .
(٨٦) اخبار القضاة ٣/١٩٦ .

ووليت القضـــاء فخيـــر وال
على الأحكام ليس لـــه عـــدول

وسرت كسيرة العمـــرين حتى
انـــار الحـــق واتضـــح السبيل

الحسن بن محمد بن ابي الشوارب :

الاموي البصري • ولي القضاء في عهد المتوكل على الله ، وهو فتى حدث السن عندما استخلفه قاضي القضـــاة جعفر بن عبد الواحد • واراد المعتز بالله تولية قاض للقضاة فطلب الى مؤدبه محمد بن عمران الضبي ان يسمي له عدداً من الفقهاء فسمى له ثمانية ، كان فيهم الخلنجي ، والخصاف • الا ان حاشية الخليفة اتهموهم بانهم من اصحاب احمد بن ابي دواد وانهم قدرية جهمية ، اي انهم من اهل الاعتزال • فأمر المعتز بالله باخراجهم الى بغداد ، وولى الحسن بن محمد بن عبدالملك بن ابي الشوارب المنصب المذكور ، وذلك في سنة (٢٥٢هـ) (٨٧) •

ولد الحسن بالبصرة ونشأ فيها ، وابوه محمد بن عبدالملك الاموي البصري من نسل خالد بن اسيد ، وهو اخو عتاب بن اسيد الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة • وكان محمد ابن عبدالملك من محدثي البصرة وفقهائها • وقد اشخصه المتوكل على الله الى سامرا ليحدث فيها ، عندما نهى عن القول بخلق القرآن • وعندما ورد كتاب الحسن على ابيه يعلمه بتوليه القضاء ، كتب ابوه اليه : وصل كتابك بتوليتك القضاء ، وحاشا لوجهك

(٨٧) تاريخ بغداد ٧/٤١٠ ، والمنتظم ٥/٢٧ •

الحسن باحسن من النار (٨٨) . اي انه يوصيه بالتمسك بالعدل في احكامه لئلا يعرض نفسه لعذاب الآخرة .

كان الحسن من المروة والسخاء والكرم على حالة لم يُسر عليها حاكم قط (٨٨) . وكان الخليفة المعتز بالله يمتدحه كثيراً ويقول : ما رأيت أفضل منه ، ولا احسن وفاء ، ما حدثني قط فكذبني ، ولا ائتمنته قط على شيء من سر او غيره فخانني عليه ، واني لأراه يستوحش من ذكر القبيح ويحسن الثناء (٨٩) . ولم يزل الحسن يتقلد عمابه طيلة ايام المعتز بالله . ولما خلع المعتز بالله من الخلافة في اواخر رجب سنة (٢٥٥هـ) حضر الحسن للشهادة على خلعه ، فطلب اليه القائد صالح بن وصيف ان يكتب كتاب الخلع فاعتذر ، فكتبه احد الكتاب الحاضرين . وحاول الحسن ان يؤمن سلامة الخليفة المخلوع وذويه . فأخذ الشهادة على صالح بن وصيف بأن للمعتز ولاخته وامه وابنه الأمان قبل ان يشهد على خلعه (٩٠) .

ولما تولى المهتدى بالله الخلافة أقر الحسن بن ابي الشوارب على عمله في القضاء ، الا انه بعد مدة قصيرة حبسه وولى عبد الرحمن بن نائل البصري قضاء سامرا . ويظهر مما ذكره ابن وكيع القاضي ان الخليفة امر بحبس الحسن لاعتقاده بأن له علاقة بما اتهم به حماد بن اسحاق واخاه القاضي اسماعيل بن اسحاق (٩١) .

---

(٨٨) تاريخ بغداد ٧/٤١٠ .

(٨٩) نفس المصدر .

(٩٠) الطبري ٩/٣٩٠ ، والكامل ٧/١٩٦ .

(٩١) الطبري ٩/٤٣٧ ، واخبار القضاة ٣/٢٨١ .

وقد اعيد الحسن بن ابي الشوارب الى منصبه لما تولى الخلافة المعتمد على الله • وعندما عين الخليفة ابنه جعفراً ولياً للعهد في شوال سنة (٢٦١هـ) وسماه المفوض الى الله ، وعين اخاه ابا احمد الموفق وليا للعهد بعد جعفر ، واخذت البيعة بذلك على الناس ، وفرقت نسخ كتاب العهد في الأمصار ، بعث المعتمد على الله نسخة من الكتاب المذكور مع الحسن ليعلقها في الكعبة • فخرج الحسن الى الحج ، فوافته المنية بعدما ادى فريضة الحج(٩٢) • الا ان الخطيب البغدادي يقول انه توفي بمدينة السلام لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة ٢٦١هـ ، ويشاركه في ذلك ابن الجوزي (٩٣) • واحسبه انه نقل ذلك عنه • ويقول ابن الاثير انه توفى في شهر رمضان من السنة المذكورة (٩٤) • اي قبل ان يدرك موسم الحج •

علي بن محمد بن ابي الشوارب :

هو اخو قاضي القضاة الحسن بن محمد بن ابي الشوارب • نشأ في بيت علم وفقه ، فسمع الحديث على محدثي عهده ، ورواه • وكان رجلا صالحا ، ثقة اميناً ، لا مطعن عليه في شيء ، وقد حمل الناس عنه حديثاً كثيراً (*) •

ولما توفي قاضي القضاة الحسن بن ابي الشوارب وجّه الخليفة المعتمد على الله وزيره عبيدالله بن يحيى الى علي بن محمد بن ابي الشوارب فعزاه بأخيه وهنأه بالقضاء ، فأمتنع علي عن قبول ذلك •

---

(٩٢) الطبري ٥١٥/٩ •
(٩٣) تاريخ بغداد ٤١٧/٧ ، والمنتظم ٢٧/٥ •
(٩٤) الكامل ٢٨٩/٧ •
(*) تاريخ بغداد ٦٠/١٢ •

الا ان عبيدالله لم يبرح علياً حتى قبل المنصب ، فتقلد قضاء القضاة في سامرا ، ومكث بهذا المنصب حتى وفاته(٩٥) .

بقي علي في منصبه حتى ايام المعتضد على الله ، وقد أخذ برأيه في وجوب رد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام ، وامر بالكتاب الى جميع النواحي بردها(٩٦) .

توفى علي بن ابي الشوارب في عهد المعتضد بالله ، وكانت وفاته لسبع خلون من شوال سنة (٢٨٣هـ) ، وهو بمدينة السلام ، فحمل الى سامرا من يومه في تابوت ودفن فيها (٩٧) .

٣ ـ قضاة مدينة السلام :

عندما نقلت عاصمة الدولة العربية الى سامرا ظلت مدينة السلام بغداد تحتفظ بمركزها المهم في النواحي المختلفة ، وبخاصة النواحي العلمية والادارية . فكان واليها يعتبر نائبا للخليفة او خليفة عنه . ولقضائها منزلة لا تقل عن منزلة قضاء العاصمة . ولذا رأينا من المناسب ان نستعرض سيرة اولئك الذين تولوا قضاءها في عهد سامرا .

محمد بن سماعة :

ابو عبدالله محمد بن سماعة بن عبيدالله التميمي ، من رجال الحديث ورواته الثقات ، حتى قيل : لو كان اصحاب الحديث

---

(٩٥) المصدر السابق ، والمنتظم ١٦٤/٥ ، ونشوار المحاضرة ١٣٣/٤ .
(٩٦) المنتظم ١٦١/٥ .
(٩٧) الطبري ٤٩/١٠ ، والمنتظم ١٦٤/٥ ، وتاريخ بغداد وفيه انه توفي لاحدى عشرة خلت من شوال .

يصدقون كما يصدق محمد بن سماعة لكانوا فيه على نهاية(٩٨) •
كان ابن سماعة متعبداً متقشفاً ، ويروى عنه انه قال : مكثت اربعين سنة لم تفتني التكبيرة الاولى في جماعة الا يوما واحداً ماتت فيه امي(٩٩) • وهو من اصحاب القاضي ابي يوسف واخذ عنه وعن محمد بن الحسن،وروى عن ابن الحسن كتبه (١٠٠)•وقد ولاه المأمون قضاء مدينة المنصور بعد وفاة القاضي يوسف بن ابي يوسف ، رغم انه كان يطعن بتقشفه ، فقد روى عنه انه قال : عشرة من اعمال البر لا يصعد الى الله ، والله ، منها شيء ، ولما سئل عنها عددها وكان من ضمنها تقشف ابن سماعة (١٠١) •

استمر ابن سماعة على قضاء مدينة المنصور في عهد المعتصم بالله ، رغم انه كان على مذهب ابي حنيفة ويعتبر من ذوي الرأي فيه ، وامتنع عن القول بخلق القرآن • ويظهر ان سبب بقائه في القضاء انه كان عالماً ثقة محمود السيرة(١٠٢) • الا انه لما ضعف بصره عزله المعتصم بالله ، ويقال انه استعفى من العمل (١٠٣) •

ولمحمد بن سماعة عدد من المصنفات في اصول الفقه • ذكر ابن النديم منها كتاب ادب القاضي وكتاب المحاضر والسجلات(١٠٤) • وذكر له المسعودي كتاب نوادر المسائل وقد

---

(٩٨) تاريخ بغداد ٥/٣٤٢ •
(٩٩) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧١ •
(١٠٠) الفهرست / ٣٠٣ ، والعبر ١/٤١٤ •
(١٠١) تاريخ بغداد ٥/٣٤١ ـ ٣٤٢ •
(١٠٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٧١ •
(١٠٣) تاريخ بغداد ٥/٣٤٢ ، والنجوم الزاهرة ٢/٧٢١ •
(١٠٤) الفهرست / ٣٠٣ •

وضعه عن استاذه محمد بن الحسن ، وهو من الوف الاوراق(١٠٥) .

لقد عمر محمد بن سماعة طويلا ، فقد توفى سنة (٢٣٣هـ) بعد ان بلغ مائة سنة من عمره ، وهو صحيح الجسم والعقل(*) .

شعيب بن سهل :

ابو صالح شعيب بن سهل بن كثير الرازي المولد ، من رجال المعتزلة المتطرفين ، ولاه الخليفة المعتصم بالله في اول خلافته قضاء الجانب الشرقي من بغداد عندما توفى قاضيها جعفر بن عيسى الحسني . ويظهر ان احمد بن ابي دواد رشحه لهذا المنصب لأنه من اهل الاعتزال . وقد جعل الخليفة اليه ، اضافة الى القضاء، الصلاة بالناس في مسجد الرصافة في ايام الجمع والأعياد (١٠٦) . اي انه انابه عن نفسه في اداء هذا الواجب الديني ، وفي ذلك تقدير كبير له ، علما انه لم يكن يعين للامامة الا من بني هاشم ، او ممن يوثق به من افاضل المسلمين(١٠٧) .

كان شعيب من القائلين بخلق القرآن ونفي الصفات والرؤية عن الباري عزوجل في الآخرة . وكان ينتقص اهل السنة ويتحامل عليهم . وقد كتب على جدار مسجده « القرآن مخلوق » وحاول عوام الجند والغوغاء في ربيع سنة (٢٢٧هـ) اثر مبايعة الواثق بالله ان يمحوا هذه الكتابة ، فمنعهم خادم المسجد ، فذهبوا الى بيت القاضي نفسه واحرقوا بابه وانتهبوا داره ، وارادوا نفسه فهرب

(١٠٥) مروج الذهب ٤/٩٥ .
(١٠٦) تاريخ بغداد ٩/٢٤٣ ، واخبار القضاة ٣/٢٧٧ .
(١٠٧) الخراج وصناعة الكتابة / ٤٣ــ٤٤ .
(*) مروج الذهب ٤/٩٥ ، وتاريخ بغداد ٥/٣٤٣ ، والكامل ٧/٤٠ .

منهم • فانفذ صاحب الشرطة اسحاق بن ابراهيم حرساً استطاعوا انقاذ شعيب وصاروا به الى دار اسحاق(١٠٨) •

بقي شعيب على قضاء الرصافة ، ولما تولى الواثق بالله الخلافة عزله من منصبه (*) • وقد توفي سنة (٢٤٦هـ) في ايام المتوكل على الله (١٠٩) •

عبدالرحمن بن اسحاق :

عبدالرحمن بن اسحاق بن سلمة الضبي ، كان جده من رجال الدولة (١١٠) • وكان هو احد فقهاء المذهب الحنفي ومن اصحاب الرأي فيه ، وكان مترفا جماعا للمال(١١١) • ويروى ابن طيفور كيفية توليه القضاء ، وذلك انه كان يختلف الى ولد ابن سماعة القاضي ، فاتاهم يوماً فتغدى عندهم ، واخذوا قلنسوته وتراموا بها وخرقوها ، فاغضبه ذلك • فصار الى ابيهم ليشكوهم فوجد عنده جماعة فاحتشم ان يشكوهم بحضرة تلك الجماعة فجلس ينتظر خروجهم • فاتى ابن سماعة كتاب طاهر بن الحسين كبير قواد المأمون يذكر حاجته الى قاض يكون في عسكره لينظر في امورهم • فقال لعبدالرحمن : هل لك ان تمضي اليهم ؟ قال : نعم • فبعث به الى طاهر فجعله قاضيا في عسكره ، واستمر به الأمر ، ودخل في عداد القضاة (١١٢) •

---

(١٠٨) تاريخ بغداد ٢٤٣/٩ ، واخبار القضاة ٢٧٧/٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٧٩/٢ •

(*) اخبار القضاة ٢٧٧/٣ •

(١٠٩) الاعلام ٢٤٤/٣ •

(١١٠) تاريخ بغداد ٢٦٠/١٠ •

(١١١) نفس المصدر / ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، واخبار القضاة ٢٨٢/٣ •

(١١٢) بغداد لابن طيفور / ١٤١ •

ونقل عبدالرحمن الضبي بعد حين الى قضاء الرقة وبقي على قضائها مدة ، وقيل انه لما تولى قضاء الرقة لم يكن له علم بشيء من الفقه ، الا انه عنى بعد ذلك بحفظ الحديث وحفظ منه شيئاً صالحاً(١١٣) • ثم عينه المأمون على قضاء مدينة المنصور بدلا من اسماعيل بن حماد ، ثم ضم اليه قضاء الشرقية (١١٤) ، لما عزل قاضيها بشر بن الوليد ، فسار قاضيا على الجانب الغربي باسره • وظل في منصبه هذا طيلة ايام المعتصم بالله (١١٥) • وعندما خرج المعتصم بالله الى حرب الروم سنة (٢٢٣هـ) احضر القضاة ورجالا من ذوي العدالة فاشهدهم على ما اوقف من الضياع ، كان عبدالرحمن بن اسحاق احد القضاة الذين شهدوا على ذلك(١١٦) •

ولما استخلف الواثق بالله عزل عبدالرحمن بن اسحاق في سنة (٢٢٨هـ) وولى مكانه الفقيه الحسن بن علي بن الجعد على قضاء مدينة المنصور ، وعبدالله بن محمد الخلنجي على قضاء الشرقية (١١٧) • وحضر عبدالرحمن بن اسحاق بصفته من كبار الفقهاء مجلس محاكمة احمد بن النصر الخزامي فأيد كفره ، وقال هو حلال الدم (١١٨) •

---

(١١٣) اخبار القضاة ٢٨٢/٣ •

(١١٤) الشرقية محلة كبيرة بالجانب الغربي من بغداد ، سمت بالشرقية لانها: شرقي مدينة المنصور •

(١١٥) تاريخ بغداد ٢٦١/١٠ •

(١١٦) الطبري ٥٦/٩ •

(١١٧) ناريخ بغداد ٢٧١/١٠ •

(١١٨) الطبري ١٣٨/٩ •

توفي عبدالرحمن الضبي في ذي القعدة سنة (٢٣٢هـ) بفيد وهو بطريقه الى مكة لاداء فريضة الحج ، ودفن بها(١١٩) ٠

اسماعيل بن اسحاق :

ابو اسحاق اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي ٠ نشأ بالبصرة ودرس اللغة والحديث والفقه على مذهب الامام مالك بن انس ، حتى صار علماً فيه ، وقد عمل على شرحه ونشره ، وصنف الكتب في الاحتجاج له ، كما اتقن علوم القرآن والحديث وصنف عدداً من الكتب فيها (١٢٠) ٠ ويقول ابن النديم ان اسماعيل بن اسحاق هو الذي بسط فقه مالك ودعا الناس اليه ورغبهم فيه ، وصنف فيه الكتب(١٢١) ٠ وكان ابوه اسحاق على المظالم في مصر في عهد المأمون (١٢٢) ٠

استوطن اسماعيل مدينة السلام وولي القضاء فيها ، ولم يزل يتولاه حتى وفاته ٠ وقد تولى القضاء لأول مرة في سنة (٢٤٦هـ) لما مات القاضي سوار بن عبدالله العنبري ، فأمر الخليفة المتوكل على الله قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد الهاشمي ان يولي اسماعيل بن اسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد فولاه(١٢٣) ٠ وظل في منصبه حتى ايام المهتدى على الله الذي نقم على حماد بن

---

(١١٩) تاريخ بغداد ١٠/٢٦١ ٠

(١٢٠) تاريخ بغداد ٦/٢٨٤-٢٨٥ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٥٧ ، والمنتظم ٥/١٥١ - ١٥٢ ٠

(١٢١) الفهرست ٢٩٦ ٠

(١٢٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة /١٨٩ و٥٠٢ ٠

(١٢٣) تاريخ بغداد ٦/٢٨٧ ٠

اسحاق اخي اسماعيل لما بلغه عن مكاتبته الموفق ايام كان بمكة ، وصرف اسماعيل عن القضاء (١٢٤) ٠

ولما بويع للمعتمد على الله بالخلافة اعاد اسماعيل بن اسحاق الى عمله في القضاء ٠ وكان الموفق شديد الاعجاب باسماعيل وبعلمه ، فسأله اسماعيل ان ينقله الى الجانب الغربي من مدينة السلام ، وكان على قضاء الشرقية القاضي البرتي وعلى قضاء مدينة المنصور احمد بن يحيى ، فكره ذلك قاضي القضاة الحسن بن ابي الشوارب واجتهد في رده ، الا انه لم يستطع ذلك لتمكن اسماعيل من الموفق ٠ فاجابه الى طلبه ، ونقل البرتي الى الجانب الشرقي من المدينة ، واسماعيل الى الجانب الغربي باسره ، وذلك في سنة (٢٥٨هـ) ، ثم جمع قضاء بغداد بجانبيها لاسماعيل بن اسحاق في سنة (٢٦٢هـ) وقلد معها قضاء المدائن والنهروانات وقسم من اعمال السواد ، وصار المقدم على سائر القضاة (١٢٥) ٠

كان اسماعيل بن اسحاق مقربا الى الخليفة المعتمد على الله والى اخيه الموفق ، فكانا ينتدبانه لبعض المهام ٠ فقد اوفده الخليفة ضمن الوفد الذي بعث به الى يعقوب بن الليث لما استحوذ على اقليم فارس في سنة (٢٥٧هـ) (١٢٦) ٠ وعندما تغلب ابن واصل على فارس في سنة (٢٦١هـ) واسر احد قواد موسى بن بغا ، وجه الخليفة اسماعيل بن اسحاق الى ابن واصل يسأله اطلاق القائد

---

(١٢٤) الطبري ٥٢٦/٩ ، وتاريخ بغداد ٢٨٧/٦ـ٢٨٨ ، واخبار القضاة / ٢٨١/٣ ٠

(١٢٥) الطبري ٥٢٦/٩ ، وتاريخ بغداد ٢٨٧/٦ـ٢٨٨ ، واخبار القضاة ٢٨١/٣ ، والمنتظم ١٥٢/٥ ٠

(١٢٦) الطبري ٤٧٦/٩ ٤٧٦/٩ ٠

الأسير(١٢٧) . ووجهه الخليفة كذلك الى يعقوب بن الليث عندما وافى رامهرمز وعاد برسالة من يعقوب ، في رجب سنة (٢٦٢هـ)(١٢٨) .

توفى اسماعيل بن اسحاق في ذى الحجة من سنة (٢٨٢هـ) فجاءة وهو قاض على جانبي مدينة السلام (١٢٩) . ويقول ابن الجوزي انه لبس سواده ليخرج الى الجامع ولبس احد خفيه وجاء ليلبس الآخر فمات(١٣٠) . واهم ما صنفه اسماعيل من الكتب كتاب في احكام القرآن ، وكتاب في القراءات ، وكتاب في معاني القرآن، والمسند (١٣١) . ويضيف ابن النديم على هذه الكتب : كتاب اهوال القيامة ، وكتاب المبسوط ، وكتاب شواهد الموطأ ، وكتاب المغازي(١٣٢) .

الحسن بن الجعد :

هو الحسن بن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري وكان ابوه مولى ام سلمة المخزومية امرأة ابي العباس السفاح(١٣٣) ، وقد درس الفقه والحديث على علية اصحاب الحديث ورواته ، وقد اخذ عنه البخاري (١٣٤) . وتوفى بعد تولى ابنه القضاء

---

(١٢٧) نفس المصدر / ٥١٣ .
(١٢٨) نفس المصدر / ٥١٦ .
(١٢٩) الفهرست / ٢٩٦ ، وتاريخ بغداد ٦/ ٢٩٠ ، وأخبار القضاة ٣/ ٢٨١ .
(١٣٠) المنتظم ٦/ ٣٨٤ .
(١٣١) تاريخ بغداد ٦/ ٢٨٤ و ٢٨٦ ، ووفيات الاعيان ٢/ ٢٥٧-٢٥٨ .
(١٣٢) الفهرست / ٢٩٦ .
(١٣٣) المعارف / ٢٢٥ .
(١٣٤) مروج الذهب ٤/ ٧٦ ، والكامل ٧/ ١٨ .

بسنتين(١٣٥) • درس الحسن الفقه والحديث على ابيه ، وتابع الدرس والتحصيل حتى غدا من مشاهير العلماء بمذهب اهل العراق(١٣٦) • ومال اول امره الى مذهب المعتزلة ثم رجع عنه • فقد سئل الامام احمد بن حنبل عنه ، فقال : كان معروفاً عند الناس بانه جهمي مشهور ، ثم بلغني انه قد رجع عن ذلك(١٣٧) •

عُرف الحسن بن الجعد بنبله ومروءته وسمو اخلاقه • وقد اختاره الواثق بالله لقضاء مدينة المنصور في سنة (٢٢٨هـ) ولم يزل قاضيا عليها الى ان مات في رجب سنة (٢٤٢هـ) في عهد الخليفة المتوكل على الله (١٣٨) •

عبدالله الخلنجي :

عبدالله بن محمد بن يزيد الخلنجي ، من اصحاب الرأي ، كان واسع العلم حاذقاً في الفقه الحنفي ومن القائلين بخلق القرآن • تقلد المظالم في اقليم الجبل ، والقضاء في همذان نحواً من عشرين سنة ، فكان مستقلا بالقضاء ووجوهه(١٣٩) • كتب اليه الخليفة المعتصم بالله بأن يمتحن الناس ، فكان معتدلا يضبط نفسه ولم يتطرف في الاعتزال • فقد تقدمت اليه امرأة فقالت : ان زوجي لا يقول بقول امير المؤمنين ، ففرق بيني وبينه ، فصاح بها (١٤٠) •

---

(١٣٥) تاريخ بغداد ٣٦٤/٧ •
(١٣٦) نفس المصدر ، واخبار القضاة ٢٨٣/٣ •
(١٣٧) تاريخ بغداد ٣٦٤/٧ •
(١٣٨) نفس المصدر ، والطبري ٢٠٨/٩ •
(١٣٩) تاريخ بغداد ٧٣/١٠ •
(١٤٠) نفس المصدر ، واخبار القضاة ٢٩٠/٣ وجاء فيه ففرق بينه وبينها •

وتولى الخلنجي القضاء على الشرقية بالجانب الغربي من بغداد في ايام الواثق بالله (١٤١) ، وبقي في منصبه حتى ايام المتوكل على الله ، فعزله في سنة (٢٣٧هـ) وامر ان يكشف للناس ليفضحه ، لأنه كان من اصحاب احمد بن ابي دواد . فاقيم للناس في جمادى الأخيرة من السنة المذكورة (١٤٢) . فلم يتقدم احد بالشكوى عليه او اتهامه بأخذ حبة من احد ، حتى لقد قال بعض الشهود الذين حضروا الكشف : ما علمت ان القرآن مخلوق الا اليوم . فلما سئل كيف علم ذلك ، قال : سمعت القاضي يقول ذلك (١٤٣) . وهو دليل على ما كان يتمتع به الخلنجي من ثقة عالية في نفوس الناس .

كان الخلنجي عفيفا وفيه تيه وكبر شديد ، ويظهر انه كان اسود اللون ذا شكل مهيب ، فقد قال فيه احد الشعراء (١٤٤) .

نسبته في سواد لبسته
اشبه شيء بلون خلقته

كأنى بالجبال قد نصبوا
فيه الخلنجي فوق بغلته

اكرم به من فتى مناسبة
بين اجاوينه وقصعته

---

(١٤١) تاريخ بغداد ١٠/٧٣ واخبار القضاة ٣/٢٩٠ .
(١٤٢) الطبري ٩/١٨٩ .
(١٤٣) تاريخ بغداد ١٠/٧٤ .
(١٤٤) اخبار القضاة ٣/٢٩٠ .

ما عذب الله امــــة سلفت

فيما سمعنا بمثل صورته

يصطلح الناس حين يقعد للحكم فراراً من هــول طلعته

وعندما اشتد الخلاف بين المستعين بالله والقــواد الأتــراك واضطر الخليفة على الانحدار مع مؤيديه الى بغداد كان عبــدالله الخلنجي من جملة حاشيته • ولما طلب امير بغداد محمد بن عبدالله الى المستعين بالله ان يتنازل عن الخلافة لانهاء الحرب مع المعتــز بالله ، بحضور عدد من القواد والفقهاء ، قال الخلنجي للخليفــــة محتجاً على طلب محمد : يا أمير المؤمنين انه يســألك ان تخلــع قميصاً قمصك به الله (١٤٥) • ولما اسقط بيد المستعين بالله ولم ير بدأ من الموافقة على التنازل عن الخلافة • اشترط شروطا معينة لتنازله ، فبعث محمد بن عبدالله وفداً الى قائد جيش المعتز بالله ابي احمد الموفق ، يحمل كتاباً بشروط الخليفة المستعين بالله ، كان الخلنجي احد اعضائه ، ففاوض الوفد وعاد بجواب مــا ســأل المستعين بالله من الشروط (١٤٦) •

وكان المعتز بالله بعد ان استقر له الأمر في سامرا ، طلب الى مؤدبه عمران الضبي ان يسمي له عدداً من الفقهاء ليوليهم القضاء ، فاقترح له ثمانية رجال فيهم عبدالله الخلنجي ، الا انهم اتهمــوا بالاعتزال ، فأمر المعتز بالله باخراجهم الى بغداد (١٤٧) • وقدسبقت الاشارة الى ذلك •



---

(١٤٥) الطبري ٣٤٣/٩ •
(١٤٦) نفس المصدر / ٣٤٤ •
(١٤٧) نفس المصدر / ٣٧١ •

الباب الرابع

خلفاء سامرا والأتراك

١ ـ الأتراك في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله ٠

٢ ـ الصراع بين المتوكل على الله والاتراك ٠

٣ ـ ايام الفتنة ٠

الباب الرابع

خلفاء سامرا والأتراك

الفصل الأول

الاتراك في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله

١ ـ مقدمة :

كان الجيش عماد الدولة العربية في عهد العباسيين • وقد توسع كثيراً وازداد عدده ، وتنوعت صنوفه ، ولم يعد يقتصر على العرب وحدهم ، كما كان الأمر في عهد الأمويين • اذ سمح لابناء البلاد المفتوحة ممن اعتنقوا الدين الاسلامي ان ينخرطوا في صفوفه • وقد توسع العرب في فتوحاتهم الى بلاد ما وراء النهر واستولوا على امهات المدن فيها مثل بخارى وكاشغر وفرغانة وسمرقند • وكان سكان هذه المناطق من القبائل التركية البدوية ، اعتنق اكثرها الدين الاسلامي • ويتميز ابناء هذه القبائل بقوة اجسامهم وشجاعتهم في القتال • وكان قسم من غلمانهم من الاسرى والسبايا يجلبون الى مركز الخلافة ويباعون رقيقاً • وقد

استخدم بعضهم في الجيش لشجاعتهم ولياقتهم البدنية • ويعتبر ابو جعفر المنصور اول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء بعده (١) • الا ان عددهم كان قليلا ، ولم يكن استخدامهم بموجب سياسة مرسومة • فبقيت اكثرية الجيش على عهده من العرب والخراسانيين •

وكان العباسيون في اول عهدهم اكثروا من استخدام الخراسانيين في الجيش لأنهم كانوا عوناً لهم في التغلب على الامويين ، مما جعلهم العنصر المسيطر فيه • واتخذ الخلفاء الأوائل حرسهم الخاص منهم • غير ان انتصار المأمون على اخيه محمد الأمين اتاح لأنصاره من الفرس الذين اولاهم ثقته ان يهيمنوا على الجيش العربي هيمنة تامة • مما دفعه الى ان يستخدم ابناء ما وراء النهر ، بعد ان اخضع كاتبه احمد بن ابي خالد الأحول في بلاد اشروسنة • وكان يأمر عماله في خراسان ان يشجعوا اهل تلك البلاد على اعتناق الاسلام ، فكان يستميلهم بالترغيب ويقرض لهم في الديوان ، ويجزل صلاتهم (٢) • ولاريب في ان انعطاف المأمون نحو الأتراك كان رد فعل لما لمسه من مطامع الفرس ومحاولتهم الاستئثار بالسلطة • وكان الأفشين حيدر بن كاوس من امراء اشروسنة ، وقد اصطنعه المأمون واعتمد عليه ، هو الذي زين له ان يتوسع شرقاً فأستولت الدولة العربية على مناطق واقاليم جديدة في آسيا الوسطى •

ان المعتصم بالله الذي شاهد جرأة الفرس وتطاولهم على قتل اخيه الخليفة محمد الأمين ، اخذ يرتاب في ولائهم منذ ان كان

---

(١) مشاكلة الناس لزمانهم / ٢٣ لمن ، وتاريخ الخلفاء / ٢٤ •
(٢) فتوح البلدان / ٤١٩–٤٢٠ •

أميراً • كما ان نكبة الفضل بن سهل ، وترك المأمون مدينة مرو الى بغداد ، مما اساء الى العلاقة بين العباسيين والخراسانيين • فكان ذلك من جملة ما حدا بالمعتصم بالله الى الاعتماد على الاتراك • لأنه رأى في ذلك خير وسيلة لاضعاف النفوذ الفارسي في الجيش العربي • ويقول احد رجال المعتصم بالله ، وهو جعفر الخشكي انه كان يوجه به في ايام المأمون الى نوح بن اسد في سمرقند لشراء الأتراك وانه كان يعود عليه في كل سنة بجماعة منهم ، بحيث اجتمع لديه منهم حينذاك زهاء ثلاثة الاف(٤) • وجعل حرسه الخاص منهم • ويقول ابن قتيبة ان المأمون امر المعتصم بالله باتخاذ الاتراك وجلبهم(٥) • ويقول اليعقوبي انه لما افضت اليه الخلافة اشترى من كان منهم من الرقيق في بغداد • وكان ممن اشتراهم اشناس مملوك نعيم بن خازم ، وايتاخ مملوك سلام الابرش ، ووصيف مملوك آل النعمان ، وسيما الدمشقي مملوك الفضل بن سهل(٦) • واراه قد نوه بهذه الاسماء لما بلغه اصحابها من مراكز قيادية في الجيش والدولة ، ولما كان لهم من تأثير كبير في سير الاحداث •

وقد كلف المعتصم بالله عندما كان اميراً بمهمتين عسكريتين اعتمد فيها على غلمانه من الاتراك • فعندما ندبه الخليفة المأمون الى قمع الثورة التي قامت في مصر في سنة ٢١٤هـ توجه اليها ابو اسحاق في اربعة الاف من اتراكه(٧) • ولما خرج مهدي بن علوان

---

(٣) نفس المصدر / ٤١٩ •
(٤) كتاب البلدان / ٢٥٥ ـ ٢٥٦ •
(٥) المعارف / ٣٩١ •
(٦) كتاب البلدان / ٢٥٦ •
(٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة / ١٨٨ •

الحروري على ابراهيم بن المهدي في سنة ٢٠٣هـ وجه اليه ابراهيم ابا اسحاق في جماعة من القواد ، ومع ابي اسحاق غلمان له اتراك (٨) ·

وهكذا صار اكثر جند المعتصم بالله عندما تولى الخلافة من اهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والاشروسنية واهل الشاش وكلهم من الأتراك (٩) بحيث صار له منهم جيش كبير ، ويقول في تقدير عددهم الشاعر علي بن الجهم (١٠) ·

امام من له سبعون الفاً   من الاتراك مشرعة السهام

ويقول ياقوت الحموي مؤيداً هذا العدد من جند المعتصم بالله الأتراك : ان جيوش المعتصم كثروا حتى بلغ عدد مماليكه من الأتراك سبعين الفاً(١١) ·

٢ ـ المعتصم بالله واستخدامه الاتراك في الجيش :

لقد كانت هناك بالاضافة الى ما ذكرناه من عزم المعتصم بالله على القضاء على سيطرة العنصر الفارسي على الجيش العربي ، عوامل اخرى دفعته الى تتريك جيشه جنداً وقواداً · ومن هذه العوامل هو ما له علاقة بشخصية المعتصم بالله نفسه · وانه كان قوي الجسم بدرجة تلفت النظر ، ويغلب عليه حب الفروسية والولع بالحرب وشؤونها ، ولذا اعجب بشجاعة الغلمان الأتراك

(٨) الطبرى ٧/٥٥٨ ·
(٩) فتوح البلدان / ٤٢٠ ·
(١٠) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٢ ، والاغاني ١٠/٢٠٥ ·
(١١) معجم البلدان ٣/١٧٤ ·

وجرأتهم . وكان يتخير عند شرائهم من يتوسم فيه الشجاعة وقوة الجسم ، واعتمد عليهم في امر سلامته الشخصية . وميزهم على بقية جنده فالبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة (١٢) . وآثرهم على المتقدمين من اوليائه ونصحاء آبائه(١٣) .

ولما كان حظ المعتصم بالله من العلم والثقافة ضئيلا ، فقد كان يشعر بتقارب ذهني مع هؤلاء الغلمان الذين كانوا اميين وقد جاءوا من مناطق متخلفة من الناحية الحضارية عن بقية بلدان الدولة العربية ، ولاسيما مركزها مدينة السلام . والواقع انهم كانوا لا يزالون في دور البداوة فلا يخضعون الا لأمراء قبائلهم او رؤسائهم . وكما يقول الطبري انهم كانوا عجماً جفاة (١٤) . ولذلك فان الجيش الذي تكون منهم كان يختلف كثيراً عن بقية الجيش العربي . ولهذا افرد المعتصم بالله قطائعهم عن قطائع الناس جميعا عندما بنى مدينة سامرا ، واشترى لهم الجواري التركيات فازوجهم منهن ، وجعلهم منعزلين عن غيرهم ، ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا الى احد المولدين ، واجرى لجواريهم ارزاقا واثبت اسماءهن في الديوان ، فلم يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او ان يفارقها (١٥) . وقد اكد المعتصم بالله حرصه على عدم اختلاط الجند الاتراك بغيرهم عندما اقطع اشناس ارضاً فانه امره ان لا يطلق لغريب من تاجر ولاغيره مجاورتهم (١٦) ، بحيث جعل

---

(١٢) مروج الذهب ٤/٥٣ .
(١٣) التنبيه والاشراف / ٣٠٧ .
(١٤) الطبري ٩/١٨ .
(١٥) كتاب البلدان / ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .
(١٦) نفس المصدر / ٢٥٩ .

للاتراك قطائع متحيزة (١٧) • وقد كان اعتزازه بهم من اهم اسباب تشييد عاصمته سامرا •

يضاف الى ذلك موقف بعض القواد العرب منه عندما بويع بالخلافة وميلهم الى مبايعة العباس بن المأمون ، مما جعله لايطمئن الى ولائهم • كما ان انصراف العرب عن الحياة العسكرية الى النواحي الحضارية الاخرى ، لاسيما النواحي العلمية والاقتصادية نتيجة ارتفاع مستواهم الحضاري ، ساعده على اضعاف شأنهم في الجيش ، مما اتاح له ان يخرج كثيرا منهم ويسقط اسماؤهم من الديوان دون ان يلقى مقاومة تذكر • اما من بقى من قبائل اليمن وقيس ومضر في الجيش فقد اصطنعهم(١٨) وابقى عليهم •

ان هذه العوامل مجتمعة جعلت الخليفة المعتصم بالله لا يأمن الجيش الذي وجده عند توليه الخلافة ، سواء لتغلب العنصر الفارسي فيه ، او لعدم ولاء بعض قواده من العرب ، مما دفعه الى الاعتماد على عنصر جديد يركن اليه تتوفر فيه الكفاية والولاء • ولذا فقد اعتبر غلمانه الأتراك اساس جيشه الجديد واناط قياداته بمن توسم فيهم الجرأة والشجاعة من جهة والولاء من جهة اخرى ، من بين هؤلاء الغلمان • وبذا اصبح معظم القواد الكبار على عهده من الاتراك •

٣ ـ كبار القواد الاتراك :

اعتاد المعتصم بالله تكريم قواده الأتراك عند عودتهم من الحروب منتصرين ، اعترافا بما قاموا به من خدمة الدولة وحماية

(١٧) مروج الذهب ٤/٥٤ •

(١٨) مروج الذهب ٤/٥٣ •

الدين ، وتقديراً لجهودهم في ذلك ، وتشجيعا لهم · ومن اهم مظاهر هذا التكريم تقليد القائد الطوق والأسورة ، والسيف والمنطقة ، بحيث صار ذلك رسما لامراء الدولة (١٩) · او الاغداق عليهم بالاموال والهدايا الثمينة · فقد كرم الأفشين عندما قدم ببابك اسيراً الى سر من رأى ، بأن البسه وشاحين بالجوهر ، وتوّجه ، ووصلة بعشرين الف الف درهم (٢٠) · كما اجلس القائد اشناس على كرسي وتوجه ووشحه(٢١) ·

وكان تشجيع المعتصم بالله وتقديره قواده عاملا مهما في بروزهم على مسرح السياسة بعد وفاته ، بحيث غدا لهم نفوذ سياسي الى جانب سلطاتهم العسكرية · وبذا يكون المعتصم بالله قد خلق طبقة جديدة من القواد الحكام · الذين لم تقتصر هيمنتهم على شؤون الدولة العسكرية فقط ، بل شملت النواحي الادارية والسياسية كذلك · فقد عينوا للحجابة ، والولاية ، مع احتفاظهم بمناصبهم القيادية في الجيش ، فاصبح لهم السلطان الحقيقي على شؤون الدولة · وقد اتيح لهذه الطبقة من القادة الأتراك ان تلعب دوراً خطيرا في حياة الدولة العربية بعد عهد المعتصم بالله · واظهرت الحوادث بعد مدة قصيرة ان استخدام الاتراك في الجيش كان خطأ كبيرا من المعتصم بالله ، لأن قادتهم ورؤساءهم اساءوا استعمال نفوذهم وسلطانهم في فرض ارادتهم على الخلفاء ، واخذوا ينصرفون كفرباء متغلبين ·

---

(١٩) رسوم دار الخلافة / ٩٤ ·

(٢٠) الطبري ٩/٥٥ ·

(٢١) نفس المصدر / ١٠٣ ·

وقد برز في عهد المعتصم بالله عدد من كبار القواد الأتراك . ولعل ابرز هؤلاء حيدر بن كاوس ، وقد اشرنا الى ما فيه الكفاية عنه عند الكلام عن حروبه ومطامحه وغضب الخليفة عليه ومحاكمته . ومن القواد الاتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم بالله ، واتيح لهم ان يلعبوا ادواراً مهمة بعده : ايتاخ الخزري ، وبغا الكبير ، واشناس ، ووصيف . وفيما يلي لمحة موجزة عن سيرة كل منهم . ولسوف نتعرف على كثير عنهم في الفصول القادمة .

ايتاخ الخزري :

اصل ايتاخ من الخزر ، وكان طباخا مملوكا لسلام الأبرش خادم المأمون والرشيد من قبله ، فاشتراه منه المعتصم بالله . وكان له من البأس والشجاعة ما ساعده على ان يصل الى مركز مرموق في الدولة . اذ قربه المعتصم بالله ورفع من شأنه ، فولاه معونة سامرا بالاشتراك مع اسحاق ابراهيم المصعبي ، اضافة الى البريد ، وقيادة قسم من الجيش . وفي حملة المعتصم بالله على بلاد الروم ولى ايتاخ قيادة ميمنة جيشه(٢٢) . وكان يعتمد عليه في مهام الامور وبخاصة في التخلص من اعدائه ، فمن اراد حبسه او قتله فعند ايتاخ يحبس وبيده يقتل (٢٣) . وهو الذي تولى قتل العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة عندما تآمرا على الوثوب بالخليفة ، وهو ببلاد الروم(٢٤) . وقد احتفظ ايتاخ بمركزه طيلة ايام المعتصم بالله . وزاد نفوذه وتوسع سلطانه في عهد الواثق

---

(٢٢) الطبري ٥٧/٩ ، والكامل ٤٥١/٦ .

(٢٣) الطبرى ١٦٦/٩ـ١٦٧ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٦/٢ .

(٢٤) النجوم الزاهرة ٢٧٦/٢ .

بالله الذي ولاه السند وخراسان ، وعندما مات اشناس صير الواثق ولاية مصر الى ايتاخ ٠

ولما استخلف المتوكل على الله بقي ايتخ في مرتبته ، فكانت اليه قيادة الاتراك والمغاربة والموالي ، ثم البريد اضافة الى الحجابة بدار الخلافة ٠ ولكن ما لبث المتوكل على الله ان تغير عليه اثر مشاجرة قامت بينهما ، همّ فيها ايتاخ بقتله (٢٥) ٠ فانتهز المتوكل على الله فرصة خروج ايتاخ الى اداء فريضة الحج ، فاتفق مع امير بغداد اسحاق بن ابراهيم على استدارجه عند عودته الى بغداد والقبض عليه هناك ٠ ونجح اسحاق في ذلك فقيد ايتاخ وسجنه ٠ وما لبث ان مات في السجن ويقال انه قتل عطشاً في سجنه(٢٦) ٠ وسنأتي على تفصيل ذلك في موضوع الصراع بين المتوكل على الله والأتراك ٠

أشناس :

من الغلمان الأتراك الذين اشتراهم المعتصم بالله ببغداد ، وكان مملوكا لنعيم بن خازم ٠ وقد اعجب المأمون بشجاعته فقربه واعتمد عليه ٠ وعندما تكررت الثورات بمصر ضد الولاة قدم اليها المأمون فى سنة ٢١٥ ومعه اشناس ، الذي عاونه في اعادة النظام الى البلاد ٠ ولما وجه ابراهيم بن المهدي ، في اثناء توليه الخلافة ، ابا اسحاق لحرب ابن علوان الحروري طعنه احد الحرورية فحامى عنه اشناس فحاز ثقته ، بحيث لما آلت اليه الخلافة جعله من كبار قواده ، وانعم عليه بولاية مصر ودعى له

(٢٥) الطبري ٩/١٦٧ ، والكامل ٧/٤٣ ٠

(٢٦) النجوم الزاهرة ٢/٢٧٦ ٠

على منابرها • كما انه استخلفه على العاصمة سامرا عندما خرج الى السن في سنة ٢٢٥هـ (٢٧) • وعند تأسيس سامرا اقطعه الخليفة المعتصم بالله واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضم اليه عدة من قواد الاتراك والجند ، وامره ان يبني المساجد والاسواق وان لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم (٢٨) • وكان قد جعله على مقدمة جيشه في حملته على بلاد الروم ، فكان اشناس اول من ورد عمورية عندما افتتحها المعتصم بالله(٢٩) •

كما كان لاشناس دور كبير في كشف مؤامرة العباس على المعتصم بالله ، وفي القضاء على رؤوسها مما زاد في اعتماد الخليفة عليه ، وصار اثيراً لديه • وقد كرمه بأن اشرف على حفل زواج ابنته اترنجة من الحسن بن الافشين ، وأمر بأن يكون العرس في قصره ، واحضر عرسها عامة اهل سامرا ، وكان يتفقد بنفسه من حضره (٣٠) • واجلسه على كرسي ووشحه بنفسه في سنة ٢٢٥هـ (٣١) •

وقد ازداد نفوذ اشناس في عهد الخليفة الواثق بالله ، اذ استخلفه في سنة ٢٢٨هـ على السلطنة والبسه تاجا مجوهراً ووشاحين مجوهرين(٣٢) • مما زاد في سلطاته التي تعدت المهام العسكرية • ويلاحظ انه أول قائد يقلد السلطنة في ظل الخلافة العباسية • وقد توفى اشناس في سنة ٢٣٠هـ في ايام الخليفة الواثق بالله •

---

(٢٧) الطبري ٩/١٠٣ •
(٢٨) كتاب البلدان / ٢٥٨ ـ ٢٥٩ •
(٢٩) الطبري ٩/٦٣ ، والكامل ٦/٤١١ •
(٣٠) الطبري ٩/١٠١ •
(٣١) الطبري ٩/١٠١ •

وصـــيف :

من مماليك المعتصم بالله الذين اشتراهم ببغداد ، وكان زراداً ملموكاً لآل النعمان ٠ ولم يلبث ان اصبح من كبار القواد الأتراك، لما كان يتمتع به من جرأة وبسالة ٠ واتخذه المعتصم بالله ، عندما تولى الخلافة حاجباً له ٠ وعند تأسيس سامرا أقطعه واصحابه مما يلي الحير ليقيموا مساكنهم هناك(٣٣) ٠

وقد تولى وصيف في عهد الواثق بالله قيادة الحملـة التـي جردت لاخماد تمرد الاكراد في الجبال وفارس ، فنجح فيما ندب اليه وقدم سامرا ومعه مئات من الاسرى فجازاه الخليفة بخمسـة وسبعين الف دينار ، وقلده سيفاً(٣٤) ٠ وعندما توفى الواثق بالله من غير ان يعهد بالخلافة ، اشترك وصيف في اختيار من يخلفـه ولما اختير المتوكل على الله تولى وصيف حجابته ، ولكنه بعد حـين تزعم مؤامرة اغتياله ٠ وكان سبب نقمة وصيف على المتوكل على الله ان الخليفة امر بقبض ضياعه باصبهان والجبل واقطاعها الفتح ابن خاقان (٣٥) ٠ وذلك في جملة اجراءاته لاضعاف شأن القواد الاتراك ٠ فبلغ ذلك وصيفاً فغضب وانضم الى جانب محمد المنتصر ابن المتوكل على الله في النقمة على ابيـــه والعمل على التخلص منـــه ٠

وحاول المنتصر بالله لمـا استخلف ابعاد وصيف فـي شـؤون الدولة ٠ فعهد اليه في سنة ٢٤٨هـ قيادة حملة لغزو بلاد الـروم

---

(٣١) نفس المصدر / ١٠٣ ٠

(٣٢) نفس المصدر / ١٢٤ ٠

(٣٣) كتاب البلدان / ٢٥٨ ٠

(٣٤) الطبري ٩/١٤٠ ــ ١٤١ ٠

(٣٥) نفس المصدر / ٢٢٢ ٠

وحماية الثغور العربية · وامره ان يقيم هنـاك حتى يأتيـه امره(٣٦) · ولما غزا وصيف وكان بالثغور الشامية ، ورد عليه خبر موت الخليفة المنتصر بالله ،فعاد الى سامرا · ولعب دورا مهما مع القائد بغا في تحريض الجند على القائد اوتامش الذي كان قـد استولى على امور الخلافة في اوائل عهد المستعين بالله · ولما قتل اوتامش سيطر هذان القائدان على شؤون الدولة في عهد الخليفة المذكور ·

وعندما ترك المستعين بالله عاصمته سامرا الى مدينة السلام للتخلص من نفوذ الأتراك وضغطهم عليه ، كان القائد وصيف احد القواد الأتراك الذين صحبوه ، وظل الى جانبه الى ان خلـع مـن الخلافة · وقد استطاع وصيف ان يسترضي المعتز بالله الذي آلت اليه الخلافة ، فرضي عنه ، وعاد الى سامرا ، واعيدت اليه اعماله ورتبه السابقة · الا انه لقي مصرعه بعد مدة على يـد الجنـد الأتراك الذين شغبوا مطالبين بارزاقهم في سنة ٢٥٣هـ · وسنطلع على تفصيل ذلك في الفصل الخاص بالنزاع بين المعتـز باللـه والقواد الأتراك ·

بغـا الكبير :

من مماليك المعتصم بالله الذين تقدموا على عهده ، فاصبح من كبار قواده · وقد شارك في حروب عديدة · فقد وجهه المعتصـم بالله على رأس جيش كبير مددأ للقائد الأفشين في حربه مع بابك · كما بعثه الى حرب منكجور عندما اعلن عصيانه · فجاء به اسيرأ الى

(٣٦) الطبري ٩/٢٤٤ ، والكامل ٧/١١٢ ·

سامرا . وهو الذي تولى اعتقال الأفشين عندما نقم عليه المعتصم بالله . كما قاد عدة حملات في عهد الخليفة الواثق بالله لتأديب بعض القبائل العربية . فقد وجهه لاخضاع الاعراب من بني سليم الذين اغاروا على اطراف المدينة المنورة فتغلب عليهم وقضى على تمردهم . كما انتدبه لتأديب بني نمير الذين هاجموا الحجاز واليمامة فالتقى بهم وهزمهم ، وعاد الى سامرا بعدد كبير من اسراهم .

وصار بغا من قواد المتوكل على الله البارزين . وعندما قتل القائد يوسف الثغري في ارمينية عين الخليفة بغا والياً عليها وطلب اليه ان يثأر لدم يوسف . فاحرق تفليس وخرب عدداً من الحصون . وحمل عدداً من البطارقة اسرى الى سامرا .

واعاد في خلال ولايته على ارمينية واذربيجان بناء مدينة وشمكور القديمة التي خربت وهجرها اهلها ، فحصنها واسكنها قوما خرجوا اليه من الخزر مستأمنين لرغبتهم في الاسلام . ونقل اليها التجار من برذعة وسماها المتوكلية ، لتكون من الثغور العربية (٣٧) . وبذل جهوداً كبيرة في اصلاح وتعمير الحصون في الثغور ، بشكل لم يكن على مثله (٣٨) .

وعندما قتل المتوكل على الله كان بغا الكبير في سميساط يرد الروم الذين اغاروا عليها وعلى الثغور القريبة منها . ولما مات المنتصر بالله اوكل القواد الاتراك باقتراح من احمد بن الخصيب ، الى بغا الكبير واوتامش وبغا الصغير ، وهم ابرز القواد الاتراك

---

(٣٧) فتوح البلدان / ٢٠٦ .
(٣٨) نفس المصدر / ٢١٣ .

الحاضرين حينذاك ، اختيار من يرون للخلافة (٣٩) • فتشاوروا فيما بينهم ، وقد كرهوا ان يولوا احد ابناء المتوكل على الله لئلا ينتقم منهم ، واجمعوا على اختيار احمد بن محمد بن المعتصم بالله ، محتجين بحرصهم على ابقاء الخلافة في ولد مولاهم المعتصم بالله ، ولقب بالمستعين بالله •

مات بغا الكبير في سنة ٢٤٨هـ وقد تجاوز عمره التسعين سنة ، وكان قد خاض من الحروب ما لم يخضه غيره ، فما اصابته جراحة قط (٤٠) • وكان متدينا من بين القواد الاتراك • ولما مرض عاده الخليفة المستعين بالله ، وعندما توفى عقد لأبنه موسى على الأعمال التي كانت لأبيه اضافة الى ولاية البريد(٤١) •

٤ ـ الأتراك في عهد الواثق بالله :

اتبع الواثق بالله سياسة ابيه المعتصم بالله في الاعتماد على الجند الاتراك فزاد عددهم في عهده واتسع نفوذهم وبخاصة كبار قوادهم اشناس وايتاخ ووصيف وبغا • وسبق ان اشرنا الى ما وصلوا اليه من مراكز رفيعة في الدولة العربية في عهد المعتصم بالله • وقد استمروا في ايام الواثق على ما كانوا عليه في عهد ابيه ، بل أن سياسته تجاههم ساعدت على ازدياد نفوذهم وتدخلهم في شؤون الدولة • فانه لم يقم طيلة حياته باية فعالية عسكرية يشغلهم بها وانما استخدم بعضهم في مناصب ادارية وسعت لهم مجال التدخل فاتسع بذلك سلطانهم • ولسوف نرى في فصول

(٣٩) الطبري ٩/٢٥٦ •
(٤٠) مروج الذهب ٤/٦٠؛
(٤١) الطبري ٩/٢٥٨ •

قادمة ما ترتب على ازدياد نفوذ الاتراك وتدخلهم من عواقب خطيرة أثرت في مسيرة الدولة العربية في عهد العباسيين ٠

لقد ولى الواثق بالله ، غداة مبايعته بالخلافة ، القائد اشناس من بابه الى آخر عمل المغرب(٤٢) ٠ ويشمل ذلك اعمال الجزيرة وبلاد الشام وارمينية ومصر وشمالي افريقية ٠ وولى ايتاخ خراسان والسند وكور دجلة (٤٣) ٠ كما ولاه اكثر اعمال اشناس عندما توفى في سنة ٢٣٠هـ (٤٤) ، واتخذ القائد وصيفا حاجباً له (٤٥) ٠ وخلع اشناس لقب السلطان واستخلفه على السلطنة في سنة ٢٢٨هـ والبسه تاجا مجوهراً ووشاحين مجوهرين(٤٦) ٠ فكان اول خليفة استخلف سلطانا (٤٣) ٠

وكان الواثق بالله مثل ابيه لا يألوا جهداً في مكافأة قواد الأتراك واعلاء شأنهم كلما انجزوا مهمة تناط بهم ٠ فعندما تمكن القائد وصيف من اخضاع الأكراد الذين كانوا قد تمردوا في نواحي اصبهان والجبال في اواخر ايام المعتصم بالله ، وقدم الى الى سامرا ومعه خمسمائة من الأسرى ، منحه خمسة وسبعين الف دينار وقلده سيفاً (٤٨) ٠

---

(٤٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٩ ٠
(٤٣) نفس المصدر ٠
(٤٤) نفس المصدر / ٤٨١ ٠
(٤٥) خلاصة الذهب المسبوك / ٢٢٥ ٠
(٤٦) الطبرى ٩/١٢٤ ، والمختصر في اخبار البشر ٢/٣٥ ، والكامل ٧/٩ ٠
(٤٧) تاريخ الخلفاء / ٣٤٠ ٠
(٤٨) الطبرى ٩/١٤٠ ــ ١٤١ ، والكامل ٧/٢٣ـ٢٤ ٠

الا ان قوة الوزير محمد بن عبدالملك الزيات وسياسة الحكمة من جهة ، وقوة شخصية الواثق بالله من جهة اخرى حددت من نفوذ القواد الأتراك وسلطاتهم · بحيث استطاع الخليفة ان يامن جانبهم ويضمن ولاءهم وان يستفيد من خدماتهم في الميادين العسكرية الداخلية · فقد اعتمد عليهم في اخضاع حركات التمرد المتتالية التي قامت في الجزيرة العربية ·

الفصــل الثــاني

الصراع بين المتوكل على الله والأتراك

سبق ان اوضحنا تأثير كبار القواد الاتراك في اختيار المتوكل على الله للخلافة ، وتوخيهم ان يكون طوع ارادتهم ليؤمنوا مصالحهم ويحافظوا على مراكزهم · لما لهـم عليه من منة في رفعه الى مركز الخلافة بعد ان كان مضطهداً مغضوباً عليه في ايام اخيه الواثق بالله · الا ان الاحداث اظهرت انهم كانوا واهمين في ذلك · اذ انه عندما تسلم مقاليد الخلافة ولمس تعاظم نفوذهم ، اخذ يفكر فـي العمل على اضعاف شأنهم والحد من سلطانهم · والواقع انه جفاهم واطرحهم ، وحط من مراتبهم ، وعمل على الاستظهار عليهـم واستئصالهم (١) · الا انه لم يكن يستطيع ذلك علانية بالنظر لقوة مراكزهم وانقياد الجند لهم ، فاخذ يتحين الفرص المواتية لتنفيذ سياسته نحوهم ·

وقد لمس القواد الاتراك موقف الخليفة منهم وما يرمى اليه من اخضاعهم ، فأخذوا بدورهم يعملون جهد امكانهم على مقاومته وعدم السماح له بالمساس بمصالحهم · فنشأ عن ذلك صراع خفي بين الطرفين ، يتحين كل جانب الفرصة للايقاع بالجانب الآخر حتى انتهى الأمر بفشل محاولات المتوكل على الله ، ونجاحهم فـي

(١) التنبيه والاشراف / ٣١٣ ·

التخلص منه • ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان قتل المتوكل على الله وزيره محمد بن عبدالملك الزيات ، كان غلطة كبيرة منه ، اذ ان ذلك افقده شخصية سياسية قوية متمرسة كانت تقف الى جانبه بوجه الطغيان التركي ، وتساعد على الحد من نفوذهم • كما ان غضبه على قاضي القضاة احمد بن ابي دواد افقده ايضا شخصية عربية مخلصة كان يمكن ان يستفيد من خبرته وآرائه ونفوذه • وسنحاول فيما يأتي ان نتلمس نواحي الصراع المذكور وما ادى اليه من النتائج •

١ ـ التخلص من القائد ايتاخ :

سبق ان اشرنا الى ان ايتاخ كان قد اشتراه المعتصم بالله فرأى فيه شجاعة ولمس منه ولاء ، فضمه الى الجيش ورفع منزلته حتى غدا من كبار قواده وقواد ابنه الواثق بالله • فلما تولى المتوكل على الله الخلافة كان ايتاخ يتولى الحبس وقيادة قسم كبير من الجيش يشمل المغاربة والأتراك ، ويتولى كذلك البريد والحجابة وشؤون دار الخلافة (٢) • مما جعله اقوى القادة الاتراك سلطة واوسعهم نفوذاً • بحيث ان القضاء عليه يؤثر في تقليص نفوذ القواد الآخرين • وقد سبقت الاشارة الى موقف ايتاخ في اختيار خلف للواثق بالله وانه كان من مؤيدي اختيار ابن الواثق بالله على صغر سنه ، مما جعل المتوكل على الله يضمر له شراً • وشرب المتوكل ذات ليلة وعربد على ايتاخ فهم هذا بقتله • فلما اصبح المتوكل على الله وقيل له بما حصل بالأمس اعتذر اليه (٣) •

---

(٢) تجارب الامم ٥٤٢/٦ ، والطبري ١٦٦٧/٩ وفيه : كان يتولى الجيش ، الا انه سبق ان اشار في ص : ١٦٦ الى انه بيده الحبس

(٣) الطبري ١٦٧/٩ •

ويظهر من رواية الطبري ان المتوكل على الله لم يعد يأمن جانب ايتاخ فاراد التخلص منه « فدس اليه من يشير عليه بالاستئذان للحج ففعل » (٤) . ويؤيد ابن الاثير هذا بقوله « ثم وضع عليه من يحسن له الحج فأستأذن من المتوكل فاذن له » (٥) . الا ان اليعقوبي يقول « واتصل بالمتوكل انه كان على ايقاع الحيلة به ، فلما لم يمكنه ذلك طلب الحج» (٦) . ومهما كان السبب في خروجه الى الحج فان المتوكل على الله قد تظاهر باكرامه ، فخلع عليه وصيره امير كل بلد يمر به في طريقه ، وذلك كسباً لثقته . ولما انصرف ايتاخ عائدا من الحج اراد العودة الى سامرا عن طريق الانبار . الا ان المتوكل على الله كتب الى اسحاق بن ابراهيم عامله على الشرطة ببغداد يأمره بحبسه (٧) . فكتب اسحاق الى ايتاخ ان امير المؤمنين قد آمره بأن يتلقاه بنو هاشم ووجوه الناس ببغداد زيادة في اكرامه . وعندما وصل بغداد احتال عليه اسحاق فحبسه وقيده . فاقام عدة ايام في الحبس ثم مات . ويقال انه أطعم فاستسقى فمنع عنه الماء حتى مات عطشاً (٨) .

وقد اتقن المتوكل على الله تدبير القضاء على ايتاخ باختياره بغداد لاعتقاله فيها ، لأن اهل بغداد كانوا يعادون الاتراك وهم الذين ارغموا المعتصم بالله على الانتقال الى سامرا . ويقول الطبري « لو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على اخذه ، ولو دخل الى سامرا فاراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك » (٩) .

---

(٤) نفس المصدر .
(٥) الكامل ٧/٤٣ .
(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٥ .
(٧) الكامل ٧/٤٦ .
(٨) الطبري ٩/١٧٠ .
(٩) الطبري ٩/١٦٩ .

٢ ـ انشاء جيش من العرب :

من الدلائل الواضحة على عزم المتوكل على الله على مقاومة نفوذ الأتراك والاستظهار عليهم محاولته تأسيس جيش يخلو من الاتراك قواداً وافرادا ، ويعتمد بالدرجة الاولى على العرب . يقول المسعودي « انه ضم الى وزيره عبيدالله بن يحيى نحوا من اثني عشر الف رجل من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره »(١٠) . ورغم ان عبيدالله بن يحيى بن خاقان كان تركيا الا انه كان مواليا للخليفة ، وهو ابن اخي الفتح بن خاقان القائد التركي المقرب جدا من المتوكل على الله . لقد ادرك الاتراك خطر تأليف هذا الجيش وتوسيعه ، وان نموه سيكون على حسابهم ، لاسيما وقد شعروا بضيق المال عليهم لأن قسما منه ينفق على هذا الجيش . فاخذوا يقاومون توسعه بمختلف الوسائل ، فلم يزد عدده كثيرا . اذ عندما قتل المتوكل على الله دخل قادة هذا الجيش على عبيدالله بن يحيى وطلبوا اليه ان يسمح لهم بمقاومة قتلة الخليفة من الاتراك وغيرهم ، اختلف في عدد افراد هذا الجيش فقال البعض انهم كانوا عشرة الاف ، وزاد آخرون او نقصوا (١١) . يبدو ان المتوكل على الله لم ينجح في محاولته هذه بشكل يؤثر على قوة الاتراك ونفوذهم . ويمكن القول بأن قيام المتوكل على الله بتأسيس هذه الفرقة من الجيش دليل على نيته في اعادة النفوذ

---

(١٠) التنبيه والاشراف / ٣١٣ .

(١١) الطبري ٢٢٩/٩ ، وتجارب الامم ٥٥٧/٦ ، والكامل ٩٩/٧ .

العربي الى الجيش ، وان هذه الفرقة ستكون نواة جيش كبير يستطيع بواسطته ان يضع حداً لتسلط القواد الاتراك • ولكن يبدو انه كان يحذر جانب اولئك القواد ويخشى اثارتهم فلم يعهد بقيادة الفرقة المذكورة الى احد كبار القواد العرب ، وانما عهد بها الى وزيره • الا ان القواد المذكورين احسوا بالخطر الذي يكمن وراء تشكيل هذه الفرقة فعملوا جهدهم على عدم توسعها من جهة ، وعلى الايقاع بالمتوكل على الله من جهة اخرى • وقد استطاعوا ان يستميلوا ولي العهد محمد المنتصر الى جانبهم ضد ابيه ، مما سهل القضاء عليه • وبهذا تكون جريمة المنتصر مزدوجة اذ ساهم في اغتيال ابيه ، وساعد القواد الاتراك في تقوية مراكزهم ونفوذهم باضعاف الفرقة المذكورة وحلها • فأبقى الأتراك وحدهم اصحاب الصولة في الميدان السياسي والعسكري •

٣ ـ نقل العاصمة الى دمشق :

اراد المتوكل على الله الانتقال من سامرا ليبتعد عن تسلط الاتراك وتدخلهم في شؤون الدولة • ويظهر انه اختار دمشق لتكون عاصمة له لنزعتها العربية وخلوها من نفوذ الاتراك • كما ان كره اهل الشام لبعض العلويين مما يتفق مع ميوله • وقد احتج في انتقاله الى دمشق بسبب صحي • فقد وصف له برد هوائها وكان محروراً (١٢) • فأمر باصلاح الطريق واقامة المنازل عليه للاستراحة ، واعداد القصور في المدينة لسكناه وسكنى

---

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١ •

حاشيته . فدخلها في صفر سنة ٢٤٤هـ وعزم على المقام بها ونقل دواوين الدولة اليها ، وامر بالبناء فيها(١٣) .

الا ان القواد الاتراك سرعان ما ادركوا غرضه من الانتقال الى دمشق فحرضوا جنودهم على الشغب ، فاحتجوا يطلبون باعطياتهم وارزاقهم ثم جردوا اسلحتهم ورموا قصر الخليفة بالنشاب بحيث ارتفعت السهام الى الرواق الذي يجلس فيه المتوكل على الله . فاستدعى احد القواد ممن يعتمد عليه ، وهو رجاء الحضاري ليستطلع رأيه فيما حدث ، فنصحه هذا بأن يأمر بدفع ارزاقهم حالا ، وان يعود الى سامرا . فأمر بدفع ارزاق الجند وضرب الطبول للرحيل الى العراق . ويظهر ان الجند الاتراك فرحوا بذلك حيث سارعوا بالحركة للرحيل .

ويظهر مما يرويه المسعودي ان الاتراك حاولوا ان يقتلوا المتوكل على الله بدمشق الا انهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب وجود القائد بغا الكبير الى جانبه . وقد عملوا على ابعاده عنه وخططوا للوقيعة بينهما ليعزلوا عن الخليفة احد كبار مؤيديه . فكتبوا الرقاع الى المتوكل على الله يحذرونه من ان بغا يزمع على الفتك به ، وعينوا لذلك وقتاً . ثم كتبوا الى القائد بغا بان جماعة من الاتراك عزموا على الفتك بالخليفة ويحثونه على تشديد حراسته وحمايته له . ولما ذهب بغا مستعدا بحرسه للحيلولة دون الايقاع بالخليفة ، تأكد لدى المتوكل على الله تصميم بغا على الفتك به ، فاخذ يتوجس منه . ولهذا لما عاد الى سامرا ابقى بغا في دمشق(١٤) . وما ذكره اليعقوبي يؤيد ما ذهب اليه المسعودي في

---

(١٣) الطبري ٢٠٩/٩ .

(١٤) تفصيل ذلك في مروج الذهب ١١٥/٤ـ١١٧ .

سبب عودة المتوكل على الله الى سامرا بقوله « وبلغه عن بعض الموالي امر كرهه فشخص عن دمشق الى العراق » (١٥) ٠

وبرر المتوكل على الله عودته الى سامرا بأنه « استوبأ البلد وذلك ان الهواء بها بارد ندي ، والماء ثقيل ، والرياح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث ، وغلت فيها الأسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة » (١٦) ٠ ان القسم الأول مما ذكر عن مدينة دمشق قد يكون صحيحا . وكذلك غلاء الاسعار فيها بسبب انتقال هذا العدد الكبير من الجند وبعض موظفي الدولة وحاشية الخليفة ٠ الا ان حيلولة الثلج بين السابلة ووصول الميرة الى المدينة لا يتفق والواقع ٠ لان المتوكل على الله دخل دمشق في صفر سنة ٢٤٤هـ واقام بها شهرين واياما ثم خرج عائداً الى سامرا فوصلها في اواخر جمادى الآخرة من نفس السنة ٠ ولابد انه ترك دمشق في ربيع الثاني ٠ وهذه الأشهر من السنة المذكورة تقابل الأشهر مايس وحزيران وتموز من السنة ٨٥٨ الميلادية (١٧) ٠ وهي من اشهر الصيف في دمشق ولم يكن الثلج قد سقط فيها ٠ وقد يكون الطبري اراد ان يشير الى ان الثلج يحول بين السابلة ووصول الميرة في فصل الشتاء مما لا يشجع على البقاء في المدينة ، الا انه لم يحسن التعبير عن ذلك ٠ ونقل نص قوله المؤرخون ممن جاءوا بعده ٠

---

(١٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩١ ٠

(١٦) ٩/٢١٠ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٢ ، والكامل ٧/٨٥ ٠

(١٧) التوفيقات الالهامية / ١٢٢ ٠

٤ ــ تغلب القواد الأتراك :

ذكرنا في البحث الخاص بمقتل المتوكل على الله كيف ان المنتصر ، عندما تفاقم خلافه مع ابيه ، اخذ يستقطب كبار القواد الاتراك حوله . ومما ساعده على ذلك عدم اطمئنان اولئك القادة الى سياسة المتوكل على الله ونواياه تجاههم . وقد ذكر ان المتوكل على الله عزم هو والفتح بن خاقان ان يصيرا غداءهما عند عبدالله ابن عمر المازيال يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال ٢٤٧ هـ على ان يفتك بالمنتصر ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم (١٨) . وكانت نتيجة محاولة المتوكل على الله هذه انها دفعت بالقواد المذكورين وغيرهم ممن كانوا يناصرون المنتصر ضد ابيه ، الى الاسراع في القضاء عليه قبل ان يحكم تدبيره في الفتك بهم .

وكان من جملة الوسائل التي اتخذها المتوكل على الله في اضعاف نفوذ القواد الاتراك ، ان ينتزع منهم بعض الضيع التي التي اقطعت لهم في مناسبات مختلفة . وقد ابتدأ بالقائد وصيف ، فأمر في سنة ٢٤٧هـ بانشاء الكتب بذلك ، وصارت الى ديوان الخاتم لتوقيعها على ان تنفذ في الخامس من شعبان . فبلغ ذلك وصيفا ، فزاد في غضبه على المتوكل على الله بحيث كانت هذه الخطوة من الخليفة السبب المباشر الذي ادى الى اغتياله .

يتضح مما ذكرناه ان المتوكل على الله حاول جاهداً ان يقضي على نفوذ الأتراك او يضعفه على الأقل ، وقد اتبع لتحقيق ذلك

---

(١٨) الطبري ٩/٢٢٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٥٤ .

عدة وسائل ، وامتد صراعه معهم طيلة مدة خلافته · الا انه لم يستطع التغلب عليهم لسيطرتهم على الجيش ، ولاشغالهم وظائف ومراكز مهمة تتيح لهم التعرف على محاولاته ضدهم ، فكانوا سرعان ما يبادرون الى العمل على احباط تلك المحاولات · بل انهم لم يتورعوا عن اغتياله لما علموا بعزمه على الفتك بهم ·

الفصل الثالث

أيام الفتنة

١ ـ مقدمة :

اطمأن القواد الاتراك بعد ان اغتالوا المتوكل على الله الى عدم وجود من يهدد مصالحهم ، او يقف بوجه مطاليبهم المالية ، او يقلص نفوذهم وسطانهم بل نستطيع القول انهم ازدادوا نفوذاً وتأثيرا على الدولة والخلفاء ، فسيطروا على الخلافة بعد المتوكل على الله مدة امتدت منذ خلافة المنتصر بالله حتى مقتل المهتدى بالله ، بحيث اصبح الحكم الفعلي خلال هذه المدة بايديهم • وقد سادها صراع عنيف بينهم وبين الخلفاء ، وكثرت الفتن خلالها واهمها قيام الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله ومقتل اربعة خلفاء ، حتى سماها ابن خلدون « ايام الفتنة »(١) •

كان مجيء المنتصر بالله الى عرش الخلافة بعد تواطئه مع القواد الاتراك على اغتيال ابيه ، كسباً كبيراً للقواد المذكورين •

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٣/٢٩٣ •

الا انهم ما لبثوا ان انقلبوا عليه بعد ان شعروا بنواياه وما يبيته ضدهم وقرروا قتله او التخلص منه بالسم ، وقد اشرنا الى ذلك في موضوع وفاته . ولما تخلصوا منه اجتمعت كلمتهم على ان يبعدوا اولاد المتوكل على الله الآخرين عن عرش الخلافة ، بل انهم في ايام المنتصر بالله دفعوه الى ان يرغم اخويه المعتز والمؤيد على التنازل عن ولاية العهد . بحيث تسنى لهم ان يختاروا للخلافة من يتوسمون فيه الانقياد لهم . فاختاروا احمد بن محمد بن المعتصم بالله الذي لقب بالمستعين بالله ، مبررين اختيارهم له بانهم لايرغبون في خروج الخلافة من اولاد مولاهم المعتصم بالله .

الا ان القواد ، لما اشتد خلافهم مع المستعين بالله رغم ضعفه واستكانته ، بايعوا للمعتز بالله بن المتوكل على الله ، لأنهم توقعوا انه سيكون طوع ارادتهم . وتجاهلوا الخليفة القائم الذي فر الى مدينة السلام . مما نشأ وضع شاذ في رئاسة الدولة العربية ، وذلك بوجود خليفتين في وقت واحد ، فقام الصراع بينهما ونشبت الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله ، ثم انتهت وفق مايرغب به كبار القواد الاتراك الذين كانوا اضطروا المستعين بالله على الهرب الى بغداد ، ثم التنازل عن الخلافة للمعتز بالله ، وما لبثوا ان اقنعوا المعتز بالله بقتله .

ولما تحقق للقواد المذكورين عجز المعتز بالله عن سد حاجتهم المستمرة الى المال بادروا الى خلعه واختيار محمد بن الواثق بالله الذي عرف بزهده وعزوفه عن بهرجة الخلافة ومباهج الحياة ، وطمعوا ان يجدوا فيه اداة طيعة لتلبية رغباتهم . الا انهم لما لمسوا حرصه الزائد على اموال الأمة ، وعمله في نشر العدل ، ومحاسبته موظفي الدولة ، ثاروا عليه وقتلوه . واختاروا للخلافة

المعتمد على الله الذي كان منهمكا في ملذاته اكثر من اهتمامه بشؤون الدولة • وتوقعوا ان سيكون لهم المجال واسعا في عهده للاستئثار بالسلطة وجر المغانم وحيازة الاموال • الا ان ابا احمد الموفق وقف الى جانب اخيه الخليفة وضرب على ايديهم وكفهم عن العبث بشؤون الدولة • وهو وان استأثر بالسلطة دون اخيه ، استطاع ان يستعيد للخلافة هيبتها وللدولة العربية سطوتها وسلطانها ، فانهى عهد الفتنة التي سيطر خلالها الاتراك على شؤون الدولة ، واثروا تأثيراً سيئا في مسيرتها •

وسنحاول فيمايلي من الصفحات ان نستعرض علاقة القواد الأتراك بخلفاء هذه المدة لنتلمس نواحي قوتهم وضعف هؤلاء الخلفاء • مع الاشارة الى مظاهر الصراع الذي استمر طيلة المدة المذكورة بين الطرفين ، والذي كان ينتهي دوما بانتصار القواد الاتراك ، حتى استطاع الموفق ان يضع حداً لتسلطهم طيلة وجوده في الحكم الى جانب اخيه الخليفة •

٢ ـ المنتصر بالله يتنكر للاتراك :

اتخذ المنتصر بالله موقف الحذر من القواد الأتراك والعمل على تفريق كلمتهم واضعاف شأنهم بل والانتقام منهم • وكانت سياسته هذه قد كلفته حياته • اذ ان نجاح مؤامرتهم في قتل المتوكل على الله زاد من نفوذهم وتسلطهم على شؤون الخلافة ، واضعف النفوذ العربي في الدولة • وكان هؤلاء القواد اول من بايع الخليفة الجديد حليفهم في المؤامرة ، مما جعلهم يعتقدون بأن لهم الفضل في توليه الخلافة • وتأييدا لسلطتهم عليه انهم استطاعوا

ان يرغموه على خلع اخويه من ولاية العهد لكي يأمنوا انتقـــام اولاد المتوكل على الله الآخرين اذا ما تولى احدهم الخلافة ٠

الا ان المنتصر بالله ، وقد ساهم في مؤامرة اغتيال ابيـه ، أخذ يشعر بتأنيب الضمير ، فلا تغيب ذكراه عن ذهنه ٠ كما لا تغيب صورة ابيه عن باله ، حتى انه رآه اكثر من مرة في منامه يعاتبه ويعنفه ، مما نغص عليه عيشه واسلمه الى الكآبة واليأس ٠ واخذ يحس كأنه خسر الدنيا والآخرة ٠ وكثيراً ما صرح بما كان يقاسيه من آلام نفسية ٠ ولذلك كان يشعر بكره طاغ تجاه هؤلاء القواد الذين زينوا له الاشتراك في المؤامرة ، وبخاصة اولئك الذين تولوا قتل ابيه ٠ ويود لو انه ينتقم منهم ليكفر عن خطيئته بحق ابيه ٠ فكان اذا سكر قال عنهم هؤلاء قتلة الخلفاء واكثر من تهديدهم(٢) ٠ ويظهر انه كان عزم على الفتك بهم فقد قـال للفضل بن المأمون . قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله (٣) ٠ فأخذ يغتنم الفرص للايقاع بهم ٠ وعندما اقترح عليه وزيره احمد بن الخصيب اخراج القائد وصيف على رأس جيش لحرب الروم ، اغتنم هذه الفرصة للتخلص من احد كبار قوادهم ٠

وكانت العلاقة بين الوزير ابن الخصيب والقائد وصيف قد ساءت ، ولكي يأمن الوزير شر وصيف وتدخله في اعماله ، رأى ان خير وسيلة لذلك ابعاده عن حاضرة الخـلافة ٠ فأشـار على الخليفة باقتراحه المذكور ٠ فتظاهر المنتصر بالله بالاهتمـام بموضوع احباط نية الاعتداء واستطاع ببراعته ان يقنع وصيفاً

---

(٢) الطبري ٩/٢٥٢ ٠

(٣) مروج الذهب ٤/١٣٤ ، وشذرات الذهب ٢/١١٩ ٠

بالخروج . اذ قال له انه بلغه ان طاغية الروم قد اقبل يريد الثغور العربية ، وهو ما لايمكن السكوت عليه . ولابد من رده بحملة عسكرية توجه اليه ، وان لا مناص من ان يخرج بنفسه على رأس حملة للجهاد في سبيل الله ، ان لم يخرج على رأسها احد كبار قواده . فقال وصيف بل انا اشخص يا امير المؤمنين . فاوعز المنتصر بالله الى وزيره ان يبادر فورا الى تجهيز الحملة ، وان يبذل كل جهوده في تأمين جميع ما تحتاجه . وكتب بنفس الوقت الى خليفته ببغداد محمد بن عبدالله بن طاهر يعرفه توجيهه وصيفا للروم ويعلمه بخروج حملته الى ثغر ملطية ، ويأمره بان يبلغ عماله في نواحي عمله بكتاب امير المؤمنين لقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد واستنفارهم اليه ، والانفاق في سبيل الله . وينوه بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين ، ويدعو الى بذل النفوس والاموال لا علاء كلمة الله . وجاء آخر الكتاب « وقد رأى امير المؤمنين ـ لما يحبه من التقرب الى الله بجهاد عدوه .. ان ينهض وصيفا مولى امير المؤمنين في هذا العام الى بلاد اعداء الله الكفرة الروم ، غازيا لما عرف الله امير المؤمنين من طاعته ومناصحته ومحمود نقيبته وخلوص نيته ، في كل ما قر به من الله ومن خليفته . وقد رأى امير المؤمنين ـ والله ولي معونته وتوفيقه ـ ان تكون موافاة وصيف نيمن انهض امير المؤمنين معه من مواليه وجنوده وشاكريته ثغر ملطية .. فأعلم ذلك واكتب الى عمالك على نواحي عملك بنسخة من كتاب امير المؤمنين هذا ، ومُرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد ، وحثهم عليه واستنفارهم اليه ، وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله ، ليعمل ذووا النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في

النهوض الى عدوهم ، والخفوف الى معاونة اخوانهم والذيادة عن دينهم والرمي من وراء حوزتهم ، بموافاة عسكر وصيف مولى امير المؤمنين ملطية » (٤) ٠

وكان غرض الخليفة الرئيس من اخراج هذه الحملة الكبيرة للغزو ابعاد القائد وصيف عن التدخل في شؤون الخلافة ، واضعاف نفوذ القواد الاتراك بنفس الوقت ٠ ومع هذا بقي المنتصر بالله يتوجس خيفة من هؤلاء القواد ، ويرهب جانبهم لسيطرتهم على الجيش ويخاف ان يتآمروا عليه كما تآمروا على ابيه من قبل ٠ ورغم تكتمه في العمل على تفريق كلمتهم ومناوراته في ذلك فقد ظهر منه ما يدل على انه ينوي بهم شراً ، ويحاول ان يتنصل من الاشتراك في المؤامرة على ابيه ليحملهم كامل المسؤولية ٠ وقد روى عنه انه قال (٥) :

لو يعلم الناس الذي نالني
فليس لي عندهم عذر

كان الي الأمر في ظاهر
وليس لي في باطن امر

كما يحتمل قول هذا شكواه من تسلطهم بحيث لم يبق له من الخلافة سوى مظاهرها ٠

ان موقف المنتصر بالله هذا من الاتراك دفعهم الى الاسراع في العمل على التخلص منه قبل ان يتمكن هو منهم ٠ لأنهم لما علموا

---

(٤) نص الكتاب فى الطبري ٩/٢٤١ـ٢٤٣ ٠
(٥) فوات الوفيات ٢/٣٧٣ ٠

بسوء نيته فيهم وانه يعمل على التدبير عليهم ، بادروه بذلك(٦) .
الا ان هيبة المنتصر بالله وشجاعته ويقظته وشدة تحرزه حالت
دون ان يتمكنوا من اغتياله (٧) . ولذلك عمدوا الى التخلص منه
بالسم . وسبق ان ذكرنا ذلك في الموضوع الخاص بوفاته . وبذلك
انتصر القواد الاتراك على المنتصر بالله .

٣ ــ المستعين بالله والاتراك :

انقسم القواد الاتراك اثر مبايعة المستعين بالله الى كتلتين
متناحرتين تتنازعان على السلطة وحيازة الاموال . وكان لهذا
الانقسام سببان مهمان ، اولهما استيلاء القائد اوتامش ، وهو
ابن اخت القائد بغا الكبير ، على السلطة واحتوائه الاموال دون
بقية القواد . فقد استوزره المستعين بالله عندما تولى الخلافة
واطلق يده ويد شاهك الخادم في بيوت الاموال . وفعل الخليفة
مثل ذلك مع امه فتيان فلم يمنعها من شيء تريده . فكانت الاموال
التي ترد الى بيت المال يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة ، وما يفضل
عن ذلك يترك لأوتامش ايضا لينفقه على العباس بن المستعين بالله
الذي كان في حجره . فاحتوى اوتامش بذلك على كثير من الاموال
والضياع . مما اثار حفيظة عدد من كبار قواد الاتراك وبخاصة
وصيف وبغا الصغير . فأخذا يعملان على الايقاع به . واستطاعا
ان يثيرا عليه قسما كبيراً من الجند فهاجموه وهو في الجوسق مع
الخليفة ، وذلك في منتصف ربيع الآخر سنة ٢٤٩هـ ، فقبضوا
عليه وقتلوه ، وقتلوا معه كاتبه شجاع بن القاسم ، وانتهبوا دور

(٦) التنبيه والاشراف / ٣١٤ .
(٧) تاريخ الخلفاء / ٣٥٧ .

اوتامش واخذوا منها اموالا جمة . « ويقال ان ذلك جرى بموافقة المستعين بالله (٨) » .

وفي احدى قصائد البحتري في مدح المستعين بالله يشير الشاعر الى قتل اوتامش وكاتبه لتماديهما في الاستيلاء على الاموال العامة ، وافسادهما الحكم ، وظلم الرعية واضطهادهم ، كما يشير الى نقمة قسم من الأتراك عليهما ، منها قوله (٩) :

لقد نصر الامام على الاعادي
واضحى الملك موطود العماد

وعرفت الليالي في (شجاع)
و (تامش) كيف عاقبة الفساد

تمادى منهما غي فلجا
وقد تردى اللجاجة والتمادي

وضلا في معاندة الموالي
فما اغتبطا هناك بالعناد

برار في اقتطاع المال جم
وسعي في فساد الملك باد

بهضم للخلافة وانتقاص
وظلم للرعية واضطهاد

أمير المؤمنين اسلم فقدما
نفيت الغي عنا بالرشاد

---

(٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٦ .

(٩) كامل القصيدة فى ديوان البحتري ١/٥٢٤-٥٢٦ .

تدارك عدلك الدنيا فقرت

وعم نداك آفاق البلاد

اما السبب الثاني لانقسام الأتراك فكان مقتل باغر التركي الذي كان على رأس الزمرة التي اغتالت المتوكل على الله ، فزيد في ارزاقه ، واقطع عدداً من الضياع . وكان مما اقطع بعض القرى بسواد الكوفة . فوثب رجل من اهل تلك الناحية بوكيل باغر ، فحبسه هذا وقيده . فشكى الرجل امره الى القائد بغا الشرابي ، وكان باغر احد قواده ، فانتصف له وكف يد باغر ووكيله عنه ، وذلك بتأثير كاتبه دليل بن يعقوب النصراني . فغضب باغر وبيت لبغا ودليل شراً . فجمع اليه الفئة التي كانت شاركته في قتل المتوكل على الله ، وغيرهم من مؤيديه واصحابه وناظرهم وتأكد من تأييدهم له ، وقال لهم « الزموا الدار حتى نقتل المستعين ووصيفا وبغا ، ونجيء بعلي بن المعتصم بالله او ابن الواثق بالله ، فنقعده خليفة ، حتى يكون الامر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على امر الدنيا ، بقينا نحن في غير شيء ، فأجابوه الى ذلك » (١٠) . وانتهى الأمر الى المستعين بالله فبعث الى وصيف وبغا وقال لهما « ما طلبت اليكما ان تجعلاني خليفة ، وانما جعلتماني واصحابكما ، ثم تريدان ان تقتلاني» (١١) . فحلفا له انهما ما علما بذلك . واتفق رأيهم على اخذ باغر ورجلين من اصحابه من الأتراك وحبسهم . فاحضروا باغرا وحبسوه . فلما بلغ الخبر

---

(١٠) ٩/٧٧٩ ـ ٢٨٠ ، والكامل ٧/١٣٨ .

(١١) الطبري ٩/٢٨٠ والكامل ٧/١٣٩ .

مؤيديه واتباعه وثبوا على اصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا ما فيه من الخيل والدواب ، وحضروا الى الجوسق بالسلاح لانقاذه • الا ان اتباع وصيف وبغا قتلوا باغرا • فثار اتباعه وحاصروا المستعين بالله ووصيفا وبغا في دار الخلافة ، فخاف الخليفة والقواد المناصرين له على انفسهم ، فركبوا حراقة خفيفة اعدها لهم ميسان ملاح الخليفة فصاروا الى بغداد • وصحب الخليفة اضافة الى القائدين المذكورين ، بعض رجاله وافراد حاشيته ، منهم شاهك الخادم ، واحمد بن صالح بن شيرزاد كاتب وصيف ، واحمد بن اسرائيل • فوصلوها في يوم الأربعاء لأربعة او خمسة خلت من المحرم سنة ٢٥١هـ (١٢) • فنزل الخليفة في دار محمد بن عبدالله ابن طاهر • ثم التحق به بعض القواد الأتراك ، وجلة الكتاب والعمال وبني هاشم •

وقال الشاعر ابو علي اليماني في شخوص المستعين بالله الى بغداد (١٣) :

مازال الا لزوال ملكه   وحتفه من بعده وهلكه

وكأنه تنبأ بمصير المستعين بالله • فقد خسر الخلافة وخسر حياته بانتقاله من عاصمة ملكه سامرا ولجوئه الى بغداد •

اضطرب الأتراك الذين بقوا في سامرا ، فمنعوا الناس من الانحدار الى بغداد • وذكر انهم اخذوا ملاحا اكرى سفينته فضربوه مائتي سوط وصلبوه على دقل السفينة • فامتنع اصحاب

---

(١٢) الطبري ٢٨٣/٩ ، وتاريخ بغداد ٨٤/٥ ، والكامل ١٤١/٧ •
(١٣) الطبري ٢٨٢/٩ •

السفن من الانحدار ، الا سراً (١٤) • ثم اتفقوا على ضرورة اعادة الخليفة الى سامرا ، وقرروا ان يبعثوا اليه وفدا منهم يسألونه العودة الى دار ملكه • فصار اليه عدة من كبار قادتهم منهم كلباتكين وبايكباك • ويقال انهم اخذوا اليه البرد والقضيب وبعض الخزائن ومائتي الف دينار (١٥) • وعندما قابلوه سألوه ان يصفح عما بدر منهم ومن اتباعهم من خلاف ، فأجابوهم بما يكرهون ، فقال لهم « انتم اهل بغي وفساد واستغلال للنعم الم ترفعوا الي في اولادكم فالحقتهم بكم •• وفي بناتكم فامرت بتصييرهن في عداد المتزوجات •• وادررت لكم الارزاق حتى كان لكم آنية الذهب والفضة •• كل ذلك ارادة لصلاحكم ورضاكم ، وانتم تزدادون بغياً وفساداً »(١٦) • فاعترفوا بخطأهم وسألوه العفو ، فعفا عنهم • فقال له القائد بايكباك « فان كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا الى سامرا ، فان الاتراك ينتظرونك » (١٧) فاحتج محمد بن عبدالله على طريقة مجادلة الخليفة فاوعز لأحد اتباعه فلكز بايكباك • فضحك المستعين بالله قائلا ان هؤلاء عجم لا معرفة لهم باصول الكلام • وامر بايكباك وجماعته ان يصيروا الى سامرا ، واكد لهم ان ارزاقهم ستستمر ، وانه سينظر في امر مقامه ببغداد او عودته الى سامرا •

عاد القواد الاتراك الى سامرا وقد يئسوا من عودة الخليفة اليها ، فاجمعوا على خلعه ومبايعة المعتز بالله بن المتوكل على الله • وقد سبق ان اوضحنا ذلك في سيرة المعتز بالله •

(١٤) الطبري ٢٨٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٧٧/٦ •
(١٥) مروج الذهب ١٦٢/٤ •
(١٦) الطبري ٢٨٣/٩ •
(١٧) الطبري ٢٨٤/٩ ، والكامل ١٤٢/٧ •

٤ ـ الحرب بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله :

ان مبايعة المعتز بالله بالخلافة في سامرا مع وجود الخليفة الأصلي في بغداد اوجد وضعا غريبا في الخلافة العباسية ادى الى نشوب الحرب بين انصار الخايفتين ، اي بين جيش المستعين بالله وجيش المعتز بالله . فعندما بلغ امير بغداد محمد بن عبدالله ان الأتراك في سامرا نقضوا بيعة المستعين بالله وبايعوا المعتز بالله ، أمر بقطع الميرة عن اهل سامرا ، فمنع السفن او اي شيء من الميرة من ان ينحدر من الموصل اليها ، او ان يصعد نحوها شيء من ذلك من بغداد .

واسره المستعين بالله بتحصين بغداد ، فنشط لاحاطة المدينة بجانبيها بسور . وكان السور في الجانب الشرقي يبدأ من باب الشماسية على ضفة دجلة من فوق قصر المهدي ، وهو على هيئة ربع دائرة تبدأ من باب بردان وتنتهي عند باب خراسان . فكان السور يحيط بمحلتي الرصافة والشماسية ، ثم ينعطف بهيئة ربع دائرة ليشمل محلة المخرم حتى يصل الى دجلة ثانية عند باب سوق الثلاثاء . اما في الجانب الغربي فكان السور يبدأ من فوق باب قطيعة زبيدة مشتملا على الفرضة العليا حتى يمر بباب قطربل متبعاً خندق طاهر حتى باب الأنبار ، وهو بهيئة نصف دائرة كبيرة يشتمل على مدينة المنصور ، وقسم من الكرخ حتى يصل الى دجلة خلف باب البصرة تحت الموضع الذي يصب فيه نهر الصراة . ورتب على كل باب من ابواب السور قائداً على رأس ثلة من الجند ، وحفر الخنادق حول السورين كما يدوران في الجانبين . واقام مظلات يأوي اليها الفرسان في الحر والمطر . وبلغت النفقة فيما

ذكر على السورين وحفر الخنادق واقامة المظلات ثلاثمائة وثلاثين الف دينار (١٨) ·

وجعل على باب الشماسية من الخارج بابا سميكا معلقا قد البس بصفائح الحديد وشد بالحبال ، فاذا ما وافى احد ذلك الباب ارسل عليه الباب المعلق فيسقط عليه ويقتله · كما نصب على جميع ابواب السور العرادات والمجانيق ، وعليها ما تحتاجه من الرجال (١٩) · ومن هذا يظهر ان المستعين بالله اتخذ موقف المدافع فيما اذا هاجمته جيوش سامرا ·

وقبل ان تبدأ الحرب جرت بين المعتز بالله ومحمد بن عبدالله مكاتبات ، دعا فيها المعتز بالله محمداً الى خلع المستعين بالله ومبايعته ، وذكره بعهد ابيه المتوكل على الله له بالخلافة بعد اخيه المنتصر بالله · ودعا محمد بدوره المعتز بالله الى الأوبة الى طاعة المستعين بالله · واحتج كل منهما على صاحبه فيما يدعوه اليه بما يراه حجة له تسنده ضد خصمه · كما كتب المستعين بالله الى عمال الخراج بكل بلدة ان يحملوا الأموال اليه في بغداد والا يحملوا شيئاً منها الى سامرا · وامر بالكتابة الى القواد والجند الاتراك بسامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز بالله ، والوفاء ببيعتهم له ، وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته »(٢٠) ·

بداية الحرب وحصار بغداد :

عقد المعتز بالله لأخيه ابي احمد الموفق لسبع بقين من المحرم سنة ٢٥١ هـ على حرب المستعين بالله ، وضم اليه جيشاً بقيادة

---

(١٨) الطبري ٩/٢٨٧ ، وتجارب الامم ٦/٥٨٠ ·

(١٩) الطبري ٩/٢٨٨ ، وتجارب الامم ٦/٥٨٠ ·

(٢٠) الطبري ٩/٢٨٨ ــ ٢٨٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٨١ ·

كلباتكين • فتجمع في القاطول خمسة الاف من الأتراك والفراغنة ، والفان من المغاربة ، فسار الجيش حتى وافى عكيرا(٢١) •

ولما بلغ المستعين بالله تحرك جيش المعتز بالله نحو بغداد ولى القائد الحسين بن اسماعيل مهمة الدفاع عن باب الشماسية باعتباره الباب الرئيس للمدينة • وقبل ان تبدأ المعارك بين الجانبين امر محمد بن عبدالله بحشد جيش بغداد في القفص(٢٢) ، ليرهب الجيش المهاجم ، وركب معه وصيف وبغا في الدروع ، واستصحب معه الفقهاء والقضاة ، وبعث اليهم يدعوهم الى الرجوع عما هم عليه من الطغيان والعصيان وانه يبذل لهم الأمان ، وان يكون المعتز بالله ولى العهد بعد المستعين بالله فلم يجيبوا(٢٣) •

اهم المعارك :

جرت بين الجانبين مناوشات ومعارك عديدة كانت الحرب فيها سجالا بينهما لم تسفر عن انتصار حاسم لأحدهما • فكانت حرب استنزاف للطرفين • حتى اضطر في الأخير جيش بغداد على الاستسلام بسبب ما قاسته مدينة بغداد من جراء حصارها • وسنقتصر على ذكر اهم المعارك من حيث نتائجها وكثرة الجيوش المشتركة فيها •

---

(٢١) الطبري ٢٩٠/٩ ، وتجارب الامم ٥٨٢/٦ ، والكامل ١٤٥/٧ ، وفيه كان جيش الاتراك والفراغنة خمسين الفا •

(٢٢) القفص : قرية بين بغداد وعكبرا وهي الى بغداد اقرب ، وكانت من مواطن اللهو • معجم البلدان ٣٨٢/٤ •

(٢٣) الطبري ٢٩٢/٩ ، والكامل ١٤٧/٧ •

معركة الشماسية :

وافى قسم من جيش المعتز بالله الشماسية ليلة الأحد لسبع خلون من صفر ، فرماهم حماة الباب بالسهام والمجانيق والعرادات ، فوقع كثير من القتلى والجرحى بين الجانبين • ولما رأى جند سامرا تكاثر جيش المستعين بالله عليهم انسحبوا الى معسكرهم(٢٤) •

معركة النهروان :

اتصل بابن طاهر ان جمعا من جند المعتز بالله صاروا الى ناحية النهروان ، فوجه اليهم ما ينوف على الف فارس وراجل وعليهم قائدان ، فهاجمهم جيش المعتز بالله وهزمهم ، وانصرف من نجا منهم الى بغداد • وسيطر جيش المعتز بالله على طريق بغداد ــ خراسان ، وهو الطريق الذي يربط بغداد بالولايات الشرقية(٢٥) •

معركة قطربل :

وجه المعتز بالله جيشا آخر من الاتراك والفراغنة والمغاربة الى بغداد ، وعليه القائدان الدرغمان الفرغاني وريابة المغربي • فاجتاز الجيش قطربل (٢٦) قاصداً بغداد من الجانب الغربي ، وعسكر عند قطيعة ام جعفر ، وذلك في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر • فوجه ابن طاهر ثلاثة من كبار قواده هم الشاه بن ميكال ، وبندار ، وخالد بن عمران ، ومعهم اصحاب من

---

(٢٤) الطبري ٩/٢٩١ ــ ٢٩٢ والكامل ٧/١٤٥ ــ ١٤٦ •

(٢٥) الطبري ٩/٢٩٤ ، والكامل ٧/١٤٧ •

(٢٦) هي قرية شمالي بغداد ، بينها وبين عكبرا ــ معجم البلدان ٤/٣٧١ •

الفرسان والرجالة . فاشتبك الجانبان في اليوم التالي بمعركة عنيفة انتصر فيها جيش المستعين بالله وقتل وغرق كثير من جنود جيش المعتزبالله وأسر آخرون منهم ، وعبر قسم من المنهزمين الى معسكر ابي احمد في الجانب الشرقي . وذكر انهم كانوا اربعة الاف فقتل منهم الفان (٢٧) . فاعتبر ذلك انتصارا للمستعين بالله ، وكتب به بيان قرىء على اهل بغداد في جامعها ، وهو بمثابة بيان حربي مسهب يشير الى خروج جماعة ضالة نكثت بيعة الخليفة وناصرت غيره ، وان هؤلاء الناكثين جمعوا جموعهم من الاتراك والفراغنة وساروا نحو مدينة السلام معلنين البغي ، فهزموا عند باب الشماسية ، الا انهم استنهضوا جيشاً آخر من سامرا . ولم تزل الحرب بين الموالين لأمير المؤمنين المستعين بالله والفرقة الضالة حتى انزل الله بهم البوار واحل عليهم النقمة فولوا منهزمين مغلولين (٢٨) .

ثم استأنف جيش المعتز بالله بعد فشله في معركة قطربل ، الهجوم على باب الشماسية وباب البردان ، فرد على اعقابه بعد ان خسر عددا غير قليل من القتلى والجرحى ، فهاج الغوغاء في سامرا اثر هذه الهزائم ، واعتبروها ضعفا في امر المعتز بالله ، فانتهبوا سوق اصحاب الحلي والسيوف والصيارفة واخذوا جميع ما وجدوا فيها من متاع واموال . ويظهر ان اهل سامرا ملوا الحرب فاخذوا يعلنون احتجاجهم على استمرارها ، ولاسيما عند وصول الاسرى ورؤوس القتلى من بغداد . مما اضطر المعتز بالله

---

(٢٧) الطبري ٩/٢٩٥ .

(٢٨) كامل البيان في الطبري ٩/٢٩٦ ـ ٣٠٣ .

ان يأمر بتغطية وجوه الاسرى ، وان يمنح كلا منهم دينارين ، وان تدفن الرؤوس(٢٩) ٠

ولما طالت الحرب دون نتيجة واظهر اهل سامرا تذمرهم من استمرارها كتب المعتز بالله الى اخيه الموفق يلومه على تقصيره في قتال اهل بغداد ٠ فكتب اليه الموفق ما سبق ان قاله الشاعر علي بن امية في حرب الأمين والمأمون (٣٠) :

لأمر المنايا علينا طريق   وللدهر فيه اتساع وضيق

فايامنا عبر للانام   فمنها البكور ومنها الطروق

الى ان يقول :

فبالله نبلغ ما نرتجيه   وبالله ندفع ما لانطيق

معركة الأنبار :

وقعت بالقرب من الانبار معركتان مهمتان كان النصر فيهما لجيش المعتز بالله ٠ فقد وجه محمد بن عبدالله بن طاهر الى الانبار جيشاً عليه القائد نجوبة بن قيس (٣١) ، ليحول دون وصول جيش سامرا من جهتها ٠ فبثق الماء من الفرات الى خندق المدينة وقطع القناطر التي توصل اليها ٠ وسبق لأبن طاهر ان امر بكسر القناطر وبثق المياه بطسوج الأنبار وما قرب منه من طسوج

---

(٢٩) الطبري ٩/٣١٣ ، والكامل ٧/١٥١ ٠

(٣٠) تتمة الابيات في الطبري ٩/٣١٦ ، والكامل ٧/١٥٢-١٥٣ ٠

(٣١) في الاصل بحونة ، الا انه جاء في الصحيفتين ٢٨٧ و٢٨٩ من نفس الكتاب ، وفي الكامل ١٤٣ و١٥٣ ، نجوبة ٠

بادوريا ليقطع الطريق على جيش سامرا اذا ما ورد الأنبار(٣٢) •
ثم استمد القائد نجوبة قوة اخرى ليعزز جيشه ، فندب اليه ابن طاهر قوة اخرى عليها القائد رشيد بن كاوس ، اخو الأفشين قائد جيش المعتصم بالله •

وكان المعتز بالله قد ارسل من سامرا جيشا على رأسه ابو نصر محمد بن بغا الكبير للاستيلاء على الأنبار ، فباغت ابو نصر جيش ابن كاوس فهاجمه وهزمه • فلما بلغ نجوبة مالقيه الجيش الذي ارسل مدداً له ، عبر النهر بقسم من جيشه وقطع جسر الأنبار ، فوصل بغداد واعلم ابن طاهر بمصير جيش ابن كاوس • فوجه ابن طاهر القائد الحسين بن اسماعيل مع عدد من القواد الآخرين الى الانبار لايقاف زحف جيش سامرا •

وعندما هزم جيش ابن كاوس وتنحى نجوبة عن الانبار ، ورأى اهلها تقدم جيش المعتزبالله نحو المدينة ، طلبوا الأمان وسمحوا للجيش المذكور بدخولها • وكانت قد وصلت الى الانبار في هذه المدة عدد من السفن من الرقة عليها دقيق وزيت وابل ودواب اخرى ، فاستولى جند المعتز بالله عليها ، ووجهوا ما بها وبالاسرى الى سامرا • ويظهر ان الحسين بن اسماعيل الذي ارسل لانقاذ مدينة الأنبار كانت تنقصه الكفاية العسكرية ، فلم يحسن اختيار الموقع الذي نزله بجيشه • بحيث انه عندما اشتبك بجيش سامرا هزم وجيشه هزيمة شنيعة ، واحتوى جند سامرا جميع مافي عسكره من المضارب والسلاح والأثاث وصناديق الأموال • وعاد الحسين مع من هزم معه من القادة والجنود الى الجانب الغربي من

---

(٣٢) الطبري ٩/٢٨٩ •

بغداد . ولما اتصل خبر هذه الهزيمة بابن طاهر منع المنهزمين من العبور الى الجانب الشرقي من المدينة ، ونودي فيمن دخلها من جند الحسين ان يلتحقوا بمعسكره . وقد وبخ ابن طاهر الحسين وامره بجمع فلول جيشه والعودة الى الأنبار ليحارب عنها ثانية .

عاد الحسين بن اسماعيل الى الأنبار فنزل باصحابه موقعا يسمى « دمما » وهو قرية كبيرة على نهر الفرات عند الفلوجة شرقي الفرات(٣٣) . ثم عبر جدولا صغيراً رغم مقاومة جيش المعتز بالله . على ان هذا الجيش قام بهجوم عبر فيه نهر الفرات ، وكان الحسين قد تهاون بامر عبوره لعدم تقديره قوته ، فتكاثر عليه وهزمه للمرة الثانية ، بعد ان قتل واسر من جيشه اعداد كثيرة ، مما اضطره على العودة الى بغداد بفلول جيشه المهزوم (٣٤) .

الوضع الداخلي في بغداد :

كان الأمراء من بني هاشم الموجودون ببغداد قد تذمروا من معاملة محمد بن عبدالله لهم ، واهماله شؤونهم وتأخيره ارزاقهم ، مما دفع بعضهم الى ان يلتحق بالمعتز بالله مع من كان قد التحق به من الكتاب والقواد ، منهم علي ومحمد ابنا الواثق بالله ، ومحمد ابن هارون بن عيسى بن جعفر ومحمد بن سليمان من ولد عبد الصمد بن علي(٣٥) . اما الذين بقوا ببغداد فقد صاحوا بالمستعين بالله ، وتناولوا ابن طاهر بالشتم القبيح وقالوا « قد منعنا

(٣٣) معجم البلدان ٢/ ٤٧١ .
(٣٤) راجع عن تفصيلات معركتي الانبار : الطبري ٩/ ٣٢١-٣٢٦ .
(٣٥) الطبري ٩/ ٣٢٦ .

ارزاقنا .. فان دفعت الينا ارزاقنا والا قصدنا الابواب ففتحناها وادخلنا الاتراك فليس يخالفنا احد من اهل بغداد » (٣٦) . وقد عجز ابن طاهر عن ترضيتهم ، مما زاد في حنقهم عليه وعلى المستعين بالله .

كما ان حصار المدينة اشتد على سكانها فاخذوا يتذمرون ويشكون القحط وغلاء الأسعار « وصاحوا في اول ذي القعدة يوم الجمعة : الجوع ومضوا الى الجزيرة التي هي تلقاء دار ابن طاهر ليسمعوه صراخهم واحتجاجهم » (٣٧) . واجتمع في اواخر الشهر المذكور « قوم من رجاله الجند وكثير من العامة ، فطلب الجند ارزاقهم ، وشكت العامة سوء الحال التي هم عليها من الضيق وغلاء السعر وشدة الحصار » (٣٨) .

وحاول ابو احمد قائد جيوش المعتز بالله ان يقتحم سور بغداد . فبعث في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان حملة لمهاجمته من ابواب الشماسية وبغواريا والأنبار . وقد استطاع قسم من رجال الحملة الذين هاجموا باب بغواريا ان ينقبوا السور في موضعين تدفق منهما الجند الى داخل المدينة . كما ضرب قسم آخر من رجال الحملة باب الأنبار بالنار فاحرقوه واحرقوا ما كان عليه من المجانيق والعرادات ، ودخلو المدينة ايضا . اما باب الشماسية فقد استعصى على الجند الذين وجهوا اليه . وشعر ابن طاهر بخطر هذا الهجوم فركب على رأس قواده . واستثار الجند والناس . ووجه القائدين وصيفا وبغا الى باب

---

(٣٦) نفس المصدر / ٣٤٧ .

(٣٧) الطبري ٩/٣٣٥ .

(٣٨) نفس المصدر / ٣٣٦ .

بغواريا ، والقائدين الشاه بن ميكال والحسين بن اسماعيل الى باب الأنبار فالتقوا بمن دخل المدينة من جيش المعتز بالله وتكاثروا عليهم فطردوهم وردوهم على اعقابهم بعد ان قتلوا وجرحوا واسروا اعداداً منهم (٣٩) •

ويظهر ان محمد بن عبدالله اخذ يشعر بضعف مقاومة جيش المستعين بالله وفتور حماسه للقتال • فحاول ان يثير عزائم قواده ، فجمع المكلفين منهم بابواب بغداد وغيرهم وشاورهم في امر استمرار الحرب بعدما اصابهم من وهن وضعف ، فابدوا استعدادهم لبذل النفس والدم والمال • فادخلهم على المستعين بالله ، وعلمه بما ناظرهم به وما ردوا عليه من الجواب • فقال لهم « والله يا معشر القواد لئن قاتلت عن نفسي وسلطاني ما اقاتل الا عن دولتكم وعامتكم ، وأن يرد الله اليكم اموركم قبل مجيء الاتراك واشباههم ، فقد يجب عليكم المناصحة والجهد في قتال هؤلاء الفسقة • فردوا احسن مرد ، وجزاهم الخير وامرهم بالانصراف »(٤٠) •

الاستعانة بالعيارين :

كان محمد بن عبدالله أمر بأن يستعان بالعيارين في الحرب ، وان يجعل عليهم عريف ، وان تعمل لهم تروس من البواري المقيرة ، ومخال تملأ بالحجارة • فكان الواحد منهم يقف خلف البارية فلا يرى منها • وقد نصب عليهم عريف يقال له ينتويه (٤١) •

---

(٣٩) راجع عن معركتي ابواب بغداد : الطبري ٩/٣٣٠-٣٣١ •
(٤٠) الطبري ٩/٣٣٤ •
(٤١) الطبري ٩/٢٨٨ •

ويظهر ان الحاجة اشتدت اليهم فامر محمد بن عبدالله بتسليحهم واثبت اسماءهم ٠ ففرق ينتويه اتباعه على ابواب بغداد ليكونوا عونا للجيش المدافع عنها (٤٢) ٠ ويقول الطبري انهم كانوا أثبت من العامة في الحرب (٤٣) ٠ وخرج ينتويه واصحابه من العيارين في احد الايام من باب قطربل واشتبكوا بالمهاجمين من جيش المعتز بالله واستطاعوا ان يردوهم الى معسكرهم مثخنين بالجراح ٠ فأمر له محمد بن عبدالله بخمسمائة درهم ، الا انه امره الا يخرج بجماعته الى الحرب الا في يوم قتال (٤٤) ٠

محاولة فك الحصار عن بغداد :

رغم فشل جيش المعتز بالله في اقتحام اسوار مدينة بغداد الا ان حصاره لها كان محكما بحيث اضطر محمد بن عبدالله ان يقوم بهجوم كبير على محاصريه ليجليهم ويفك حصار المدينة ٠ فأمر في اوائل ذي القعدة بفتح الابواب كلها في الجانبين الشرقي والغربي ، ونصب المجانيق والعرادات عليها وعلى السفن في نهر دجلة ، وخرج على رأس الجند ومعه كبار القواد ٠ فتزاحف الفريقان واشتبكا في معركة عنيفة هزم فيها جيش المعتز بالله وهرب من ساحة القتال حتى صار الى معسكره ٠ فتعقبه جند المستعين بالله وانتهبوا قسما من المعسكر ، وضربوا زورقا لهم يقال له (الحديدي) كان شديداً على اهل بغداد برمي النار ٠ الا ان ابا احمد الموفق استطاع ان يرد جنده الى استئناف القتال والقيام

---

(٤٢) نفس المصدر / ٣٠٩ ٠

(٤٣) نفس المصدر / ٢٩٣ ٠

(٤٤) نفس المصدر / ٣١٠ ٠

بهجوم معاكس . اذ قال لهم انهم ان لم يكروا لم تبق لهم بقية(٤٥) . فعادوا وصمدوا في اماكنهم . وصادف ان جمعا من جيش المستعين بالله رجعوا عن الاتراك المنهزمين مما اوهم جماعتهم ان جنود المعتز بالله قد رجعوا عليهم ، فانهزموا نحو بغداد متزاحمين . وهكذا انصرف الفريقان عن بعضهما .

وقد سر ابن طاهر مما حققه جنده من الانتصار في المعركة الأخيرة على بعض ابواب بغداد ، وجعل يطوق كل من جاءه برأس قتيل ، حتى بدت الكراهية في وجوه اتباع بغا ووصيف من الأتراك لمقتل اصحابهم جنود المعتز بالله .

المستعين بالله يخلع نفسه ويبايع المعتز بالله :

يمكن اعتبار معركة فك الحصار عن بغداد وفشلها نهاية للحرب بين جيش المعتز بالله وجيش المستعين بالله . وقد ذكر ان ابن طاهر كان قد كاتب المعتز بالله قبل ذلك في الصلح(٤٦) . اذ كان جادا في نصرة المستعين بالله حتى استطاع عبيدالله بن يحيى ابن خاقان واحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد ان يصدقوه عما كان عليه . اذ اقنعوه بان المستعين بالله يعمل للتخلص منه (٤٧) . وكان استياء اهل بغداد من استمرار الحرب ، وما قاسوه من تأثير الحصار المفروض عليهم ، مما شجعه على ان يبعث وفدا الى عسكر ابي احمد لمناظرته في امر الصلح . كما انه خرج بنفسه لمقابلته . وكان قد ضرب لابن طاهر بباب الشماسية مضرب كبير ، وجاء ابو احمد في زلال ودخل المضرب . فتناظرا طويلا ثم خرجا . وانصرف

---

(٤٥) نفس المصدر / ٣٣٤ .

(٤٦) الطبري ٩/٣٣٥ .

(٤٧) نفس المصدر / ٣٤٢ .

ابن طاهر الى المستعين بالله واخبره بما دار بينه وبين ابي احمد « فذكر انه فارقه على ان يعطى خمسين الف دينار ، ويقطع غلة ثلاثين الف دينار في السنة . وان يكون مقامه بغداد حتى يجتمع له مال يعطون الجند ، وعلى ان يولى بغا مكة والمدينة والحجاز ، ووصيف الجبل وما والاه ، ويكون ثلث ما يجبى من الخراج لمحمد ابن عبدالله وجند بغداد ، والثلثان للموالي والأتراك » (٤٨) .

كانت هذه شروط المستعين بالله ، وقد امتنع اول الأمر من ان يخلع نفسه من الخلافة ، « الا انه عندما ناظره ابن طاهر ووصيف وبغا واغلظ لهم كاشفوه بنواياهم . فقال له وصيف : انت امرتنا بقتل باغر فصرنا الى ما نحن فيه ، وانت حرضتنا لقتل اوتامش ، وقلت ان محمداً ليس بناصح ، ومازالوا يفزعونه ويحتالون له . فقال له محمد بن عبدالله : وقد قلت لي ان امرنا لا يصلح الا باستراحتنا من هذين الاثنين . فلما اجتمعت كلمتهم اذعن لهم بالخلع وكتب بما اشترط لنفسه » (٤٩) . وقد كشفت هذه المناظرة عن سوء تدبير المستعين بالله وفساد نيته تجاه رجاله ، مما ازال الثقة بينه وبينهم وجعلهم يحجمون عن الاستمرار بالحرب الى جانبه .

ويظهر ان مفاوضات الصلح قد اثمرت ، اذ وجه الموفق خمس سفائن من دقيق وحنطة وشعير وتين الى ابن طاهر . فوجه هذا قواده اليه فبايعوا للمعتز بالله . كما ان رشيد بن كاوس احد كبار قواد المستعين بالله كان قد قابل الموفق ثم عاد الى بغداد يقول

---

(٤٨) نفس المصدر / ٣٤٣ .
(٤٩) نفس المصدر ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

للناس « ان امير المؤمنين المعتز وابا احمد يقرآن عليكم السلام ويقولان من اطاعنا وصلناه ومن أبى فهو أعلم » (٥٠) ٠

ولما علم اهل بغداد بهذه الاتصالات ظنوا ان مفاوضات الصلح تجري باذن الخليفة المستعين بالله على ان يستمر هو في الخلافة ويكون المعتز بالله ولي عهده ٠ الا انهم اتضح لهم ان ذلك تم دون موافقة المستعين بالله فهاجوا على ابـن طاهـر وقصـدوا داره وشتموه ، الا ان جنده ردوهم عن داره ٠

ان المستعين بالله بعد ان رأى ما صارت اليه الأمـور ، وان اتباعه تخلوا عن نصرته اذعن لما ستسفر عنه نتيجة المفاوضات ٠ فلما كان يوم السبت لعشر بقين من ذي الحجة ادخل محمـد بـن عبدالله جميع القضاة والفقهاء على المستعين بالله واشهدهم عليه بأنه صير امره اليه(٥١) ٠ واستمر محمـد فـي مفاوضـاته التى انتهت بالموافقة على ان يتنازل المستعين بالله عن الخلافة ويبـايع للمعتز بالله بشرط ان يقطع المستعين بالله بعض الاراضي وينزل المدينة المنورة ويسمح له بالتنقل بينها وبين مكة ٠ فوافق ابو احمد الموفق على ذلك ، الا ان المستعين بالله طلب ان يكتب المعتز بالله موافقته عليها بخطه ٠ فاخرج ابن طاهر جماعة من قواده الى المعتز بالله في الشروط المذكورة ، فوقع ذلـك بخطـه وشـهدوا على اقراره ٠ وخلع المعتز بالله على الرسل وقلدهم السيوف ، ووجه معهم جماعة من رجاله لأخذ البيعة له من المستعين بالله (٥٢) ٠

---

(٥٠) الكامل ١٥٨/٧ ٠

(٥١) الطبري ٣٤٥/٩ ٠

(٥٢) نفس المصدر ، ٣٤٤ـ٣٤٥ ، والكامل ١٦٢/٧ ٠

ويقال ان المستعين بالله طلب ان ينزل بواسط الى وقت مسيره الى مكة وان المعتز كتب له على نفسه شروطاً متى نقض شيئاً منها فالله ورسوله منه براء ، والناس في حل من بيعته (٥٣) . فخلع المستعين بالله نفسه من الخلافة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٥٢هـ(٥٤) . وبذلك انتهت الحرب التى قامت بين المستعين بالله والمعتز بالله ، وغدا على رأس الدولة العربية رئيس واحد في سامرا . وتسلم محمد بن عبدالله منه البردة والقضيب والخاتم ، وهي شارات الخليفة ، ووجه بها الى المعتز بالله مع اخيه عبيدالله بن عبدالله ، وكتب معه كتابا ، قال فيه « اما بعد ، فالحمد لله متمم النعم برحمته والهادى الى شكره بفضله ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله .. كتابي الى امير المؤمنين وقد تمم الله له امره ، وتسلمت تراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان عنده ، وانفذته الى امير المؤمنين .. »(٥٥) .

وقال بعض الشعراء في خلع المستعين بالله (٥٦) :

خلع الخلافة احمد بن محمد
وسيقتل التالي او يخلع

ويزول ملك بني ابيه ولا يرى
أحد تملك منهم يستمتع

ايهاً بني العباس ان سبيلكم
في قتل أعبدكم طريق مهيع

---

(٥٣) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

(٥٤) الطبري ٣٤٥/٩ ، ومروج الذهب ١٦٣/٤ .

(٥٥) الطبري ٣٤٨/٩-٣٤٩ .

رقعتم دنياكم فتمزقت
بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وتمثل هذه الابيات على قصرها شعور الناس حينذاك ، ورأيهم في تصرفات الخلفاء من بني العباس ومصيرهم على ايدي مواليهم الأتراك المتسلطين عليهم ، الذي ينتهي بالخلع والقتل ٠

٥ ـ المعتز بالله والأتراك :

كان الاتراك قد استحوذوا منذ مقتل المتوكل على الله على شؤون الخلافة واستضعفوا الخلفاء ٠ فكان الخليفة كالأسير في ايديهم يبقوه اذا شاءوا ، ويخلعوه اذا ما اختلفوا معه ٠ ويورد ابن الطقطقي قصة للدلالة على تسلط القواد الأتراك على مقادير الخلفاء ، فيقول « لما جلس المعتز على سرير الخلافة قعد خواصه واحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ٠ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ٠ فقالوا : فكم تقول انه يعيش ويملك ؟ قال : مهما اراد الأتراك » (٥٧) ٠

ومما يدل على ان المعتز بالله كان يرهب جانب الأتراك ، ما يقال ان امه لم تزل تحرضه على الفتك بقتلة ابيه من الأتراك ، فكان يعدها ويمنيها ، وهو يعلم انه لا يقوى عليهم لشدة شوكتهم وغلبتهم على الامور ٠ فأخرجت اليه يوما قميص ابيه المتوكل على

---

(٥٥) الطبري ٩/٣٤٨ ـ ٣٤٩ ٠
(٥٦) الطبري ٩/٣٥٠ ، والكامل ٧/١٦٨ ٠
(٥٧) الفخري / ٢٢٠ ٠

الله وهو مخضب بدمائه ، وجعلت تبكي وتستثيره ، فقال لها : يا امي ارفعي القميص والا صار قميصين (٥٨) ٠

ويظهر ان عامة الناس وقسما من الجند لم يكونوا راضين عن تسلط الأتراك لاستغلالهم مراكزهم واضطهادهم الناس ٠ فقد وثب بعض الجند الاتراك بالوزير عيسى بن فرخان في اول رجب سنة ٢٥٢هـ ، فثار له المغاربة من الجند وغلبوا الاتراك على الجوسق واخرجوهم منه ، وقالوا لهم : كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً (٥٩) ٠ فصار الجوسق وبيت المال بيد المغاربة ٠ فتجمع الأتراك ثانية واشتبكوا مع المغاربة ٠ وقد اعان الناس المغاربة كرها بالاتراك حتى قاربوا ان يتغلبوا عليهم ٠ الا ان قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد اصلح بين الطرفين ٠

القائدان وصيف وبغا ومقتلهما :

بقي القائدان وصيف وبغا الى جانب المستعين بالله الى ان خلع نفسه من الخلافة وبايع المعتز بالله ٠ فأمر المعتز بالله محمد بن عبدالله ان يسقط اسميهما مع اتباعهما من الديوان ببغداد ٠ الا ان وصيفا وجه اخته سعاد الى ابراهيم المؤيد ، وكان نشأ في حجرها ، فكلم اخاه المعتز في الرضا عنه ٠ ويقول الطبري ان سعادا اخرجت من قصر وصيف الف الف دينار كانت مدفونة فيه ، فدفعتها الى المؤيد ، فكلم هذا اخاه الخليفة ٠ فرضى عن وصيف ،

---

(٥٨) الديارات / ١٦٩ ، وثمار القلوب / ٨٦ ٠
(٥٩) الطبري ٣٦٩/٩ ، والكامل ١٧٣/٧ ، وفيه : وتعملون وزيرا ٠

وكتب اليه بالرضا عنه (٦٠) • وكلم الموفق اخاه المعتز بالله بشأن بغا الصغير ، فرضى الخليفة عنه كذلك (٦١) • فعادا الى خدمته في سامرا ، رغم انه كان يرغب ببقائهما ببغداد بعيدين عنه • اذ اوعز الى ابن طاهر ان يحول دون خروجهما الى سامرا • الا انهما استطاعا الشخوص اليها ، وعادا الى مراتبهما (٦٢) •

وكان الاتراك والفراغنة والاشروسنية من الجند قد شغبوا في اوائل شوال سنة ٢٥٣هـ وطالبوا بارزاقهم المتأخرة لأربعة اشهر • فخرج اليهم من القواد وصيف وبغا الصغير وسيما الشرابي ليناظروهم في طلباتهم • فاغلظ وصيف في كلامه مع الجند فوثبوا به وقتلوه ، ونصبوا رأسه على محراك تنور (٦٣) • فتخلص بذلك المعتز بالله من احد كبار القواد المتغلبين •

لقد صفا الجو بعد مقتل وصيف للقائد بغا الصغير ، فأخذ المعتز يظهر اكرامه فجعل اليه ما كان الى وصيف من المهام والقيادات ، ثم خلع عليه والبسه التاج والوشاحين (٦٤) • ومن الجدير بالذكر ان نشير الى ان اكرام القواد الاتراك في المناسبات المختلفة لاسيما عند انتصارهم في الحروب ، في عهد المعتصم بالله وابنه الواثق بالله ، لم يكن لقوة نفوذهم وسلطانهم ، وانما كان تشجيعا لهم وتقديرا لجهودهم ودفعهم الى مزيد من الولاء للخليفة وخدمة الدولة العربية • اما في عهد بقية خلفاء سامرا فان الباعث على تكريمهم كان محاولة كسب رضاهم ودفعا لنقمتهم وغضبهم ، بعد ان قوى نفاذهم واشتد ازرهم كطبقة عسكرية حاكمة •

---

(٦٠) الطبري ٩/٣٥٥ •

(٦١) نفس المصدر

(٦٢) الطبري ٩/٣٥٦ ، والكامل ٧/١٦٩ •

(٦٣) الطبري ٩/٣٧٤ ، والكامل ٧/١٧٩ •

(٦٤) نفس المصدرين •

وحاول بغا ان يقنع المعتز بالله بالمسير الى بغداد لكي ينفرد بالهيمنة على شؤون الخلافة ، الا ان المعتز بالله كان يأبى ذلك • ولما زوج بغا بنته من صالح بن وصيف ، وقد اصبح هذا من كبار قادة الاتراك ، ازداد بغا قوة ونفوذاً ، فطغى وتفرد بالأمور (٦٥) • فاخذ المعتز بالله يرهب جانبه بحيث « كان لا ينام في غيبة بغا الا في ثيابه وعليه السلاح » (٦٦) وقال « لا ازال على هذه الحالة حتى اعلم لبغا رأسي او رأسه لي » (٦٧) •

ويبدو ان الخلاف اشتد بين الخليفة وبغا ، لاسيما وان المعتز بالله قد استطاع ان يكسب ولاء بعض القواد الاتراك • ولما بلغه ان بغا عزم على الوثوب به دبر على قتله ، فلما بلغ ذلك بغا هرب(٦٨) • وحاول ان يتظاهر بالخروج من سامرا لكي يباغت المعتز بالله واعوانه • فخرج في غلمانه وقواده الى السن ثم عاد بمفرده ليلا متخفيا ليجتمع الى صالح بن وصيف ليدبرا الوثوب بالخليفة • الا انه وقع بيد الحراس ، ولما اعلموا المعتز بالله بالقبض عليه ، أمر بقتله • فقتل وحمل رأسه اليه ، فنصب بسامرا وبغداد (٦٩) • ويقول الطبري ان المعتز بالله وهب قاتله عشرة الاف دينار وخلع عليه خلعة (٧٠) • مما يدل على اغتباطه بالتخلص منه •

---

(٦٥) كتاب دول الاسلام ٢/١١١ •
(٦٦) الكامل ٧/١٨٧ •
(٦٧) مروج الذهب ٤/١٧٧ •
(٦٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٣ •
(٦٩) الطبري ٩/٣٨٠ ، والكامل ٧/١٨٧ ، والمروج ٤/١٧٧ •
(٧٠) الطبري ٩/٣٨١ •

سيطرة صالح بن وصيف :

انتهت زعامة الجند الأتراك بعد مقتل وصيف وبغا الى القائد صالح بن وصيف • فصار الشخص الاول بعد الخليفة ، تخرج الكتب باسمه ، ويتولى تعيين الوزراء والولاة والكتاب • وعندما ساء الوضع المالي ولم يعد في بيت المال ما يكفي لدفع ارزاق الجند التي اخذت تتأخر كثيراً عن مواعيدها ، عمد صالح بن وصيف الى مصادرة الكتاب للحصول على الأموال • فأخذ احمد بن اسرائيل كاتب الخليفة ووزيره ، والحسن بن مخلد كاتب ام الخليفة ، وابا نوح عيسى بن ابراهيم ، فقيدهم وطالبهم باخراج ما يملكونه من الاموال • وقال للخليفة مبرراً فعلته هذه « ليس للاتراك عطاء ، ولا في بيت المال مال ، وقد ذهب ابن اسرائيل واصحابه باموال الدنيا » (٧١) • وضرب ابن اسرائيل حتى كسرت اسنانه ، وضرب ابن مخلد مائة سوط ، وكان عيسى بن ابراهيم محتجما فلم يزل يصفع حتى سالت الدماء من محاجمه ، ولم يتركوا حتى اخذت رقاعهم بمال جليل قسط عليهم(٧٢) •

لقد حاول المعتز بالله ان يعتمد على قوة تساعده في مناهضة صالح ومؤيديه من الاتراك ، فاصطنع المغاربة والفراغنة من الجيش • الا ان نتيجة سياسته هذه ان الاتراك وحدوا صفوفهم ، وقد رأوا الخليفة يعمل على اضعاف شأنهم • فعمد قوادهم وعلى رأسهم صالح بن وصيف الى تحريض الجند ودفعهم الى مطالبة الخليفة بارزاقهم التي كان عاجزاً عن دفعها لفراغ بيت المال نتيجة سوء الادارة واهمال الشؤون الزراعية وتكاليف الحرب

---

(٧١) الطبري ٩/٣٨٧ •

(٧٢) نفس المصدر •

الأهلية التي قامت بين سامرا وبغداد(٧٣) • ويقول الطبري ان حاجة الجند الأتراك دفعتهم الى ان يطلبوا الى الخليفة ان يعطيهم خمسين الف دينار على ان يقتلوا صالحا • فارسل المعتز بالله الى امه يعلمها باضطراب الاتراك ، وشغبهم عليه ، وخوفه على نفسه منهم ، ويطلب مساعدتها من المال • فارسلت اليه ان ليس عندها مال ولينتظروا حتى تقبض وتعطيهم • علما انها كانت معها اموال لا تحصى ، وقد قوموا جواهرها بالفي الف دينار (٧٤) • فقد كانت بخيلة وقد جمعت اموالا طائلة وكانت تخفيها عن ابنها • وقد وقع صالح على خزائن لها فيها اموال كثيرة من اللؤلؤ والياقوت وغير ذلك بحيث ظلت تلك الخزائن تباع في سامرا وبغداد عدة شهور حتى نفذت (٧٥) • ويقول السيوطي انها كانت اختفت اثر مقتل ابنها ، ولما ظهرت اعطت صالح بن وصيف قاتل ابنها مالا عظيما ، من ذلك الف الف دينار ، وسفط زمرد وآخر لؤلؤ • فلما رأى صالح تلك الأموال قال : قبحها الله عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين الف دينار وعندها هذا (٧٦) •

خلع المعتز بالله من الخلافة :

عندما رأى القواد الاتراك انهم لم يحصل لهم شيء من المال من المعتز بالله اتفقت كلمتهم على خلعه والتخلص منه • فساروا اليه ، ودخلوا عليه وطلبوا اليه ان يخرج اليهم ، فاحتج بالمرض

---

(٧٣) الطبري ٩/٣٩٤_٣٩٥ •
(٧٤) كتاب دول الاسلام ٢/١١٢ •
(٧٥) الطبرى ٩/٣٩٤ _ ٣٩٥ •
(٧٦) تاريخ الخلفاء / ٣٦٠ •

الا ان بعضهم اقتحموا عليه الغرفة وجـــروا برجلـه وضـربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه . واقاموه في الشمس فكان يرفع رجلا ويضع اخرى من شدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه (٧٧) . ثم امروه ان يخلع نفسه من الخلافة طالما عجز عن تدبير المال لهم . واحضروا القاضي ابن ابي الشوارب ، وكتبوا كتاب خلعه ، فأقر المعتز بالله مكرها بما جاء في كتاب الخلـع (٧٨) . وشـهد عليـه الحاضرون ، كما شهدوا على صالح بن وصيف بان للمعتز بالله وامه وولده واخته الأمان (٧٩) . وكان ذلك في يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥هـ(٨٠) . وكان نص كتاب الخلـع كمـا يأتي (٨١) :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب ، شهدوا ان ابا عبدالله بن امير المؤمنين المتوكل على الله أقر عندهم ، واشهدهم على نفسه في صحة من عقله ، وجـواز من امره ، طائعا غير مكره ، انه نظر فيما كان تقلده من امــر الخلافة والقيام بامور المسلمين ، فرآى انه لا يصلـح لذلـك ، ولا يكمل له ، وانه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ، فاخرج نفسه ، وتبرأ منها ، وخلعها من رقبته ، وخلع نفسه منها ، وبرأ كل من كانت له في عنقه بيعة من جميع اوليائه وسائر الناس ممن كان له في رقابهم من البيعة والعهود والمواثيق والايمان بالطلاق والعتاق والصدقة والحج وسائر الأيمان ، وحللهم

---

(٧٧) الطبري ٣٨٩/٩ ، والكامل ١٩١/٧ ، والفخري / ٢٢١ .
(٧٨) العبر ٩/٢ .
(٧٩) الطبري ٣٩٠/٩ .
(٨٠) الطبري ٣٨٩/٩ .
(٨١) نفس المصدر / ٣٩١-٣٩٢ .

من جميع ذلك ، وجعلهم فى سعة منه فى الدنيا والآخرة ، بعد ان تبين له ان الصلاح له وللمسلمين في خروجه عن الخلافة والتبرؤ منها ، واشهد على نفسه بجميع ما سمى ووصف في هذا الكتاب جميع الشهود المسمين فيه وجميع من حضر ، بعد ان قرىء عليه حرفاً حرفاً ، فأقر بفهمه ومعرفته جميع ما فيه طائعا عن مكره ، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥هـ » ٠

ووقع المعتز في ذلك : أقر ابو عبدالله بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه ٠ وكتب الشهود شهاداتهم ٠

ثم حبس المعتز بالله ، وكان القواد الاتراك قد اوعزوا بقتله وقد ذكرنا تفصيل ذلك في سيرته ٠

٦ ـ المهتدي بالله ومحاولة اضعاف سلطة الاتراك :

الخلاف بين المهتدى بالله وموسى بن بغا :

كان موسى بن بغا الكبير على رأس جيش في محاربة الحسن بن زيد العلوي في بلاد الري ٠ فاستنجدت به ام المعتز بالله لما ضايق القواد الاتراك ابنها ، فلم يتمكن آنذاك من الشخوص الى سامرا ٠ ولكن بعد ان بلغه نبأ مقتل الخليفة صعب عليه ذلك فقرر العودة بجيشه الى سامرا للانتقام من قاتله صالح بن وصيف واصحابه ٠ وكان الجند الذين مع موسى بلغهم ما اخذه صالح وجنده من اموال الكتاب واسلاب المعتز بالله واموال امه ، فحسدوا المقيمين بسامرا من الجند ودعوا موسى الى الشخوص بهم الى سامرا ٠

ولما بلغ المهتدى بالله خبر توجه موسى نحو سامرا انكر ذلك عليه وكتب اليه بالمقام في موضعه للحاجة الماسة اليه في القضاء

على الخارجين على الدولة في تلك النواحي . وكان صالح بن وصيف بدافع خوفه من انتقام موسى منه ومحاسبته على الاموال التي حازها ، يعظم على الخليفة قدومه وينسبه الى المعصية والخلاف . الا ان موسى ابى الاذعان لأمر الخليفة وسار بجيشه قدماً حتى وصل سامرا . ورأى صالح بن وصيف ، وهو المسيطر على شؤون الخلافة ، في عودة موسى وجيشه خطراً عليه ، وعجب من قدومه رغم ممانعة الخليفة ، مما جعله يعتقد ان الخليفة هو الذي طلب اليه سراً ان يقدم الى سامرا لكي يباغت اتباعه ، فانفض عن المهتدى بالله .

وعندما جاء موسى الى دار الخلافة كان المهتدى بالله قد جلس للمظالم فلم يأذن له ولمن معه الا بعد ان فرغ من المجلس ، فدخلوا عليه . وكانوا رأوا في تأخير الخليفة الأذن لهم بالدخول مطاولة منه حتى يكبسهم صالح بن وصيف واتباعه . فخافوا من ذلك ، فأخذوا المهتدى بالله من مجلسه وحملوه معهم الى دار ياجور احد كبار قواد الاتراك . وبعد مناظرة الخليفة اخذ موسى وجماعته عليه « العهود والمواثيق ان لا يمايل صالحاً عليهم ، ولا يضمر لهم الا مثل ما يظهر ، ففعل ذلك ، فجددوا له البيعة »(٨٢) وردوه الى الجوسق .

علم صالح بما تم بين الخليفة وموسى واتباعه ، وانهم ينقمون عليه قتله المعتز بالله والكتاب واخذه اموالهم ، فاختفى خوفاً على حياته . فخاف موسى ان يعمل صالح عند اختفائه على الوثوب به ، فبث العيون والارصاد في طلبه . فوصل الى الخليفة كتاب من صالح ، فدعا بسليمان بن وهب ليقرأه بحضور جماعة من قواد

---

(٨٢) الطبري ٩/٤٣٩ .

الاتراك فيهم موسى بن بغا ومفلح وبايكباك وياجور . وذكر صالح في كتابه انه مستخف بسامرا وقد استتر متخيراً للسلامة وابقاء على الموالي ، وخوفا من ايصال الفتن بحرب ان حدثت بينهم ، وبين ما صار اليه من اموال الكتاب ومن وصل اليه ذلك المال وتولى تفريقه ، ثم ذكر اشياء يعتذر ببعضها ويحتج بالبعض الآخر (٨٣) .

وتكلم المهتدى بالله يحض الحاضرين على المهادنة والصلح والألفة ، ويكره اليهم الفرقة والتباغض . مما جعل موسى واتباعه يتهمونه بالميل الى صالح وانه يقدمه عليهم ، وانه يعلم بمكان اختفائه فخرجوا منه وصاروا مع موسى الى داره في داخل الجوسق وتناظروا فيما بينهم ، وذكر بعض من كان حاضرا ان القوم اجمعوا على خلع المهتدى بالله (٨٤) .

ولما اتصل الخبر بالمهتدى بالله خرج الى مجلسه متقلدا سيفا ثم امر بادخالهم اليه ، فقال لهم « انه قد بلغني ما انتم عليه من امري ، ولست كمن تقدمني مثل احمد بن محمد المستعين ولامثل ابن قبيحة ... وهذا سيفي ، والله لاضربن به ما استمسك قائمه بيدي .. أما دين ، أما حياء ، أما رعة ؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء ، والاقدام والجرأة على الله ... هل تعلمون انه وصل الي من دنياكم هذه شيء؟ اما انك يا بايكباك ان بعض المتصلين بك ايسر من جماعة اخوتي وولدي .. ثم تقولون انني أعلم علم صالح ، وهل صالح الا رجل من الموالي وكواحد منكم فكيف الاقامة معه اذا ساء رأيكم فيه ؟ فان آثرتم الصلح كان ذلك ما

---

(٨٣) نفس المصدر / ٤٤١ .

(٨٤) نفس المصدر / ٤٤٢ ، والكامل ٧/٢١٩ .

اهوى لجمعكم ، وان ابيتم الا الاقامة على ما انتم عليه فشأنكم ، فاطلبوا صالحا ثم ابلغوا شقاء انفسكم ، واما انا فما اعلم علمه »(٨٥) ·

ان خطاب المهتدى بالله خطاب رجل ضعيف يتوسل ، وليس خطاب رئيس دولة حازم يرهب من يحيد عن طريق الصواب ، ويهدد بمحاسبة من يسيء الى الخلافة · وهو يترك المشاكل القائمة ، وبخاصة امر صالح بن وصيف ، اليهم ليتخذوا ما يرونه بشأنه · بينما كان من الضروري ان يشعرهم بانه سيتولى ذلك بنفسه ويحاسب كل مقصر او مسيء · ولاشك في انه بخطابه هذا اطمعهم بنفسه وجرأهم عليه ، لما لمسوا من ضعفه وفقدانه الحزم ·

وذكر ان المهتدى بالله قال لبايكباك ولابي نصر محمد بن بغا : قد حضرتما ما عمله صالح في اموال الكتاب وام المعتز فان اخذ من ذلك شيئاً فقد اخذتما مثله ، فاحفظهما ذلك (٨٦) ·

وقد قيل ان القوم من لدن قدوم موسى بن بغا الى سامرا للثأر لمقتل المعتز بالله ، كانوا يضمرون خلع المهتدى بالله ، وانما كان يمنعهم من ذلك قلة الأموال لديهم لدفع ارزاق الجند وكسب رضاهم · فلما استحوذوا على المال الوارد من الأهواز في المحرم سنة ٢٥٦هـ ومقداره سبعة عشر الف الف وخمسمائة الف درهم ، تحركوا للعمل على تحقيق نواياهم (٨٧) ·

---

(٨٥) الطبري ٩/٤٤٢-٤٤٣ ·
(٨٦) نفس المصدر / ٤٤٣ والكامل ٧/٢٢١ ·
(٨٧) نفس المصدرين ، وجاء في الكامل ان مبلغ المال عشرة الاف الف وخمسمائة الف درهم ·

ومما زاد في قوة مركز موسى بن بغا انه تخلص من صالح بن وصيف . اذ عثر عليه غلام صدفة في احد الدور في اوائل صفر ، فاستعان بعيار يعرفه ، فجمع هذا آخرين معه وهجموا على الدار واخرجوا صالحا وذهبوا به الى دار موسى . فاخذه بعض القواد الى الجوسق ، الا انهم قتلوه في الطريق واحتزوا رأسه وصاروا به الى المهتدى بالله ، فأمرهم ان يواروه . الا انهم حملوه على قناة وطافوا به ينادون عليه : هذا جزاء من قتل مولاه ، ثم نصبوه بباب العامة (٨٨) . وهناك من يقول انه رأى انه حمي له حمام وادخل اليه فمات فيه (٨٩) .

تنكر المهتدى بالله للقواد الاتراك :

ضاق المهتدى بالله ذرعا بتسلط القواد الاتراك وبخاصة ستحواذهم على الأموال التي ترد من الولايات الى بيت المال متجاهلين جهود الخليفة في تقويم الوضع المالي . فحاول ان يستفيد من نقمة الجند على قوادهم ، وان يعمل على ايقاع الخلاف بين القواد انفسهم . وكان قد وجه في مستهل جمادى الاولى موسى بن بغا وبايكباك الى حرب مساور الشاري ، فكتب بعد ان حبس ابا نصر محمد بن بغا الى موسى يأمره بتسليم قيادة جيشه الى بايكباك والقدوم الى سامرا . وكتب بنفس الوقت الى بايكباك يستميله بتسلم قيادة الجيش والقيام بقتال الشاري ، وان يقتل موسى ومفلحا او يحملهما اليه مقيدين . الا ان بايكباك اطلع موسى على كتاب الخليفة ، وقال له : هذا تدبير علينا جميعا ، فاذا فعل بك

---

(٨٨) الطبري ٩/٤٥٣-٤٥٥ ، والكامل ٧/٢٢٥ .

(٨٩) مروج الذهب ٤/١٨٥ .

اليوم شيء فعل بي غداً مثله • واتفقا على ان يتظاهر بايكباك بمولاة الخليفة ، ومن ثم يدبران امر قتله (٩٠) •

وقد اخبر بعض الاتراك المهتدى بالله بان بايكباك قد اتفق مع موسى على الفتك به في الجوسق • فلما دخل بايكباك مع بعض قواده على المهتدى بالله امر بحبسه وصرف الباقين ، ثم امر بضرب عنقه • ولما احتج اتباعه على حبس قائدهم وتجمعوا لمهاجمة الدار واطلاق سراحه ، رمى الخليفة برأسه اليهم ، مما اثار غضبهم وزاد في ثورتهم عليه (٩١) • وقد حاول المهتدى بالله بعمله هذا ان يتخذ موقف ابي جعفر المنصور من ابي مسلم الخراساني ، متصورا ان ذلك سيفل قوة الاتراك ويضعف سلطانهم • الا انه لم تكن له منعة المنصور وقوته • ولذا فقد اعتبر قواد الاتراك هذا غدراً بهم ، وانهم لذلك اصبحوا في حل من بيعته • والواقع ان محاولة المهتدى بالله الايقاع بين موسى وبايكباك لم تكن محكمة لأنه كاشف كلا منهما بنيته تجاه زميله دون ان يتوثق من ولائه واخلاصه ، مما انعكس عليه بنتيجة سيئة • اذ صارت محاولته دافعا لجمع كلمتهم وتوحيد قواهم لمقاومته • كما كان قبضه على ابي نصر محمد بن بغا بعد ان كتب اليه بالأمان على نفسه ومن معه ومن ثم امره بقتله (٩٢) ، قد اثار مزيداً من سخط الاتراك وغضبهم عليه •

محاولته الاعتماد على الجند والعامة :

لما انتشر الخبر بين العامة ان القواد الاتراك على وشك ان يخلعوا المهتدى بالله ويفتكوا به ، كتبوا الرقاع انتصارا له

---

(٩٠) الطبري ٩/٤٥٦-٤٥٧ •

(٩١) نفس المصدر / ٤٥٩ •

(٩٢) نفس المصدر / ٤٦٠ •

والقوها في المساجد والطرقات • وذكر انها كانت كالآتي « بسم الله الرحمن الرحيم : يا معشر المسلمين ، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضى المضاهي لعمر بن الخطاب ان ينصره على عدوه ويكفيه مؤونة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فان الموالى قد اخذوه بان يخلع نفسه وهو يعذب منذ ايام ، والمدبر لذلك احمد بن محمد بن ثوابة والحسن بن مخلد • رحم الله من اخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم» •

وكان المهتدى بالله من جانبه يؤلب الجند والعامة ضد القواد الاتراك • فقد جاء بالفراغنة والاشروسنية والطيرية والديالمة وغيرهم . فسألهم النصرة على موسى ومفلح ، وقال : « قد اخذوا الاموال واستأثروا بالفيء ، وانا اخاف ان يقتلوني • وان نصرتموني اعطيتكم جميع ما فاتكم وزدتكم ارزاقكم • فاجابوه الى نصره والخلاف على موسى واصحابه • كما اخذ المهتدى بالله يركب في بني هاشم ويدور في الاسواق ، ويسأل الناس النصرة على الفساق قتلة الخلفاء(٩٥) •

لقد اخافت دعوة العامة برقاعهم لنصرة الخليفة قسما من الجند فارسلوا الى الخليفة انهم مستعدون للموت دونه اذا ما استمع الى شكاواهم وازال اسبابها • وتقدموا اليه بمطاليب معينة يتعلق قسم منها بالامور العامة ، ويخص القسم الآخر شؤونهم المسلكية وتنظيم امورهم • واهم هذه الطلبات (٩٦) :

١ ـ ان ترد الامور الى امير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض •

(٩٣) نفس المصدر / ٤٤٤ •
(٩٤) الطبري ٤٦٨/٩ •
(٩٥) نفس المصدر ٤٦٩ •
(٩٦) نفس المصدر / ٤٤٦ ـ ٤٤٧ •

٢ ـ ان ترد رسومهم الى ما كانت عليه ايام المستعين بالله ، وهو ان يكون على كل تسعة منهم عريف ، وعلى كل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد .

٣ ـ ان يدفع لهم العطاء في كل شهرين .

٤ ـ ان تبطل الاقطاعات .

٥ ـ أن يصير امير المؤمنين الجيش الى احد اخوته او غيرهم ممن يرى ، على ان لا يكون من الموالي .

٦ ـ ان يأمر الخليفة بمحاسبة صالح بن وصيف وموسى بن بغا على ما عندهما من الأموال .

وقالوا انهم لا يرضيهم دون ما سألوا ، مع تعجيل ارزاقهم المتأخرة . فأجابهم الخليفة بسروره من طاعتهم له وتأييدهم اياه ، وانه موافق على جميع ما سألوه وسيعمل على تنفيذه ، ويزيل ما يشتكون منه .

الا ان عدم توفر المال اللازم في بيت المال حال دون تلبية تعجيل عطائهم ، وهو أهم طلباتهم ولاشك . كما انه لم يتخذ أي اجراء لأبطال الاقطاعات الممنوحة للقواد ، ولم يبادر الى اعادة رسوم الجيش وتنظيمه بالشكل الذي كان عليه ايام المستعين بالله . كما انه لم يقرر محاسبة القائدين الكبيرين اللذين طلبوا محاسبتهما . فكان ذلك مما افقدهم الثقة بالخليفة ، لاسيما وانه كان يتظاهر بالتودد للقواد الاتراك ويحاول ترضيتهم .

وكان القواد بنفس الوقت يعملون على ترضية الجند . فاعلنوا موافقتهم على طلباتهم التي تقدموا بها الى الخليفة ، وتأييد

---

(٩٧) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩ .

اخلاصهم له ، وانهم لا يريدون به سوء ، كما سارعوا الى دفع ارزاقهم المتأخرة • وبذا اصبحت الظروف مهيئة لان يفرض الخليفة سلطته على الاتراك وقوادهم ، الا ان موقفه المتسم بالحيرة والتردد • وتظاهر بالتودد للقواد مع انه يبطن الشر لهم ، وعدم مبادرته الى اي عطف او استجابة لطلبات الجند ، افقده ثقة الطرفين •

نهاية المهتدى بالله :

عندما استشعر المهتدى بالله شرا من جموع الاتراك ، خرج فعسكر بجسر سامرا في جمع من الجند الموالين له من الفراغنة والمغاربة وبعض الأتراك فأصطدم الطرفان ووقع بينهما كثير من القتلى • وانضم الجنود الاتراك الذين اعلنوا ولاءهم للخليفة الى جماعتهم ، وانهزم بقية جنده ومؤيدوه ، وتركوا الخليفة يواجه مصيره مع عدد قليل من اتباعه • فجرح واضطر الى الهرب • فخرج الى باب العامة وهو يستغيث طالبا النجدة ، فلم يجبه احد من عامة الناس • فصار الى باب السجن فاطلق من فيه وهو يظن انهم يعينونه ، فلم يكن منهم الا الهرب ، فصار الى دار صاحب الشرطة • الا ان الاتراك دخلوا خلفه واخرجوه الى الجوسق وحبسوه عند القائد احمد بن خاقان •

ثم اجتمع القواد الأتراك وقرروا خلعه من الخلافة ، ومالبثوا ان قتلوه بحجة عدم موافقته على التنازل عن الخلافة • وقد اوضحنا ذلك مفصلا عند الكلام عن خلعه ومقتله •

٧ ـ انحسار نفوذ القواد الاتراك :

بعد ان تم للقواد الاتراك بزعامة القـائد موسى بن بغـا ، التغلب على الخليفة المهتدى بالله وقتله ، انتخبوا للخلافة احمد بن جعفر المتوكل على الله ، ولقب بالمعتمد على الله ، وقد ورث الخليفة الجديد تركة ثقيلة من المشاكل ٠ فقد كان الوضع المالي للدولة سيئاً جدا بحيث كان الخليفة عاجزا عن دفع ارزاق الجند ٠ وذلك لاستغلال امراء الولايات وعمالها ضعف الخلافة واستئثارهم باموال الخراج ولم يوجهوا شيئاً منها الى بيت المال ٠ كما كانت ثورة الزنج قد استفحلت واصبحت تهدد الخلافة وكيـان الدولة العربيـة ووجودها ٠ يضاف الى ذلك اطماع امـراء الولايـات المستقلة ومحاولاتهم في توسيع اماراتهم على حساب الدولة ٠ هـذا الى جانب المشكلة المزمنة وهي سطوة القواد الاتراك وعبثهم بشؤون الخلافة والدولة ٠ وكانت هذه المشاكل مما ينوء المعتمـد بالله بحملها وبعجزه عن التغلب عليها ، لولا ان قدر بان يكون اخوه الموفق طلحة الى جانبه ٠ وقد سبق ان اشرنا الى ما كان يتمتع به الموفق من صفات قيادية واهمها الحزم والشجاعة ، ممـا اهلـه للسيطرة على شؤون الخلافة بحيث لم يترك لأخيه منهـا سـوى الاسـم ٠

وكان المعتمد على الله عند توليه الخلافة اناط بأخيه الموفق رئاسة الجيش ٠ ويبدو ان ذلك كان تنفيذا لطلب الجند من سلفه المهتدى بالله أبن يصير رئاسة الجند الى احد اخوته ، او غيرهم ممن يراه من القواد على ان لا يكون من الاتراك ٠ وبذلك اطمأن الخليفة الى ولاء الجيش ، وأمن شر الاحتكاك بقواده الاتراك ٠ وقد استطاع الموفق ان يستفيد من الظروف المحيطة بالخلافة في ان

يوقف تدخل هؤلاء القواد بشؤون الدولة وفرض رغباتهم على الخليفة . واهم ما ساعده في ذلك اضافة الى كفايته السياسية وقوة شخصيته عاملان ، اولهما النزاع الذي كان قد قام بين القواد انفسهم منذ عهد المستعين بالله حتى تولى المعتمد على الله ، مما اضعف من قوتهم وقلل من شأنهم . وثانيهما الحروب القائمة التي استطاع الموفق ان يوجههم اليها ويشغلهم بها . وبذلك تسنى للموفق ان يعيد للخلافة هيبتها ، وللدولة سلطانها ونفوذها .

وكما من الاخطار المهمة التي هددت الخلافة في سامرا ، اضافة الى استفحال ثورة الزنج ، ان يعقوب بن الليث الصفار قدم بجيشه يطرق ابواب عاصمة الخلافة ، لانه رغم ما كان يتظاهر به من ولاء وطاعة للخليفة ، لم يكن قانعا بما وليه من الاقاليم والولايات ، لأن ذلك لا يزال دون هدفه في ازالة دولة العرب . فعزم على محاربة الخليفة ليتم له الاستيلاء على الدولة العربية كلها مدعيا « بانه لم يجيء الا لخدمة الخليفة والتشرف بالمثول بين يديه والنظر اليه وان يموت في ركابه » (٩٧) . الا ان الخليفة واخاه الموفق ادركا ما كان يخفيه من النوايا الخبيثة تجاه الدولة العربية ، خلف هذا القناع من المسكنة والتذلل . فخرج اليه الخليفة بنفسه بجيش اشترك فيه اغلب القواد وعلى رأسهم الموفق . وسرعان ما دارت الدائرة على الصفار وجيشه فهزم شر هزيمة ، وعاد خائبا وقد تحطمت احلامه . واعادت الدولة سيطرتها على ما سبق ان استولى عليه من الاقاليم عنوة .

كما ان الامير احمد بن طولون الذي كان نازع الخلافة وارسل جيوشه لمحاربتها ردحا من الزمن ، قد انتهى نزاعه بالخضوع لسيادة الخلافة في سامرا . وهكذا كانت الحروب التي

دامت اكثر ايام المعتمد على الله اهم عامل في تدعيم سلطة الموفق ، بحيث انه انتزع من القواد الاتراك ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وسلطان على الخلافة ، وجعلهم ينصرفون الى داء واجباتهم العسكرية حسب • وبذلك مهد للخليفة القادم وهو ابنه احمد الملقب بالمعتضد بالله ، ان يتفرغ لاعادة بناء الدولة العربية وتقوية شأن الخلافة ، بحيث سمي المنصور الثاني •

الباب الخامس

العلويون وخلفاء سامرا

1 ـ خلفاء سامرا والعلويون

2 ـ خروج العلويين في عهد سامرا

البـاب الخامس

العلويون وخلفاء سامرا

الفصـل الأول

خلفاء سامرا والعلويون

كانت علاقة العلويين تتسم بالخلاف والتوتر مع خلفاء بنـي العباس ، ولم يدخروا وسعا في الخروج كلما سنحت لهم الفرصة . الا ان الخليفة المأمون حاول ان يتقرب اليهـم ويحسن معاملتهـم ليكسب ولاءهم . وقد زوج بنته من الامام الرضا وعهـد اليـه بالخلافة من بعده ، كما زوج بنته الثانية من الامام محمد الجواد . وعندما اوصى لأخيه ابى اسحاق اكد عليـه بـأن يرعى العلويين ويحسن معاملتهم . ولما تولى المعتصم بالله الخلافـة انتهـج سياسة اخيه المأمون في التسامح مع العلويين التزاما بوصيته اليه ، وقد جاء فيها « وهؤلاء بنوعمك من ولد امير المؤمنـين علـي بن ابي طالب رضى الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسـيئهم ، واقبل من محسنهم ، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى » (١) . ولكـي يدلـل المعتصم

(١) الطبري ٨/ ٦٥٠ ، والكامل ٦/ ٤٣١ .

بالله على رعايته العلويين واهتمامه بشؤونهم استدعى الامام محمد الجواد في سنة ٢٢٠هـ من المدينة المنورة ليقيم الى جانبه في سامرا ۰ فجاء ومعه امرأته ام الفضل بنت المأمون ۰ ولا يخفى ان استدعاءه كان حذرا من ان يلتف الناس حوله ۰ وليكون تحت انظار الخليفة ۰ الا انه ما لبث ان توفى في اواخر السنة المذكورة ۰ وهناك من يقول انه مات مسموما (٢) ۰ فأمر المعتصم بالله بأن تحمل زوجة الامام الى قصره لتعيش مع حرمه(٣) ۰ ولما خرج محمد بن القاسم في عهده ، اكتفى المعتصم بالله بسجنه ۰

وسار الواثق بالله على نهج ابيه وعمه في اتباع سياسة التسامح واللين مع العلويين ۰ فاشتمل عليهم ، وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم ، والتعهد لهم بالاموال ، بحيث انه لما توفي كان بعض نساء اهل المدينة يخرجن كل ليلة الى البقيع فيبكين عليه ويندبنه حزنا عليه ، لما كان يكثر من الاحسان اليهم (٤) ۰ يقول ابو الفرج « وكان آل ابي طالب مجتمعين بسر من رأى في ايامه تدور الارزاق عليهم » (٥) ويقول ابن الطقطقي « ولما ولى الخلافة احسن الى بني عمه الطالبيين وبرهم » (٦) ۰ ويقول القاضي يحيى بن اكثم « ما احسن احد الى آل ابي طالب ما احسن اليهم الواثق ، ما مات وفيهم فقير » (٧) ۰ وقد اثمرت سياسة الواثق بالله القائمة على

---

(٢) مروج الذهب ٤/٥٢ ، والكامل ٦/٤٥٥ ۰
(٣) تاريخ بغداد ٣/٥٤ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٥ ۰
(٤) الكامل ٧/٣١ ۰
(٥) مقاتل الطالبيين / ٥٩٣ ۰
(٦) الفخري / ٢٥١ ۰
(٧) تاريخ بغداد ١٤/١٩ ۰

التسامح واللين تجاه العلويين وتعهده اياهم ، اذ لم يخرج عليه احد منهم طيلة خلافته .

اما المتوكل على الله فقد كان شديدا في معاملة العلويين ، مما جعل عهده ثقيل الوطأة عليهم ، على ان اسباب بغض المتوكل على الله للعلويين غير واضحة ، الا انها يمكن ان تعزى الى ما كان يغيظه ما يراه من ولاء اتباع العلويين لأئمتهم واخلاصهم لهم وتقديسهم اياهم . فقد امر بهدم قبر الامام الحسين بن علي بن ابي طالب ، وهدم ما حوله من المنازل ، وان يحرث موضع القبر ويبذر ، وان يمنع الناس من اتيانه . فامتنع الناس من المصير اليه (١٠) .

وكان اكثر منادمي المتوكل على الله ممن اشتهروا ببغض العلويين ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي ، وابو السمط من ولد مروان ابي حفصة من موالي بني امية ، وعمر بن فرج الرخجي . وكانوا يخوفونه منهم ويشيرون عليه بالاعراض عنهم والأساءة اليهم (١١) . واحسبهم انهم كانوا يتملقونه بذلك ويستدرون عطاياه . ويقول ابو الفرج « ان عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزيره كان يسيء الرأي فيهم ، فحسن له القبيح في معاملتهم » (١٢) .

وبلغ مسامع المتوكل على الله ان احد زعماء العلويين ، وهو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي

---

(٨) مقاتل الطالبيين / ٥٩٧ .
(٩) الكامل ٥٦/٧ .
(١٠) الطبري ١٨٥/٩ ، ومروج الذهب ١٣٥/٤ ، والكامل ٥٥/٧ .
(١١) الكامل ٥٦/٧ .
(١٢) مقاتل الطالبين / ٥٩٧ .

طالب ، قد جمع جمعا ببعض النواحي ، فأمر بالقبض عليه ، فاخذ وضرب وحبس في سجن المطبق ببغداد (١٣) ٠

كان امام العلويين في عهد المتوكل على الله علي بن محمد الجواد الملقب بالنقي وبالهادي ، يقيم في المدينة المنورة ، وقد عرف بالزهد والتقوى والانصراف الى العلم ، الا ان وشايات عنه وصلت الى المتوكل على الله فأمر باشخاصه الى سامرا ليكون تحت رقابته المباشرة ٠ فبعث به والى مكة ابو العباس عبدالله بن محمد ابن داود مع يحيى بن هرثمة حتى صار الى بغداد ٠ ولما وصلا قريبا منها ركب اسحاق بن ابراهيم المصعبي لتلقيه ، ولما رأى تشوق الناس اليه واجتماعهم لرؤيته ، انتظر حلول الليل فدخل به بغداد ، ثم وجه به في اليوم التالي الى سامرا (١٤) ٠ ومما ذكره يحيى بن هرثمة عن الامام انه قال : وفي احد ايام السفر ، والسماء صاحية ركب وعليه ممطره وقد عقد ذنب دابته ، فعجبت من فعله ، فلم يكن بعد ذلك الا هنيهة حتى جاءت سحابة ونالنا من المطر امر عظيم ٠ فالتفتت الي وقال : انا اعلم انك انكرت ما ما رأيت وتوهمت اني اعلم من الأمر ما لا تعلمه ، ليس ذلك كما ظننت ولكن نشأت بالبادية فانا اعرف الرياح التي يكون عقيبها المطر ، فلما اصبحت هبت ريح شممت منها رائحة المطر فتأهبت لذلك (١٥) ٠

ويظهر ان المتوكل على الله ابقاه في سامرا ، الا انه كان يتمتع بحرية كبيرة فيلقى اصحابه ، ويحضر مجالس الخليفة ٠ ولكن ما

---

(١٣) الطبري ٩/١٨٢ ، والكامل ٧/٥٣ ، وجاء سمه فيه يحيى بن اعمر بن يحيى ٠

(١٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤ ٠

(١٥) عمدة الشيعة / ٢١٧ عن الكافي للكليني / ٢٠٦ ٠

لبث ان وشى به بعضهم الى المتوكل على الله بان في بيته سلاحا وكتباً من شيعته ، وانه يطلب الأمر لنفسه • فوجه اليه من الجند الاتراك من داهم منزله ليلا على غفلة من اهله ، فوجده وحيدا جالسا على الأرض في غرفة مغلقة ، وعليه مدرعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة يرتل آيات من القرآن الكريم • فحمل الى الخليفة في جوف الليل ، فمثل بين يديه وهو في مجلس شراب • وقال من اتى به انه لم يجد في منزله شيئاً مما قيل عنه • فأعظمه المتوكل على الله واجلسه الى جانبه ، وناوله الكأس التي كانت في يده ، فاعتذر بأنه لم يذقه • فطلب اليه ان ينشده مما يحفظ من الشعر ، فأعتذر بأنه قليل الرواية للشعر • فالح عليه المتوكل على الله فأنشده (١٦) :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم
غلب الرجال فما اغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز من معاقلهم
فاودعوا حفرا ، يابئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعدما قبروا
أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمة
من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر حين ساء لهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

---

(١٦) مروج الذهب ٤/٩٣-٩٤ ، ووفيات الاعيان ٢/٤٣٤ - ٤٣٥ •

قد طالما اكلوا دهـــرا وما شربوا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وطالمـــا عمروا دورا لتحصنهم

ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كثروا الاموال وادخـــروا

فخلفوها على الأعـــداء وارتحلوا

أضحت منازلهم قفـــرا معطلـــة

وساكنوها الى الأجداث قد رحلوا

فتأثر الخليفة وبكى حتى بلت دموعـــــه لحيتـــه ، وبكـــــى الحاضرون ، فأمر برفع الشراب • ثم قال له : يا ابـــا الحســـن أعليك دين ؟ قال : نعم ، اربعة الاف دينار • فأمر بدفعها اليه ورده الى منزله مكرماً •

لبث الامام علي الهادي في سامرا طيلة حكم المتوكل على الله ، وابنه المنتصر بالله ، والمستعين بالله بعده ، حتى توفى فـــي ايـــام المعتز بالله لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٥٤هـ (١٧) ، ودفن بداره بسامرا •

الملحـق :

الامام علي الهادي :

والأمام علي الهادي هو ابن الامام محمد الجواد ويعرف بابي الحسن العسكري وانما قيل له العسكري لأنه لما كثرت السعاية به عند المتوكل على الله احضره من المدينة المنورة وأقره بسر من رأى وكانت تدعى العسكر ايضا فاقام بها عشرين سنة فنسب اليها(١) ٠ وهو عاشر الأئمة الأثنى عشر ٠ ولد بالمدينة المنورة وبها كانت نشأته ٠ وهناك خلاف بسيط في تاريخ مولده ، اذ يقول الخطيب البغدادي انه ولد في رجب سنة ٢١٤هـ ، بينما يقول ابن الأثير انه ولد في سنة ٢١٢هـ ، ويتردد ابن خلكان في ان ولادته كانت في سنة ٢١٣هـ او في سنة ٢١٤هـ (٢) ٠

كان الامام الهادي من الاتقياء الصـالحين ، فقيهـا متعبدا منصرفاً الى العلم ٠ ولما ارتاب المتوكل على الله به لكثرة الوافدين عليه من مختلف الاقطار ، استقدمه الى سامرا ليكون تحت رقابة الخلافة مباشرة ٠ فبقى الامام في سامرا لا يبرحها ، الا انه كان يستقبل اصحابه وزائريه ويحضر مجالس الخلفاء ومجالس كبار

(١) وفيات الاعيان ٤٣٥/٢ ، وشذرات الذهب ١٢٩/٢ ٠

(٢) تاريخ بغداد ١٢ـ٥٧ ، والكامل ١٧٩/٧ ، ووفيات الاعيـان ٤٣٥/٢ ٠

رجال الدولة • ويروي الخطيب البغدادي خبرا يدل على سمو منزلته لدى الخليفة واطمئنانه اليه • فقد اعتل المتوكل على الله فقال لئن برئت لا تصدقن بدنانير كثيرة • فلما برىء جمع الفقهاء فسألهم عن ذلك فاختلفوا في الاجابة ، فبعث الى الامام علي بن محمد يساله ، فقال : يتصدق بثلاثة وثمانين دينارا • فعجب بعض الفقهاء من ذلك وتعصب قسم منهم عليه ، وقالوا تسأله يا امير المؤمنين من اين له هذا • فرد الرسول اليه وقال : قل لأمير المؤمنين في هذا الوفاء بالنذر لأن الله تعالى قال « لقد نصركم في مواطن كثيرة » فروى اهلنا جميعا ان المواطن في الوقائع والسرايا والغزوات كانت ثلاثة وثمانين موطناً • وان يوم حنين كانت الرابع والثمانين ، وكلما زاد امير المؤمنين في فعل الخير كان انفع له وآجر عليه في الدنيا والآخرة (٣) •

بقي الامام علي الهادي طيلة عهد المتوكل على الله وعهد المنتصر بالله وخلفه المستعين بالله مقيما في سامرا مكرما ، لأن ما كان يمتاز به من هدوء الطبع وكرم النفس وقوة الصبر والاحتمال ، قد ساعده على الاحتفاظ بمنزلته رغم حذر الخلفاء منه وفرضهم الرقابة عليه • وقد انتقل الى جوار ربه في سنة ٢٥٤ هـ في يوم الخميس لليال بقين من جمادى الآخرة وهو ابن اربعين سنة ، في ايام المعتز بالله • فبعث الخليفة باخيه ابي احمد ابن جعفر المتوكل على الله فصلى عليه في الشارع المعروف بشارع ابي احمد • ولما كثر الناس واشتد بكاؤهم وعلا ضجيجهم ، رد النعش الى دار الامام فدفن فيها (٤) • ويقول الخطيب البغدادي ان

---

(٣) تاريخ بغداد ١٢/٥٦ ـ ٥٧ •

(٤) الطبري ٩/٣٨١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٥٠٣ ، وتاريخ بغداد ١٢/٥٧ •

هذه الدار كان الامام قد اشــــتراها مــن دليــــل بن يعقــوب النصراني (٥) ٠

الامام الحسن العسكري :

وكان خلف الامام علي الهادي ابنه الامام الحسن العســكري وهو الامام الحادي عشر ، ابو محمد ، وغلب عليه لقب العسكري لسكناه في سامرا ، وقد اقام بها طيلة حياة ابيه وبعده حتى توفى بها ٠ وهناك بعض الاختلاف في مكان ولادته وتاريخها ، ويستنتج من تاريخ وفاته ومقدار عمره انه ولد فى سنة ٢٣١هـ وقيــــل ٢٣٢هـ او ٢٣٣هـ ٠ ويقول ابو المحاسن ان ولادتــه كانت فــي سنة ٢٣١هـ(٦) ٠ اما محل ولادته فليس هناك اشارة واضحة الى ذلك في المصادر الأولية عدا ما قاله ابو المحاسن بانه ولد بسر من رأى وامه ام ولد(٧) ٠ الا انه يظهر من تاريخ ولادته ما يرجح بانه ولد بالمدينة المنورة لأن اباه كان حينذاك لايزال فيها ولما يشخص بعد الى سامرا ٠

انتقل الامام الحسن العسكري مع ابيه علي الهادي الى سامرا فنشأ بها نشأة دينية على سنن سلفه الصالح ، فكان ناسكاً متعبدا ٠ ويظهر انه عني بتعلم عدد من اللغات لاختلاف جنسيات الوافدين الى زيارته وزيارة ابيه من قبل ٠ فكان يتكلم بالهندية مع الزوار الهنود ، وبالتركية مع الاتراك وبالفارسية مع العجم (٨) ٠ وعندما

---

(٥) تاريخ بغداد ١٢ـ٥٧ ٠

(٦) مروج الذهب ٤/١٩٩ ، ووفيات الاعيان ١/٣٧٢ ، والنجوم الزاهرة ٣/٣٢

(٧) النجوم الزاهرة ٣/٣٢ ٠

(٨) عقيدة الشيعة / ٢٢٣ اعتمادا على خلاصة الاخبار للسيد محمد مهدي ٠

توفي ابوه سجن الامام الحسن في بغداد ، الا انه ما لبث ان اطلق من السجن وسمح له بالعودة الى سامرا ، فاقام بها حتى نهاية حياته ٠

توفى الامام الحسن العسكري في سنة ٢٦٠هـ ويقول ابن خلكان انه توفى بسر من رأى ودفن بجنب قبر ابيه (٩) ٠ ولما ذاع خبر وفاته ارتجت سر من رأى ، وعطلت الأسواق ، وركب بنو هاشم والقواد والكتاب والقضاة وسائر الناس لتشييع جنازته (١٠) ٠

ولما تولى المنتصر بالله الخلافة بعد مقتل ابيه المتوكل على الله ، اتسمت سياسته تجاه العلويين بالتسامح معهم والعمل على استرضائهم ، فأمر بعدم التعرض لهم ، والا يمنع احد من زيارة قبر الحسين وقبر غيره من أئمة آل البيت ٠ فلم يجر على احد منهم قتل او حبس او مكروه (١١) ٠ وكان اول عمل قام به لتنيفذ سياسته هذه انه أقال والي ابيه على المدينة المنورة صالح بن علي الذي كان آل ابي طالب هناك ينقمون عليه لسوء معاملته لهم ٠ واستعمل عليها علي بن الحسن بن اسماعيل بن العباس بن محمد ٠ وذكر عن علي هذا انه قال « دخلت على المنتصر اودعه ، فقال لى : ياعلي اني اوجهك الى لحمي ودمي ومد جلد ساعده : وقال لي : الى هذا وجهتك ، فانظر كيف تكون للقوم وكيف تعاملهم ، يعني آل ابي طالب ٠ فقلت : ارجو ان امتثل رأي امير المؤمنين ايده الله فيهم ان شاء الله ٠ فقال : اذاً تسعد بذلك عندي » (١٢) ٠

---

(٩) مروج الذهب ١٩٩/٤ ، والكامل ٢٧٤/٧ ، ووفيات الاعيان ٣٧٣/١ ٠
(١٠) الاعلام ٢١٥/٢ ٠
(١١) الطبري ٣٨١/٩ ، ووفيات الاعيان ٤٣٥/٢ ٠
(١٢) مقاتل الطالبيين /٦٢٦ ٠

كما اطلق المنتصر بالله ما كان محبوسا عليهم من الأوقاف ، ورد «فدك» الى اولاد الحسن والحسين(١٣) . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صالح اهل فدك على نصف الارض بتربتها ، وكان ذلك النصف خالصا له لأنه لم يوجت عليه المسلون بخيل ولا ركاب، وكان يصرف ما يأتيه منها في ابناء السبيل . ولما قبض عليه الصلاة والسلام قالت فاطمة الزهراء لأبي بكر الصديق : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لي فدكا فاعطني اياها ، وشهد لها علي بن ابي طالب . فسألها ابو بكر شاهدا آخر . فشهدت لها ام أيمن مولاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : قد علمت يابنت رسول الله انه لاتجوز الا شهادة رجل وامرأتين، فانصرفت . ولما تولى المأمون الخلافة امر بدفعها الى ولد فاطمة . فردت الى ورثتها وسلمت الى محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين ومحمد بن عبدالله بن الحسن . الا ان المتوكل على الله كان قد ردها الى ما كانت عليه قبل المأمون(١٤) .

لقد لقيت مبادرة المنتصر بالله برده فدك الى آل البيت رضى من العلويين وشيعتهم . وقال الشاعر يزيد المهلبي في ذلك(١٥) :

ولقد بررت الطالبية بعدما
ذموا زمانا بعدها وزمانا

ورددت الفة هاشم فرأيتهم
بعد العداوة بينهم اخوانا

---

(١٣) الطبري ٩/٢٥٤ .

(١٤) مروج الذهب ٤/١٣٥ ، والكامل ٧/١١٦ .

(١٥) عن موضوع فدك راجع : فتوح البلدان / ٤٢-٤٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٩ ، والخراج وصناعة الكتابة / ٢٥٩ - ٢٦٠ .

آنست ليلهم وصبرت عليهم
حتى نسوا الأحقاد والاضغانا

لو يعلم الاسلاف كيف بررتهم
لرأوك أثقل من بها ميزانا

ولشدة بر المنتصر بالله بالعلويين قال عنه صاحب الذهب المسبوك انه كان شيعيا (١٦) ٠ كما مدحه البحتري بقصيدة اشاد فيها بسياسته تجاه العلويين ٠ ولعلها القصيدة الوحيدة التي قالها في مدحه ، لأنه كان قد اتهمه بالمشاركة في اغتيال ابيه ، قال فيها يخاطب المنتصر بالله (١٧) :

رددت المظالم واسترجعت
يداك الحقوق لمن قد قهر

وآل ابي طالب بعدما
أذيع بسربهم فابذعر

ونالت ادانيهم جفوة
تكاد السماء ، لها تنفطر

وصلت شوابك ارحامهم
وقد أوشك الحبل ان ينبتر

فقربت من حظهم ما نأى
وصفيت من شربهم ما كدر

(١٦) مروج الذهب ٤/١٣٥ ـ ١٣٦ ٠
(١٧) الذهب المسبوك / ٢٢٧ ٠

قرابتكم ، اشقاؤكم

واخوتكم دون هذا البشر

ومن هم وانتم يدا نصرة

وحدا حسام قديم الأثر

بقيت امام الهدى ، للهدى

تجدد من نهجه ما دثر

وكان من نتيجة محاسنة المنتصر بالله العلويين ، انهم اخلدوا الى مسالمة الخلافة العباسية على عهده ٠

وعندما ضعفت الخلافة في ايام الفتنة كثرت وثبات العلويين ٠ ولكن رغم ضعف الخلفاء كان الجيش الذي يعتمد عليه القواد الحكام من الاتراك قويا وهو تحت قيادتهم ، ولذلك كانوا يبادرون الى توجيهه لاخضاع تلك الوثبات والبطش بالقائمين بها ٠ ويمكن القول ان جميع وثبات العلويين على خلفاء سامرا قد قضي عليها سوى فتنة الحسن بن زيد العلوي التي اندلعت في ايام المستعين بالله ٠ فقد استمرت الى ما بعد عودة العاصمة الى مدينة السلام ثانية حتى تم القضاء عليها في سنة ٢٨٧هـ على أيدي السامانيين، كما سنرى في الفصل القادم ، بعد ان استمرت سبعا وثلاثين سنة ، بحيث ان ابن خلدون سماها الدولة العلوية ٠

وبلغ الخليفة المعتز بالله في سنة ٢٥٢هـ ان بعض العلويين المقيمين في بغداد لهم اتصالات بالحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، وان احدهم شخص الى ناحية الكوفة مع عدد من اتباعه ٠ فاوجس خيفة من انهم يعتزمون الخروج عليه ، فكتب الى نائبه في بغداد محمد بن عبدالله ان يحمل هؤلاء الطالبيين الى سامرا ،

فحملوا جميعا ، وكان فيهم ابو هاشم داود بن القاسم الجعفري وهو من احفاد جعفر بن ابي طالب ، وعلي بن عبيدالله بن عبدالله من احفاد الحسن بن علي بن ابي طالب ، وابو احمد محمد بن جعفر من احفاد الحسن كذلك وهم من رؤوساء العلويين • وكان ابو احمد المذكور سبق ان ولاه المعتز بالله ولاية الكوفة بعد ما قضى مزاحم بن خاقان على ثورة الحسين بن محمد العلوي ، فأساء ابو احمد في ادارته واعتدى على اموال الناس وضياعهم • فارسل محمد بن عبدالله نائبا عنه الى الكوفة ، فاستطاع ان يخدع ابا احمد ويقبض عليه ويحمله مقيداً الى بغداد ، فحبسه محمد ثم ما لبث ان اطلقه بكفالة بعض العلويين ، وكان مع العلويين الذي حملوا الى سامرا من بغداد عدد من اتباعهم (١٨) •

ويظهر ان المعتز بالله رأى ان يضع بقية العلويين تحت رقابته في حاضرة الخلافة سامرا ، فأمر بحمل العلويين الموجودين في مصر الى سامرا كذلك • فقدم عيسى الشيباني من مصر ومعه ستة وسبعون من سائر ولد ابي طالب من اولاد علي وجعفر وعقيل • وكان هؤلاء قد خرجوا الى مصر خوفا من الفتنة وبسبب الجهد النازل بالحجاز • فلما وصلوا سامرا احسن المعتز بالله معاملتهم وامر بتكفيلهم واطلاقهم (١٩) •

ويتضح مما يذكره ابو الفرج في كتابه مقاتل الطالبين ان ايام المعتمد على الله كانت شديدة على العلويين ، وقد مات عدد منهم في سجن سامرا في ايامه • فقد توفي محمد بن الحسين بن محمد ابن الحسن بن علي بن ابي طالب وهو محبوس بسجن سامرا •

---

(١٨) القصيدة في ديوان البحتري ٢/٨٤٨-٨٥١ •

(١٩) الطبري ٩/٣٦٩ - ٣٧١ ، والكامل ٧/١٧٥-١٧٦ •

وتوفى موسى بن موسى بن محمد بن الحسن بن علي بن ابي طالب ،
وكان ممن حمل من مصر في ايام المعتز بالله وسجن • كما توفى
محمد بن احمد بن عيسى بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وكان
قد حمله سعيد الحاجب مع ابنيه احمد وعلي ، فتوفى محمد وابنه
احمد في الحبس ايضا (٢٠) (*) •

(٢٠) مروج الذهب ٤/٧٧٧ •
(*) مقاتل الطالبين / ٦٨٨ـ٦٨٩ •

الفصل الثاني

خروج العلويين في عهد خلفاء سامرا

١ ـ خروج محمد بن القاسم العلوي :

كان محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (١) ، ويكنى بابي جعفر ، يسكن المدينة المنورة ملازماً المسجد النبوي الشريف (٢) . وقد عرف بحسن السيرة والزهد ، ولقب بالصوفي لأنه ادمن لبس الثياب من الصوف الأبيض (٣) . فاتصل به احد الخراسانيين المجاورين واقنعه بحقه في الامامة وبايعه عليها ، وصار يأتيه ببعض حجاج خراسان يبايعونه (٤) . ولما رأى محمد بن القاسم كثرة من بايعه من الخراسانيين سافر الى الطالقان من كور خراسان واظهر دعوته فيها

(١) هكذا ورد اسمه في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ ، ومروج الذهب ٤/٥٢ ، مقاتل الطالبين / ٥٨٧ وورد في الطبري ٩/٧ : محمد بن القاسم ابن عمر بن علي ... ونقله عنه ابن الاثير ـ الكامل ٦/٤٤٢ .
(٢) الكامل ٦/٤٤٢ .
(٣) مقاتل الطالبيين / ٥٧٨ .
(٤) الكامل ٦/٤٤٢ .

في سنة ٢١٩هـ ، فصار اليه كثير من الاتباع والأنصار في تلك المناطق ٠

ويقول المسعودي انه كان بالكوفة وقد عرف بالزهد والتقوى ، ولما خاف على نفسه هرب الى خراسان وتنقل بين كورها ، واظهر دعوته هناك (٥) ٠

وذكر ابو الفرج ان ابراهيم بن عبدالله العطار ، وهو احد دعاة محمد بن القاسم ، قال انه نزل بمرو ومعه عدد من الكوفيين من اتباعه ، فلما اجتمع امره عين يوما لخروجه على الخلافة ، فاجتمع اليه اتباعه في يوم محدد ليتلقوا امره بالخروج ٠ ويروي ابراهيم المذكور خبرا عن احد الانتهازيين ممن بايعوا محمد بن القاسم لمجرد الانتفاع والكسب ٠ قال ما خلاصته : بينما نحن عنده نعد للخروج سمعنا صوت استغاثة رجل ، فقال لي محمد انظر ما هذا الصراخ ، فأتيت الموضع فرأيت رجلا حائكا قد اخذ رجل ممن بايعنا لبدأ والحائك متعلق به يستغيث ٠ فاستفسرت عن الأمر ، فقال الحائك : اخذ صاحبكم هذا لبدي ٠ فقلت للرجل اردد عليه اللبده ، فقد سمع ابو جعفر صراخه ٠ فقال لي : انما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج اليه ٠ فلم ازل ارفق بـه حتى اخذت منه اللبد ورددته الى صاحبه ٠ ورجعت الى محمد بن القاسم واخبرته الخبر ، فقال : يا ابراهيم أبمثل هذا ينصر الدين؟ ثـم قال لنا : فرقوا الناس حتى ارى رأي(٦) ٠

---

(٥) مروج الذهب ٥٢/٤ ٠

(٦) مقاتل الطالبين / ٥٧٩ ـ ٥٨٠ ٠

وعندما شعر امير خراسان عبدالله بن طاهر بخطر دعوة محمد بن القاسم قرر ان يقبض عليه . فجرت بين قواته واتباع محمد عدة وقائع بنواحي الطالقان وجبالها ، كان نتيجتها فشل محمد ، فانهزم وبعض اتباعه الى احدى القرى فقبض عليه عبدالله بن طاهر وسيره الى سامرا . ولم يجسر ابن طاهر على اشخاصه علنا لكثرة اتباعه ومؤيديه ، فكان يخرج بغالا عليها قباب ليوهم الناس انه قد اخرجه ، ثم يردها ، وقد فعل ذلك عدة مرات حتى استطاع ان يبعث به في احدى الليالي ومعه جيش لحمايته ، حتى اوصله الى الخليفة ببغداد (٧) . فأمر المعتصم بالله بحبسه ريثما ينظر في امره (٨) .

وكان المعتصم بالله أمر ببناء حبس في بستان موسى وكان القيم به مسرور مولى الرشيد ، وهو نموذج للحبوس في ذلك العهد ، وقد وصف بانه كالبئر العميقة حفرت الى الماء ، ثم بنى فيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ومدرج . وقد حفر في مواضع من التدريج مستراحات ، وبني في كل مستراح ما يشبه الغرفة ، يجلس فيها رجل واحد كأنها على مقداره بحيث لا يستطيع ان يمد رجليه . فلما قبض على محمد بن القاسم حبس في اسفل ذلك الحبس . فاصابه من الجهد لضيقه ، ومن البرد امر عظيم . فكاد ان يتلف من ساعته ، فقال : ان كان امير المؤمنين يريد قتلي فالساعة اموت ، والا فقد اصبحت على وشك منه .

---

(٧) مقاتل الطالبيين / ٥٨٤ .

(٨) الطبري ٩/٨ .

فلما بلغ المعتصم بالله قوله ، قال : ما اريد قتله ، وامر باخراجه وحبسه في بيت كان قد بنى في البستان (٩) .

وقد استطاع محمد بن القاسم ان يهرب من سجنه بمساعدة بعض اتباعه . وهناك عدة روايات عن كيفية هروبه . يقول الطبري : ولما كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة ، احتال للخروج من الحبس بالليل . وانه دلي اليه حبل من كوة كانت في اعلى البيت الذي حبس فيه يدخل منها الضوء . فلما اصبحوا اتوه بالطعام فافتقدوه ، وجعلوا لمن دل عليه مائة الف درهم ، الا انه لم يعرف له خبر (١٠) . وجاء في مقاتل الطالبيين انه هو الذي صنع الحبل من لبد كان تحته في السجن وربطه في الكوة وتدلى الى الخارج وهرب (١١) . اما المسعودي فيقول ان جماعة من شيعته من الطالقان أتو ذلك البستان ، فتأتوا للخدمة فيه من غرس وزراعة واتخذوا سلالم من الحبال واللبود وتقبوا الازج واخرجوه ، فذهبوا به ، ولم يعرف له خبر (١٢) .

ووردت عن نهاية محمد بن القاسم روايات متعددة ايضا . فان المسعودي يقول ان هناك من يقول انه قتل بالسم ، وان كثيرا من اتباعه يزعمون انه مهدي هذه الأمة . وهو يرى أن قولهم هذا

---

(٩) التفصيلات في الفرج بعد الشدة ٢/١٧٥-١٧٩ ويبين كيفية هروبه . وفي مروج الذهب ان المعتصم بالله حبسه في ازج اتخذ في بستان - ٤/٥٢ .

(١٠) الطبري ٩/٧-٨ .

(١٢) مروج الذهب ٤/٥٥ .

(١١) مقاتل الطالبيين / ٥٨٦ .

(١٣) نفس المصدر / ٥٢-٥٣ .

في محمد بن القاسم يشبه قول الكيسانية في محمد بن الحنفية (١٣) • وجاء في مقاتل الطالبيين انه رجع الى الطالقان ، وقيل انه انحدر الى واسط واختفى طيلة ايام المعتصم بالله والواثق بالله ، ثم اخذ في ايام المتوكل على الله فحبس ومات في حبسه (١٤) •

ومن المرجح ان نهاية محمد بن القاسم كانت القتل ، لأن خروجه على الخليفة العباسي بدعوة الامامة العلوية مما يهدد خلافته • اما الادعاء باختفائه فانه يلائم السلطة لتتخلص من تهمة قتله ، كما انه يلائم اتباعه الذين يرون فيه المهدي المنتظر الذي سيتمثل بمن سيخرج على الدولة من العلويين •

٢ ـ خروج محمد بن صالح :

رغم سياسة الشدة التي اتبعها المتوكل على الله مع العلويين فقد حاول بعضهم الخروج عليه • فقد خرج في الحجاز في ايامه ابو عبدالله محمد بن صالح بن عبدالله من احفاد الحسن بن علي ابن ابي طالب • وكان خروجه في موسم الحج في سنة **٢٤٢هـ** • وكان القائد ابو الساج قد عينه المتوكل على الله فى سنة ٢٤٢هـ واليا على طريق مكة واخداث الموسم(١٥) • فخاف موسى بن عبدالله ، وهو عم محمد بن صالح ، على نفسه واولاده واهله فضمن لأبي الساج تسليمه • واستطاع موسى ان يقنع ابن اخيه بالتسليم ، فخرج محمد الى ابي الساج فقيده وحمله الى سامرا مع جماعة من اهله • فأمر المتوكل على الله بسجنه فيها • الا ان الفتح

---

(١٤) مقاتل الطالبيين / ٥٨٧ •

(١٥) الطبري ٩/٢١٠ •

ابن خاقان تكفل بأمره فوافق المتوكل على الله اطـــلاقه على ان يجعله الفتح تحت رقابته · وان يكون مقامه بسامرا ولا يخرج الى الى الحجاز · فلم يزل بسامرا حتى مات بالجدري في ايام المنتصر بالله · وكان يجهد في ان يؤذن له بالرجوع الى الحجاز ، فلا يجاب الى ذلك ·

ويعتبر محمد بن صالح من شعراء آل ابي طالب المتقدمين · وقد عده ابو الفرج الاصبهاني من شعراء الحجاز الظرفاء ، وافرد له فصلا في كتابه باعتبار ان له شعراً يغنى به (١٦) · وقـد قال محمد بن صالح في عبيدالله بن يحيى بن خاقان · وزير المتوكـل على الله ، هجاء كثيرا ، لأنه كان لشدة انحرافه عن الطالبين يغري المتوكل على الله به ويحذره من اطلاقه · وقد هجاه في قصيدة مدح بها صديقه ابراهيم بن المدبر ، جاء فيها (١٧) :

وما في آل خاقـان اعتصام
اذا ما عمـم الخطب الكبير
لئـــام الناس اثـراء وفقـراً
واعجزهم اذا حمـي القتيـر
وقـوم لا يزد حبهـم كريـم
ولا تسنى لنسوتهـم مهـور

وكان محمد بن صالح حلو اللسان ، ظريفا ، اديبا ، وكان في سـامرا يخالط سراة الناس ووجوه البلد ، ولم يكـن يفـارق

---

(١٦) الاغاني ١٦/٣٦٠-٣٧٢ ·
(١٧) كامل القصيدة في الاغاني ١٦/٣٦٧ - ٣٦٨ ، وعن خروجه راجع مقاتل الطالبيين / ٦٠٠-٦١٣ ·

سعيد بن حميد ، وهو من كبار كتاب الدولة . بحيث لما توفى محمد رثاه سعيد بقصيدة منها (١٨) :

لعمري لقد غال التجلد أننا
فقدناك فقد الغيث والعام جادب
فما اعرف الايام الا ذميمة
ولا الدهر الا وهو بالثأر طالب
فقدت فتى قد كان للارض زينة
كما زينت وجه السماء الكواكب
سقى جدثاً امسى الكريم ابن صالح
يحل به ، وان من المزن ساكب
اذا بشر الرواد بالغيث برقه
مرته الصبا واستحلبته الحجائب
فغادر باقي الدهر تأثير صوبه
ربيعا زهت منه الربا والمذائب

٣ ـ خروج يحيى بن عمر :

خرج في سنة ٢٥٠هـ على عهد المستعين بالله احد الطالبيين هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المكنى بابي الحسين ، بالكوفة وبها كان مقتله . وقد سبق ان شرنا الى محاولته الوثوب في عهد المتوكل على الله وفشله في

---

(١٨) الاغاني ٣٦٩/١٦ .

ذلك • فقد سافر بعد اطلاقه من السجن الى خراسان ، الا ان اميرها عبدالله بن طاهر رده الى سامرا خوفا من ان يتجمع حوله اولياؤه ومؤيدوه • فنالته ضائقة مالية شديدة وتراكمت عليه ديون ضاق بها ذرعا • فلقى عمر بن فرج الرخجي ، وكان يتولى امور الطالبيين ، وكلمه في صلته ، فاغلظ له عمر القول فقذفه يحيى في مجلسه • ولما شكاه الرخجي الى المتوكل على الله امره بضربه وحبسه ، ولم يزل محبوسا حتى كفله بعض اهله فاطلق سراحه • فشخص الى بغداد فاقام بها بحال سيئة ، فعاد الى سامرا وكلم وصيف القائد ان يخصص له رزق يجري له ، فجابهه وصيف وقال « لأي شيء يجرى على مثلك »[19] متجاهلا مكانته ، فانصرف حانقا غاضبا •

كان يحيى بن عمر ديناً عفيفا كثير العطف والمعروف على عوام الناس ، باراً بحوائجهم لم تظهر له زلة [20] • وفارسا شجاعا شديد البدن مجتمع القلب [21] • ويظهر ان ما قاساه من ضيق مالي، وما لقيه من معاملة سيئة من رجال الخليفة ، دفعه الى شق عصا الطاعة والخروج • يقول المسعودي « وكان ظهوره لذل نزل به ، وجفوة لحقته ، ومحنة نالته ، من المتوكل وغيره من الأتراك »[22] • فتوجه الى الكوفة واظهر امره ، فاجتمعت اليه الزيدية وكثير من اهل الكوفة والاعراب النازلين حولها ، فبايعوه ، فقوى امره بهم • فطرد عامل الكوفة ، وصار الى بيت مالها فاخذ ما فيه ومقداره

---

(١٩) الطبري ٢٦٦/٩ •
(٢٠) مروج الذهب ١٤٩/٤ •
(٢١) مقاتل الطالبيين / ٦٣٩ •
(٢٢) مروج الذهب ١٤٨/٤ •

الفا دينار وزيادة شيء ، ومن الورق سبعون الف درهم (٢٣) • ووجه الى قوم من الصيارفة عندهم مال للسلطان فاخذه منهم(٢٤) • وفتح السجون واخرج جميع من كان فيها •

ولما بلغ خبره محمد بن عبدالله أمير بغداد أمر عبدالله بن محمود السرخسي عامله على معاون السواد بمحاربة يحيى • فلما لقيه جرح السرخسي وانهزم مع اصحابه • واستولى يحيى على ما كان معه من المال والدواب • فوجه محمد بن عبدالله لمحاربته القائد الحسين بن اسماعيل ومعه عدد من القواد • فقدم الحسين الى شاهي ، وهو موضع غير بعيد من الكوفة ، واقام ينتظر تحرك يحيى واتباعه •

واخذ يحيى بن عمر يستعد للحرب فجمع ما تيسر له من السيوف لتسليح بعض اتباعه • ونظرا لقلة خبرته بشؤون الحرب استجاب الى جماعة من اتباعه الزيدية ممن لا معرفة لهم باصول الحرب ،، بمعاجلة الحسين • كما الح عليه عوام اتباعه بالخروج اليه • فزحف الى الجيش باتباعه واكثرهم عزل من السلاح ، والتقى الطرفان عند شاهي واقتتلا قتالا شديداً ، فانهزم اصحاب يحيى لما رأوا كثافة الجيش وشدة الحرب • اما يحيى فقد صرع في احدى حملاته على عسكر الحسين ، فحز رأسه وارسل الى بغداد • فلما رآه اهلها استنكروا ذلك وضجوا لما كان في نفوسهم من المحبة له (٢٥) • وجعلوا يصيحون ان يحيى لم يقتل ، ميلا منهم اليه ، حتى

---

(٢٣) الطبري ٢٦٧/٩ •
(٢٤) مقاتل الطالبيين / ٦٤٠ •
(٢٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ •

حتى ان الغوغاء كانوا يصرخون فى الطرقات : ما قتل وما فر ولكنه دخل البر (٢٦) .

أمر محمد بن عبدالله بحمل رأس يحيى الى المستعين بالله وكتب اليه بالنصر عليه . ونصب الرأس بباب العامة بسامرا ، الا ان الناس اجتمعوا متذمرين ، فأمر الخليفة برده الى بغداد وان ينصب بها بباب الجسر . الا ان محمدا لم يقدر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس وتذمرهم ، فخاف ان يأخذوه ، فجعله في صندوق في بيت السلاح في داره (٢٧) . وجلس محمد بن عبدالله يتقبل التهاني بمقتل يحيى . وكان ممن دخل عليه ابو هاشم داود بن القاسم ، وكان ذا علم وورع وزهد فقال لأبن طاهر : ايها الأمير انك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزي به . فما رد محمد عليه بشيء ، فخرج ابو هاشم وهو يقول (٢٨) :

يابني طاهر كلوه وبيا
ان لحم النبي غير مري
ان وترأ يكون طالبه الله لوتر نجاحه بالحري

وقد اكثر الشعراء في رثاء يحيى لما كان عليه من حسن السيرة وما اتصف به من خصال حميدة ، وعدالة ونزاهة . يقول ابو الفرج : « وما بلغني ان احدا ممن قتل في الدولة العباسية من آل ابي طالب رثي باكثر مما رثي به يحيى ، ولا قيل فيه من الشعر باكثر مما قيل فيه » (٢٩) .

---

(٢٦) مقاتل الطالبيين ٦٤٤ .
(٢٧) الطبري ٩/٢٧٠ ، والكامل ٧/١٢٨ .
(٢٨) الطبري ٩/٢٧٠ ، ومروج الذهب ٤/١٤٨ مع اختلاف يسير .
(٢٩) مقاتل الطالبيين / ٦٤٦ .

وكان الشاعر ابن الرومي علي بن العباس اشهر من رثاه ، فقد قال في رثائه قصيدة اربت على مائة بيت ، منها (٣٠) :

ألا أيهذا الناس طال ضريركم (٣١)
بآل الرسول فاخشوا او ارتجوا

أكل أوان للنبي محمد
قتيل زكي بالدماء مضرج

تبيعون فيه الدين شر أئمة
فلله دين الله قد كاد يمرج (٣٢)

أيحيى العلا لهفي لذكراك لهفة
يباشر مكواها الفؤاد فينضج

أحين تراءتك العيون جلاءها
واقذاءها اضحت مراثيك تنسج (٣٣)

أرديتم يحيى ولو يطو أيطل
طراداً ولم يدبر من الخيل منسج (٣٤)

تأتت لكم فيه منى السوء هينة
وذاك لكم بالغي اغرى وألهج

تمدون في طغيانكم وضلالكم
ويستدرج المغرور منكم فيدرج

---

(٣٠) القصيدة في مقاتل الطالبين / ٦٤٦-٦٦٢ ٠

(٣١) ضريركم : ضرركم ٠

(٣٢) يمرج : يفسد ويضطرب ٠

(٣٣) تراءتك : نظرتك فكنت جلاء لعيون احبابك وقذى لاعدائك ٠

(٣٤) الايطل : الخاصرة ، والطراد : حمل الفرسان بعضهم على بعض ، والمنسيح ما بين العرف وموضع اللبد ٠

أجنــــوا بني العباس مـــن شنآنكــم
وشدوا على ما في العياب واشرجوا (٣٥)

ولم تقنعوا حتى استثارت قبورهــم
كــلابكــم منهــا بهيـــم وديـــزج

ورثاه علي بن محمد بن جعفر العلوي الحماني الشاعر بعدد من القصائد ذكر المسعودي بعضا منها (٣٦) • وكان على هذا نقيب الهاشميين في الكوفة ، وقد تخلف عن زيارة الحسين بن اسماعيل قائد الجيش الذي حارب يحيى بن عمر ، فتفقــده الحســين بــن اسماعيل قائد الجيش الذي حارب يحى بن عمر ، فتفقده الحسين وبعث بجماعة فاحضروه • فأنكر الحسين عليه تخلفه عن سلامه ، فاجابه علي بقوله (٣٧) :

قتلت أعــز من ركـــب المطــايا
وجئتك استاينك فــي الكــلام

وعـــز عليّ ان القـــاك الا
وفيما بيننـــا حـــد الحســام

ولكن الجنـــاح اذا أهيضــت
قوادمـــه يرف على الأكـــام

كما رثاه احمد بن طاهر الشاعر بقصيدة طويلة ذكر المسعودي عدداً من ابياتها منها (٣٨) :

---

(٣٥) أجنوا : استروا ، الشنآن : البغض ، العياب : جمع عيبة وهي ما يجعل فيها المتاع ، والاشراج شد الخريطة •

(٣٦) مروج الذهب ٤/١٤٨ـ١٥١ •

(٣٧) نفس المصدر / ١٥١ •

(٣٨) نفس المصدر / ١٤٨ـ١٤٩ •

سلام على الاسلام فهو مودع
اذا ما مضى آل النبي فودعوا

فقدنا العلى والمجد عند افتقادهم
واضحت عروش المكرمات تضعضع

بنو طاهر واللؤم منكم سجية
وللغدر منكم حاسر ومقنع

قواطعكم في الترك غير قواطع
ولكنها في آل احمد تقطع

لكم مرتع في دار آل محمد
وداركم للترك والجيش مرتع

أخلتم بأن الله يرعى حقوقكم
وحق رسول الله فيكم مضيع

٤ ـ خروج الحسن بن زيد الطالبي :

لعل اخطر الوثبات العلوية وابعدها اثرا من حيث طول مدتها وسعة رقعتها هي التي قام بها الحسن بن زيد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب المعروف بالحسن العلوي او الطالبي ، في رمضان سنة ٢٥٠هـ على عهد الخليفة المستعين بالله (٣٩) . وكان سبب خروجه ان الخليفة كافأ امير بغداد

(٣٩) الطبري ٩/٢٧١ ، والكامل ٧/١٣٠ وفيه بعض الخلاف في سلسلة النسب ، وانه من نسل الحسين بن ابي طالب لا الحسن كما في الطبري .

محمد بن عبدالله لما قضى على حركة يحيى بن عمر ، فأقطعه بعض القطائع من اراضي الدولة بطبرستان ومنها قطيعة على حدود الديلم • فوجه محمد بن عبدالله جابر بن هارون وهو اخو كاتبه بشر بن هارون النصراني ، لحيازة ما اقطع هناك من الأراضي •

وكان عامل طبرستان حينذاك سليمان بن عبدالله خليفة اخيه محمد بن عبدالله ، والغالب على سليمان محمد بن اوس البلخي الذي فرق اولاده حكاما على مدن طبرستان • وهم احداث سفهاء تأذى الناس بهم واستنكروا منهم ومن ابيهم سيرتهم وسوء تصرفاتهم • وقد اثار محمد بن اوس الديلم باجتياحه ما قرب من بلادهم من حدود طبرستان فقتل وسبي منهم عددا كبيرا ، وهم اهل سلم وموادعة لأهل طبرستان ، مما جعل الطبرية ينقمون عليه وعلى اولاده ويتحينون الفرصة للوثوب بهم • فلما وصل رسول محمد ابن عبدالله الى طبرستان عمد الى ما اقطع محمد من الاراضي فحازه وحاز معه ما اتصل به من موات الارض التي كان اهل تلك الناحية يرتفقون بها ، فترعى فيها مواشيهم ومنها يحتطبون ، فأثار بعمله هذا حفيظتهم • وكان في تلك المنطقة اخوان معروفان بالشجاعة والبأس يقال لاحدهما محمد وللآخر جعفر ، فانكرا ما فعل جابر بن هارون من حيازة الارض الموات • وكان الاخوان مطاعين فاستنهضا اتباعهما لمنع جابر من ذلك • فنهضوا معهما ، فهرب جابر خوفاً على نفسه ، ولحق بسليمان بن عبدالله • فأيقن الأخوان واتباعهما بالشر لأن سليمان عامل طبرستان هو اخو محمد بن عبدالله وعم محمد بن طاهر بن عبدالله عامل الخليفة على خراسان وجميع اقاليم المشرق • فاتصلوا بجيرانهم من الديلم وتعاقدوا على معاونة بعضهم بعضا في مجابهة سليمان اذا قصدهم بحرب •

ولكي يعزز هؤلاء مركزهم ارسلوا الى رجل من الطالبيين المقيمين بطبرستان يقال له محمد بن ابراهيم يدعونه الى البيعة له ليتولى رئاستهم وقيادتهم فأبى ذلك وامتنع عليهم . الا انه دلهم على طالبي آخر وقال لهم انه يصلح للرئاسة . وكان ذلك الطالبي هو الحسن بن زيد . فوجهوا الى الري من يدعوه الى الشخوص الى طبرستان فوافاهم الحسن بن زيد ، واجمعوا على مبايعته وقتال سليمان بن عبدالله ، وبايعه معهم رؤساء الديلم .

وكان اول اعمال الحسن بن زيد انه طرد عمال ابن اوس واولاده من تلك المناطق . فانضم اليه كثيرون من اهل جبال طبرستان وسفوحها ، فزحف باتباعه نحو مدينة آمل ، وهي حاضرة طبرستان ، فاقبل ابن اوس يريد دفعه عنها الا انه هزم ودخل الحسن واتباعه المدينة . وباحراز الحسن هذا النصر كثف جيشه وغلظ امره . وانضم اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم (٤٠) . وجبى الحسن الخراج من اهل المدينة ، ونظم اتباعه ، وسار نحو مدينة سارية لمحاربة سليمان بن عبدالله واخراجه منها . فنشب القتال بين الطرفين ، واستطاع الحسن ان يهزم جيش سليمان ويدخل المدينة . فهرب سليمان الى جرجان تاركاً اهله وعياله وامواله بمدينة سارية . فاستولى الحسن واتباعه على الاموال ، اما الحرم والاولاد فقد سيرهم الحسن الى سليمان بجرجان . ويقول ابن الأثير « يقال ان سليمان انهزم اختياراً لأن الطاهريين كلهم كانوا يتشيعون لآل ابي طالب ، فتأثم سليمان من قتال الحسن بن زيد » (٤١) . فأجتمع للحسن بن زيد بهزيمة سليمان امرة طبرستان كلها . وقد شجعه ذلك على ان يوجه

---

(٤٠) الطبري ٩/٢٧٤ .

(٤١) الكامل ٧/١٣٢ .

حملة الى مدينة الري فطردت عاملها واستولت عليها فأستخلف الحسن احد الطالبيين عليها ، يقال له محمد بن جعفر . وبذلك اجتمعت للحسن بن زيد مع طبرستان الري الى حد همذان .

ولما بلغ خبر استفحال امر الحسن بن زيد الخليفة المستعين بالله ارسل القائد اسماعيل بن فراشة على رأس جيش الى همذان وامره بالقيام بها والدفاع عنها ، اما ما وراء ذلك فقد ترك امر الدفاع عنه لمحمد بن طاهر وعماله (٤٢) . وكان محمد بن طاهر قد اغتنم فرصة وثوب اهل الري بمحمد بن جعفر الطالبي لسوء سيرته فيهم . فوجه اليها جيشاً يقوده محمد بن ميكال فأستطاع ان يأسر الطالبي ويهزم اتباعه ويسترجع المدينة . وحمل محمد بن جعفر الى نيسابور فسجنه محمد بن عبدالله بن طاهر فمات في محبسه(٤٣) . الا ان الحسن بن زيد جرد حملة اخرى على رأسها احد قواده المسمى واجن ، فهاجم ابن ميكال الذي قتل في المعركة فصارت الري ثانية الى الحسن بن زيد .

وقد استطاع سليمان بن عبدالله ان يجمع جيشا كثيفا في جرجان ، وهاجم في سنة ٢٥١هـ طبرستان واضطر الحسن بن زيد على ان يتنحى عنها ويلحق بالديلم . فدخل سليمان الري واسترجع كذلك مدينتي سارية وآمل . وكتب الى ابن اخيه محمد بن طاهر بدخوله طبرستان وهزيمة الحسن بن زيد واسترجاع سارية وآمل ، فابلغ ابن طاهر الخليفة المستعين بالله بذلك ، فقرىء كتابه ببغداد(٤٤) . ولكن الحسن بن زيد ما لبث بعد مدة ان لم شمل

---

(٤٢) الطبري ٩/٢٧٥ .
(٤٣) مروج الذهب ٤/١٥٣ .
(٤٤) الطبري ٩/٣٠٧ .

اتباعه وهاجم مدينة الري مجدداً واستولى عليها في رمضان سنة ٢٥٦هـ ، فوجه اليه الخليفة المعتمد على الله كبير قواده موسى ابن بغا ، فخرج بجيشه في شوال وشيعه الخليفة بنفسه »(٤٥) ٠

الا ان الحسن بن زيد قصد في السنة التالية مدينة جرجان وكان محمد بن عبدالله قد جهز جيشا وبعث به لحمايتها ، فظفر الحسن بهذا الجيش وغنم ما كان معه من اموال ودواب واستولى على المدينة (٤٦) ٠ كما استطاع بعد ذلك بسنتين اي في سنة ٢٥٩هـ ان يتغلب على عامل مدينة قومس ويستولي عليها(٤٧) ٠ على انه واجه في السنة التالية خطر امارة بني الصفار التي اخذت بالتوسع في الأقاليم الشرقية للدولة العربية ٠ فقد هاجمه يعقوب بن الليث وهزمه ودخل طبرستان ٠ وكان سبب هجومه انه كان قد استرد سجستان من عامله عبدالله السجزي الذي كان خرج عليه ، فهرب ولحق بالحسن بن زيد في طبرستان ٠ فبعث يعقوب الى الحسن يطلب اليه ان يسلمه السجزي ، الا ان الحسن ابى تسليمه فاذنه ابن الليث بالحرب ٠ وعندما التقى جيشاهما انهزم الحسن بن زيد وفر الى ارض الديلم ودخل ابن الليث مدينة سارية ثم مدينة آمل ٠ وحاول ان يتعقب الحسن ، الا ان وعورة الطريق حالت دون ذلك ٠

واستفاد الحسن بن زيد في السنة التالية من غضب الخليفة المعتمد على الله على يعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد امر

---

(٤٥) الطبري ٤٧٤/٩ ، والكامل ٢٤٠/٧ ٠
(٤٦) الكامل ٢٤٨/٧ ٠
(٤٧) الطبري ٥٠٦/٩ ، والكامل ٢٦٦/٧ ٠

عبيدالله بن عبدالله بن طاهر بأن يجمع من ببغداد من حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه ان الخليفة لم يول ابن الليث ولاية خراسان ، وينكر عليه دخولها واسره اميرها محمد بن عبدالله بن طاهر ، ويأمرهم بالبراءة منه • فاغتنم الحسن الفرصة وهاجم طبرستان باتباعه من الديلم واستعادها ، وعاقب الذين ايدوا ابن الليث عليه (٤٨) •

وما لبث الحسن بن زيد بعد ذلك بضع سنوات حتى توفي في طبرستان في رجب سنه ٢٧٠هـ ، بعد ان استمر خروجه قرابة عشرين عاما ، وتولى مكانه اخوه محمد بن زيد (٤٩) • وكان الحسن زاهدا متواضعا ، عالما بالفقه والعربية ، جوادا • مدحه احد الشعراء ، فقال (٥٠) :

لاتقل بشرى ولكن بشريان   عزة الداعي ويوم المهرجان

فقال له الحسن : كان الواجب الا تفتتح الأبيات بلفظ (لا) لأن الشاعر المجيد يتخير لأول قصيدته ما يعجب السامع ويتبرك به ، ولو ابتدأت بالشطر الثاني لكان أحسن • فقال الشاعر : ليس في الدنيا كلمة اجل من قوله لا اله الا الله ، واولها (لا) ، فقال له : اصبت ، واجازه •

وحكي عنه ان مغنيا غنى امامه قصيدة الفضل بن العباس في عتبة بن ابي لهب التي اولها :

---

(٤٨) الطبري ٥١٢/٩ ، والكامل ٢٨٨/٧ •

(٤٩) الكامل ٣٠٧/٧ ، والطبري ٦٦٦/٩ وفيه انه مات في رجب او في شعبان •

(٥٠) الكامل ٤٠٨/٧ •

وانا الآخضر من يعرفني　　اخضر الجلدة من بيت العرب

فلما وصل الى قوله :

برسول الله وابني عمه　　وبعباس بن عبدالمطلب

غير الشطر الثاني من البيت وقال : لا بعباس بن عبدالمطلب . فغضب الحسن وقال له : يا ابن اللخناء تهجو ابن عمنا بين يدي ، وتحرف ما مدح به ؟ لئن فعلتها ثانية لأجعلنها آخر غنائك(٥١) .

ويظهر ان محمد بن زيد لم يكن كأخيه الحسن دراية وكفاية ، اذ هاجمه القائد التركي اذكوتكين في منتصف جمادى الاولى من سنة ٢٧٠هـ باربعة الاف فارس ، فلاقاه بمن معه من الديلم والطبرية والخراسانية ، واقتتلوا قتالا شديداً . ورغم كثافة جيش ابن زيد فقد هزم وتفرق اتباعه بعد ان قتل منهم ستة الاف واسر الفان ، وغنم جيش اذكوتكين من اثقالهم ودوابهم شيئا كثيرا ، ودخل بجيشه الري(٥٢) .

وفي سنة ٢٧٥هـ سار رافع بن هرثمة الى جرجان وازال عنها محمد بن زيد الذي فر الى استراباذ . فتعقبه جيش رافع وحاصره في المدينة نحو سنتين . وقد استطاع محمد ان يفر منها ليلا مع عدد يسير من اتباعه الى مدينة سارية ، فسير اليه رافع جيشا ، فأجبره على الالتجاء الى ارض الديلم (٥٣) .

---

(٥١) الكامل ٤٠٨/٧ .
(٥٢) نفس المصدر / ٤١٨ .
(٥٣) نفس المصدر / ٤٣٤ .

ولما نشبت الحرب بين عمرو بن الليث الصفار ورافع بن هرثمة ، حاول رافع ترضية محمد بن زيد طمعا بمساعدته على ابن الليث فبعث اليه وصالحه بأن اعاد اليه طبرستان وجرجان • الا ان محمدا لم يخف الى نجدة رافع عندما احاط به جيش الصفار واضطره على الهرب • فعرف الصفار لمحمد بن زيد موقفه وخلى عليه طبرستان (٥٤) •

وعندما قامت امارة بني سامان ودخلت في حرب طاحنة مع بني الصفار وبلغ محمد بن زيد ان اسماعيل بن احمد الساماني قد اسر عمرو بن الليث خرج في جيش كثيف نحو خراسان طامعا بالاستيلاء عليها ظناً منه ان اسماعيل الساماني قد انهكته الحرب مع بني الصفار ولا يطمع في الوصول اليها • فلما صار الى جرجان كتب اليه اسماعيل يسأله ان يتركها ويعود الى طبرستان ، فابى محمد ذلك • فوجه اسماعيل جيشا يقوده محمد بن هارون • ولما التقى الجيشان على ابواب جرجان اقتتلا قتالا شديدا فاصيب محمد بعدة طعنات ، واسر ابنه زيد ، واحتوى محمد بن هارون على ما في عسكره من اموال ومتاع • ولبث محمد بعد هذه الوقعة اياما قليلة ومات من اثر الطعنات التي اصابته في الحرب ، فدفن عند باب مدينة جرجان • اما ابنه زيد فقد حمل الى اسماعيل الساماني فاكرمه ووسع عليه وانزله بخارى ، وكان الجيش الساماني دخل طبرستان (٥٥) •

---

(٥٤) نفس المصدر / ٤٥٨ •
(٥٥) الطبري ١٠/٨١ ، والكامل ٧/٥٠٤ •

وبهذا انتهت الامارة التي اقامها الحسن بن زيد الطالبي ـ وقد سماها ابن خلدون « الدولة العلوية » (٥٦) ٠ الا انه في الواقع لم يؤسس دولة بالمعنى المعروف ، لأنه اقرب الى الثائر المتغلب منه الى الامير المستقر ٠ وقد مر بنا كيف انه كان يستولى على المدن ويتنحى عنها ٠ وقد تكرر ذلك عدة مرات ٠ وقضى حياته في كر وفر ٠ ومن الطبيعي ان مثل هذا الأضطراب لا يساعد على قيام دولة ٠ وقد انتهج محمد اخو الحسن نفس نهجه في الاستيلاء على المدن والتنحي عنها حتى قتل بعد ثماني عشرة سنة من توليه الأمر على ايدي السامانيين كما ذكرنا ٠

٥ ـ خروج اسماعيل بن يوسف الطالبي :

اشرنا الى ان من اسباب تذمر الطالبيين ووثوب بعضهم بين آن وآخر ما كانوا يلقونه من سوء المعاملة من رجال السلطة ٠ وهـذا طالبي يسكن المدينة المنورة ، خرج فيها في سنة ٢٥١ اثر خلاف بينه وبين الوالي فيها حول وقف كان له ، فتحامل عليـه الـوالي واغلظ له الكلام مما اثار غضبه ، فاعلن العصيان ٠ وجمع حوله لفيفاً من الاعراب المتعطشين للسلب والنهب ، وهاجم بهم ناحية الروحاء واستولى على اموال كانت تحمل الى المدينة من بعض الجهات ٠ ثم انصرف الى مكة وكان العامل عليها جعفر بن الفضـل ابن عيسى بن موسى بشاشات ، فقاومه وحاول منعه من دخولها ٠ الا ان اسماعيل استطاع باتباعه ان يهزم الوالي وحاميته ٠ وانتهب منزله

(٥٦) تاريخ ابن خلدون ٣/٦٠٤ ٠

ومنازل اصحابه(٥٧) . ولما حاول اهل مكة مساعدة الوالي وخرجوا لمقاتلة اسماعيل واتباعه ، وضع هؤلاء السيوف فيهم وقتلوا جماعة منهم فتهاربوا امامهم . فدخل اسماعيل واتباعه مكة واستولى على ما كان حمل من المال لاصلاح بئر زمزم ، واخذ كسوة الكعبة وما وجده في خزائنها من الذهب والفضة ، وبقي فيها خمسين يوما عاث فيها واتباعه قتلا ونهبا وحرقا ، واستولى على نحو من مائتي الف دينار .

ثم عاد اسماعيل باتباعه الى المدينة المنورة فهرب عاملها علي ابن الحسين بن اسماعيل لضعف حاميته ، فدخلوها ، ثم رجعوا الى مكة وحاصروا اهلها الذين لقوا منهم البلاء ، ومات كثير من اهلها جوعا وعطشا . ولما لم يجدوا فى مكة ما يشبع نهمهم من الاموال هاجموا جدة واستولوا على ما فيها من مؤونة واخذوا اموال التجار وما وجدوه من متاع في المراكب .

ولما وافي اسماعيل مكة للمرة الثالثة كان موسم الحج قد حل، فصار الى عرفة . فقابله جيش كان قد وجهه الخليفة المعتز بالله لقتاله عليه محمد بن احمد بن عيسى الملقب بكعب البقر ومعه عيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة . فقاتلهم اسماعيل وقتل ما يزيد على الف من الحجاج الواقفين بعرفة ، فهرب الباقون الى مكة دون ان يقفوا بعرفات ليلا ولا نهارا (٥٨) . وقد توفى

---

(٥٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٨ .

(٥٨) الطبري ٩/٣٤٦-٣٤٧ ، والكامل ٧/١٦٥-١٦٦ وفيهما كان خروجه بمكة اولا .

اسماعيل بن يوسف فى سنة ٢٥٢ هـ (٥٩) • فخلفه اخوه محمد بن يوسف وكان اسن منه بعشرين سنة فنال الناس بسببه جهدا شديدا، حتى تمكن منه القائد ابو الساج الاشروسني الذي بعث به المعتز بالله ، فهرب محمد بعد ان قتل اكثر اصحابه (٦٠) •

ان خروج اسماعيل بن يوسف واخيه من بعده لم يكن ثورة منظمة تستهدف الحكم القائم ، وانما هو مجرد عصيان وما يتبعه من سلب ونهب اموال الدولة والناس لمجرد الانتقام والكسب • ولذا فانهما لم يلقيا من الناس اي عطف او مساعدة ، بل انهم على العكس قاوموهما وساعدا السلطة ضدهما • ولا يعتبره ابو الفرج من الثوار العلويين وانما اعتبره عابثا مفسدا تبعه امثاله ، فعرضوا للحجاج وقطعوا الميرة عن بيت الله الحرام (٦١) •

٦ ـ خروج الحسين بن محمد العلوي :

لم يكن يقضي على فتنة يحيى بن عمر الطالبي الذي خرج مع من بايعه من الزيدية فى الكوفة ، حتى وثب طالبي آخر في نفس المدينة ، هو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، ويكنى ابا احمد (٦٢) • ويلاحظ ان المسعودي وابن الأثير يحذفان من سلسلة نسبه اسم

---

(٥٩) الطبري ٣٢٧/٩ ، الكامل ١٧٧/٧ •
(٦٠) مروج الذهب ١٧٦/٤ ـ ١٧٧ •
(٦١) مقاتل الطالبيين / ٦٦٩ •
(٦٢) هكذا ورد اسمه في الطبري ٣٢٨/٩ ، ومقاتل الطالبيين / ٦٦٥ ، والكامل ١٦٤/٧ ، ومروج الذهب ١٥٤/٤ •

«الحسين بن علي» المكرر • ونميل الى صحة ما جاء في الطبري ومقاتل الطالبيين لأن بقية الطالبيين الذين خرجوا في السنتين ٢٥٠هـ و ٢٥١هـ جاء نسبهم بثمانية اجيال كالحسن بن زيد ويحى ابن عمر • ويلقب ابو الفرج الحسين بن محمد العلوي بالحرون (٦٣) •

خرج الحسين العلوي في سنة ٢٥١هـ على عهد المستعين بالله بسواد الكوفة في اتباعه من الزيدية ومن بني اسد ، وهم بضع مئات • وكان عامل الكوفة احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ، فقتل العلوي بعض رجاله مما اضطره على الهرب منها فاستولى عليها اتباع العلوي • فأمر الخليفة وكان حينذاك في بغداد ، محمد بن عبدالله ان يبادر الى اخماد الفتنة الجديدة • فوجه ابن طاهر احد كبار القواد الاتراك الذين صحبوا الخليفة عند انتقاله الى بغداد ، وهو مزاحم بن خاقان ، في جيش كبير • فلما وصل الجيش مدينة الكوفة هرب منها الحسين لتخلي اصحابه عنه (٦٤) • لأنهم ادركوا ان لا قبل لهم بمواجهة جيش كثيف • الا ان ابن خاقان دخل المدينة فقابله اهاها بالحجارة فامر بضرب المدينة بالنار ، فأحرق فيما يقال الف دار وثمانية اسواق ، وقبض على جميع من وجده من العلويين في الكوفة واودعهم السجن • واخذ للحسين العلوي جوار وفيهن امرأة حرة ، فنادى عليها لبيعها بباب المسجد (٦٥) •

---

(٦٣) مقاتل الطالبيين / ٦٦٥ •
(٦٤) الطبري ٩/٣٢٩ ، ومروج الذهب ٤/١٠٤ •
(٦٥) الطبري ٩/٣٢٩ •

ويظهر ان الحسين العلوي كان قد ظهر بناحية نينوى واجتمع اليه جماعة من الأعراب ، فلقيه القائد هاشم بن ابي دلف وقتل جماعة من اصحابه ، فهرب الى الكوفة واعلن الخروج ثانية (٦٦) ٠ ويذكر ابو الفرج عن نهاية الحسين انه عندما قارب جيش ابن خاقان مدينة الكوفة هرب وخالف طريق الجيش وصار الى سامرا وبايع للمعتز بالله الذي كان قد بايعه القواد الاتراك فيها بعد التجاء الخليفة المستعين بالله الى بغداد ، الا انه ما لبث بعد مدة ان هم بالوثوب ثانية فقبض عليه وسجن ، وبقي سجينا حتى سنة ثمان وستين ومائتين فاطاق المعتمد على الله سراحه ، ولكنه خرج للمرة الثالثة بسواد الكوفة فقبض عليه وامر الخليفة **بحبسه في** مدينة واسط ٠ وانه لبث في الحبس الى ان مات في سنة **٢٧١هـ**(٦٧) ٠

٧ ـ ظهور الكوكبي الطالبي :

يشير كل من الطبري وابن الأثير الى ظهور احد العلويين المعروف بالكوكبي الطالبي في سنة ٢٥٣هـ بقزوين ٠ وقد التقى به وباتباعه جيش القائد موسى بن بغا فهزمه بخدعة حربية ، فهرب على أثرها الكوكبي ولحق بالديلم ٠ وكان سبب الهزيمة ان اصحاب الكوكبي لما التقوا بجيش موسى جعلوا تروسهم في وجوههم يتقون بها السهام ، ولما رأى موسى ان سهام اصحابه لا تصيب منهم مقتلا امر بما معه من النفط ان يصب في ساحة المعركة ٠ ثم امر اصحابه بالاستطراد لاتباع الكوكبي ففعلو ذلك ٠

---

(٦٦) الطبري ٩/٣٢٩ ، والكامل ٧/١٦٧ ٠

(٦٧) مقاتل الطالبيين / ٦٦٥ ٠

فظن الكوكبي ان اصحاب موسى قد انهزموا فامر اتباعه فتبعوهم فلما توسطوا النفط امر موسى بالنار فالقيت فيه ، فالتهب النفط من تحت اقدام اصحاب الكوكبي وجعل يحرقهم ، فانهزموا ، فدخل جيش موسى قزوين (٦٨) .

ويلاحظ ان كلا من الطبري وابن الأثير لم يذكر اسم الكوكبي الطالبي ونسبه حسب العادة ، بل اكتفى بلقبه فقط . الا ان ابن الأثير سبق ان اشار في حوادث سنة ٢٥١ هـ الى ظهور احد الطالبيين بناحية قزوين واسمه الحسين بن احمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، المعروف بالكركي ، وطرد عمال بن طاهر منها (٦٩) . كما ان المسعودي يذكر انه ظهر في السنة المشار اليها آنفاً بقزوين «الكركي» الحسين بن احمد بن اسماعيل .. وهو من ولد الأرقط ، فحاربه موسى بن بغا ، وصار الكركي الى الديلم (٧٠) . ولعدم اشارة الطبري الى ظهور من سماه المسعودي وابن الأثير بالكركي ، يمكن القول انه هو الذي خرج في سنة ٢٥٣ هـ باسم الكوكبي العلوي ، فقاتله موسى بن بغا وهزمه ، كما اشرنا . وان احد اللقبين تصحيف للآخر ، فقد يكون لقبه الصحيح الكوكبي فصحف الى الكركي ، او بالعكس ، وذلك ما جعل ابن اثير يعتبرهما شخصين . ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ان اليعقوبي يسميه الكوكبي الارقط (٧١) .

---

(٦٨) الطبري ٣٧٨/٩ ، والكامل ١٨٤/٧ .
(٦٩) الكامل ١٦٥/٧ .
(٧٠) مروج الذهب ١٥٤/٤ . واسمه فيه الحسن بن احمد .
(٧١) تاريخ اليعقوبى ٥٠١/٢ .

٨ ـ خروج علي بن زيد العلوي :

يظهر مما جاء في الطبري ومروج الذهب والكامل ان علي ابن زيد الحسني حاول في اواخر خلافة المعتز بالله الخروج بمعاونة طالبي آخر هو عيسى بن جعفر العلوي فخرجا في سنة سنة ٢٥٥ هـ وقتلا عاملها عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى فوجه الخليفة اليهما القائد سعيد بن صالح المعروف بسعيد الحاجب في جيش كبير ، فانهزم العلويان لتفرق اصحابهما عنهما (٧٢) • وبعد فشلهما انفرد علي بن زيد بالخروج في السنة التالية ، في اواخر خلافة المهتدى بالله • فظهر في الكوفة ايضا واستطاع ان يطرد واليها عنها وان يستولي عليها • فتوجه اليه القائد الشاه بن ميكال على رأس جيش كثيف ، الا ان علي بن زيد استطاع ان يهزمه ويقتل كثيراً من افراده (٧٣) • مما قوى مركزه في الكوفة وما حولها •

وعندما تولى المعتمد على الله الخلافة ارسل القائد كنجور التركي الى محاربة العلوي وامره ان يدعوه الى الطاعة ويبذل له الأمان قبل مبادرته بالقتال • فسار اليه كنجور ونزل في موضع يقرب من الكوفة يسمى شاهي ، وارسل الى علي بن زيد يبذل له الأمان اذا ما استسلم واعلن طاعته • فاشترط علي شروطا لم يقبلها كنجور • ولما رأى علي بن زيد كثافة الجيش الذي جاء لمحاربته ، تنحى عن الكوفة الى القادسية فعسكر فيها باصحابه ومناصريه ، فدخل كنجور مدينة الكوفة •

---

(٧٢) الطبرى ٣٨٨/٩ ، ومروج الذهب ١٨٠/٤ ، والكامل ٢١٦/٧ •
(٧٣) الطبرى ٤٧٤/٩ ، والكامل ٢٣٩/٧ •

اوغل علي بن زيد في البادية ودخل اراضي بني اسد وكان قد صاهرهم ، فارسل كنجور خلفه جيشا يتعقبه ، فتوارى علي عن الانظار ، وبذلك انتهت فتنته • ويقول ابو الفرج ان اتباع علي بن زيد كانوا قليلي العدد ، فلما هاجمه جيش كنجور ، قال لأتباعه « ان القوم لا يريدون غيري ، فاذهبوا انتم في حل من بيعتي » (٧٤) • فرفض اتباعه التخلي عنه رغم جزعهم وخوفهم من الجيش الكبير المحيط بهم ، فحاول علي ان يثير حماسهم فانتضى سيفه وحمل على الجيش ، فتشجع اتباعه وحملوا معه فهزموا جيش منكجور • ولكن رغم انتصار علي فقد تخاذل اصحابه من الكوفة وخذلوه خوفا لما لحقهم من الاذى ، وما اصاب مدينتهم من الحرق والتدمير عندما ايدوا يحيى بن عمر ، فاضطر علي على الهرب والاختفاء •

٩ ـ وثوب محمد وعلي ابني الحسين بن جعفر :

دخل الأخوان محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المدينة المنورة في سنة ٢٧١ هـ ، فقتلا جماعة من اهلها ، واخذ اموال الناس • فذعر اهل المدينة طيلة مقام الأخوين فيها ، ولم يصلوا في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم اربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة (٧٥) • ولا تعرف

---

(٧٤) مقاتل الطالبيين / ٦٧٥ •

(٧٥ و ٧٦) الطبري ٧/١٠ ، والكامل ٤١٣/٧ وفيه اسم الشاعر الفضل بن العباس العلوي ، وفى البيت الثالث (امسى) بدلا من (اضحى) ولا ذكر للبيت الأخير •

اسباب وثوبهما الا ان يكون ذلك عبثاً وفساداً منهما ، لأن احد شعراء العلويين وهو ابو العباس بن الفضل ، قد تألم من اعمالهما وشتمهما بقوله (٧٦) ٠

أخربت دار هجرة المصطفى البـــ
ـــر فابكـــى اخرابهـــا المسلمينا

عين فابكى مقام جبـــريل والقبـــ
ـــر فبكـــى والمنبـــر الميمونـــا

وعلى المسجد الذي أســـه التقـــ
ـــوى خلاء اضحى من العابدينـــا

وعلى طيبـــة التـــي بـــارك اللـــ
ـــه عليهـــا بخـــاتم المرســـلينا

قبـــح الله معشـــراً أخربوهـــا
واطاعـــوا متبـــراً ملعـــونا

١٠ ـ اسباب فشل خروج العلويين :

اذا ما القينا نظرة فاحصة على ما ذكرناه من الوثبات العلوية ودققنا في اسباب كل منها ونتائجها ، لرأيناها قد فشلت كلهـــا تقريبا من تحقيق هدف العلويين الأساسي وهو ازاحة بني العباس عن الحكم والقيام مقامهم فيه ٠ وهناك عوامل عـــديـــدة ادت الى فشلها يمكن تلخيصها بما يأتي :

آ ـ التسرع باعلان الخروج قبل ان تستكمل اسباب نجاحه ، من حيث تهيئة العدد الكافي من المؤيدين ، وتجهيزهم بالسلاح الكافي ، وضمان تأييد الناس لها ٠

ب ـ لم تكن اسباب الفتن التي قامت من العمق والسعة بما يمس مصالح الناس بحيث يهبون لنصرتها وتأييدها عند قيامها ٠ فقد كان اكثر اتباع العلويين الخارجين اما من الأعراب المتعطشين للغزو والسلب والنهب ولا يستهدفون من تأييدهم الا ما يكسبون من الاسلاب ، او من الانتهازيين الذين يتوخون مكاسب آنية ٠ وقد كانت اغلب الفتن التي استعرضناها قد قامت لأسباب شخصية تتعلق بالعلوي الخارج ، مما كان يجعلها اقرب الى العصيان والتمرد ٠

جـ ـ عدم تنظيم الدعوة العلوية ، وتوحيد اجنحتها المختلفة ٠ فان العلويين انفسهم كانوا شيعاً متعددة ٠ مما جعل اكثر تلك الوثبات مبتسراً لم تسبقه دعوة لمبادىء واهداف واضحة ، او ترتبط بشخص معين مهيأ لذلك بحيث تستحق التضحية في سبيل انجاحها ٠

د ـ ان معظم القادة العلويين الذين اعلنوا عصيانهم كانت تنقصهم الخبرة العسكرية بحيث انهم لم يستطيعوا المناورة او الصمود امام الجيوش التي كانت توجه لحربهم واخضاعهم ، الا نادرا ٠ فللحرب اساليبها وفنونها ، ولابد من معرفتها والاحاطة بها لتحقيق النصر في اية معركة حربية ٠

هـ ـ قرب مواقع الفتن من حاضرة الخلافة ٠ اذ اعلن اغلبها في مدينة الكوفة او في اماكن قريبة من مراكز جيوش الدولة

العربية . لان قيام الفتنة في اماكن لا تبعد كثيرا عن حاضرة الخلافة لا تتيح لها فرصة كافية لأن تتوسع وتستفحل ، لأنه سرعان ما تصل انباؤها واخبارها الى المسؤولين ، سواء من رجال البريد او من العيون المبثوثة لرقابة العلويين اينما كانوا . كما كان هذا القرب يساعد ايضا على سرعة وصول الجيوش التي ترسل لقمع الفتن واخضاع القائمين بها .

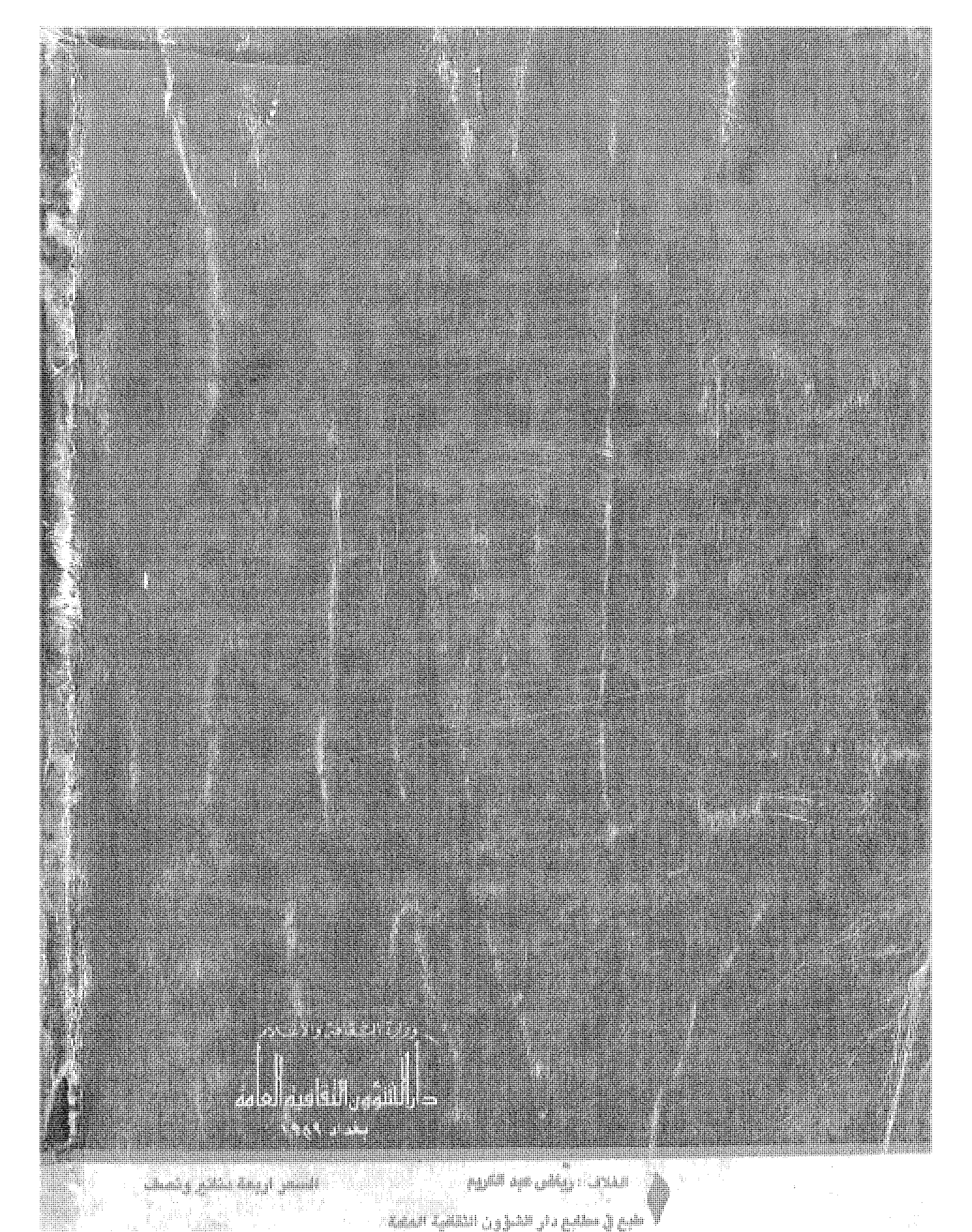
وقد رأينا كيف ان فتنة الحسن بن زيد الطالبي اتسعت واستمرت مدة طويلة بسبب بعدها عن حاضرة الخلافة وقيامها في منطقة نائية .



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١١٢٠ لسنة ١٩٨٩

طبع دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد

الطبعــة الاولى ١٩٨٩


وزارة الثقافة والإعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٩
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة